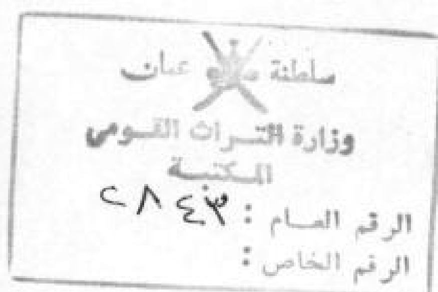
سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة



البلاد السعيدة

تأليف

برترام توماس



ترجمة

محمد أمين عبد الله

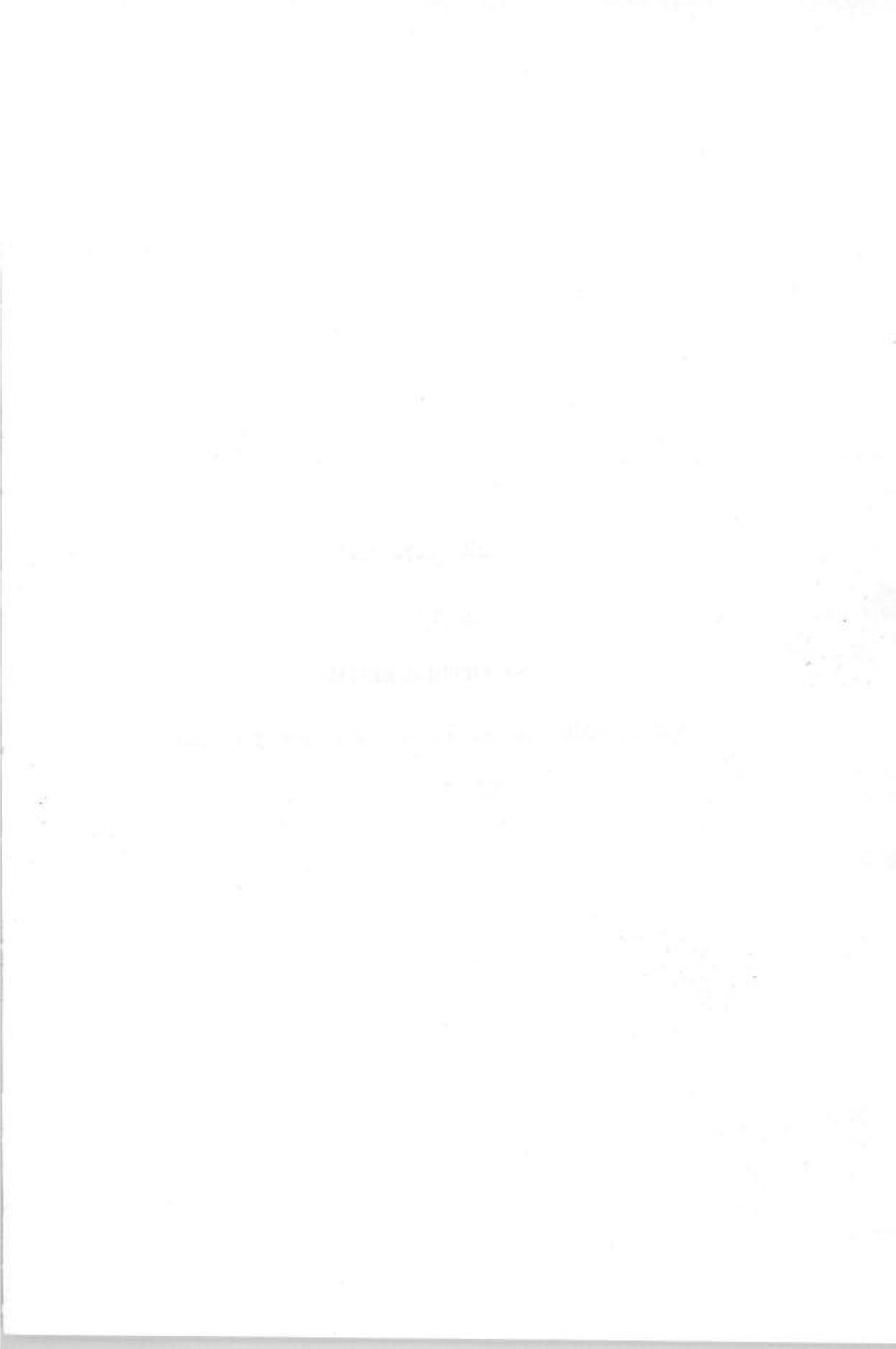
١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م

أعدَّ ملاحق الكتاب

السير أرثر كيث

Sir ARTHER KEITH

دكتوراه فى الطب وعضو جمعية الجراحين الملكية بانجلترا



مقدمة المؤلف

يطلق بعض علماء الجغرافيا على الجزيرة العربية تعبيرا هو « البلاد السعيدة » ولعله من المفارقات أن يطلق هذا التعبير على منطقة من الأرض تكثر بها الصحراء المقفرة التى يتصارع انسانها منذ فجر التاريخ ضد عوامل الطبيعة .

على أن الكثيرين من العلماء يجعلون هذا التعبير (البلاد السعيدة) خاصا بالمنطقة التى تطل على المحيط الهندى ، وهو بهذا المعنى تعبير دقيق ، فان هذه المنطقة تختلف اختلافا بينا عن بقية البلاد وذلك بحكم طبيعتها ذات الجمال النادر والشهرة التاريخية . واذا كانت هناك منطقة فى شبه الجزيرة العربية تصدق عليها هذه التسمية ــ اذا استثنينا اليمن بأمجادها التاريخية ــ فهى بحق المنطقة التى تسمى « ظفار » والتى تشكل فى مجموعها خميلة من الغابات الخضراء التى تفترش المرتفعات الجبلية المطلة على البحر ، والجداول الرقراقة ، والحقول السندسية ، والسهول التى ترصع أديمها الأشجار والنباتات والأعشاب .

فى هذه البلاد ــ كما جاء فى سفر التكوين ــ حدّد الرب حدود العالم ذاكرا أنها تبدأ شرقا من جبل سفار (أى ظفار) . والى هذه البلاد جاء المصريون القدماء بحثا عن اللبان ليستعملوه فى تحنيط فراعنتهم ، وربما كانت أعمدة النبى سليمان ، مدفونة فى مكان ما بهذه المنطقة ، هذا اذا لم تكن ظفار هى نفس الجنة التى ورد ذكرها فى التوراة والسوق التقليدية لتجارة العاج وريش الطاووس قديما .

ولقد حاولت فى الصفحات التالية من الكتاب ، أن أتسع وصفا شاملا للرحلة الأخيرة التى قمت بها الى صحراء الربع الخالى ، على ظهور الجمال ، وأن أضمنه الدراسات والبحوث التى أعددتها عن ظفار ، والتى تمثل فى نظرى فصل الخطاب فى هذه الرحلة الى منطقة اعتبرها المنطقـــة السعيدة الوحيدة فى عصرنا الراهن •

الربع الخالي منطقة بكر ـــ الصحراء الجنوبية الكبرى :

ان الجهد الذى بذلته فى سبيل الجزيرة العربية ، لا يقل أهمية عن النجاح الذى حققته فى تجربتى هذه ، التى بدأت منذ ست سنوات عندما غادرت مقر عملى فى الأردن ، متوجها الى بلاط سلطان عمان ، تملأ رأسى أحلام كثيره • فلقد استطاع الانســـان أن يكتشـــف المناطق النائية للكرة الأرضية ، بقطبيها الشمالى والجنوبى ، كما استطاع أن يكتشف منابع نهر الأمازون ومجاهل وأصقاع قارتى افريقيا وآسيا ، غير أن الربع الخـــالى ، ظل البقعة المجهولة الوحيدة لاسيما وأن الجزيرة العربية كانت مهد حضارة عريقة ، تلامس حدودها حضارتين قديمتين هما حضارة مصر وحضـــارة بابـــل •

ومع ذلك فقد بقيت جزيرة العرب الأرض المحرمة على المسيحيين • ولم يقدر لأكثر من عشرين مكتشفا أوروبيا أن ينفذوا الى بعض المنـــاطق غير المأهولة • وان ثمة سببين رئيسيين لهذا الأمر :

السبب الأول : هو قلة هطول الأمطار فيها ، وقسوة الحرارة ، الأمر الذى لا يسمح الا بوجود بعض جماعات من البدو الرحل ، الذين تجتاحهم حروب دائمة تحرمهم من الاحساس بالأمن والاستقرار •

الســـبب الثانى : هـــو ان هـــؤلاء الســـكان متعصبون لعقيدتهم الدينية •

أما الأوروبيون فلم تتح لهم الفرصة للتغلغل فى شبه الجزيرة العربية الا نادراً وبشكل فردى ، وربما كان ذلك مرة واحدة فى كل تاريخها • وقد حدث ذلك فى عصر الدولة الرومانية ، عنـــدما كانت جزيرة العرب ضـــالة الغزاة الأوروبيين المنشودة ، وفيما عدا ذلك فقد تركت هذه المنطقة معزولة عن العالم ، تمزق أهلها عوامل التعصب والانغلاق التى هى من التقـــاليد المتوارثة • ومن هنا فان هذه المنطقة التى تعادل مساحتها نصف القـــارة الأوروبية ظلت غير مدرجة فى خرائطنا •

ومن الذين استهوتهم جزيرة العرب « ريتشـــارد بيرتون » ، الذى عرض خدماته على الجمعية الجغرافية الملكية فى ســـنة ١٨٥٢ من أجـــل ما أسماه بـــ « عملية محو هذا العار » من تاريخ المغامرة الحديثة ، ولكن هذا الأمل ذهب ضحية العراقيل الرسمية ، ولذلك تعذر عليه وضع خطته تلك موضع التنفيذ • أما أنا فقد استمتعت بهذا النجاح • ذلك أنى عملت ثلاثة عشر عاما قضيتها فى السلك السياسى بعد الحرب العالمية الأولى فى ثلاث جهات من الجزيرة العربية وقد مكننى هذا من اتقـــان اللهجـــات القبلية والعادات العربية والتأقلم معها • وقد كرست لنفسى سنوات كثيرة لمهمتين ، هما ، كيف أضمن وسيلة للوصول الى أغوار المنطقة ، ثم كيف يمكننى أن أكسب صداقة القبائل هناك •

وقد بدأت صلتى بالناس فى المنطقة الجنوبية الشرقية من الجـــزيرة العربية ، بعد أن عينت مستشارا فى مجلس وزراء عمان وذلك بالنظر الى العلاقات الودية القائمة بينى وبين سلطان البلاد وقد أتاح لى هذا الوضع أن أعقد صلات كثيرة وعلاقات وثيقة مع الشخصيات العربية ذات النفوذ فى تلك المنطقة • وقد أسفر هذا عن موقف يتسم بالتسامح والود تجـــاهى كرجل انجليزى ومسيحى فى نفس الوقت ، ولولا ذلك لكان من المستحيل علىَّ أن أضع قدمى على تلك البقاع • ومن جهة أخرى فقد كنت أفهم عقلية السلطة البريطانية ، ولهذا لم أطلب من المسئولين البريطانيين التصريح لى

بما كنت أزمع القيام به ، .. ألم تكن قضية ريتشارد بيرتون درسا لى ... والواقع أننى كنت فى قرارة نفسى — أقر السلطة البريطانية على موقفها من مثل هذه المشروعات بسبب ما تلاقيه هذه الرحلات الاستكشافية من متاعب فى الصحراء العربية ، ولهذا فان الذكى من الناس يتجنب دائما مثل هـــذه المهام والالتزامات لمـــا تنطوى عليه من مسئولية .

وعلى هذا الأساس فقد كنت أعد خططى فى الخفاء ، حتى لا يُعرف من أمرى شىء الا بعد البدء فى الرحلة . وقد كنت أتحمل بنفسى نفقات هـــذه الرحلات ، كما كنت المسئول الوحيد عن تنفيذها .

وعلى امتداد خدمتى فى مسقط ، اعتدت أن أقضى فصول الصيف هناك مستغلا اجازاتى (وهى التى كان المفروض أن أقضيها فى الهنـــد هربا من الحر فى مسقط) . لأن عمليات البحث والاستكشاف فى أنحاء الجـــزيرة العربية لا يمكن أن تتم الا فى فصل الشتاء ، وهو الفصـــل الذى يمكن أن يتحمل الانسان فيه حرارة القيظ . وهكذا فى خـــلال الإجازة بدأت أبحث وأضع خريطة للربع الخالى منطقة اثر منطقة .

وفى شتاء ١٩٢٧ — ١٩٢٨ — قمت برحلة على ظهور الجمـــال مداها ٦٠٠ ميل ، عبر الحدود الجنوبية المطلة على المحيط الهندى الى ظفار .

وفى عام ١٩٢٩ — ١٩٣٠ — قمت باجتياز المنحـــدرات الواقعـــة الى الشمال فى ظفار حتى أطراف منطقة الرمال على امتداد ٢٠٠ ميل من تلك المنطقـــة .

وفى كل المناسبات كنت أرتدى الزى البدوى ، كما كنت أتحدث باللهجة

المحلية الدارجة كذلك كنت أعيش كما يعيش أهل هذه المنطقة ، وامتنعت عن شرب الكحول والتدخين ، فى محاولة للتظاهر بالالتزام بعادات أهل المنطقة ، الأمر الذى كان يسهل من مهمتى فى اجتياز منطقـــة الصحراء الكبرى من البحر الى البحر •

ولقد أثبتت لى هذه الرحلات خطأ الاعتقاد بأن أفضل الطرق لاكتشاف شبه الجزيرة العربية انما تكون عن طريق العربات والطائرات •

ومنذ ثلاث سنوات ، وضع أحد الأثرياء الأمريكان خطـــة مشـــابهة لخطتى وكان ينوى تحقيقها باستئجار طائرة خاصة فاتصل بى مقترحا أن يشركنى فى هذه البعثة • ولهذا لم أشعر بالندم عندما فشلت فكرته ، وقـــد تكون هذه التجربة مفيدة بالنسبة للزمان والمكان ، الا أنه لا يمكن تحقيق أى نتائج علمية حقيقية من ورائها • ولقد كانت المشاكل التى تبحث عن حل بالنسبة لهذه المهمة هى اكتشاف التراكيب ومنحدرات جنـــوب الجـــزيرة العربية ، ومواقع المياة والتركيبات الجيولوجية وتحديد المناطق الخالية على سطح الخريطة الى جانب الحيوانات وعادات السكان اللغوية وســـلوكهم وتقاليدهم وطريقة حياتهم •

إن مثل هذه الأهداف لم تكن بأى حال من الأحوال تتحقق عن طريق المسح الجوى ، لأن هذا العمل لم يكن ليضيف أى اسم جديد على الخريطة ، أو حقيقة تتصل بالأصول الجنسية والحيوانية فضـــلا عن قلة المعلومات الجغرافية التى يمكن الحصول عليها بهذه الطريقة •

كما أن ادخال الآلة الى تلك المنطقة التى تتميز بالهدوء والسكينة كان يبدو أمراً غير مستساغ لأنه قد يشوه جمال الصحراء ، على أن الأحاسيس

التى تنشأ من خلال العمليات البطيئة لمثل هذه الرحلة ، وكيفية التعامل مع رفاق الرحلة عبر شهور طويلة ، رغم ما هم عليه من الطباع الصحراوية ، الى جانب ما كانوا يتصفون به من خصال الشجاعة والرجولة ، فان كل هذه الأشياء بما فيها المسيرات الطويلة ومنظر القافلة ، وحدة تجمعت لتشارك فى رسم تلك الصورة الساحرة للجزيرة العربية ــ كما سنرى •

BERTRAM THOMAS

الفصل الأول

بداية تبشر بالخير ومراجعة مبكرة للرحلة

كان الوقت منتصف ليل ٤/٥ أكتوبر سنة ١٩١٠ • وكان ميناء مسقط الغربى الصغير يستلقى فى هدوء تحت جنح الظلام • وخلال هـذا الهدوء كان السيد سعيد بن تيمور ولى عهد الأسرة الحاكمة الشخص الوحيد الذى كان يعلم بوصولى الى مسقط فى تلك الليلة وبالحركة التى كانت تجرى على الشاطىء • وما ان وصلت حتى تقدم قارب صغير ومنه نزل خادمى محمد يحمل معه الصندوق الغامض وبندقية وسروجاً للجمال •

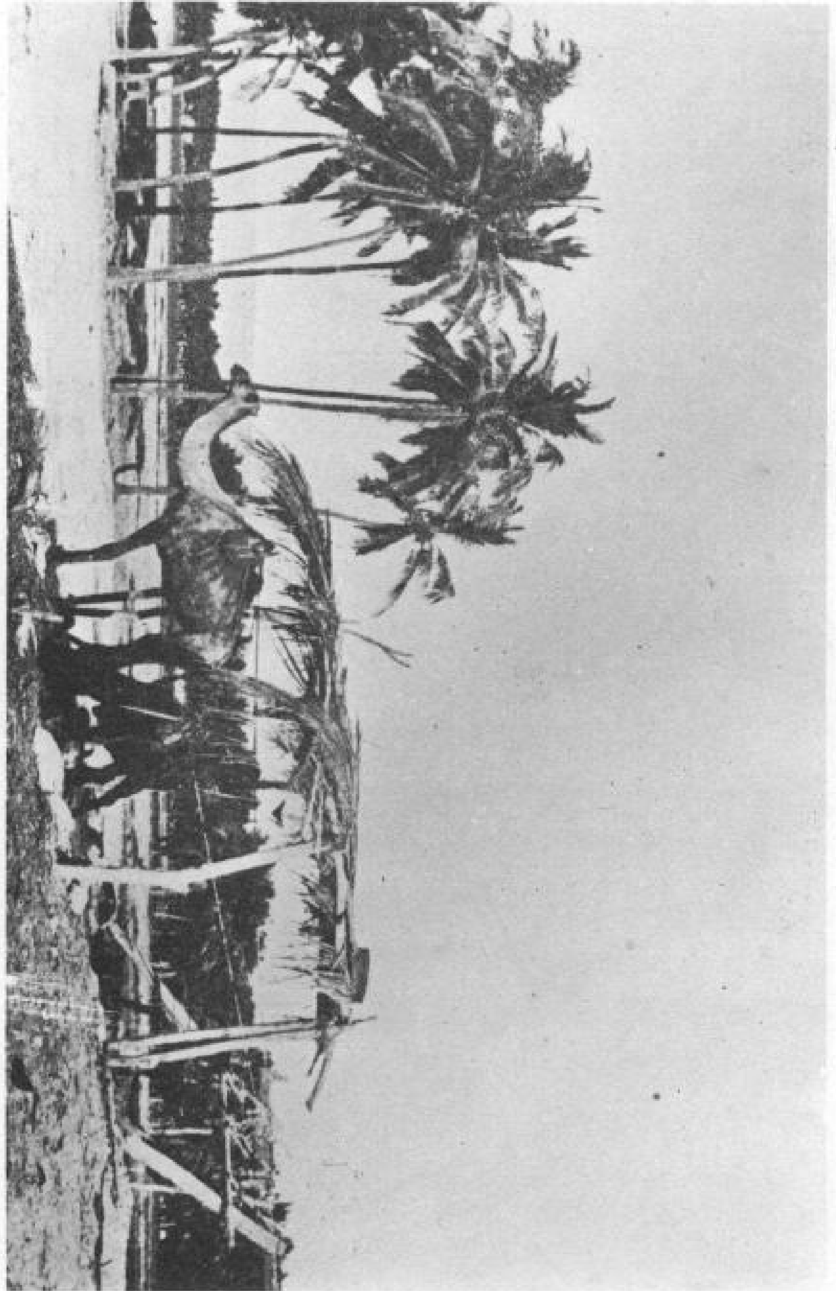
ولقد كان وصولى الى مسقط فى تلك الليلة تمهيدا لتحقيق الحلم الذى طالما راودنى وهو الكشف عن أسرار الصحراء الجنوبية للربع الخالى •

وغدا فان أخبار اختفائى سوف تكون مفاجأة للبعض من الذين يحلو لهم أن ينسجوا الاشاعات حولى ، وكانت البارجة البريطانية « سيكلامين » راسية داخل المرفأ ، وكنت أسير على الافريز لاحضار ورقة جلب الحظ التى تركها لى عند الحارس قبطان البارجة ، الذى كنت قبل برهة احتسى معه أكواب الشاى • بعد ذلك تحرك القارب الذى جاء لنقلى الى عرض البحر ، وعندما كان القارب يبحر بنا فى ضوء القمر اكتشفت أن الورقة التى تركها لى قائد البارجة هى قصيدة « والتر دى لامير » التى يتغنى فيها بجزيرة العرب • وفى نفس الوقت أخذت أقرأ البرقية التى كانت قد وصلت الى ، وتتضمن إشعارا بوصول الباخرة البريطانية « جرانديير » الى مسقط فى الساعة السادسة من صباح يوم الأحد ، وأنها سترسو على بعد ثلاثة أميال من الشـــاطىء •

كانت ناقلة النفط حمولة عشرة آلاف طن تتهادى وهى قادمة الينا وكان الاتفاق أن نقوم بارشاد الباخرة عن المكان الذى نوجد فيه بأن نرفع علما • وما ان اقتربت الباخرة التى كانت فى رحلة العــودة الى انجلترا ، حتى صعدتُ اليها ، وما هى الا لحظات حتى أقلعت بنا بعد أن اطلقت أربع صفارات ايذانا بابحارها •

كانت الخطة الموضوعة هى أن أنزل فى ظفار ، التى تقع فى منتصف الطريق على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية ــ اذا كانت الأحوال الجوية تسمح بذلك • أما اذا تعذر ذلك بسبب الرياح الموسمية التى كانت تهب فى ذلك الوقت فلابد من الانتقال الى أول سفينة شراعية نلتقى بها فى المنطقة ، وفى اليوم التالى اضطرتنا رداءة الأحوال الجوية الى تخفيف سرعة السفينة بحيث أصبح احتمال وصولنا الى صلالة ضعيفا أثناء النهار ، أما البقاء فى مكاننا طوال الليل فلم يكن رأيا سديدا ، ولهذا بادرنا الى الانتقال الى أول سفينة شراعية التقينا بها •

ولقد استجابت السفينة لأول اشارة منا • فبعثت بأحد قواربها الينا وارتديت أنا وخادمى الزى العربى ونزلنا الى القارب فور وصوله • أما الباخرة « جرانديير » فقد استدارت مستأذنة بالاقلاع بعد أن تمنت لنا حظا سعيدا • وقد أخذت السفينة الشراعية تسير بنا فى المناطق القريبة من الشاطىء وقد طلبت من ربان السفينة الشراعية « فتح السلام » وكان هذا اسمها بأن يأذن لنا بالنزول الى الشاطىء فلم يوافق وعلل اعتراضه بأن المنطقة التي كنا فيها مليئة بالصخور والنتوءات ، الأمر الذى قد يؤدى الى ارتطام السفينة بها • وحتى ولو كانت السفينة من سفن الصيد أو غيرها من السفن البريطانية • فانها قد تنقلب أو تجنح اذا حاولت الابحار فى هذه الميــاه • وذلك على عكس قوارب الصيد المحلية التى تسمى « البانوش » • فهذا النوع من القوارب يمكنه السير فى هذه المياه بسهولة دون أن يرتطم



(نخيل جوز الهند فى ظفار)

أو يجنح وفى مختلف الأحوال الجوية ، ودرجة حرارة مياه البحر التى قد تصل الى حد الغليان فى بعض الأوقات .

وتوفيراً للوقت فقد اقترحت على ربان السفينة بعد أخذ ورد ، بأن يتجه بنا الى ريسوت ، وهو مرفأ آمن يقع على الساحل ولكن السفينة ظلت ساكنة فى مكانها بلا حراك ومع ذلك كنا نرى الحصن والجامع من خلال أوراق أشجار جوز الهند ، التى كنا نلمح من ورائها سلاسل جبال القـــرا وكنا نشاهد هذه المناظر والسفينة فى مكانها لا تتحرك على الاطلاق . وفجأة ظهر فوق سطح الماء حوت كبير مخيف أثار الدهشة ، وكان فى حجم الغواصة عندما استقر فوق سطح المـــاء الى جانب السفينة . ربما أراد أن يثبت لنا بأنه ليس أصغر حجما من السفينة ، ولكنه كان ودودا للغاية فأخذ يغوص فى المـــاء محدثا صوتا مزعجا فوق سطح المـــاء ثم غاص واختفى مخلفا وراءه غلالة هائلة من الفقاعات .

وقد أثار ظهور الحوت الرعب بين بحارة السفينة الذين أخذوا يضربون بقبضات أيديهم على صفائح الزيت لتخويف الحوت . بعد قليل عادت الريح تهب وبذلك تمكننا من النزول فى ريسوت[1] عند الظهر . وبمجرد نزولنا ركبنا الجمال . وأخذنا نسير بمحاذاة الشاطىء فمررنا بقرية صغيرة تقع على السهل تسمى « عوقد » ، ومنها أخذنا نسير بجانب صفوف من أشجار جوز الهند الى أن وصلنا ظفار عند الغروب فى الثامن من أكتوبر .

---

(١) كان البرتغاليون الذين وفدوا الى آسيا فى القرن السادس عشر من أشرس الغزاة الأوروبيين وقد رأوا أن يخلدوا أعمالهم بانشاء عدد من التحصينات والمدرجات فى مدينة « ريسوت » . ولاتزال هذه الآثار باقية شاهدا على تاريخها . وتعتبر « ريسوت » آنذاك المحطة البحرية للطائرات فى هذا الجزء من جنوب الجزيرة العربية الذى يمتد مئات الأميال .

وقد حاولنا الراحة والنوم بعد يوم وليلة قضيناهما بلا نوم • بيد أنه لم يكن نوما مريحـــا فقد كان البعوض يطن من حولنا أفواجا بينما كانت الزنابير تبنى لها مخابىء فى السقوف • وكان هناك نوع آخر من الحشرات التى لا يمكن رؤيتها ولكنها كانت تهاجمنى طوال الليل وتمتص دمى •

كانت أخبار وصولنا قد ترامت الى السلطان فى صلالة • وكان المفروض ألا يعرف انسان عن خططى لأن السرية كانت أمرا حتميا بالنسبة لمشروع الرحلة لأن ذيوع الأمر قد يوقعنى فى مأزق وقد يثير العداء ضدى ، ان أخبار الأحداث فى شبه الجزيرة تنتقل بين الناس بسرعة البرق ، كما كنت أخشى أن تستغل الصحافة البريطانية خبر وصولى فتتناوله بالتعليق •

أين سهيل الراشدى ؟ •• لقد سألت عن هذا الشخص فور وصولى ، ولمـــا كنت أعرف أن الوعود لها قدسيتها عند البدو ، فقد كنت أعلق آمالا كبارا على سهيل الذى رافقنى فى رحلة العام الماضى • وقد كان هناك اتفاق سرى فيما بيننا على أن نتقابل فى مدينة صلالة فى منتصف شهر ربيع الأول الحـــــالى •

وكان من بين الأمور التى اتفقنا عليها أن يجهز لى سهيل قافلة من الجمال لتحملنى الى منطقة الرمال الكبرى بالربع الخالى • وقد أقسم أمامى أن شيئا لن يمنعه من البر بوعده غير الموت ولكنى عرفت أنه قد اختفى ولم يعد له وجود ، ولعله رحل الى ديار قبيلته مع الخنجر الذى أهديته له علاوة على مائتى ريال وهى تعتبر ثروة هائلة بمقاييس المنطقة •

ولمـــا كانت قبيلة الرواشد التى يتبعها سهيل هى أهم قبيلة فى منطقة الرمال الجنوبية فاننى لم أكن لأستطيع اجتياز الربع الخالى بنجاح دون مســاعدتها •

كانت الأخبار التى ترد الينا من الربع الخالى تدعو الى التشاؤم ، فقد كانت قبيلتا الرواشد والصيعر مشتبكتين فى حرب قبلية • فالقبيلة الأولى هى التى أعلق الآمال على صداقتها أما الثانية فقد كانت العـدو التقليدى لقبيلة الرواشد بمنطقة حضرموت الشمالية • وبالتالى فان أقرب المناطق الداخلية الينا أصبحت بؤرة للخطر أو ما هو أدهى من ذلك • ومن هذا تبين لى أن سهيلا الذى كنت أعلق عليه الآمال فى هذه الرحلة قد لا يستطيع اختراق الحصار المضروب على المنطقة لكى يصل الىّ مع مجموعته •

فقبيلة سهيل اما أن تكون الآن مشتبكة فى قتال أو أنها انسحبت الى أعماق الصحراء طلبا للنجاة • وهكذا بدا الموقف غاية فى الخطورة وأصبح الطريق الى الصحراء مسدودا فى وجهى •

وبذلك سدت الطرق أمامى ولكنى علمت أن اثنين من قبيلة الرواشد هما « معيوف » و « خويتم » قد وصلا الى ظفار ، بمناسبة حلول موسم اللبان ، فأرسلت أطلب حضورهما الىّ • فقد تصورت أنه على الرغم من أنهما قد فقدا الاتصال بقبيلتهما غير أنه من المحتمل أن تكون لديهما بعض الأخبار والمعلومات عن الوضع بالصحراء •

وعلى أية حال فقد كان من الصعوبة أن يكسب الانسان ثقة العربى دون أن يبادله هذه الثقة من جانبه • ولكن لم أكن لأستطيع أن أكشف عن خطتى ولهذا فقد قضينا أياما عديدة ونحن نناقش الأمر فيما بيننا الى أن تأكد لى أن قبيلة الرواشد مقيمة فى أحد المناطق التى تبعد مسافة لا تقل عن مسيرة شهر ، الا أنها ليست فى وضع يسمح لها بمغادرة المخيم الذى تقيم فيـــه •

فكرت فى تجهيز فرقة أخرى تحملنى الى بعض عيون الماء الواقعة على

حافة الصحراء حيث يحتمل وجود ثلاث من هذه العيون ، وأن أعهد الى قبيلة الرواشد بانتظارى هناك لتأخذنى الى وجهتى وقد بنيت هذا القرار على أساس العلاقة السابقة التى تربطنى بهذه القبيلة وما لمسته من استعداد لديها لمساعدتى .

وعلى أية حال فمن التجارب التى عانيتها فى رحلتى فى العام الماضى فقد كنت أقدر تماما ما يحيط بمثل هذه الرحلات من متاعب وما يتعرض له روادها من أخطار حتى مع عدم وجود أية حرب قائمة فى المنطقة . وعندما كشفت عن جانب من خطتى لنائب والى ظفار أحسست بأنه يحاول مجاملتى . وعلى أية حال ففى هذه المناطق لا توجد سلطة عليا يمكنها فرض ارادتها . وهكذا بدأت أشعر بأن القيام برحلة مع أشخاص كهؤلاء سيكون ضربا من الجنون . وازاء جو العداء الذي كان يحيط بالرحلة والذى كان ينذر بأن الخطط الطموحة التى أعددتها بعناية فائقة وأحطتها بالكتمان الشديد خلال العام الماضى أشرفت على الانهيار .

فهل كان من الحكمة والحالة هذه أن أضع ثقتى فى مثل هذين الشخصين ؟ . لقد كان الحل الوحيد هو أن أحاول كسب « معيوف » وزميله واقناعهما بالموافقة على ارسال رسالة الى شيخيهما أناشده فيها باقناع بعض رجال قبيلته بمرافقتى فى هذه الرحلة ، وكان الوضع يتطلب قرارا حاسما .

وهكذا كشفت لهما عن الخطة بعد أن أخذت عليهما عهداً على ذلك ولوحت لهما بمكافأة سخية . وعلى هذا الأساس تم توقيع اتفاق بينى وبينهما تعهدا فيه بتنفيذ المهمة وقالا : انه اذا كتبت لهما النجاة من قبيلة الصيعر فانهما سوف يفتشان الصحراء شبرا شبرا حتى يعثرا على قبيلة الرواشد ، وبذلك يحققان مسعاهما ليحصلا على المكافأة التى وعدتهما بها فى حالة النجاح .

وعندما خرجا مودعين كانت لهجتهما الى حد كبير تبين معدنهما الصلب

وقوة ارادتهما ، وقبل أن يغادر « خويتم » ناديت عليه وسلمته بندقية هدية منى أليه ، فتناولها من يدى وأخذ يتفحصها بدقة ثم قال : ألا تعطينى ذخيرة معها ؟ فهل كان طلبه من قبيل الطمع أو هى مجـــرد عفوية الفرد البدوى وأســـلوب حياته ؟ •

تأجل القيام بالرحلة الى ما بعد صلاة الظهر ، ولما كان صبرى قد نفد فقد طلبت بأن نتحرك على الفور ولكن المجموعة لم توافق • وقال خويتم : •• ألســـنا مســـلمين ؟ •

وهكذا تحركا فى طريقهما الى منطقة الجبال حيث كان هناك أحد زملائهما ويدعى « سالم طمطيم » ، وكنت أعرف سالما هذا لأنه كان قد رافقنى فى رحلتى السابقة وكان الغرض من التوجه اليه أن يزودهما بأفضل أنواع الجمال ومن هناك يتسللان سراً الى الصحراء • أما اذا استطاعا العـــودة ببعض رجال القافلة فان هذا ما أتمناه وإلا فان الفشل سيكون من نصيبى • حقاً لقد كان مصير الرحلة فى هذه اللحظة معلقا بخيط رفيع للغاية • ولم يعد أمامى إلا أن أبقى هنا منتظرا يحدونى أمل ضعيف فى نجاح المهمة التى جئت من أجلهـــا •

الفصل الثاني

ظفار والكرم العربي

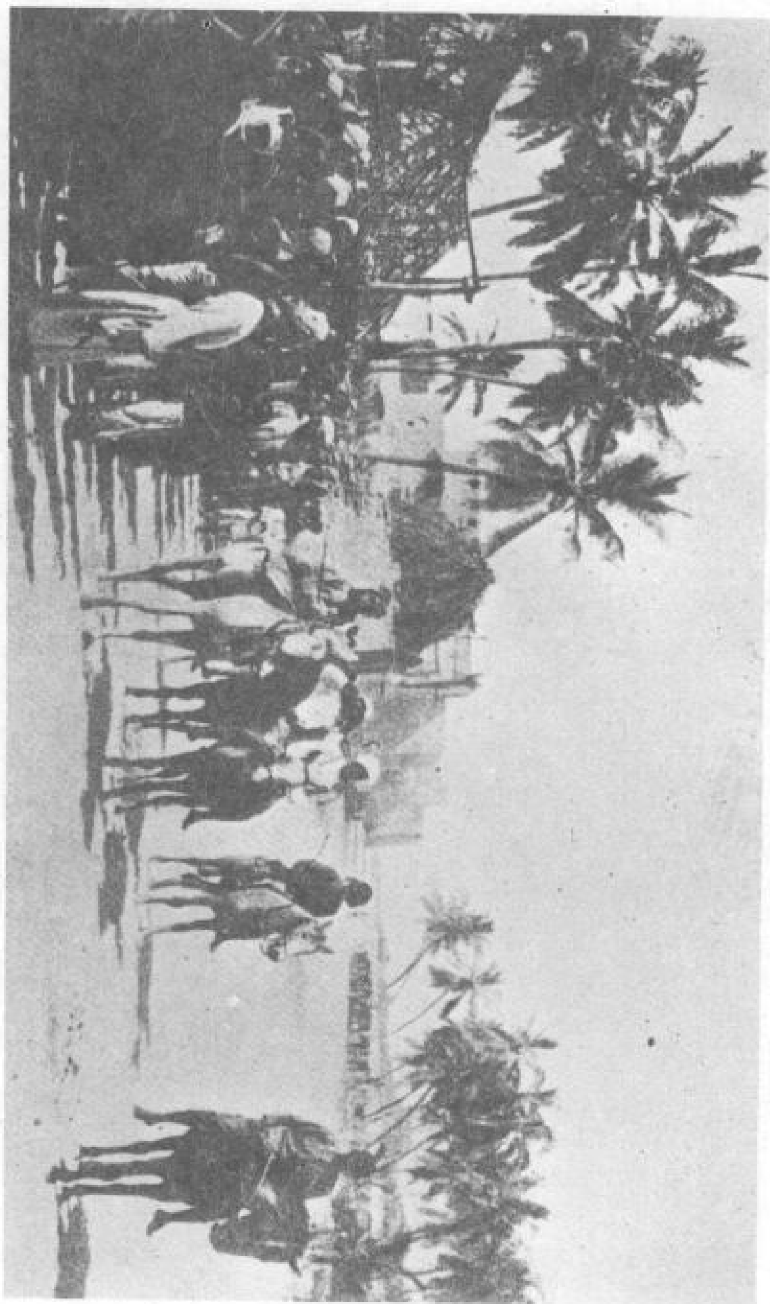
كان المنظر تحت نافذتي يرسم صورة رائعة لصفوف من أشجار جوز الهند • وغير بعيد من الشاطىء كانت ترسو احدى السفن التي وصلت لتوها بحمولاتها من التمر ، وكعادة البحارة أخذوا يطلقون بنادقهم في الهواء كي يعلنوا عن وصول سفينتهم الى البلاد • ولم تكن هذه السفينة غريبة عن ظفـــار •

وعلى شاطىء هذا البحر تمتد منطقة ظفار وهي تضم سلســلة من الجبــال ترتفع الى نحو ثلاثة آلاف قدم تمتــد على ساحلها من الشرق الى الغــرب •

وتعــد ظفار من المناطق المحظوظة ، فهي تتميز بمناخ فريد ، اذ تهب عليها الرياح الموسمية القادمة من الهند خلال شهور الصيف فتسبب هطول أمطار غزيرة عليها وتحيلها الى فردوس مقيم ، وعلى هضاب هذه المنطقة تتكاثر أشجار اللبان التي يرجع لها الفضل في شهرة هذه المنطقة ، فهذا المحصول القيم مصدر رخاء منطقة ظفار [1] على مر العصور ، وظفار تلك التي نعنيها هي غير « ظفار الريان » التي تقع في اليمن والتي أشار اليها أبو الفــدا خطأ •

---

(1) .. ظفار كلمة لها معنى محدود ، فهي تطلق على عاصمة المنطقة التي تضم صلالة ، والحافة ، والحصــن ، ومن عادة البدو اطلاق مثــل هذه الاصطلاحات على مناطقهم كتسميتهم « الهفوف » بالاحساء ، والدوحة بقطر .



(منظر لشارع في ظفار)

وتستوطن ظفار قبيلتان رئيسيتان هما قبيلة « القرا » التى تقيم فى منطقة الجبـــال ، وتعتمد فى حياتها على الرعى وزراعة اللبان ، وقبيـــلة « الكثير » التى تعيش على الصيد والزراعة فى القرى الواقعة على السهل ، وعندما يضطرب البحر فى شهور الصيف الممطرة وتهب العواصف ويتعذر الصيد • تهاجر[١] هذه القبائل من السهل الى المرتفعات حيث تتوفر المراعى ويحل موسم حصاد اللبان •

فى هذه المناطق تكثر الآبار قليلة العمق وهناك فرصة لحفر آبار ارتوازية يمكن أن تحيل هذا السهل الى مجموعة من المزارع الخضراء والحقــول النضرة ، وتنتشر هذه الآبار بين مزارع جوز الهند ويقوم على ادارتها الجمال أو الثيران • وهى تروى كذلك مزارع قصب السكر والخضروات والموز والحنطة والشعير والقطن والنيلة •

وتفرض الحكومة على المزارعين ضريبة نوعية عبارة عن نسبة معينة من المحصـــول •

أما الأمجاد التاريخية لظفار فهى محدودة ببعض الفترات بدءاً من العصر الاسلامى عندما حكمها محمد بن أحمد المنجوى ، الذى لاتزال آثار عاصمته قائمة الى اليوم على ضفاف بحيرة « رورى »[٢] • ويعد المنجوى من

---

(١) .. لهذه الهجرة مثيلتان : هجرة السكان الى مناطق الحصاد صيفا فى عمان ، وهجرتهم الى ساحل عمان للصيد خلال شهور الصيف ايضا .

(٢) .. ان آثار خور رورى .... هى التى تشغل من باب الاحتمال موقع ميناء موكشاى ...... أما علماء الجغرافيا العرب فلهم راى آخر حيث يعتقدون أن موقع الميناء البحرى القديم وعاصمة المنطقة هى مرباط ، وقد استمر العمـــل فى الميناء حتى القرن العاشر من عصرنا . وتقع مدينـــة مرباط على بعد عشرين ميلا الى الشرق من نظيرتها السابقة التى كانت فى الموقع المشـــار اليه . وينطق أهل الشحرة كلمة مرباط بـــ « حاسك » مما يبدو انها احتفاظ لاسمها الأصلى (موشكا) .

أهم الشخصيات التاريخية المرتبطة بالمنطقة والتى يتردد ذكرها على لسان المواطنين وتنسب الآثار الموجودة فى هذه المنطقة الى عهده •

بعد المنجوى ، حكم المنطقة سالم بن ادريس الحبوضى ، وذلك فى عام ١٢٧٩ بعد الميلاد وبسبب موجة الجفاف التى أصابت حضرموت موطن سالم ••• نزح فجأة الى ظفار ، يدفعه من ناحية حبه الى هذه البلاد ، ثم طمعة فى الاستيلاء عليها •

وفى القرن السادس عشر ظهر الملك المظفر الغسانى الذى ينحدر من احدى قبائل صنعاء ، ويعتبر قصره فى « البليد » من أهم الآثار الباقية فى سهل ظفار ، ولقد عمت المنطقة فوضى قبلية استمرت نحو مائة عام ، وأسفرت عن استيلاء أحد أفراد عشيرة الكثيرى على السلطة ، ثم تلا ذلك فترة أخرى من الصراع لم تبرز خلالها أى شخصية هامة ، وامتدت طوال القـــرن الثامن عشر •

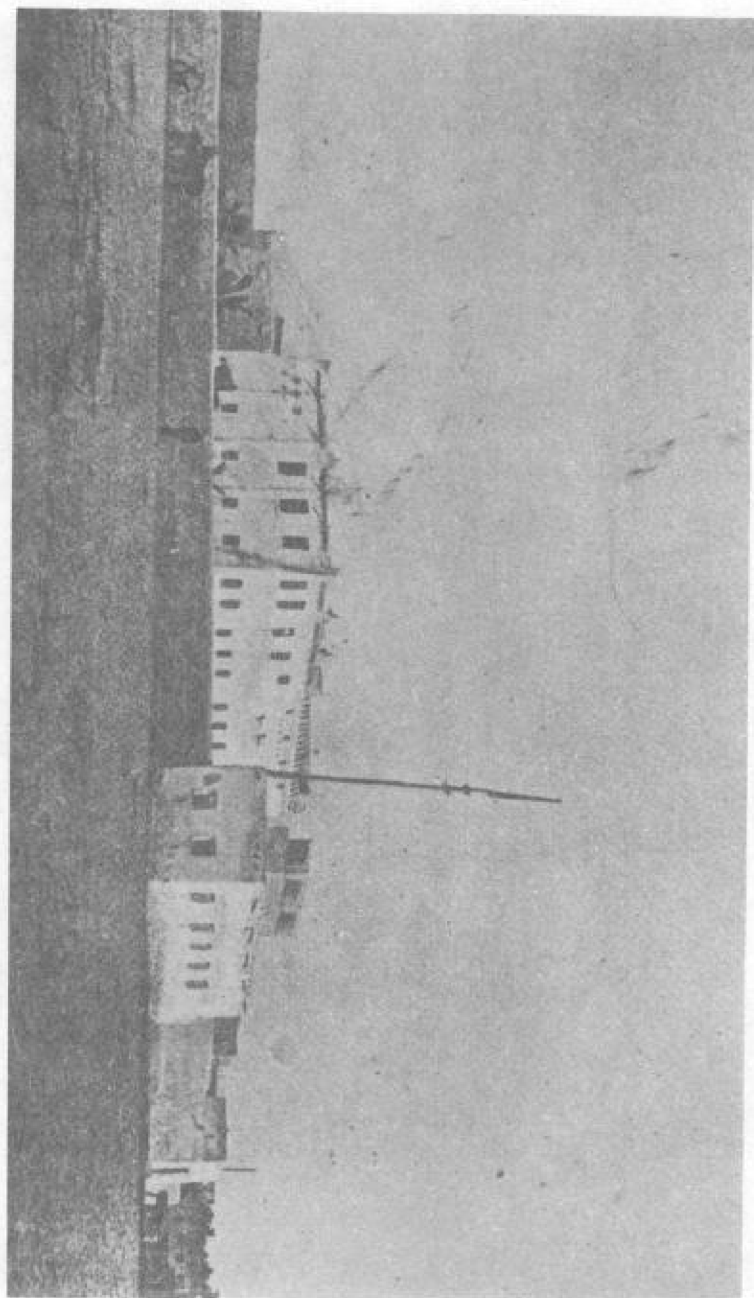
وفى بداية القرن التاسع عشر قام أحد السادة الذى يمتد نسبه الى الرسول صلى الله عليه وسلم واستولى على الحكم الذى دام نحو خمسة وعشرين عاما الى أن اغتاله أحد أفراد قبيلة القرا •

هيمنة السلطان على منطقة ظفــــار :

وبعد خمسين عاما من هذا التاريخ وفى سنة ١٨٨٠[1] بعد الميلاد على وجه التقريب ظهر على المسرح فضل بن علوى • وقد بنى ادعاءه بحقه فى

---

(١) أن سلطة العمانيين كانت محيطة بظفار قبل هذا التاريخ بزمن طويل ولكن استقرت من عهد البوسعيديين .



(قلعــة الســلطان)

السلطة على أساس تفويض منحه اياه الحكام العثمانيون غير انه اقصى عن السلطة بعد فترة حكم قصيرة •

وكان من نتيجة ذلك ان قرر أهل ظفار اللجوء الى البيت الحاكم فى مسقط يعرضون عليه أن يتولى حكمهم • وسرعان ما تطور نفوذ آل بوسعيد فى هذه المنطقة تطورا كبيرا • ولقد رحب أهل ظفار بهذا القرار ايما ترحيب •

وعندما جاء أهل ظفار يطلبون حماية أسرة آل بوسعيد كان على رأس الحكم السلطان تركى بن سعيد جد السلطان الحالى •• وكان من بين حاشية السلطان رجل اسمه سليمان بن سويلم كان موضع ثقة السلطان المطلقة •• ولمنزلته تلك فقد جعله مستشارا خاصا له وقائدا لقواته المسلحة وهو مركز لا يعد الوصول اليه أمرا مستحيلا بالنسبة للموالى فى شبه الجزيرة العربية ، وكان سليمان يتمتع بمركز مرموق فى أوساط القبائل العمانية ، لما كان يتميز به من الصفات النادرة ، اذ كان نزيها وشجاعا وقوى الشكيمة — ولئن كان الظفاريون قوما مطبوعين على تحدى الحكومة ، فانه لم يكن هناك شخصية أصلح من سليمان لتوطيد النفوذ العمانى فى ظفار بترويض أهلها وكسر شوكتهم ، فضلا عما يلقاه من التأييد من حكومة مسقط • ولكل هذه الاعتبارات رأى السلطان أن يضعه حاكما فى ظفار نائبا عنه •

وكان من أعوان السلطان رجل اسمه عبيد بن عيسى ، وكان محاربا قديما من الجنود الذين هاجروا الى ظفار منذ زمن بعيد واستقر هناك منذ ذلك الوقت ، وتدل تقاطيع وجهه على انه لم يكن من سكان الجنوب العربى • وقد نزح هذا الرجل الى عمان منذ حداثة سنه مثل كثير من مواطنيه الذين يسمونهم فى عمان بـ « أهل الغرب » والتحق بجيش السلطان براتب شهرى مقداره ثلاثة ريالات — وهو مبلغ كبير بمقاييس ذلك الوقت • وكان التحاق هذا

الجندى دعما قويا لحكم السلطان فى ظفار ، التى كان الصراع للفوز بحكمها يدور بين عدد من الطامعين ، ولم يكن هذا الرجل مقاتلا عنيدا فحسب ، بل كان جنديا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى كما لم تكن له انتماءات محلية فى هذه المنطقة .

صحب الوالى سليمان الى ظفار ، قوة مؤلفة من ثمانية عشر مقاتلا .. صحيح أن هذه القوة كانت صغيرة الا أنها مكنت الوالى سليمان من توطيد سلطته فى ظفار وقبل وصول الحامية الرئيسية المكونة من مائة جندى كان سليمان بالفعل قد استولى على الحصن المركزى بمعاونة مجموعة موالية له من الموجودين بظفار . وبمساعدة مولى له يدعى « بخيت » الذى تولى السلطة بعد مولاه « سليمان » .

ان الفردية هى الطابع المميز للعلاقات القائمة بين القبائل العربية وهى شىء متأصل فى وجدان الفرد العربى . ويرجع ذلك الى الدور الرئيسى للفرد ، وقلة اهتمامه بالوسائل والأجهزة . فحين تكون شخصية الحكومة أو الموالين لها هى الشخصية القوية تمضى الأمور على مايرام . ولكن عندما يختفى الأقوياء تعم الفوضى والاضطرابات .

وهكذا فعندما جاء الوقت الذى حل فيه عبد الله بن سليمان محل بخيت فى السلطة ورغم أن الأول وان كان من الأحرار الا أنه بسبب ضعف شخصيته ، تدهورت هيبة الحكومة وامتنعت القبائل بالتالى عن دفع ما عليها من مستحقات للدولة واستغلت ضعف الوالى الجديد أكثر مما اعجبت بتسامحه وهكذا قضى نحبه غير مأسوف عليه من أحد تاركا لخلفة ــ الذى كان قد أنزله فى ضيافته ــ مهمة اعادة تثبيت السلطة التى تخلى عنها .

وفى ظفار وقفت يوما فى شرفة حصن ظفار أستعيد ذكرى المشاهد التى مرت بى ، فجىء بعدد من الخيول الى الحصن وكانت من النوع النادر الوجود فى هذه المنطقة وعلمت أنها انتقيت من مجموعة الخيول التى يمتلكها السلطان الذى كان مولعا بظفار وبرحلات الصيد والقنص التى كان يقوم بها وكان يقضى فيها غالبية شهور الصيف .

فى هذا اليوم توجهت الى صلاله لمقابلة مع سعد عبد العزيز الذى كان يعتبر أغنى تجار المنطقة وكان من أصل مغمور ، وكان طريقى الى هذا التاجر يمر عبر السوق الصغيرة خارج المدينة . ومن خلال صفوف من أشجار جوز الهند (يحل جوز الهند فى ظفار محل النخل فى الأجزاء الأخرى من شبه الجزيرة العربية) . وحقول القطن والنيلة ومنها عبر السهل المطل على صلالة . وكانت المبانى العالية المتعددة الطوابق والمبنية من الأحجار المنحوته من تربة السهل تشكل منظرا ساحرا فضلا عن الزخرفة والتشكيلات[1] المتنوعة والتى كانت فى مجموعها رمزا لعصر من العصور ، الا أن هذا المنظر كان مناقضا تمام التناقض للأكواخ والمساكن المتواضعة بالمناطق الداخلية وكان منزل مضيفنا سعد يرتفع كقصر منيف فى واجهة البلدة . ورغم انه قصر فقد كان به كثير من الذباب وروائح حظيرة الماشية ، وكان الجزء الضيق من الدرج يؤدى الى جناح الضيوف بالطابق العلوى ،

---

(١) تعتبر زخرفة السقوف التى تسمى بلهجة اهل المنطقة بـ « التباشير » السمة المميزة للبيوت الكبيرة وتتم هذه الزخرفة فى زوايا السقوف وفى الأطراف وهى تشبه الزخرفة التى كانت سائدة فى بترا ومعان فى عهد النبطيين . وقد علمت بأن هذا النوع من الزخارف منتشر فى منطقتى الشحر والمكلا وغيرها من مناطق حضرموت ولكنى لم ارى ما يشابهها فى عمان .

وهو عبارة عن غرفة واسعة مسقوفة بها عدد كبير من النوافذ بلا زجاج لأن الزجاج غير معروف هنا[1] .

كان الأثاث قليلا ولكنه كان فاخرا ، وكانت أرضيات الغرف كلها مغطاة بالسجاد الجميل ، وكان على الحوائط نحو دستة من المرايا كل واحدة منها بحجم الانسان تحيطها اطارات ذهبية ... وكانت زخرفة الحوائط بدائية الطراز . كما علقت عليها أرفف مليئة بالمباخر الفضية وأوانى القهـوة ومزهريات ذات ذوق بدائى .

دخلنا القاعة صفوفا ، ثم جلسنا على الجوانب الأربعة وقد اختصنى المضيف بمكان بارز بين المدعوين حيث توجد صفوف من الوسائد تعـد بالمقاييس الشرقية غاية فى الذوق والجمال بألوانها الجذابة ، وأوشيتها الزاهية وكان المضيف وخدمه يقفون الى جانب مائدة صفت فوقها أكواب شراب اللوز وغيره من أنواع الشراب الملون المقدم للضيوف ، وكما جرت العادة فى الأوساط القبلية فى شبه الجزيرة العربية لم تشترك واحدة من سيدات ونساء المنزل فى تلك المأدبة ، ولم أر سيدة على الاطلاق . فالطبقة الراقية من سيدا تالقصر كن متواريات وراء الجدران لا يظهرن قبل أن يغادر الضيوف المكان . والسيدة الوحيدة التى شاهدتها كانت احدى جوارى القصر وكانت تقف فى البهو ترقبنا من طرف خفى ، وكانت سافرة الوجـه .

وكان يجلس بجانبى سالم السيل وهو كذلك من تجار ظفار ، وكان رجلا ورعا ويعتبر نفسه سيد رفاقه ، وكان الرجل فى نحو الثمانين من عمره

---

(١) تسـتعمل جذوع أشجار جـوز الهنـد سوجه علم فى عمل شيش النوافذ والشبابيك وكدعامات لسقوف المنازل وهى قوية الاحتمال وتناسب هذا النوع من الاستخدامات على عكس جذوع النخيل الكثيرة الألياف التى يشيع استعمالها فى داخل عمان .

وكان بصره ضعيفا • وخلال تبادلنا الحديث أبدى اهتماما بالأحـداث العالمية ، عندما سألنى عما اذا كانت هناك حرب دولية الآن ؟ وما الذى حدث للألمان ؟ وهل الايطاليون أصدقاؤكم ؟ •

وربما كانت العلاقة بين أهل ظفار والصومال التى لها علاقة بالوجود الايطالى فى الحبشـة هو السبب فى اهتمامهم بالايطـاليين وغيرهم من الأوربيين • وأثناء وجودى كان معظم الحديث عن الايطاليين وحسـن ادارتهم • وفى هذه الأثناء كان أحد شيوخ الجبل يقف معنا ويشارك فى الحديث وكان حديثه ممتعا • وقد سألنى :

لمـاذا أنتم أيها الأوربيين كبار الحجم بينما نحن لسـنا كذلك ؟ فأجبت لعل سبب ذلك المناخ والتربة •

فقال ان العالِم هو الله • اننا أصغر قامة من أجدادنا ، انظر الى القبور فى منطقة خور رورى تجد أن طول الواحد منها عشرون قدما ، لقد كانت أجسام أجدادنا بهذا الحجم وتلك القامات ، فأومأت اليه بالايجاب مؤكدا على قوله : الله العالم فعلا • حتى لا أمس شعوره الدينى •

ثم دارت علينا فناجين القهوة وبعدها جاء دور البخور (اللبان) وكانت المبخرة تنتقل من ضيف الى آخر يطوف بها أحد الخدم ، كما هى العادة المتبعة فى عمان ثم وضعت المبخرة على الأرض والدخان يتصاعد منها ، ورغم ان هذه البلاد بها أجود أنواع اللبان ، الا أن مضيفى كان يستعمل نوعا آخر من البخور المستورد ، وهو حطب العود الذى يشبه خشب الصندل والذى تستخدمه الكنائس فى أوربا • وهناك مثل عربى دارج يقول : « بعد العود لا قعود » • ومعنى هذا ان على الضيف أن يغادر المكان بعد تقديم البخور •

وقد أراد المضيف مجاملتى فقال : « نحن نأمل ان تكون اقامتك معنا

طويلة » وكان يقصد بهذه العبارة رغبته فى أن يستطلع أخبارى • فأجبته بأننى فى إجازة لمدة شهرين • وقد عرض على الشيخ حسن أن يصحبنى الى منطقة الجبال فى الأسبوع التالى ، فى رحلة للصيد ، وكان أمله كبيرا فى اصطياد بعض الفهود والوعول •

عندما صحوت من النوم فى اليوم التالى ، وكنت منهمكا فى ملء ساعتى الـ « كرونومتر » وضبطها ، سمعت بعض النسوة تغنين وتقرعن الطبول ، فأردت أن أستطلع الأمر ، فقيل لى إنها حفلة تقام كل صباح ، عندما يكون سلطان البلاد أو أحد الضيوف البارزين موجودا بالقصر •

الفصل الثالث

رقصة الشيطان وعملية فحص الجماجم

كان السؤال الذى يتكرر توجيهه الىّ من عرب الصحراء ، هو السؤال عن هويتى ومن أى العرب أكون وكلمة العرب تعنى القوم أو جنسية الشخص ، لا بمعناها العرقى • غير أن السؤال أثار بدوره سؤالا آخر ، هل العرب من الناحية العرقية كلهم من أصل واحد ؟ • هذه النظرية على أى حال لا يؤيدها كل من العالم « جليسر » والرحالة « بيرتون » •• فعلى حين يعتقد الأول ، أن العرب ليسوا من أصل سام ، وانما هم أصل حام ، فان الأخير أشار الى أنه قد جمع من الأدلة القاطعة ما يثبت أن العرب ليسوا كلهم من أصل واحد وانما ينحدرون من ثلاثة أصول عرقية متباينة عن بعضها البعض ، فان افتراضات الرحالة « بيرتون » بوجود ثلاثة اختلافات فسيولوجية تكفى لوضع نشأة العرب موضع التساؤل أما رأيى فان الفوارق التى أشير اليها قد ظهرت فى الأجزاء الوسطى من جنوب الجزيرة العربية وهى ليست فوارق فسيولوجية فحسب وانما فوارق لغوية وثقافية بحيث انها تمثل تحديا للقائلين بأن شعوب جنوب الجزيرة العربية تؤلف وحدة عرقية متكاملة •

لقد جئت الى هذه المنطقة تحدونى رغبة فى الحصول على مقاسات لجمجمة الانسان العربى لأن هذه المقاسات قد تساعد بعض الباحثين فى أصول الأجناس والسلالات البشرية • كما ان الملاحظات الظاهرة للأجنبى المقيم فى شبه الجزيرة العربية لفترة طويلة لابد وأن تطبع فى ذهنه وبغير وعى منه القسمات العضوية لسكان المنطقة بحيث تظهر له الفوارق الحادة فى السمات العرقية لهؤلاء الناس من خلال مخالطته لهم ، ولقد كان من نتيجة اقامتى المتكررة فى منطقة شبه الجزيرة ابتداء من عام ١٩١٥ حيث

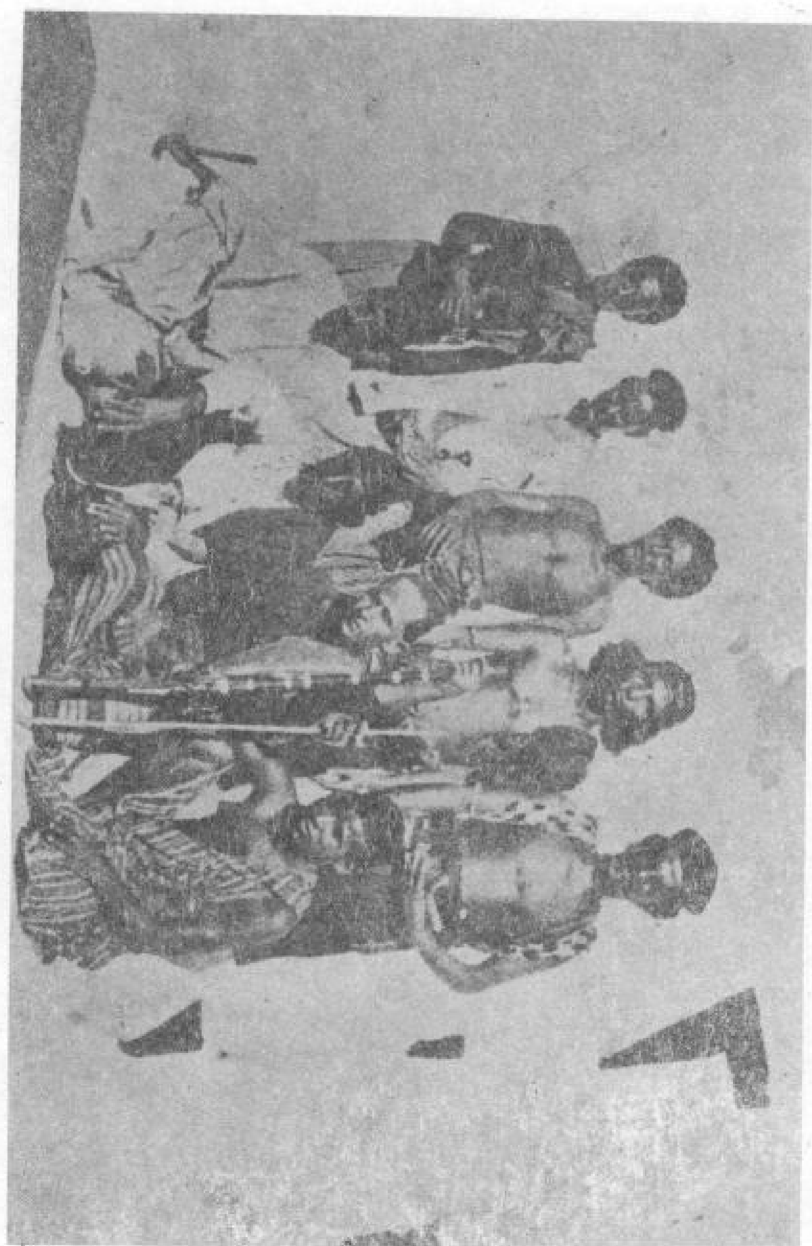
تقلبت فى عدد من المناصب الرسمية فى العراق والأردن والخليج أن تكون لدىَّ اهتمام بسكان المنطقة الوسطى من جنوب شبه الجزيرة العربية وأعنى بذلك منطقة ظفار وذلك من واقع الاختلافات الجوهرية بينهم وبين العرب الآخـــرين •

وفى هذا الصدد كتب الجنرال ميتلاند : المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى ذلك الوقت يقـــول :

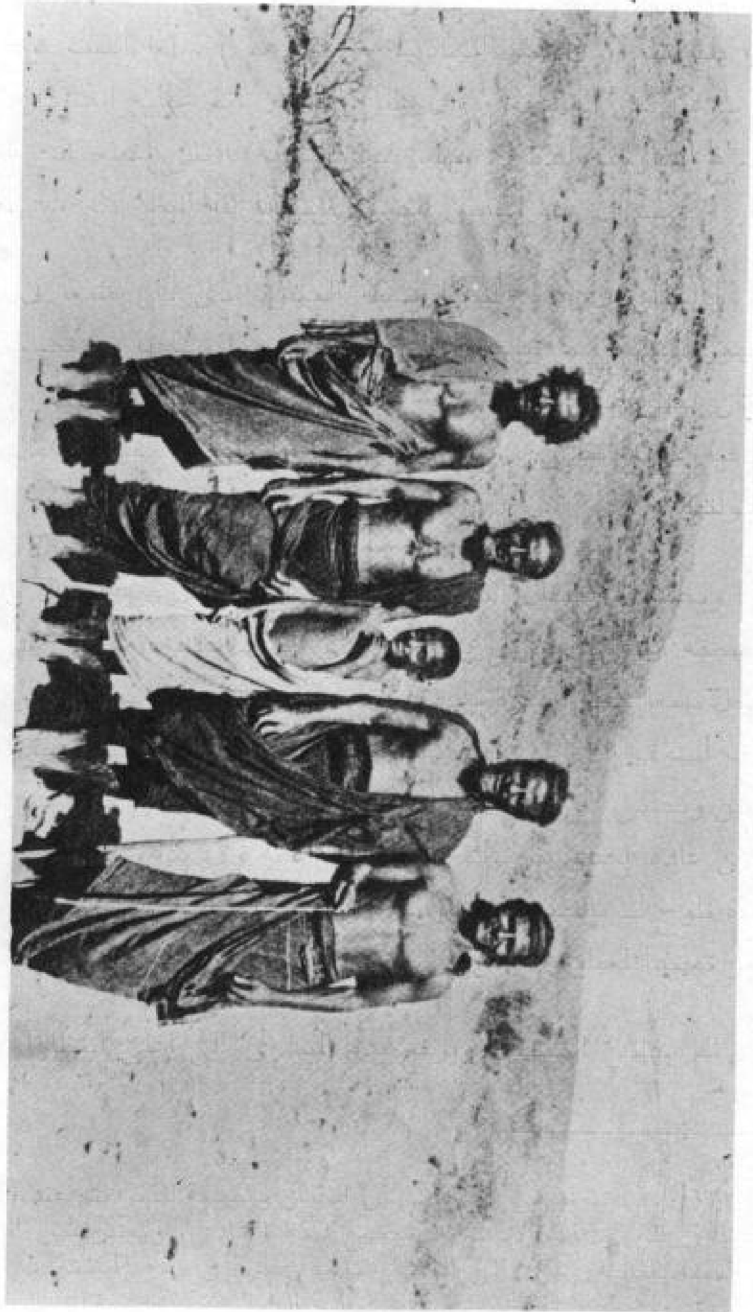
ينحدر عرب شبه الجزيرة العربية على ما يبدو من أصلين مختلفين ومتميزين • فالنظرية السائدة عن قسمات العربى ، هى أنه الرجل الطويل اللحية الأملس الوجه كالصقر ، غير أن عرب جنوب شبه الجزيرة أصـــغر قامة وأخشن تقاطيع وأكثر ســـمرة وغير ملتحين تقريبـــا ، وتجمع كافة المصادر على أن عرب الجنوب ينحدرون من أصل حبشى • ومع ذلك فيبدو من الغرابة بمكان ان نقرر أن المصريين وعرب القارة الأفريقية • هم العرب الأقحاح بين العرب الساميين ، أما عرب الشمال فهم عرب مستعربة أى انهم عرب بالتجنس أو الاستيطان أكثر منهم عرب بالسلالة •

بل ان علماء التاريخ العرب أنفسهم يذهبون الى أن العرب ينحدرون من أصلين : قحطان وعدنان ومع ذلك فان العرب الذين يقطنون الآن مناطق من شبه الجزيرة وينحدرون من أحد هذين الأصلين ينتمون فى الواقع الى سلالات متباينة • ومن ناحية أخرى • فان الاختلافات السلالية التى أشار اليها كل من « بيرتون » و « ميتلاند » و « جليسر » و « راتنجز » •• عن الجيل الحـــالى والقبائل الواردة فى بحـــوث هؤلاء العلماء حسب تحديدهم لها لا تتطابق مع العرب الذين ينتمون الى عدنان وقحطان •

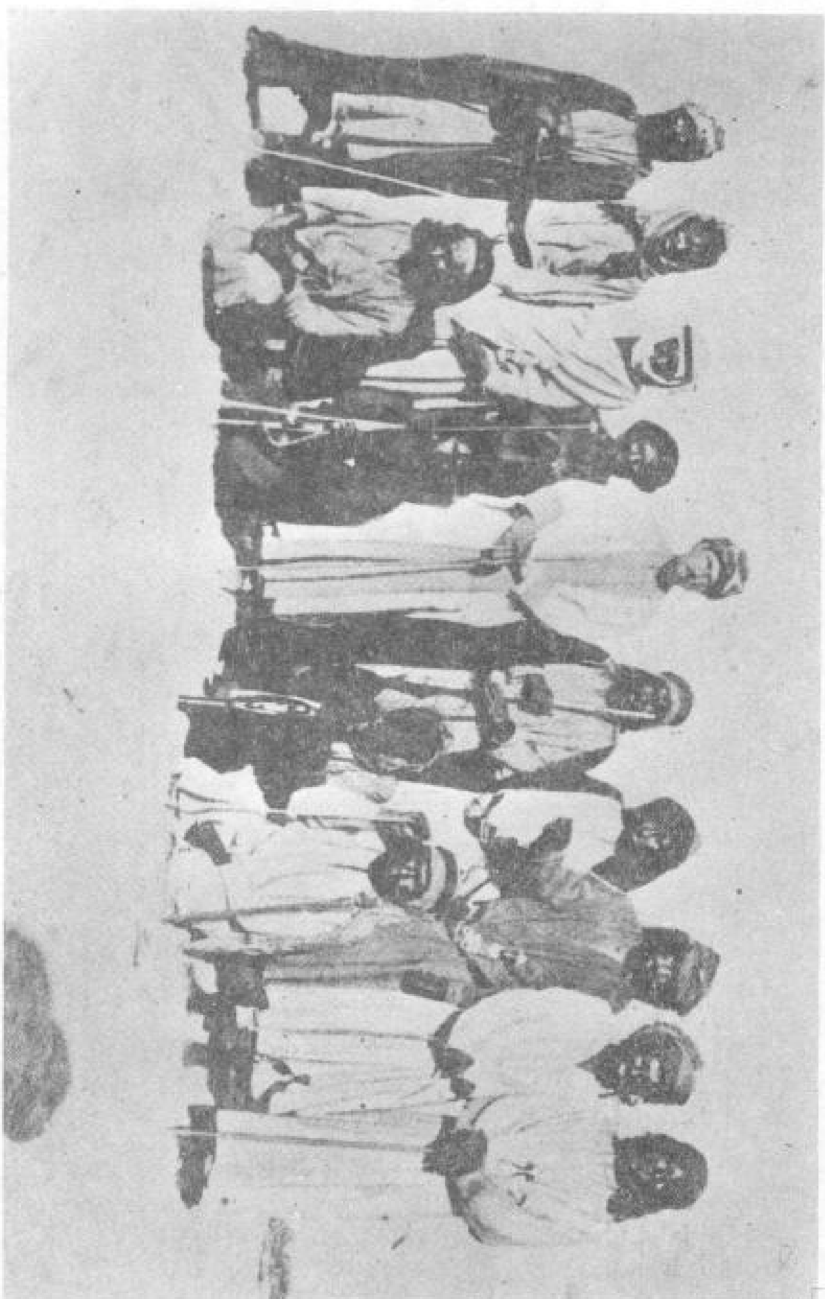
ولا أتصور ان أحداً من الرحالة والعلماء الأوروبيين الذين أشرت اليهم آنفا له إلـــمام بالمجموعات القبلية التى التقيت بها فى ظفار الأمر الذى



(جماعة من قبيلة يافع)



(جماعة من قبيلة تاهارا)



(أفراد من قبيلة راشد ومرة)

يؤكد أن هناك من الاعتبارات التى ترجح كون هؤلاء العرب من سلالات غير معروفة ••

ان الكتب والآثار المتخلفة فى هذه المناطق الجنوبية الغربية من الجزيرة تدل على وجود حضارات سبئية أو معينية قديمة قد اندثرت قبل ظهور الاسلام فى القرن السادس بعد الميلاد • كما ان هناك آثارا لمستعمرات اغريقية وآرامية ، كذلك فقد تعرضت هذه المنطقة للغزو الحبشى والرومانى خلال تاريخها • فمن يكون هؤلاء العرب يا ترى ؟؟ لو افترضنا ان الاجابة على هذا السؤال من اختصاص علماء الأجناس ، كما هو الأمر فعلا ، فان جمع الأدلة والمعلومات عن عرب الجزيرة العربية يعتبر أمرا هاما وعلى الأخص خلال هذه الرحلة التى أقوم بها •

فى البداية كان يراودنى أمل كبير فى أن أنجح فى الحصول على بعض الجماجم البشرية القديمة وارسالها الى انجلترا • غير أن الإقدام على هذه الخطوة ينطوى على بعض المخاطر لأنه يثير الشعور الدينى لعرب الجزيرة ، حيث أن حفر القبور واستخراج جثثها أمر لا يقره المسلمون • ولقد لاحظنا نفس الشىء أثناء اقامتنا فى العراق خلال الحرب العالمية الأولى ، عندما حاول بعضنا السير بعربته فوق بعض المقابر • ولنفس الأسباب لم يسمح لنا بالمرور فى بعض ضواحى منطقة « ديكور » التى كنت فيها فيما بين سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٢٨ وذلك لوجود بعض الأضرحة والمقابر فيها •

أما أثناء رحلتى خلال عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٠ فقد كنت أحسن حظا اذ بينما كنت فى منطقة حاسك مررت بأحد الكهوف ويبدو ان بعض الحيوانات المتوحشة قد هاجمت ذلك الكهف فى وقت من الأوقات وكان الوقت نهارا ففكرت فى التوقف فى هذا المكان واخترت منطقة قريبة من الكهف ولم يعرف أى انسان بأن الجمجمة التى كانت فى ذلك الكهف قد انتقلت الى خيمتى ، ولكن عظمة الفك لم تكن فى الجمجمة كما ان القسم الأكبر من الهيكل لم يكن

موجودا • وقد أخذت هذه الجمجمة معى الى مسقط ، ومنها الى كلية الجراجين الملكية فى لندن •

وعلى أية حال فقد كانت العودة الى ظفار لفحص الجماجم البشرية ودراستها موضوعا تحيط به الصعوبات وذلك لعدم توفر ما يصلح لهـذه الدراسة ، ويعتقد المتشددون الدينيون منهم أن ملامسة غير المسلم لهم يعتبر رجسا • ومن ناحية أخرى فإننى قد لا أستطيع فى هذه المنطقة الصحراوية أن أجرب أجهزة قياس الجمجمة على البدو لأن مثل هذا العمل لابد أن يثيرهم وقد يشهر أحدهم خنجره فى وجهى • وذات مرة عندما حاولت اخراج الكاميرا غضب منى أحد البدو ، أما فى ظفار فقد كنت أشعر بشىء من الأمان حيث أستطيع أن أمارس ذلك من وراء الأبواب المغلقة على السجناء والحراس وغيرهم من أصدقائى القدامى وغيرهم • وبتعاون هؤلاء وغيرهم من التجار الأجانب المستنيرين تمكنت من اجراء نحو خمسة وأربعين تجربة تشمل كثيرا من الجوانب الجغرافية ، وأن ألتقط مئات من الصور لنماذج مختلفة من الرجال •

وخلال هذه التجارب ، كانت تقع كثير من الحوادث التى تلطف الجو • أما من الناحية الفيزيائية فان الاختبارات التى أجريتها لم تكن ناجحة • لأن النماذج التى فحصتها ، اما انها كانت عناصر من البدو ذوى الشعر الأكرت الملىء بحبـات الرمل وغيرها من الأتربة ، أو من المدنيين الذين يدهنون شعورهم بزيت جـوز الهند • وفى اليوم التـالى كان الدور على بعض الصوماليين الذين يأتون الى ظفار من سواحل البحر الأحمر لفتح بعض المحلات الصغيرة والعمل فى تجارة اللبان •

وكان عدد المتقدمين للفحص ستة وعندما أخذت أستجوبهم بهذا الصدد ، لم يجيبوا على سؤالى • وعلى أية حال فان الأجناس المنحدرة من أصـل مختلط لا تصلح من الوجهة الانثروبولوجية لاجراء مثل هذه الاختبارات

عليها ، وقد تأكد لى هذا بعد فحصهم مباشرة فقد كانت أنوفهم مفرطحة وجباههم تدل على أنهم من الزنوج • وقد سألت أحد الصوماليين الذى كان يعمل عسكريا عن أصله وما اذا كان متأكدا من أنه من سلالة عربية ، فأجاب بأنه يعتقد ذلك ، وقال بأن الحقيقة لا يعلمها الا الله ثم والدته • وقد ضحك وهو ينطق بهذه الفكاهة عندما كان يغادر المكان ووعد بأن يأتى مرة أخرى فى اليوم التالى مصطحبا عددا آخر من زملائه الذين قالوا بأنهم من سلالة أنقــى •

بعد ذلك جاء دور عسكر الحكومة وهؤلاء أصلهم من حضرموت أو عدن وهم يهاجرون الى ظفار للعمل فى خدمة الحكومة مثل زملائهم القدامى •

ويطلق العمانيون على هؤلاء اسم الحضارم وكان يوجد منهم فى ظفار نحو عشرين شخصا ولهذا كان من السهل أن أختار نحو ستة من أصل قبلى قح •• وكانوا من الزيديين ومن بيهر ومن آل سعد وهى فصائل من اتحاد قبائل يافع • وقد قمت بفحص هؤلاء ولكنى عرفت منهم أنهم يعارضون تسميتهم بالحضارم قائلين بأن الحضارم من أصل وضيع من الشحر ، وغيرها من المجموعات مجهولة الأصــل القبلى وقالوا بأن القبليين الأصليين هم أولئك الذين ينحدرون من أحد الاتحادين القبليين المتنازعين يافــع وهمــدان •

فى اليوم التالى تقدم للاختبار « على ضبعان » •• وهو بدوى من قبيلة الشعاشعة التى تسكن المناطق الصحراوية الشمالية من حضرموت • وكان على ينحدر من أصل عربى عريق وكان أحد المرافقين لى فى رحلة العام الماضى الى مقشن وقد اصطحبته فى هذه الرحلة كذلك بسبب معرفته الواسعة بشئون الصحراء كما كان ملما بمناطق الحدود الجنوبية إلمــاما تاما •• وكان على هذا قد اغتال أحد أفراد قبيلة الرواشد ولكنه تمكن من الاقتران بسيدة من القبيلة فنجا بذلك من القصاص •

وقد طلب موافقتى على سفره فى رحلة الى جبال القرا لاستلام أربعة أغنام من قبيلة بيت كثير وهى الدفعة الواجبة من الفدية التى يؤدونها اليه بسبب اغتيال ابنه قبل سنة على يد أحد أفراد هذه القبيلة .

وقبل أن يغادر طلب منى خمسين طلقة من الذخيرة ، وليس هذا الطلب بغريب على هؤلاء القوم فالبدوى قد يطلب منك أن تضعَ القمر بين يديه .

ولكن رفضت طلبه لسجله الحافل بالاغتيالات والمذابح . لقد اغتال هذا الرجل ما لا يقل عن خمسين رجلا ، كان آخرهم من قبيلة العوامر ، قابله فى الصحراء قبل ثلاثة أعوام فاغتاله طمعا فى بعيره ، ولكن البعير نفق أثناء الرحلة الى ظفار ولهذا لم يبق أى أثر لهذه الجريمة التى ترجع بواعثها على حد اعتقادهم الى ارادة الله . أما على فلم يشعر بأى نوع من تأنيب الضمير وان كان لم يعد يجرؤ على مقابلة أى فرد من أفراد تلك القبيلة .. ولكننى اقترحت عليه أن يصحبنى فى رحلة صيد الى المنطقة الجبلية ووعدته بمكافأة مالية ، وقد صارحته بأنى لا أستطيع تسليمه أى ذخيرة لأنى كنت أتوجس منه الشر دائما ولا أريد أن أكون بذلك شريكا له فى جرائمه .

فعلق قائلا : ولكن قل لى كيف يمكن للانسان أن يعيش اذ لم يقم ..ل هذه الأعمال ؟ فقلت : يعمل مزارعا مثلا أو يزاول صيد الأسماك . وعنا رمقنى بنظرة شذراء وقال هذه ليست مهنة الرجال .

— اذن فما هى مهنة الرجال ؟ .

— انها الخنجر والبندقية .

— ان هذا قول سخيف ، أنا أفهم أن يقاتل الانسان فى سبيل هدف مشروع . لعلك لا تعرف كيف أصبحنا نحن البريطانيين أقوياء الى

هذه الدرجة • لقد حققنا هذه القوة عن طريق العمل ثم كيف تتصور الطريقة التى صنعنا بها البواخر والمدافع والقنابل ؟ •

ـ انكم صنعتموها بالمــال •

وهنا أيقنت انه لا فائدة من المضى معه فى هذا الجدل •• ثم عدت أقول له : يا على لو ان كل انسان أعتمد فى حياته على الخنجر والبندقية كما تقول أنت فمن أين يأتى بالطعام ؟ اننا مدينون فى هذا الى الزارع والصياد ••• ولكن من المستحيل أن يقبل البدوى مثل هذا المستوى من الأعمــال ••• أما عن الصيد فقال على انه من المستحيل بالنسبة اليه • وأما عن الزراعة فقال انه سوف يطلب من السلطان تيمور أن يمنحه قطعة من الأرض الزراعية ويستخدم أحد الأرقاء فى حرثها وزراعتها ••• فسألته وما الذى يمنعك أنت من زراعتها وحرثها ؟ • فأجاب : كلا سوف أدفع للأجير مقابل عمله فى الأرض وسوف أعيش على ما تغله من محصول •

أعطنى خمسين رصاصة أيها الصاحب •• ثم حل حزام ذخيرته لكى يرينى بأن الحزام كان فارغا ، ولكنى ابتسمت لهذا التناقض بين فقره المدقع وتفاؤله الكبير ••• فعاد على ضبعان يقول : اننى أفضل الذخيرة ألف مرة على الجمل أو الناقة لأن الجمل قد يموت ولكن بالذخيرة أدفع عن نفسى أى أذى أو اعتداء ، أو أصطاد بعض الحيوانات عندما أشعر بالجوع ، قلت : كلا يا على • تعال إلىّ غدا وستقبض منى ثلاثة ريالات بشرط أن تحسن التصرف وأنت فى الجبل ، والا سيكون هذا آخر لقاء بينى وبينك • فقال أرجو أن تطلب من السيد تيمور أن يخصص لى مرتبا شهريا وسوف أكف بعد ذلك عن هذه الأعمال ، وأصبح صديقا للجميع •

ولقد سمعت ذات مرة ضجة فى الخارج وبعدها دخل علينا أحد الجنود وهو يقول : « الزنوج •• الزنوج » ، وعندما اشتد قرع الطبول أدركت أن الموكب بدأ يقترب من الحصن فخرجنا نشاهده •

ان الزنوج من الطوائف السهلة التكيف ، فهى تشكل أكبر الطوائف فى مجموع سكان ظفار ، وكان عوض من عبيد القصر ، أكثر الذين يحظـون بالاحـترام داخل طائفته ، وكان بمنزلة الأب لهم وكانت جميع خلافات ونزاعات الزنوج تعرض عليه ليفصل فيها وكان له مساعد يعاونه فى تحمل هذه المسئوليات .

وتعتبر بقية أفراد الطائفة بمثابة أبناء وبنات له ولكن لفظة الأب عندما تطلق على العجزة وكبار السن لا تعطى هذا المدلول .

وعلى العبيد أمور محظورات ، فلا يجوز لأحدهم مثلا أن يلمس حيوانا ميتا فيما عدا الذبائح المذبوحة بالطريقة الشرعية ، ولو نفقت احدى القطط فان سيد البيت هو الذى يقوم بالقائها فى الخارج كما لا يجوز لعبد من عبيد القصر أن يجر جثة الحصان الميت ليلقى بها خارج القصر ، ومخالفة هذه القواعد لها عقوبات محددة ومن هذه العقوبات خصى العبد والتى يتم تنفيذها بصورة علنية ، ويسبق ذلك اعلان بمكبر الصوت ، وهذه المكبرات عبارة عن محارة كبيرة ينفخ فيها ، ولا تقبل لهذا العبد توبة كما لا يمكنه أن يسترد وضعه السابق بين أفراد طائفته إلا بعد ذبح أحد الخراف ، وبعد أن يقوم العبد المعنى بغمس أحد قدميه فى دم الخروف .

وأعتقد أن الزنوج من الطوائف المعتدلة القناعة ولهم وجوه سمحة بشوشة لا تجدها فى سادتهم ، ولهذا فانهم يقضون معظم أوقاتهم فى الغناء والرقص غير مكترثين بحقوقهم الاجتماعية والسياسية ، ووضع الخدم فى هذه المجتمعات لا يقل مستوى عن وضع الأحرار ، واذا اتخذنا هذا الرأى مقياسا للحكم فان وضع الخادم ليس سيئا الى درجة كبيرة ، ولمـا كان المستوى المعيشى العام فى هذه الأقطار منخفض الى حد كبير ، ويـكاد يكون فوق مستوى الكفاف بقليل فانه من مصلحة السادة ان يتكفلوا باعالة خدمهم الى جانب اعالتهم لأنفسهم .

والفرق الأساسى بين الخادم والسيد فى هذه البلاد هو فى نوعية العمل ، ففى بلاد الكسالى يقوم الخادم بالعمل اليدوى أو العضلى بشرط أن يكفى انتاجه من هذا العمل لاعالة سيده ونفسه ، ويبقى على السيد أن يتأكد من أن الخادم يقوم بعمله خير قيام ، وحتى لو كانت هناك فوارق حادة فى عائد العمل فى الولايات الجنوبية الأمريكية أو فى مستعمرات الهند الغربية قبل الغاء الرقيق ، فانه كان يعتبر فرقاً وهميا .

ان الخدم فى هذه البلاد يتمتعون بحقوقهم الاجتماعية الكثيرة .. فالخادم مثلا يعيش فى أمان من قوانين الثأر التى تطارد رجال القبائل الأحرار ، واذا وقع أسيرا فى احدى المعارك التى تنشب بين قبائل العرب فانه لا يقتل . صحيح انه فى هذه الحالة قد يصبح أسيراً وقد يبيعه سادته الجدد الى آخرين ، الا أن ذلك لم يكن يؤدى الى أن تسوء أوضاعه المادية أكثر ، أما فيما يتعلق بالجوارى فانهن يتمتعن بحرية اجتماعية أكبر من تلك التى تتمتع بها المرأة العربية الحرة . فالحرة فى معظم الأحيان تتزوج فى سن مبكرة الى زوج يختاره والدها أو ولى أمرها دون أن ترى زوجها أو يؤخذ رأيها فيه وبعد الزواج تظل حبيسة البيت طوال حياتها باستثناء بعض الأوقات التى يسمح لها فيها بالخروج ، ولكنها تكون متحجبة من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وتزداد عزلتها هذه كلما ارتفع مستواها الاجتماعى كما أنها لو ارتبطت بعلاقة جنسية بشخص غير زوجها — وهى فى ذلك على نقيض الجارية المحررة قد تدفع حياتها ثمنا لهذه الخطيئة .

أما الجارية فهى امرأة خالية البال ، حتى لو تم زواجها عن طريق سيدها لمن يختاره لها فهى تستطيع الخروج سافرة والتعرض للرجال والتحدث الى من تشاء منهم دون قيد أو حرج .

وفى أثناء حفل الرقص الذى أقيم بعد ظهر ذلك اليوم كان يوجد بعض البدو الصحراويين جاءوا ليشاهدوا الحفل وعلى الرغم من أن هؤلاء مسلمون ،

إلا أن أحدهم لم يعترض أو يأنبه الضمير ازاء ما كان يجرى أمام عينيه ، على عكس المسئول العمانى المترمت الذى كان يرافقنى واذا كان من عادة سكان الصحراء أن يتطلعوا الى السماء متوسلين أن تجود عليهم بشىء من المطر الذى هو عماد حياتهم •• فمن الذى يمنع سكان المناطق الزراعية من أن يتطلعوا الى التربة لتجـود عليهم بخيراتها ، ومن أن تكون لهم طقوسهم أيضا ، لكن كلا الفئتين لا توافق على هذا الرأى •

وبالنسبة للطقوس الزنجية تلك ، فانها تقام عادة بعد مضى ثلاثة أشهر على وفاة أحد الخدم وهى تجرى فى منطقة تقع بالقرب من قرية « حافة » •• فى المناطق التى تكثر فيها أشجار جوز الهند وتضفى عليها منظرا جميلا ، وقد استدرجنى صوت الطبول الى وسط الحشد ، وفى وسط السـاحة كانت توجد منطقة فسيحة ، فى أحد أطرافها كان يجلس ضاربو الطبول وأمامهم نار مشتعلة يستعملونها لشد الطبول ، وكان بالقرب منهم بعض الشبان الأقوياء البنية المفتولى العضلات وهم شبه عرايا وهؤلاء هم الذين كانوا يتبادلون قرع الطبـول •

وفى وسط الحلقة كان يجلس مطرب الحفل وكان يقوم بترديد شعارات الحفل وأمامه مجموعة يقفون فى صفوف لترديد الأناشيد التى يغنيها المطرب ، وفى الوسط كان يجلس الزعيم الأكبر صاحب الحفل وكان يتحرك يمينا ويسارا يحمل سوطا يضرب به فى الهواء وكان حافى القدمين ويحاول ابعاد المتجمهرين عن وسط الحلقة ، وعلى بعد خطوات من هذه الحلقة يقع الممر الرئيسى المؤدى للدخول الى هذا المهرجان ، وكان هناك الى جانب ذلك مجموعات من الفتيان والفتيات يدورون حول الحلقة فى استعراض راقص ، وكانت الفتيات يتحركن فى ايقاعات مختلفة ، وكنّ فى مجموعات من الشابات الزنجيات السودوات كلون خشب الأبنوس ، وكانت كل واحدة منهن تغطى وجهها بغلالة شفافة تنسدل على كتفيها وكانت هذه الغلالة تكشف عن مفاتن وجوههن وأعينهن وشفاههن الحمراء وما كنّ يرتدينه من الحلى الذهبية كالأقراط وغيرها •

كما كن يرتدين ملابس جديدة صنعت خصيصا لتلك المناسبة ، ويتألف كل ثوب من قميص فضفاض مطبوع بالنيلة ، وكان الثوب يتألق تألقا شديدا تحت أشعة الشمس ، وكانت الفتاة تمسك بأحد طرف الثوب بينما يدها الأخرى تمتد الى الأمام فى حركات بديعة منسقة ، وعندما كانت ترقص كان رأسها ثابتا لا يتحرك فيميل يمنة ويسرة بينما كان جسدها يهتز أثناء هذه الرقصات ، وكان أمام كل واحدة منهن شاب يحمل سيفا فى يده ويلتفت يمينا وشمالا ثم يعود ليقف فى مواجهة الفتاة ، وكانت هناك مجموعات أخرى من الزنوج كل مجموعة تتكون من ثلاثة أو أربعة شبان كانوا من وقت لآخر يصوبون بنادقهم ويطلقونها فى الهواء ثم يدورون حول الحلقة فى ايقاعات ورقصات تشبه رقصات الخيل • بينما أبصارهم مركزة أمامهم غير عابئة للجمـال الذى يحيط بهم •

الفصل الرابع

فى جبال القرا وعين أرزات

تأجل القيام بالرحلة قرابة ثلاثة أسابيع فى انتظار عودة الرسل الذين أرسلتهم الى منطقة الرمال بغرض استطلاع الحالة هناك ، لكنه كان انتظارا بلا جدوى فلم أتلق اشارة أو خبرا من سهيل أو رفاقه .

وكانت تصلنا من حين الى حين أخبار عن نشوب حروب قبلية بين سكان المنطقة ، ولقد شاع خبر رحلتى فى الأوساط التجارية وكان الفضول هو الذى يدفع الناس الى معرفة أخبارى . ولكى أضع حدا لهذه الاشـاعات قررت أن أقوم برحلة الى جبال القرا . فهذه منطقة مجهولة حتى الآن ولم يصل إليها أحد من المكتشفين غير الأخوين تيودور ومابل بنت .. ولكن جبال القرا منطقة مملوءة بالمنازعات والأحقاد القبلية ، حتى أن جلالة السلطان أو نائبه لم يزوراها الا مرة واحدة .. كما لم يطأها قبلهما انسان ما .

هذه المنطقة هى مفتاح الطريق الى بحر الرمال ، ولهذا فقد تصورت بأن زيارتى الى هذه المنطقة قد تعنى أكثر من مجرد ستار لمشروعاتى وخططى القادمة[1] .. والحقيقة أننى كنت أتطلع بفارغ الصبر الى زيارة منطقة

---

(١) رغم اننى كنت اشغل منصب وزير فى حكومة صاحب الجلالة سلطان عمان وكنت أول من نقل العملة النحاسية من عمان الى المنطقة الجنوبية وذلك فى عام ١٩٢٦ (فقد كانت المعاملات التجارية قبل ذلك التاريخ تجرى على أســاس المقايضة) .. ، الا اننى لم تكن لى اية صلاحيات فى ظفار كما لم يكن حتى لمجلس الوزراء العمانى شىء من هذه الصلاحيات ، لأن السلطان كان يعتبر ظفار ملكية خاصة ، وكان يحكمها من خلال والى يقوم جلالته بتعيينه

الجبال لمعايشة سكانها والاقامة بينهم • وكان الدافع الى هذا هو التعرف على عادات أهل الجبال وتقاليدهم ومعتقداتهم وسلوكهم وطريقة حياتهم • ذلك أن هذه المنطقة فى الواقع تشكل حقلاً خصباً للدارسين فى السلالات البشرية • ولمعرفة ما اذا كانت هناك صلة ثقافية أو لغوية بينهم وبين عرب الشمال أو بينهم وبين الجنوب الغربى • أو ما اذا كانوا هم وحدهم يؤلفون سلالة عرقية أخرى فى شبه الجزيرة العربية •

وهكذا حملت بندقيتى وتزودت بما يكفى من الذخيرة ، وبعدة الصيد ، وبعض أدوات الجراحة • وبعض زجاجات من محـــلول الزرنيخ وبعض الصابون المعقم والقطن الطبى •• وبحكم موقع شبه الجزيرة العربية على حدود ثلاث أقاليم كبرى تعيش فيها أنواع عديدة من الحيوانات فانها لابد أن تستأثر باهتمام خاص للباحثين • ولأن متاحف العالم لا تحوى أى نوع من أنواع الحيوانات التى تعيش فى المنطقة الجنوبية الوسطى من شبه جزيرة العرب ، فان هذا الاحساس يضاعف من متعة الانســـان بالصيد فى أرجائها •

وقد تعمدت ألا آخذ بندقيتى معى لأننى لو فكرت فى اصطياد بعض الطيور لأحملها معى فان هذا العمل قد يستهلك الكثير من وقتى ••

فى مسقط تخلف سكرتيرى العمانى على محمد لمرض ألم به ، وكان قد صحبنى فى الرحلة الأولى فى سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ ، وكنت أعهد اليه بمهمة جمع الطيور التى أصطادها ، وكان الأمر يتطلب كتابة أسماء كل نوع من هذه الطيور والمناطق التى تعيش فيها والارتفاعات التى تصل اليها فى طيرانها ثم تحديد جنسها وتاريخ اصطيادها •

شخصيا . ونفوذ السلطان على ظفار هو نفوذ يمارسه شخصيا ولم يتخلله أى تدخل أجنبى وعلى الرغم من أن الحكم كان قبليا فى طابعه الا انه كان أفضل النظم القبلية فى الجزير ةالعربية .

وبالاضافة الى جمع هذه المعلومات كنت أواجه مشكلة كان لابد من ايجاد حل لها وهى كيفية توزيع الوجبات اليومية منذ الاستيقاظ ، واعداد الخرائط وكتابة الملاحظات ، ولكنى عن طريق التجارب استطعت أن أحل هذه المشـــكلة •

وعملية كعملية سلخ الجلود للحيوانات الثديية الكبيرة تتم باحداث شق طويل فى بعض أجزاء جسم الحيوان • وهذه مهنة كنت أعهد بها الى أحد البدو المرافقين وأتولى اللمسات الأخيرة فى هذه العملية بنفسى ، أما الجماجم فقد كنت أغمسها فى ماء مغلى ليتم تنظيفها من تلقاء نفسها •

أما بالنسبة للزواحف فقد كنت أقوم باستخراج الأمعاء قبل غمسها فى زجاجات محلول الزرنيخ ، وكنت أوجه عناية خاصة للفراشات وغيرها من الحشرات ، وبالنسبة للطيور الصغيرة ذات الأجنحة الرقيقة فقد كانت تأخذ منى وقتا كبيرا فى اعدادها ولهذا لم أعتمد على المعلومات التى زودنى بها صديقى الأستاذ ان بى كنبر •• صاحب المكتبة الواقعة فى ثَوْتْ كنسنجتون ، والذى كان لاهتمامه لمشروعى وتشجيعه لى فضل كبير فى هذه الهواية التى جعلتنى أهتم بجمع هذه الآثار لمتحف التاريخ الطبيعى فى انجلترا •

توقفنا بالقـــرب من أحد الجداول تحت ظل غيضة ، لنأخذ قسطا من الراحة • وهنا شاهدنا قطيعا من البقر يخوض فى الماء على مهل وينظر الينا فى ذعر • ويصعد ماء هذا الغدير الى قرية ملواح العود على ارتفاع ميلين من سطح الأرض وتحيط بهذه القرى الأشجار من كل جانب • ورأينا بعض النباتات والطحالب ومن هنا يستأنف الجدول مجراه فى مهل مارا بالمنحدرات التى يبدأ منها فى تغيير خط مجراه نحو السهل عبر طريقين يتجه الأول منهما نحو حمران • ويتجه الطريق الآخر نحـــو أرزات مارا بالمعمورة التى يتفرع منها الى فروع كثيرة •

وفى الصباح خرجت من المخيم الى مكان فى أحد الوديان الصخرية الذى كان جافا من المياه وكان معى شبكة صيد الفراش ، وهناك وجدت قطعا من الصخور الكبيرة تبين من فحصها أنها كانت من بعض الأضرحة • وكانت كل صخرة عبارة عن لوح ضخم بيضاوى الشكل يبلغ طول الواحد منها اثنى عشر قدما •• والأضرحة التى رأيتها فى هذه المنطقة تشبه تلك التى شاهدتها فى خورروري ، وخور صولى ويستدل الأهالى من حجم الأضرحة على أن أجدادهم كانوا من العمالقة •

وأثناء سيرنا قابلت أحد سكان الجبال فحييته فوقف ليرد التحية بطريقته وهى رفع بندقيته فوق رأسه ثم اقترب منى وكان الرجل نموذجا للجبلى قصير القامة داكن البشرة ذا شعر طويل مجعد وبدون لحية وهذه هى الملامح التى تميز ساكن الجبال عن العربى ساكن الشمال • وكان عريض الحاجبين ذا ساقين متساويين وبنية نحيلة ، الى جانب ساعدين نحيلتين أيضا وكان يرتدى ازارا قصيرا لا يغطى سوى ركبتيه وعلى جسده بقع حمراء وقد اسودت بشرته من كثرة ما يدهنها من النيلة وكان عارى الرأس حافى القدمين حليق الشعر فيما عدا ضفيرة مجدولة تلتف حول رأسه تشبه العقال العربى •

•• « هات بخار » •• بهذه الكلمة حياه أحد الخدم المرافقين لى وكان يتكلم الشحرية ، غير أن الجبلى كان قليل الكلام وكان ينظر الىّ فى استغراب ، ثم سأل الخادم عنى وما اذا كنت رجلا حرا • وقال أليس هذا الرجل كافرا ؟ • فرد الخادم : حاشاك •• انه أحد وزراء السلطان •• وعندما عرفنى بنفسه وأنه من سكان جبال القرا ، سألته وأنا ابتسم له : هل تبيعنى الحبوب التى معك • وكان يحملها فى جراب من الجلد يمسومنه « عنيت » • وكان متوجها الى أرزات لبيعها ، فأجاب : كم ستدفع لى فيها ؟ •• فقلت : ريال واحد ، فأطلق نفسا طويلا دليلا على موافقته •

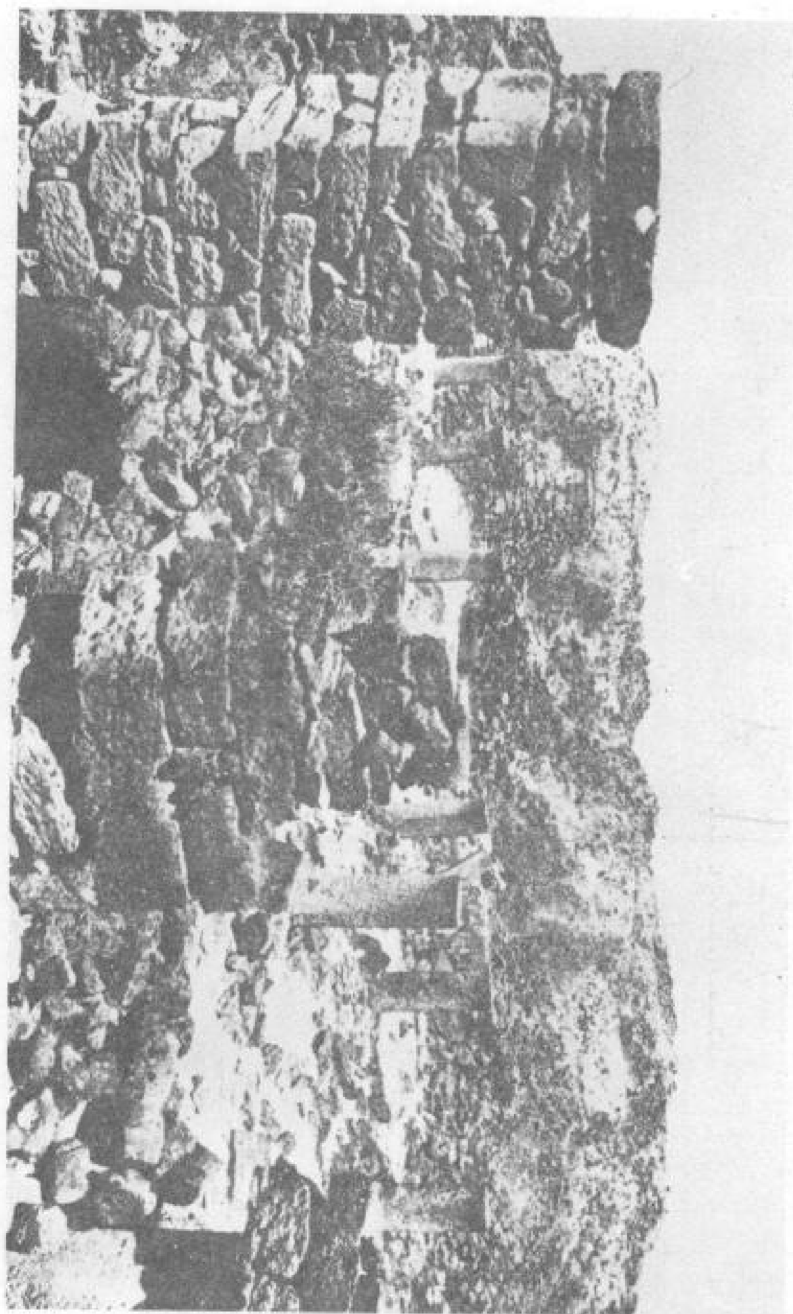
فأخذت الحبوب منه .. والحقيقة أنني لم أكن فى حاجة الى تلك الحبوب ولكنى أردت أن أغير مجرى الحديث بالابتعاد عن الموضوعات الدينية . وقد بقى الرجل معنا ، وكان دليلنا فى منطقة الوادى طوال ذلك اليوم وحتى مصب الجدول ، وفى يوم ١٩ أكتوبر عام ١٩٣٠ ، غادرت بعثتنا المكونة من على ضبعان وفردين من الكثيريين (نفس المجموعة) التى رافقتنى فى رحلتى خلال السنة الماضية وقد زودنا الوالى بخمسة من الحرس الحكومى . وقبل أن نقوم بالرحلة أجريت اتصالات بالعائلات التى سنقيم عندها لكى تنتظرنا فى منطقة عند سفح الجبل .

كان طريقنا يقع الى الشرق على شاطىء حاقه .. فمررنا بصفوف من أشجار جوز الهند التى كانت تفصل بين المنطقة التى نقصد التوجه اليها وقرية « بليد » . ومنها دخلنا السهل الواقع ، ويسمى هذا السهل بالحصيلة .. وكانت تتناثر فوقه الكثير من المعالم الأثرية[1] . ورأينا فى طريقنا مدينة أخرى تعتبر أكثر قدما من الأولى . وكانت الآثار التى شاهدناها كالآبار والقنوات والتلال دليلا على وجود صناعة قديمة فى هذه المنطقة ، كذلك فان وجود القنوات فى منطقة السهل الحجرى دليل على وجود حضارة غابرة تبين أن قطع الأحجار كانت تستعمل على نطاق واسع فى عملية الانشاء . ويمكن للزارعين أن يزرعوا بعض المناطق فيها نظرا لوجود تراكمات فى التربة الرطبة .. فى الطبقة تحت السطحية . كما أن الأهالى يهربون اليها عندما تتفشى الأوبئة كالجدرى والجذام[2] . .

---

(١) ... ومن أبرز معالم تلك الآثار ذلك الصف من الأعمدة البدائية البسيطة المثمنة الأضلاع ، والمقامة على قواعد حجرية مربعة ويبلغ متوسط طول العمود نحو ستة أقدام وهذه الأعمدة هى مع الطنف المقامة عليها توحى بأنها بنيت كحاملات للأقواس .. وكل قاعدة من القواعد تتدرج فى الارتفاع الى ما يعادل قامة انسان وتستند على صفين أو أكثر من هذه الأعمدة تبعا لحجم العمود وتتناثر حولها حجارة صغيرة سوداء .

(٢) .. يقال ان السفن الشراعية القادمة من الهند هى التى تحمل هذه العدوى الى المنطقة .



(بعض آثار بليد)

بعد ليلة غير مريحة بسبب وجود البعوض بكثرة فى منطقة السهل • غادرنا المكان الى جبل « ناشب » وهو أعلى منطقة فى سلسلة جبال القرا •

وفى الطريق رأيت المزرعة التجريبية التى أنشأها السلطان فى المعمورة • ومنها سرنا الى منطقة التلال الواقعة على السفح الذى اكتشفناه بواسطة هذا الجبلى ، وجمعت عددا وفيرا من اليعاسيب والفراشات والسحالى •

فى سفح على أحد المنحدرات الجبلية الكثيفة الشجر جلست أراقب الماء يتدفق من الجدول مكونا بحيرة تحيط بها صفوف من الأشجار العالية • وكنت أجلس تحت ظل شجرة عملاقة من هذه الأشجار أراقب الأسماك وهى تتحرك داخل الضحضاح بينما أخذ العبيد المرافقون يحاولون صيدها بشبكة الفراشات التى أحضرتها معى •

ولقد استرعى انتباهى وجود بعض الأطعمة والأرغفة ملقاه بالقرب من مجرى الجدول • وعرفت أن هذه الأطعمة تسمى النغوش ، ويقصدون من القائها فى المكان طرد الشياطين التى تزور موتاهم ، فهم يعتقدون بأن أرواح الموتى تنتقل الى هذا المكان بعد وفاتهم ، وفى وسع هذه الشياطين التى تزور الموتى أن توقع الضرر بهم • وتتكون هذه القرابين من الطعام أو التبغ وعند القاء الأطعمة وغيرها فى هذا المكان يردد أصحابها بعض العبارات مثل : أيتها الأرواح انما نحن أبناؤك وبناتك فلا تؤذينا وظلى يقظة دائما لرد كيد الأشرار والأرواح الخبيثة عنا •

وفى هذه المنطقة وقعت حادثة شهيرة بشأن النذور هذه ، كان ذلك فى أيام الوالى سليمان •• فقد طالبت احدى قبائل بيت زيان وهى فرع من الشحرة بملكيتها للأرض التى تقام النذور عليها • غير أن قبائل القرا اعترضت على هذا الطلب بدعوى أن تلك القبيلة انما هى تابعة لها • ثم طالبت تلك القبيلة ذاتها بحقوق مماثلة فى تلك النذور والحصول على ما تدره من دخـــل •

وأحيل موضوع الدعوى الى والى الحكومة الذى قضى بأن تكون ملكية المنطقة مشتركة بين الطرفين المتنازعين وحدد نصيب كل طرف من هذه الحقوق اقرارا للعدالة •• وبهذا الحكم حافظت الحكومة على وجودها فى المنطقة الا أن الأحداث اضطرت الوالى فيما بعد الى شن حرب على سكان الجبل الذين قاموا بتغيير مجرى الماء عن طريق استحضار الأرواح لموتاهم التى استجابت لطلبهم وبذلك حرمت الحكومة من نصيبها فى هذه الأراضى •• أو هكذا تقول الأسطورة •

وحتى اليوم • لايزال سكان هذه المنطقة يمارسون الطقوس والمعتقدات القديمة التى يؤمنون بها ايمانا مطلقا • بينما تعد هذه المعتقدات أعمالا محرمة فى الأجزاء الأخرى من البلاد العربية •

ومن العادات المنتشرة بين سكان هذه المناطق عادة تقديم القرابين أو الأضاحى قبيل موسم الحصاد حيث تنحر الذبائح فى المزارع ، ويتم اسالة دمائها فى قنوات مياه الرى بينما تنثر قطع من لحومها بين المحاصيل •

كنت مع زملائى نجلس عند حافة الوادى ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية على التلال الخضراء أمامنا ، ونسمات عاطرة تهب علينا ، بينما كانت الطيور تشدو بألحانها العذبة وكان بالقرب منا قطيع من البقر يرعى العشب فى دعة واطمئنان • ورأيت بالقرب منا امرأة سوداء تكاد تكون عارية ، وتحيط بها مجموعة من صاحباتها • وكانت جالسة تمشط شعرها الأكرت بينما كان طيفها يتراقص على سطح البحيرة ، وكانت الى جانبها سيدة أخرى تغط فى النوم تحت احدى الأشجار القريبة • فطلبنا منهن شيئا من اللبن ، فخفت الينا احداهن بوعاء كبير من اللبن ، فأخذ أحد المرافقين يغازلها ، ثم تحدثت الينا فقالت بأن النسوة الأخريات الجالسات هن سيداتها وأنهن زوجات أحد السادة ، وهو نفس الشخص الذى يملك القطيع ، وقالت بأن سيدها هذا على وشك الحضور • كما عرفت بأن المرافق الذى كان يحدثها شحرى ، وليس من جبال القرا •



(رجـل وثعبـان)

وعلى أية حال فقد عنّ لمرافقى الشحرى أن يختبر هو الآخر شجاعته ورجولته عندما استأذن فى الانصراف لاحضار حية لى ، ثم عاد بعد مدة وهو يحمل حية ضخمة من فصيلة الكوبرا تمكن من ضربها بعصاه ، غير أن قتل الحية وحدها لا يكفى بالنسبة لى فلابد من الاحتفاظ برأسها وان كانت هذه مسألة بالغة الصعوبة •• وعموما فقد نجح الشحرى فى هذا ، وعاد بالحية وهى لاتزال على قيد الحياة ، فيما عدا كسر فى ظهرها • وقد جاء يحملها من مسافة بعيدة ولكن ما ان وصل وألقى بها على العشب أمامى حتى ماتت وان كان ذيلها ظل يتحرك فتناوله الرجل وكحل به عيناه وقال بأن ذيل الحية دواء مقو للعين •• ولكنى تساءلت عند ذاك ما اذا كان ذيل الحية له علاقة بالمعتقدات السحرية لأن الروح كما يقولون تخرج من خـــلاله •

بعـــد قليل حضر شخص ضخم الجثة من ســـكان المنطقة الســـاحلية الذين يختلفون فى هيئاتهم عن سكان الجبل وقال ان اسمه السيد حسن وانه صاحب قطيع البقر وزوج السيدات الجالسات على الجدول • وسألنى ما اذا كنت قد أخذت كفايتى من اللبن ، ولكنى طلبت منه المزيد ودخلت معه فى حوار عن أحواله وعن أسعار التمر خلال الموسم وعن أســـواق التمر فى البصرة وعمان باعتبارهما المناطق التى يتحدد فيها أســـعار التمـــــر •

وقد أخذ الرجل يحدثنى عن الحالة فى منطقة الجبل وانتشار أعمال السرقة مما يحتم على السكان أن يظلوا يقظين طوال الليل خوفا من لصوص تداهمهم • وكان يحمل بندقية جاهزة للطلق وأخذ يتحدث عن الحكومة وتساءل لمـــاذا كانت متهاونة الى هذا الحد ولمـــاذا لا يأمر السلطان بقطـــع يد الســـارق كما ينص القرآن وكما كان معمولا به فى صـــدر الاسلام ، وقال بأن الطريقة المتبعة حاليا بارسال السارق الى سجن مسقط ثم اعادته بعد سنة أى بعد انتهاء العقوبة • طريقة غير مجدية •

والواقع أنه لا يوجد قبلى واحد قد تحدثه نفسه بسرقة أحد السادة (الأشراف كما يسمونهم) وفيما عدا ذلك فلا تعتبر ظفار منطقة متخلفة عن العالم لأن السادة[1] والأشراف هم بمثابة طبقة النبلاء ومركزهم فى السلم الاجتماعى يعلو مركز القبائل لأنهم يعتبرون من سلالة النبى صلى الله عليه وسلم ومن يحبيهم من أفراد القبائل فانه ينال البركة من الله .

وقد عاد حسن الى موضوع العفاريت ولكنى قلت له صراحة بأن العفاريت غير موجودة فى بلادنا ولهذا لا أعرف الطريقة المثلى لرد هذه العفاريت . ولكنه أقسم بالله بأن زوجته حملت سبع مرات ولكنها فقدت أولادها جميعا عند ولادتهم لأن العفاريت أخذتهم جميعا .

وفى هذه المنطقة كثير من الخرافات ، منها العفاريت أو الأرواح الشريرة والجن والزار ، وأكثرها انتشارا هو الزار وهم يعتقدون بأن الجان يمكن أن تستجيب ولكن العفاريت هى البلاء الأزرق .

فى احدى الليالى توجهت مع على ضبعان لنصطاد ضبعة فى مكان ما من هذه المنطقة التى تعج بالحيوانات المفترسة[2] .. فقد سمعنا عواء أحد هذه الحيوانات فى الليلة السابقة . ولكن نار المخيم فيما يبدو لم تفلح فى استدراج الضباع من مخابئها . وفى اليوم التالى أعد على ضبعان مخبأ لنا وكان عبارة عن نصف دائرة من الأحجار المرصوصة كالحائط .. وكان المخبأ يتسع لنا نحن الاثنين ، وقد أخفينا الفتحات ببعض الأغصان حتى

---

(١) ... كلمة سادة بمفهومها هذا تعنى الذين يتصلون بنسب للامام على بن أبى طالب زوج السيدة فاطمة كريمة الرسول صلى الله عليه وسلم وبالتالى فان هذا النسب ليس نسبا مباشرا . اما العمانيون فلهم راى يخالف هذا الاعتقـــــاد .

(٢) ... مما تجدر الاشارة اليه هو أن الفهد يعيش فى الغابات غير المأهولة بينما يعيش الايل العربى فى جبل سمحان والمناطق الجبلية غير المأهولة . اما الثعالب فتوجد فى كل مكان بينما الظباء والغزلان فتوجد بكثرة فى السهول .

لا ترى الحيوانات بنادقنا • وبالقرب من المخيم ترك على ضبعان أمعاء خروف كطعم وأوقد نارا بالقرب منها لكى يحمل الهواء الرائحة الى عرين الحيوان ولم تنجح فكرر العملية فى اليوم التالى بوضع كمية من سمك السردين ، ولكن الحيوانات لم تظهر فانسحبت أنا وحل محلى أحد البدو من بيت كثير •

وفى الليلة التالية جاء الوحش فقد سمعت وأنا فى فراشى طلقتين أعقبهما عواء أيقظنى من النوم فهرعت الى المكان ويبدو أن الحيـــوان استطاع الفرار ولكن آثار الدماء التى تخلفت كانت تدل على اصابته ببعض الجروح • وأخذ البدويان يؤكدان لى بأن الطلقة كانت قاتلة فذهبا يتعقبان أثر الحيوان بقدر ما كان يسمح به ضوء القمر • وقد أقسم الاثنان بأنهما لابد عاثران على السبع ميتا فى مكان ما من المنطقة •• ولكنى عرفت فى اليوم التالى بأن الحيوان قد تمكن من الإفلات ربما ليلفظ أنفاسه فى أحد الكهوف • وقد علق أحد الرجلين قائلا : بأنه لو كانت تلك الطلقة فى منطقة مكشوفة لكان فى الامكان تعقب الضبع حتى مخبأه •

الفصل الخامس

المخلفات القديمة وقرابين الدم

.. « أن فكرهم الباطن هو أن منازلهم ستبقى الى الأبد ، وأماكن سكناهم لجميع الأجيال فهم يطلقون على أراضيهم أسمائهم » ...

لاتزال أسماء المناطق فى جبال القرا مشتقة من أسماء أصحاب البلاد الأصليين ، أى الشحرة الذين يعتبرون بإجماع الآراء أقدم قبيلة استوطنت هذه المناطق وتنتمى هذه القبيلة الى شداد بن عاد على حسب رأى أهل البلاد . أما اليوم فانها قبيلة ضعيفة تمزقها الانقسامات القبلية . ومن حيث وضعها الاجتماعى تعتبر فى أدنى مستوى حتى أنها لا تجد بين القبائل الأخرى من هو على استعداد لمصاهرتها والخلاصة أن الشحرة قبيلة مهددة بالانقراض .

الجد الشحرى	القبيلة التى تستوطن عندها	الاسم الاقليمى الحالى	اللهجة الشحرية
زفرول	بيت تبوك	حدب ذومرى	حدب ذومرى
عناريم	بيت كشوب	حدب ذومرى	حدب ذومرى
زارت	بيت قطن	الخانى	بيت خونى
عتيرون	بيت المعشنى	قرا	بيت قرو
حبزول	بيت المعشنى / بيت جعبوب	فياح	بيت فات
بل زبون	بيت سعيد	قبله	تباله
قبطون	بيت عمر	ديان	آدين

— بن زربيح

زربيح .. اسم فرعى لقبيلة بيت الكثير — بن زفتير



(جبال قارا تشرف على وادي نهاز)

أوت .. هى اللفظة الشحرية لكلمة بيت .

أروبير .. هى اللفظة الشحرية لكلمة بن .

ولا يزيد عددهم الآن عن بضع مئات يعيشون جماعات وسط طبقة السادة من سكان القرا ينتزعون لقمة العيش بشق الأنفس من بيع الحطب . ومع ذلك فإن الحديث لا ينقطع عن آثارهم فى الروايات التى يقال بأنه كانت توجد فيها أريوط عاصمتهم العظيمة فى يوم من الأيام .

واذا صحّ هذا الرأى ، فان التدهور الذى منيت به دولة الشحرة القديمة هو التفسير الوحيد لما طرأ على المنطقة الجبلية من تغييرات ، لأن سكان القرا الحاليين والذين تمتد حدود منطقتهم من « ضربة على » الى حضبرم[1] . لم يعرفوا بناء المدن والجوامع ، وهم يعيشون حياة بدائية داخل الكهوف أو بيوت من القش ، كما أن حياتهم تعتمد على تربية الابل والمواشى وزراعة اللبان . ومن خلال سيطرة هؤلاء على المناطق التى تقيم فيها الشحرة ، تأثروا بثقافتهم ، ومن المرجح أن تكون أنماط المعيشة والأزياء التى يرتدونها قد انتقلت اليهم من أتباعهم ، وغير معروف على وجه الدقة متى حدث هذا الاقتباس .

وقد كتب الرحالة المغربى الذائع الصيت ابن بطوطة الذى عاش فى القرن الرابع عشر وقام برحلته التاريخية الى العراق والجزيرة العربية . كتب يقــول :

« وبالاضافة الى ذلك فان سكان ظفار يشبهون الى حد كبير سكان شمال أفريقيا فى عاداتهم ، وملامحهم وعلى الأخص الأجزاء البارزة منها فهى لا تدل على أنهم يمتون بصلة الى عرب الجزيرة وانما تدل على انتمائهم الى البربر » .

---

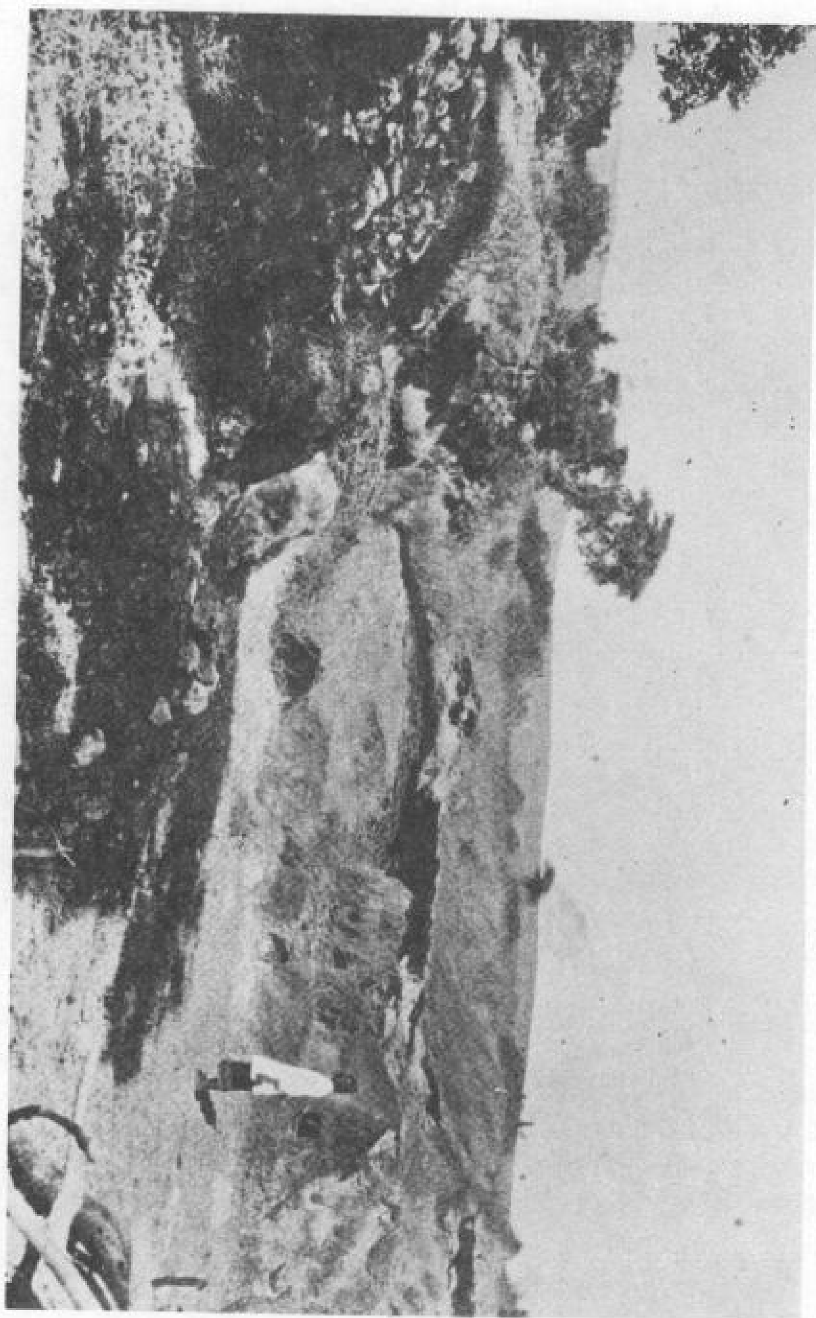
(١) ... باستثناء مستوطنات آل كثير الواقعة فى الجزء الغربى الأوسط بين « جرزير » و « تيفــا » .

وبالقرب من هذه المنطقة الجبلية وخلفها ابتداء من خط طول ١٠ر٥١ درجة حتى خط طول ٢٠ر٥٦ درجة تعيش احدى القبائل التى تختلف فى سماتها عن عرب المنطقة الشمالية . وهؤلاء يتحدثون لغة قومية واحدة ليست عربية[1] . وهذه المناطق تشمل القرا والشحرة والمهرة وبرحمة وبلحاف، وبيت الشيخ والبطاحرة والحراسيس وعفار ، والذين يسموهم أهل عمان بأهل الحدارا . (ولعل هذه التسمية لها صلة بالحضارم) ، كما جاء ذلك فى سفر التكوين بحذف الميم الأخيرة باعتبارها أداة الجمع فى اللغة السامية وأداة التعريف فى اللغة السبئية القديمة واللغة الأدرمايتية . كما ورد فى مؤلفات « بللينى » .

ومن الناحية الجغرافية تعتبر جبال القرا فى هذا الجزء من التجمع السكانى فى جنوب الجزيرة العربية ، الملجأ الطبيعى لسكانه الأوائل الذين أرغموا على الانسحاب الى المناطق الشرقية والجنوبية من هذه الجبال تحت تهديد شعوب أخرى أو غزوات قادمة من البحر .

---

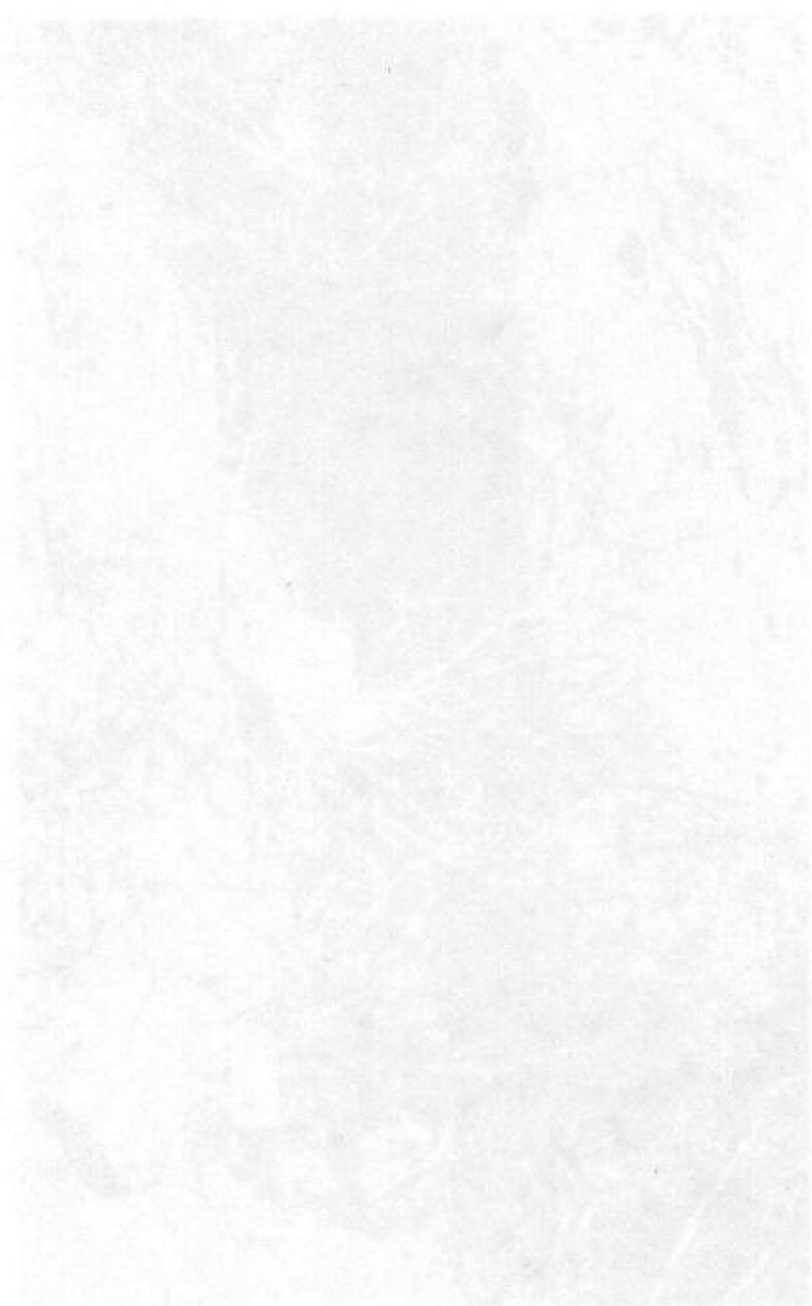
(١) .. لقد قمت باعداد جدول خاص باللهجات الأربع الدارجة وهى الشحرى والمهرى والبطاحرى والحرسوسى . يتألف من ٥٠٠ كلمة لكل منها . كما استخلصت منها بضعة قواعد لغوية بسيطة وكل هذه اللهجات يرجع فى أصله الى المجموعة السامية ، وان كانت لها جذور أساسية فى اللغة الحبشية أكثر مما فى اللغة العربية . فالفصائل القبلية التى تتكلم لغة الشحرة هى قبائل القرا والشحرة وبو رحمة وبيت الشيخ ، واللهجة المهرية تتكلمها قبائل المهرة ... ولهجة البطاحرة تتكلمها قبائل البطاحرة ... ولهجة الحراسيس تتكلمها قبائل الحراسيس وعفار ... وبالنسبة للهجة الشحرية فلا يفهمها الذين يتكلمون اللهجات الأخرى ويصعب التفاهم بها بينهم ، ولم اكن أعرف من قبل بأن الدكتور ماكس ميليان بتنر عالم اللغات الألمانى قد تعرض الى موضوع اللهجتين الشحرية والمهرية وذلك فى سياق تعليقه على المعلومات التى سبق أن جمعها الدكتور « موللر » فى كل من حضرموت وسومطرة خلال رحلته الى شبه الجزيرة العربية (١٩٠٢) ثم حول ما جمعه الكونت « لاندبرج » ... عن رحلته الى المنطقة خلال ١٨٩٨ — ١٨٩٩ ويبدو أن لهجة الحراسيس والبطاحرة تختلف عن لهجة المهرة ولكن لم يقم احد بالبحث فى هذا الموضوع .



(كهوف وصخور فى جبال تارا)



(صخور وكهوف أخرى في جبال قارا)



ما أروع المشهد الذى أمامى الآن . سلسلة من الجبال الشاهقة تطل بمنحدراتها المطرزة بالمروج والغابات الخضراء والحقول النضرة على المحيط ، وخلفها من الجهة الشمالية سلسلة من الهضاب الرملية تمتد الى أسفل الوادى .. انهما جانبان متناقضان تمام التناقض ، ومع ذلك فان هذا التناقض هو الحقيقة الواقعة على امتداد المنطقة أعلى سهل جربيب . ولقد أحسست بمتعة كبيرة وأنا أدخل تلك المنطقة عام ١٩٢٨ من حدودها الجنوبية الصحراوية . لقد ظهر من البداية الجانب الأحمر[1] من هذه المنطقـــة .

وادى ريكوت وادٍ تكسوه الأحجار البيضـــاء ويمتد الى ممر من الصخور الحمراء ، وهو يرتفع فى بعض الأجزاء الى ما يزيد على مائة قدم . وقد نحتت الطبيعة فوق قممه أطرافا حادة النصال . بحيث تضفى ألوانها ظلالا قاتمة على المنطقة .

وقد تذكرت وأنا أرى هذا المشهد المناطق الخصبة الخضراء فى البلاد العربية ، ومن هذا المـــكان انتقلنا الى وادى قطن . وهو كثيف الأشجار تزرع فيه بعض الأنواع المفيدة من النباتات وان كانت لا تصل فى أهميتها الى اللبان — ومن تلك المنطقة توجهنا الى وادى « دهاق » عبر طرق كثيرة الأكمات وهى عبارة عن هضاب يصـــل ارتفـــاع بعضها الى خمسمائة قدم . وأثناء وجودى فى هذه البقعة أخذت أتساءل ما اذا كان

---

(١) .. من المحتمل ان تكون كلمة « ظفار » تتألف من مقطعين . خبر وعفار . اما لام التعريف المستعملة فى اللغة العربية فغير معروفة فى لهجات سكان جنوب شبه الجزيرة العربية .. ومعنى الكلمة الأرض الحمراء .. ومن المعروف ان تكون لكلمة عفار مدلولات كثيرة فهى مثلا قد تعنى :

١ — واحدة من اكبر مناطق زراعة اللبان — عفار .
٢ — وادى كبير — كما انه اسم لأحد القبائل — عفار .
٣ — وادى كبير — عفـــــور .
٤ — سحب .. ومعناها البلاد التى تكثر فيها السحب بما يتفق وكلمة الأرض الحمراء عفور .

الرحالة « بنت » قد زار تلك المنطقة وتجول فيها .. وما اذا كان « أبيسا بولس » وبطل العالم الفلكى البطليموس قد تصور وجوده فى مثل هذا المكان ، وقبل أن نصل الى ذلك المكان ظهر لنا شاطىء البحر فى وقت كان الضباب ينحسر عنه ، ومنه انتقلنا الى وادى « ثريت » ، وشاهدت فيه منظرا من أبدع المناظر وأروعها فقد ظهرت لنا قمم أشجار الصفصاف وهى تحيط بالمنطقة من كل جانب ثم أخذنا نشق طريقنا وسط الأوحال التى كانت نباتاتها تتكسر تحت أقدامنا وكأنها أرادت أن تعلن عن قدومنا لأسراب طيور مالك الحزين التى تعيش فى تلك الأحراش .

لقد قضينا وقتا طويلا فى أرزات الى أن أحسسنا بأن بقاءنا هناك لم يعد مرغوبا فيه . لذلك قررنا أن نغادر المكان صباح يوم ٥ نوفمبر الى مناطق الجبال . وقد حضر الشيخ حسن المكلف بالرحلة ومعه خمسة من الجمال الضخمة التى أعجبت بها اعجابا شديدا ولكن خاب ظنى بمجرد أن تحركت القافلة . فهذه الجمال على ما يبدو قد تربت فى المناطق الجبلية وهى من الأنواع التى ينحصر استعمالها فى نقل الأسماك واللبان فحسب وتبين لنا أن الحمولات الثقيلة تربكها وتجعلها عصبية ، غير أن الطريقة الفوضوية التى تمّ بها تحميل الأمتعة أسفرت عن انزال الحمولات أكثر من مرة مما سبب تأخيرا للقافلة قرابة ساعتين عن الموعد المحدد للرحيل كما كنا نتوقف من وقت الى آخر لتثبيت الحمولات أو الحيلولة دون سـقوطها .

وقد أمضينا ساعتين نسير فى طرق ملتوية بالمنطقة الغربية من السفح فى اتجاه وادى ثيدوت . وهو من الأودية الكبيرة ويحتل مكانا واسعا من المنطقة الجبلية[١] . وكنا كلما توغلنا فى هذا الوادى ازدادت الأشـجار

---

(١) .. اهم الوديان الموجودة فى تلك المنطقة هى من الشرق الى الغرب : وادى دربات ... وادى غدوت ... وادى احرثون .. وادى ريسـوت ... وادى أربوت ... وادى نحيز ... وادى جرزير .

كثافة ومررنا بمنطقة فى غاية الوعورة كثيفة الأشجار ومنها وصلنا الى بحيرة واسعة تتغذى من نبع صغير يسمى « صحنوت » (وكالحـــال فى المناطق الجبلية ، فان الأسماء التى تطلق على منابع المياه هى غير تلك التى تسمى بها الأودية) • وفى هذا المكان انحرفنا الى اليمين وأخذنا نتسلق مرتفعا فى اتجاهنا الى الجانب الغربى ، وقد أخذت الأشجار تزداد كثافة بحيث اضطرنا ذلك الى النزول من على ظهور الجمال والسير على أقدامنا ، غير أن الليل قد أرخى سدوله قبل أن نتمكن من الوصول الى الجهة التى كنا نقصـــدها •

ومع ذلك واصلنا السير عبر تلك الغابات الكثيفة ، لذلك لم تكن الرحلة مريحة وعلى الأخص لـــا انتابنا من الخوف من وجود الثعابين والأفاعى فى المنطقة • من أجل ذلك لجأنا الى تبادل النكات والمزاح فى محاولة للترويح عن النفس ولقد شعرت بكثير من الارتياح لروح الفكاهة والمرح التى كان يتحلى بها المرافقون رغم أنهم كانوا حفاة الأقدام على العكس منى فقد كنت أرتدى حذائى ولكنى كنت أتعثر أثناء سيرى على الصخور الكبيرة المتناثرة على الطرق ، كما كان ثوبى العربى « الدشداشة » يشتبك بقدمى أكثر من مرة أثنـــاء السير •

وقد انجلى الموقف عن ظهور وادٍ أخضر نضير ، فاقترحت التوقف لقضاء الليل فى ذلك المكان الجميل • وما كدنا نهبط من على ظهور الجمال حتى سمعنا صوتا لأحد قطعان الماشية ثم أعقبه صوت رعاتها وهم يصيحون « رحلة •• رحلة »[1] • ثم تبين لنا أننا فى منطقة قريبة من مد سيب • وبعد

---

(١) يطلق هذا الاسم على نوع من البقر ذو القرون المتدلية . فلكل نوع من البقر اسم خاص به وهى أسماء تتوارثها الأبقار تماما كأسماء الجمال والجياد عن طريق البقرة الأم وأصحاب البقر يعرفون كل بقرة فى القطيع فاذا ما ضاعت فان صاحبها يمكنه التعرف عليها حتى بعد مرور عام أو اكثر على سرقتها حتى ولو كانت ضمن قطيع آخر •

قليل قدمت لنا كؤوس اللبن الشهى • كما جاء أحد الأهالى بثعبان حى ، غير أنى كنت فى غاية التعب ، فلم أُبْدِ أى اهتمام بهذا الموضوع وطلبت من الواقفين حفظ الثعبان فى احدى الزجاجات الى اليوم التالى •

دبّ النشـــاط فى مخيمنا مبـــكرا فى صبيحة اليوم التالى وعندما استيقظت من النوم فى الصباح وجدت أننا مخيمون فى منطقة من أجمل المناطق الطبيعية وأروعها فعلى جانب الوادى رأيت مغارات • وأجرف صخرية فرشت أرضها بالقش لأن من عادة سكان تلك المنطقة أن يلجئوا الى هذه المخابىء خلال فصل الشتاء وفصل الصيف ، للاحتماء فيها اما لشدة البرد ، أو من شدة القيظ ، كما يتخذون منها مأوى لمواشيهم •

ولقد زارنا بعض رجال القرية ، يحملون الينـــا جرار اللبن إلى جانب العسل ، واللحم هو الغذاء الأساسى لسكان المنطقة وان كانت هذه الأطعمة هى أطعمة كمالية ، وكان من بين الزوار شيخ طاعن فى السن اسمه (حسن) وكان عمدة القرية ، هرما ضعيف البصر ، وقد أصر على الجلوس الى جانبى وعند تقديم المرطبات أخذ هذا الشيخ يغمس التمر فى فنجان القهوة ، حتى أخذ الحاضرون يضحكون من عمله هذا • وكان العجوز لم يسبق له أن عرف القهوة والتمر أو ذاقهما فى حياته ــ وعندما ارتدى ــ الشيخ العجوز حسن الثوب الأزرق الذى كنت قد أهديته اليه ضج المجلس بالضحك ، الا أنه بادر يشكرنى قائلا : عليك بياض ، ومعناها بيض الله وجهك ، وهو تعبير يرمز الى التقدير ، ثم قال : والله انى محبك أيهـــا الصاحب اننى اليوم كبير السن وقد أموت قريبا ولكنك اذا نطقت الشهادتين أى اذا قلت : (أشهد الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله) ، فسوف أزوجك اثنتين من بناتى وأهبك كل ممتلكاتى •

وقد آثار ذلك القول الهرج والمرج بين الحاضرين وقد وبّخه الشيخ حسن « مرافقى » على ما بدر منه •

كان من بين الأشياء التى كنت أحملها فى هذه الرحلة ، صندوق أحتفظ

فيه ببعض الأدوية وكان ذلك الصندوق سببا فى شهرتى بين أهالى المنطقة الذين اعتقدوا بأننى طبيب وأخذوا يفدون الىّ للعلاج وكان من بين هؤلاء صبى يعانى من امساك مزمن ، وكانت حرارته مرتفعة وييصق دما ، فطلب منى والده الكشف عليه لأن هناك اعتقاد يسود بين هؤلاء الناس بأن الكفار أو « المسيحيين » لديهم أدوية لكل داء غير أن المرافقين رمقوه بنظرة شذراء وأفهموه بأن هذه الكلمة غير مهذبة ولا يصح أن تقال ، على الرغم من أن الرجل لم يقصد بها أى سوء ، وهى متداولة وشائعة بينهم ، كما أخبروه بأننى أحد الوزراء فى حكومة السلطان •

كانت عملية تحميل المؤن والأمتعة عملية شاقة ، بسبب الجهد والرطوبة الشديدة ، وبعد أن سرنا نحو نصف ساعة عن طريق السيرين وصلنا الى أحد المرتفعات التى يصل ارتفاع بعضها الى ٥٠٠ قدم ومنها دخلنا بعض الحقول ورأينا فيها أكواما من القش مصفوفة ، كما رأينا أشجار التين العملاقة ومن وراءنا كان البحر يبدو بمياهه الزرقاء ، وكانت الأشجار تتمايل ويرتفع بعضها الى عنان السماء •

وعلى هذا الارتفاع الذى يصل الى ألف قدم يقل وجود الطيور وذلك على عكس الأودية والسهول ، ولم نشاهد الا بعض طيور اللقلق والجندب والباشق والجراد بأنواعه المختلفة • ومن بعيد بدا لنا وادى العين الذى كنا نتجه اليه وهو من الأودية الخصبة وتقطنه قبائل الشحر • وقد مررت بأحد الينابيع الغزيرة وكان الماء يتدفق منه الى الوادى ، كما شاهدنا أشجار التين الظلية العالية وهى تقوم مقام أشجار الجوز عندنا فى انجلترا ، كما شاهدت نوعا من الفاكهة يشبه التفاح ، وقد سحرت بمنظر ذلك المكان فقررنا أن نخيم فيه بعد عملية صعود استمرت ثلاث ساعات ووقتها أحسست بعطش شديد ، غير أن الوقت لم يكن يسمح بتناول شىء من اللبن ، لأنه كان وقت الظهيرة كما أن اللبن الزبادى (الرايب) الذى أحضروه الىّ جاء متأخرا بعد أن تناولت كأسا من ماء جوز الهند • ومن فوق قمة الجبل شاهدت جماعة الشيخ (حسن) مرافقى وكانوا ينشدون

أغانيهم الجبلية[1] •• وقد تجمع بعض الرفاق لاستقبال جماعتهم وأخذوا يلوحون بالسيف كنوع من الترحيب بهم • وأخذت بقية المجموعة تتجمع حول زعيم القبيلة الذى كان يتلو شعارات كلها تمجيد لأبطالهم ، كما وقفوا صفوفا وأخذوا ينشدون أغانى أخرى بينما كان البعض الآخر يرد عليها بنفس الطريقة ، وهكذا ازداد حماسهم فى الغنـــاء وظلوا يغنون قرابة خمس دقائق •

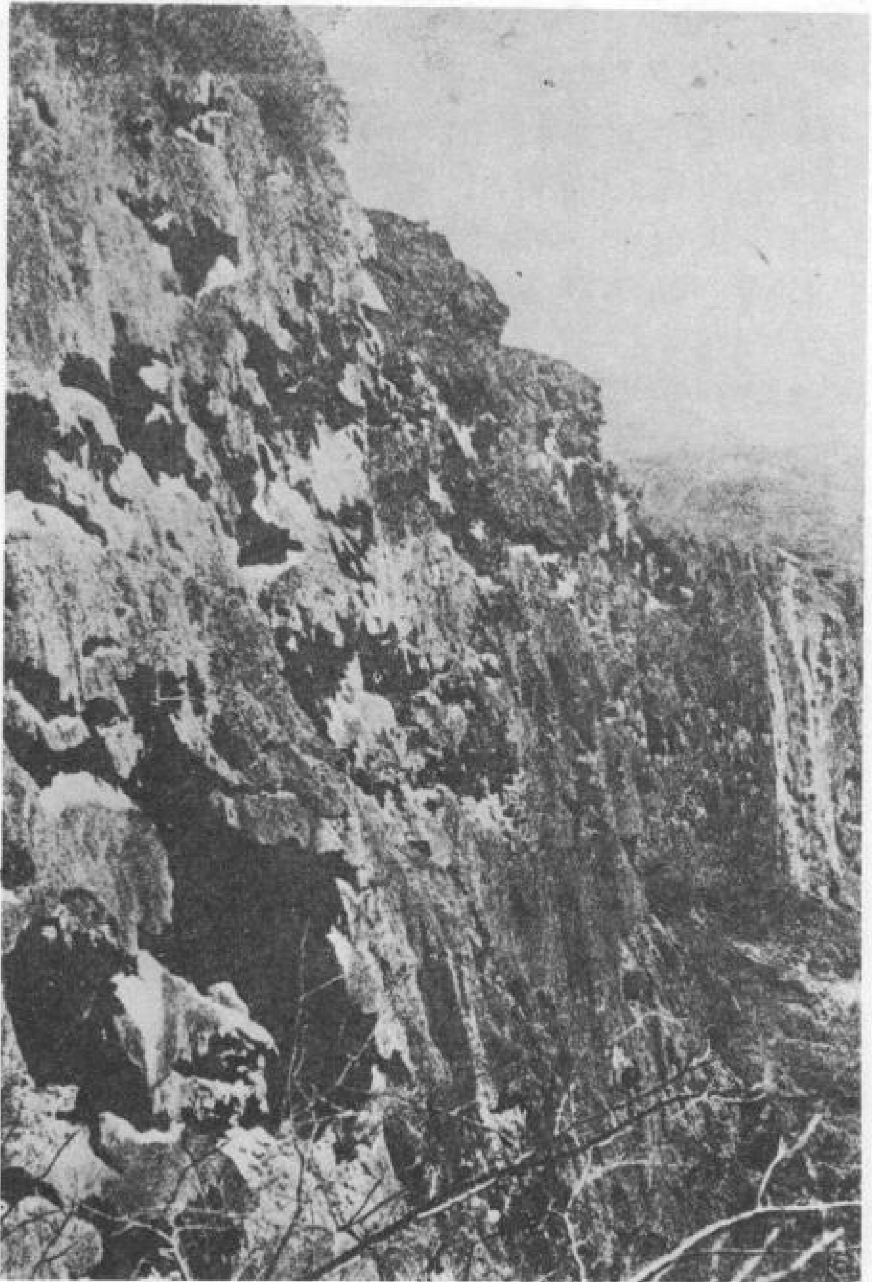
يتميز سكان الجبل بالشعر الخشن والبعض منهم يعقده من الخلف ، وان كانت الأغلبية تفضل أن تتركه مسترسلا خلف الرأس ، ولا يوجد بالطبع أى أثر للشعر فى الوجوه فيما عدا شعيرات صغيرة على الذقن ، أما الوجه فيبدو أملس لا أثر للشعر فيه ، وذلك يوحى بأن هؤلاء الناس يمثلون نوعا غريبا من العرب لأن ملامحهم لاتدل على أنهم ينتمون الى العـــرب •

وأمـــا الزى الخاص بهم فهـــو نفس الزى العربى وأعنى به الزى المصبوغ العربى •• ويرتدى الأثرياء منهم ثوبا قصيرا لا يغطى سوى الجزء الأعلى من الجسم وحول الوسط يربطون أحزمة من الجلد تشبه أحزمة الخراطيش وأما الرأس فيتركونها عارية ليس عليها سوى شريط من الجلد لتثبيت الشعر ، أما الأجزاء الباقية من الجسم فهى عارية كذلك ، كمـــا يتزين بعضهم بنوع من الأقراط فى الأذن اليمنى وأسورة فى الزند اليمنى مثل قبائل المهرة وغيرهم من القبائل المجاورة التى هى من نفس السلالة •

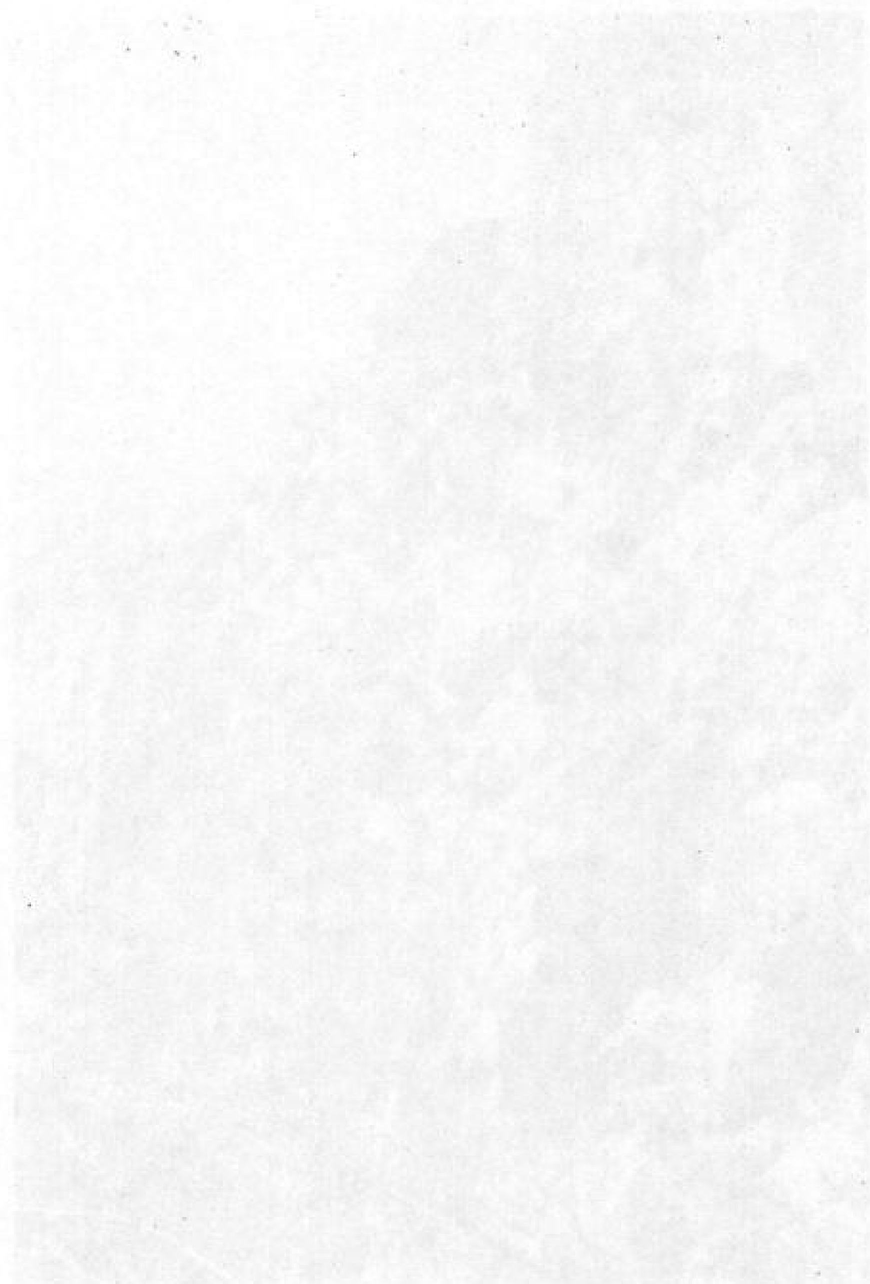
بمناسبة وصول أتباع الشيخ حسن تقرر ذبح بقرة لتكريم الضيوف • وقد اقترح على ضبعان بأن يتم ذبح البقرة بقرب احدى الأشجار بحيث تكون مكانا مناسبا لمراقبة الذئاب التى لابد وأن تجذبها رائحة اللحم • وقد اخترنا موقعا نكمن فيه انتظاراً للسباع •

---

(١) ... تم اعـــداد قائمة بالأغانى الجبلية ، واغانى القافلة بالنوتة الموسيقية وذلك بالقدر الذى تسمح به النوتة ، ويمكن للقارىء الرجوع الى هذه القائمة فى الملحق السادس ...



(منظر آخر من جبال تارا)



وفى نحو الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم جاء أحد السباع وأخذ يتقدم نحو الذبيحة فى منتهى الحذر • وكان من الصعب أن نتبين نوع الحيوان القادم • وفى الواقع كان فى امكاننا أن نستعمل المصابيح الكاشفة غير أن عملا كهذا كان ينطوى على كثير من الخطورة • ولهذا فضلنا الانتظار الى أن يقترب الحيوان من الذبيحة ، وبمجرد اقترابه صوبنا بنادقنا نحــوه وبإشارة من علىّ أطلقنا النار فقفز الحيوان وزمجر ثم سقط على الأرض والدماء تنزف منه ، فنهضنا اليه ، ولكن علياً استل خنجره خوفا من أن يكون السبع مايزال حيا ولكنه كان قد فارق الحياة • وقد أصيب بطلقتين : أصابته احداهما فى العنق والأخرى فى وسط جسمه •• لقد كان الحيوان ضبعا كامل النمو ، وهو من النوع المناسب للاختبارات التى كنت عزمت على اجرائها • وهو واحد من خمسة ضباع اصطدتها خــلال الأسابيع الخمس التى تلت ذلك •

لقد كنت أطمع فى اصطياد ذئب عرفنا من نهيق الحمير فى تلك الليلة أنه كان موجودا فى المنطقة التى كنا نخيم فيها وكان لدينا الكثير من الطعم لأنه من عادة الذئاب أن تفضل الحيوانات الأليفة كالخراف والماعز والعجول ، كما أنها لا تتردد فى أن تلتهم ضبعا لو حصلت عليه • أما الفهــود فانها تأنف من أكل الحيوانات ميتة وتفضل (شأنها شأن الانسان) أن تأكل ما تصطاده بنفسها ومن هذه الناحية يعتبر الفهد خطرا على الناس والجمال وعلى الأخص اذا حاول الانسان مهاجمته •

ومن هنا فان سكان الجبال من عادتهم أن يتركوا الفهود وشأنها اذا كانت فى منطقة بعيدة عنهم ولا يهاجمونها الا اذا اقتربت وبدا منها خطر •

وكان الشيخ حسن يعتقد بأن الفهود نادرة الوجود فى المنطقة بعكس الذئاب التى توجد بكثرة وبهذه المناسبة فقد اقترح علىّ ايفاد على ضبعان الى بيت عمه لأن أصحاب البيت كانوا يحتفلون فى تلك الليلة بذبح عدد من الأبقار بمناسبة ذكرى مرور أربعين يوما على وفاة عمته وقال بأن جماعته

ستذهب هى الأخرى الى مكان الوليمة ولابد أن رائحة اللحم ستجذب الذئاب فتأتى الى المكان بحثا عن اللحم •

ان تقديم الأضاحى وشيئا من لحمها يعتبر من المناسبات الهامة التى يحرص عليها سكان المناطق الجبلية عند وفاة واحد منهم وهم يتمسكون بهذا التقليد أشد التمسك ويقضى بأن يتم ذبح نصف عدد الماشية التى يملكها المتوفى كما توزع نصف تركته باعتبارها ضريبة على الورثة تؤدى بعد وفاته •• أما الفقراء منهم فيذبحون بقرة واحدة أو ماعزا واحدا • والحد الأدنى للذبائح هو عشرون ذبيحة بالنسبة للأثرياء أو الذين يمتلكون أكثر من أربعين رأسا •

وقد تذبح بالاضافة الى الأبقار بعض الأغنام أو الجمال غير أن ذبح الأبقار يعد دليلا على مكانة المتوفى • وفى يوم الوفاة وعند القبر تذبح بقرة أو بقرتان ثم تتكرر العملية بعد انقضاء ليلتين على الوفاة وتسمى هذه ذبيحة الختام • ثم يعاد الذبح بنفس الطريقة بعد مضى فترة قد تطـول أو تقصر حسب امكانيات أسرة المتوفى • ولا تقدم الأضحية الكبرى قبل مضى نصف شهر الى ثلاثة أشهر من تاريخ الوفاة حيث يتم ذبح عشرة الى عشرين رأس بقر أو ما يعادل نصف الماشية التى كان يمتلكها المتوفى ويسمى هذا « يوم النحيرة » • على أن الذبح فى كلتا هاتين المناسبتين يتم فى منزل المتوفى وليس فى مكان الدفن •• وقد يقوم أقاربه أو أصدقاؤه بذبح بعض الأبقار ردا على أهل المتوفى فى مناسبات مماثلة ويشترك فى هذه المناسبة الجيران والأصدقاء وأفراد القبيلة التى ينتمى اليها المتوفى ويتم اقتسام لحم الذبائح بينهم ، أما الزوار من المناطق القبلية الأخرى فلا يأخذون معهم شيئا من هذه الذبائح ويكتفون بالاشتراك فى الوليمة •

ويعقب هذه الوليمة توزيع تركة المتوفى على أفراد أسرته • فبالنسبة لقبائل الحدود الجنوبية كقبيلة « بيت كثير » وقبيلة « جبال القرا » فإنه يتم توزيع الارث عن طريق العرف وليس عن طريق الشريعة الاسلامية ولا تسمح

قبائل بيت كثير لمدينى المتوفى أن يأخذوا من ارثه أكثر من الثلث أما الثلثان الباقيان فيؤول منهما الربع للزوجة المنجبة ، والثمن للزوجة غير المنجبة ويوزع الباقى على الأبناء بواقع سهمين للابن وسهم للابنة .

كما أن العرف بين القبائل الجبلية يختلف عنه بين قبائل الحدود الجنوبية لشبه الجزيرة العربية وان كان فى نفس الوقت يتفق مع الشريعة الاسلامية فان الزوجات جميعهن يحصلن على نصيب متساو من التركة بصرف النظر عما اذا كن أنجبن أولادا أو لم ينجبن . ولا يبيح العرف عند هذه القبائل أن تبدى المرأة أى مظهر من مظاهر الحزن على موت زوجها بينما يباح ذلك لأم المتوفى وبناته وأخوته ، كما يسمح لهن بأن يندبن المتوفى أو يرفعن أصواتهن بالبكاء . وعند قبائل القرا يتركن شعورهن مسترسلة ويلطمن وجوههن بالتراب غير أن أى مظهر من مظاهر الحزن على وفاة الرجل بصورة علنية يعد من قبيل العار وعلى الزوجات أن يحتجبن بعد وفاة بعولتهن .

الفصل السادس

جبال القرا - الضباع - عقائد العلاج والختان

حمر العين ! حمر العين ! ، بهذه الصيحات استقبل على ضبعان وهو عائد فى الفجر من الوليمـة والسبب انه كان يسـوق حمارا فوقه جثة ذئب ميت .

وقد أستأذنت فى الانصراف ، لأنى كنت مدعوا الى قرية « أنشاف » وهى قرية الشحرى جمعان وتقع وسط أحد المروج القريبة من المكان الذى كنا نخيم فيه .

وقد شاهدت فى إحدى زرائبها ميتا وتلك (الزريبة) التى كانت تعج بما فيها ومن فيها كخلية النحل لا يزيد قطرها عن قامة انسان ، وليس بها غير فتحة واحدة ولايستطع الانسان ان يدخلها الا زحفا على بطنه . وكانت ارضيتها مفروشـة بالقش ، ولم يكن فيها بالطبع موقد للطبخ وكان كل مافيها من أثاث هو عبارة عن بعض الأوعية المصنوعة من عيدان القصب تستعمل لحفظ اللبن والعسل أو الزبد وما شابهها من الأطعمة التى هى من شئون نسـاء البيت .

وبالقرب من الزريبة كانت توجد بعض بيوت أكبر منها حجما مبنية من الحجر ولكنها غير مطلية . وهذه البيوت تستعمل كحظائر للماشية فى أيام الفصول المعتدلة . أما فى فصل الشتاء والأمطار فيغادرها أصحابها إلى السكنى فى الكهوف الموجودة بكثرة فى هذه المناطق للاحتماء فيها . وقد نحتت العواصف والرياح كهوفا طبيعية لاتحتاج إلى أكثر من بعض القش ليقيم فيها الآدميون وبعض الحيوانات .

وحينما كنت أعود إلى على ضبعان وضبعته ، كانت الرياح الشمالية تهب فتلسع ببرودتها جسمى وأنا على ارتفاع ١٦٠٠ قدم من سطح البحر ؛

كما كان الهواء المعطر برائحة التين يهب فينعش الإنسان ويغريه بالاستمتاع بالحيـاة .

جاءنى أحـد البدو بثلاثة ثعابين كلها سامة وكان أصغرها ثعبان جميل الشكل بلون أسـود وأبيض وتبين أنه من فصيلة جديدة ، أما الثعبان الثانى فكانت الحياة لاتزال تدب فيه ولكنه لم يسترع اهتمامى كثيرا وكان الثعبان الثالث من الثعابين الكبيرة وكان طوله نحـو تسعة عشر بوصـة ورأسه مفرطحا ومن فصيلة الثعابين الأفريقية (الفحاحة) وهـو نوع منتشر فى هـذه المنطقة وعرفت هـذا من كثرة الأعداد التى جىء بها إلىّ منه . وهذا الثعبان بطىء الحركة ذو سم قاتل ويحذره السكان تماما أثناء سيرهم فى المزارع وهو النوع الأفريقى الوحيد الـذى يعيش فى شبه الجزيرة العربية .

وعند استخراج أحشاء هذا الثعبان وجدت أن جسمه مكون من سبع عشرة حلقة شرطية وأثناء العملية ورغم الاحتياطات التى كنت قد اتخذتها شعرت بعضة فى إصبعى ظلت تؤلمنى فترة من الوقت ثم خفت حدة الألم ، واعتقدت أننى أتخذ الاحتياطات اللازمة . ولكن يبدو أن بعض قطرات من مادة الزرنيخ التى استعملتها فى هذه العمليات قد وقعت على يدى ربما فى مكان به جرح سـابق .

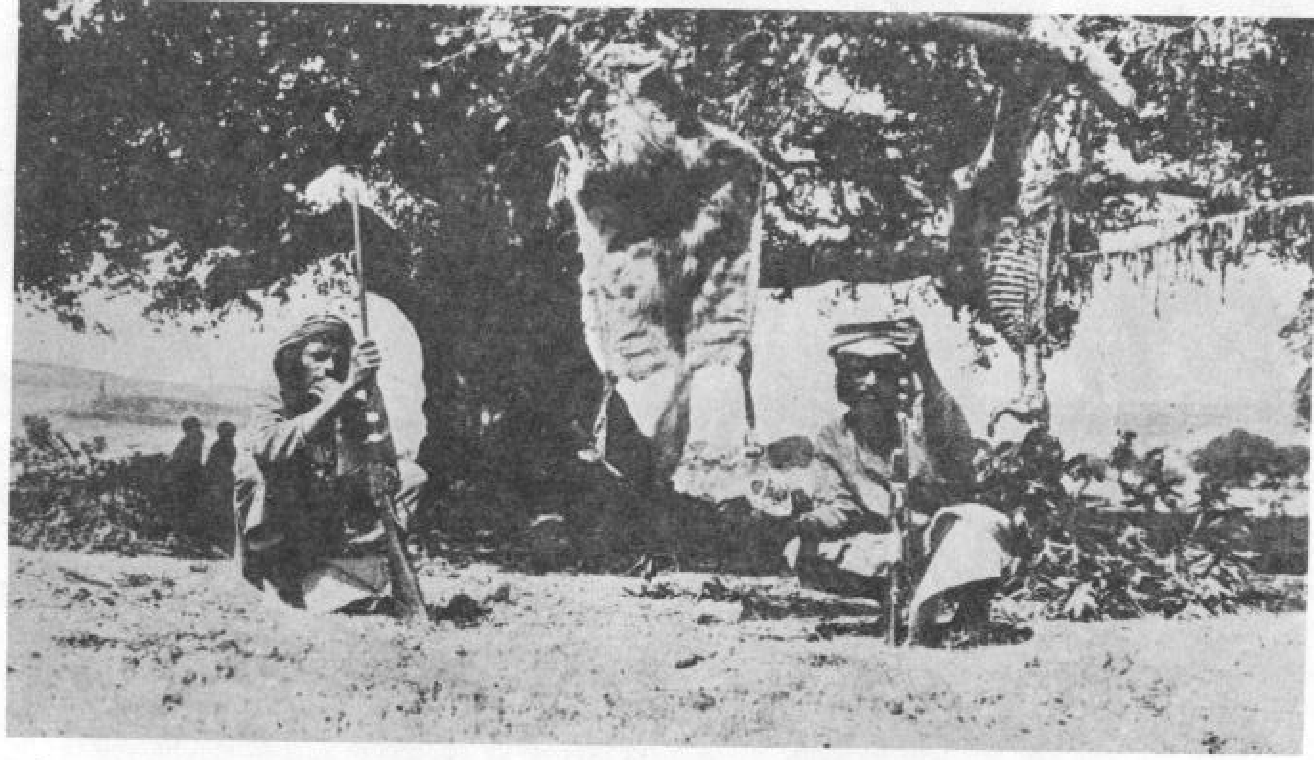
ولايأكل سكان الجبل لحم الضبع أو الثعلب ، كما أنهم لا يستسيغون أكل الدجاج وما يشبهها من الطيور ولا حتى بيضها مثلهم فى ذلك مثـل الانجليز الذين لا يقبلون على لحم الضفادع والحلزون ، وتختلف الحيوانات التى تؤكل فى هذه المنطقة من مكان لآخر . فلحم الضبع مثلا حلال أكله فى المناطق التى تمتد من حضرموت إلى حدود عمان ، ولا يستثنى من هذا غير أهل المدن ، بما فيهم المجموعة القبلية التى لا تتحدث اللغة العربية ، أما البدو فى عمان والبدو الرحـل عموما كعلى ضبعان الذى يعتبر من أكبر صيادى الحيوانات فيأكلون لحم الثعالب ويحرّمون لحم الذئب .

ويعلق المسلمون أهمية كبيرة على طريقة الذبح ، وليس على طبيعة اللحم ، وفى هذا يتفق الشرع الاسلامى مع القانون العبرى الذى يحلل تناول اللحوم المذبوحة بالطريقة المشروعة أى من العنق ولايمكن أن تقنع البدوى بأن تحريم أكل الحيوانات فى العصور التى لم تخترع فيها الأسلحة النارية ، إنما كان بسبب نفوقها نتيجة مرض ما .

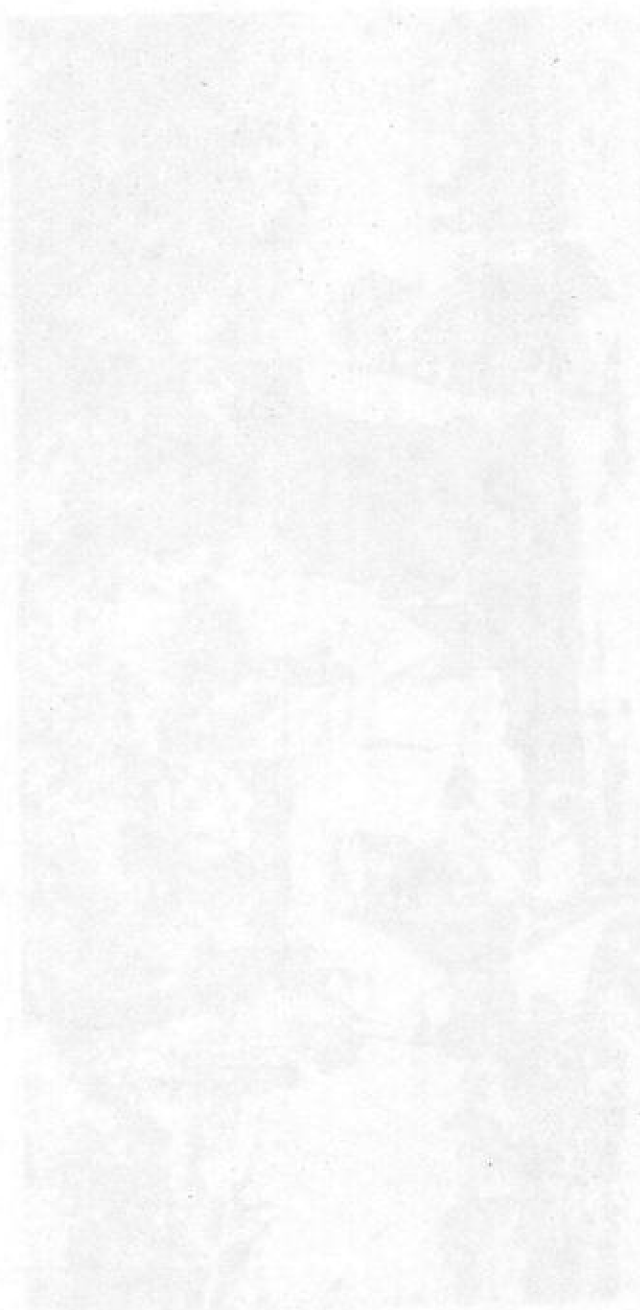
أما الأميون من العرب فإنهم يلتزمون بمبادىء التشريع الإسلامى فى هذه القضية ، ويرفضون مبـدأ الاجتهاد الذين يرون فيه عمـلا من أعمال الكفر والزندقة ولهـذا فانهم يحرمـون أكل لحـوم الجوارح ، ولا علاقة لهـذا التحريم بالتشريع الدينى . وهناك الآية التى تقـول : « حرمت عليكم الميته والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب » . وهو المبدأ الذى يرتكز عليه التحريم الدينى أما أسباب هـذا التحريم وخلفياته فإنهم لا يناقشونها .

وعندما سألت أحـد الجنود الذى يستسيغ كثيرا أكل لحم الثعالب عما إذا كان لحم الصقور من اللحوم المحللة فقد أبدى تعجبه من هـذا السؤال وأجاب بالنفى ، لأن الصقر كما قال له منقار وهم لايأكلون الطيور ذات المناقير حتى ولو كانت من طيور السمان وأبدى تأففه من على ضبعان الذى أمضى اليوم كله فى تقطيع لحم الضبع إلى شرائح ثم تعليقه على أفرع إحـدى الأشجار لتجفيفه .

وقد سأل الجندى علياً عن السبب الذى يدعوه إلى تناول هذا اللحم فأجابه على بأنه يعده لحمله إلى ضـلاله لاستعماله كـدواء لمريض من أصدقائه (هناك اعتقاد بين سكان هذه المنطقة فى أن لهذا اللحم فوائد علاجية فهم يعتقدون بأن الشخص الذى يشكو من ألم فى ظهره عليه أن يأكل من لحم ظهر هـذا الحيوان والذى يشكو من ألم فى القدم اليمنى فعليه أن يأكل من لحم القدم اليمنى للحيوان وهكذا) .. غير ان الجميع



(الجلد للمتحف واللحم لملى الضبعان)



كانوا يعرفون بما فيهم الطاهى المرافق لنا الذى كان على علم بهذا الاعتقاد ، بأن على كان يجمع اللحم لتقديمه لأسرته •

أما بين سكان الجبل فموضوع لحم الضبع موضوع هام •• إنهم لايحرمون أكل لحمه فحسب • وإنما يحرمون قتله أو الاشتراك فى قتله لأنهم يعتقدون أنه حيوان سحرى وهو فرس الساحر ، وان كل من يعتدى عليه لابد أن يصاب بنوع أو بآخر من القصاص •

ومن هذا المنطلق يمتعض سكان « القرا » من رؤية رأس الضبع أثناء طهوه وهى الطريقة المتبعة عندهم لتطهير الجمجمة خصوصا إذا استعمل لهذا الغرض نفس الوعاء الذى يستعمل لطهى الأرز ، ولهذا أخذ الشيخ حسن يقدم لى التحذير بعد التحذير ، لأنه من الذين يؤمنون بهذا الاعتقاد ، ولقد أقسم لى بأغلظ الأيمان بأنه شاهد مرة ضبعة وفى أذنيها أقراط ولكن مما لاشك فيه أن صاحبة الضبعة هى التى قد تكون خرقت أذنيها ووضعت الأقراط فيها •

وقد سمعت هذه القصة مرة أخرى من زعيم قبيلة بيت الكثير وكان يقسم لى إن تلك القصة صحيحة أما على ضبعان فكان يعتبر لحم الضبع من أشهى الأطعمة ، وقد ذكرنى بأن سكان الجبل يختلفون عن العرب وقال إن قبيلته تعتقد بأن الضبعة هى (فرسة النبى) وإن النبى صلى الله عليه وسلم قد أحل أكلها • ثم روى لى كيف[1] تم تحليل أكل الضبعة فقال بأن ضبعة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وادعت بأن ابن الغزال هو ابنها وعندما مثلت الضبعة والغزالة أمام النبى وأخذت كل

---

(١) ••• القصة ومثيلاتها لا سند لها من احاديث الرسول أو وقائع سيرته الثابتة عن الرواة الثقاة ولا تعدو أن تكون من قبيل الروايات التى يطلقها المداحون ليمدحوا بها النبى عن جهل بحقيقة الدين •

منهما تطالب بابنها • طلب النبى إليهما بأن تذهبا وتعودا إليه فى اليـــوم التالى وجاءت الغزالة إلى خيمة النبى فسألها صلى الله عليه وسلم كيف قضيت ليلتك ؟ •• فأجابت بأنها قضت ليلتها ساهرة لم تذق النوم • ثم جاءت الضبعة بعد شروق الشمس تمشى على مهل ولمـــا سألها النبى صلى الله عليه وسلم كيف قضيت ليلتك أيتها الضبعة ؟ أجابت بأنها قضتها نائمة حتى أشرقت الشمس فى الصباح • وهنا التفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى الغزالة وقال لها خذيه إنه ابنك •• ولكن الضبعة غضبت من هذا الحكم وأخذت تعوى — فتناول النبى صلى الله عليه وسلم قضيبا صلبا وضرب به الضبعة فأصاب رجليها الخلفيتين فالتوتا وبعد ذلك أصبح لحم الضبعة حلالا •

حقا إنه فرس النبى !

أما القرود فمن المحتمل أن تكون فى حضرموت ، اما منطقة « القرا » فليس لها وجـــود فيها ، ويعتقد سكان الجبل بأن القرود من أصل الإنسان ويرددون حكاية عن هذا فيقولون بأن القرد دخل المسجـــد وسرق نعـــل النبى ومنذ ذلك اليوم حرم النبى صلى الله عليه وسلم دخـــول القرود إلى الغابات ، وهذه القصة تشبه قصة ملك بابليون الذى يقال إنه فتح القدس ثم أكل من العشب فمسخ قردا •

لقـــد أخـــذت عملية الصيد فى منطقة العين تتوسع ورغم بعض الصعوبات التى اعترضت خطتى وفشلى فى إقناع الصيادين بان يذبحوا الحيوانات التى يحضرونها إلى بطريقة تحافظ على جلودها ، بحيث تكون صالحة للاختبارات المعملية فقد كانت هناك عقبة رئيسية وهى وجوب التقيد بالأسلوب الدينى فى ذبحها أى أن يتم الذبح من مقدم العنق ، وقد اقترحت حلاً وسطا لتلك المشكلة وهو أن يتم قطع الرقبة على طول ثم يثنى جلدها إلى الخلف ويعقب ذلك ممارسة ما تفرضه الشريعة •

وكنت أرفض دفع أجر عن الحيوانات التى تذبح على غير الطريقة

التى اتفقنا عليها وقد أبدى على ضبعان أسفا كبيرا على ثعلب كان قد اصطاده ولم يتقيد فى ذبحه بالطريقة التى اعتمدتها ، وأصبح فى نظره غير صالح للأكل من الوجهة الشرعية ، وقد استغربت منه هذه التقوى خصوصا وأن تاريخه حافل بالجرائم ، وقد أبدى الجندى العمانى المرافق لنا اشمئزازه من الطريقة التى تمّ بها الذبح وقال بأنها مخالفة للشريعة ولم يأكل من هذا اللحم وعلى أية حال فإن الأساس فى الذبح هو الطريقة التى يتم بها ، فإن تم قطع الرقبة من الجنب وصاحب ذلك تلاوة « بسم الله الرحمن الرحيم » فإن الذبيحة تكون حلالا •

وفى أثناء طهو اللحم توافد على مخيمنا عدد كبير من سكان القرى المجاورة الذين يبدو أنهم شموا رائحة الطعام وأحسوا بالجوع ، وكان بين الوافدين رجل من قبيلة المهرة لم يحضر خاوى اليدين وإنما جاء إلىّ بسلحفاة وعندما وقف يشهد طريقتى فى ذبحها انفجر غاضبا وقال بأنه عثر على هذه السلحفاة بالقرب من أحد الجداول فأحضرها معه ولم يكن يتوقع أنى سأقوم بذبحها قبل أن أحصل على موافقته ، فقلت له : أيها الشيخ العزيز لقد اعتقدت أنك جئت بها لتأخذ ريالا •• ولكن الرجل انتقل إلى حيث يجلس المشاهدون لعملية ذبح السلحفاه ثم بادرنى بسؤال فقال هل لديك دواء لامرأة عاقر ؟ فأجبته ربما يكون هناك دواء لذلك ولكن ليس لدى شىء منه • ثم سألته وهل هى امرأة شابه فى حدود العشرين عاما مثلا ؟ فأجاب : لا إنها أكبر من ذلك ، فقد تزوجت حتى الآن أربعة أزواج وأنا الخامس ولكنها لم تحمل إطلاقا • عدت أقول : ربما لا يوجد دواء ، فعاد الرجل يقول : إن المرأة لاتزال عذراء •• فعلّق شاب كان هناك بأن ذلك أفضل •• وضحك الجميع •

وبعد أن انفض الجمع بقى الرجل العجوز مكانه فأدركت أنه لم يفقد الأمل فى العثور على حل لمشكلته وقال لى : أريد منك كتابة [1] ، فقلت له :

---

(١) يقصد من هذا الكلام انه يريد تعويذة تساعد المرأة على الانجاب =

أي كتابة ؟ •• إننى لا أعرف شيئا يمكن أن أكتبه فيســاعد زوجتك على الإنجاب ، محاولا بذلك أن أخفف من إلحاحه علىّ ، ولكنه عاد يسألنى هل فهمت ما أعنيه ؟ •• فقلت له : أجل فهمت وأعدت عليه ماقلت ، ولكنه رد قائلا : إنها زوجتى وإننى أسعى للحصــول على أمــر من السلطان بأن تستسلم لى ، فقلت له : أخشى أن يكون هذا طلبا يستحيل تحقيقه غــير أنه فى إمكانك أن تعرض شكواك على الوالى • فأخذ الرجل يتمتم بكلمات جبلية تعبر عن استيائه • ثم قال بأننى لو فعلت ذلك فإنه ســوف يجلب على العار ، ثم توسل إلىّ بأن أكتم هذا الأمر فوعدته بذلك • ثم غــادر الرجل من حيث أتى ربما إلى زوجتيه غير الراضيتين عنه •

وفى اليوم التالى قام شيخ مشايخ القرا بذبح بقرة بمناسبة زيارتى لهم وأثناء وجودى تحدث هذا الشيخ فى موضوع البقرة فقال بأن البقرة الواحدة تكلفه كثيرا ، وأن البقرة التى ذبحت قد أحضرها اليه أحد عبيده • فأخذت أنظر إلى الخادم الشحرى لأسأله عما إذا كانت البقرة هى بقرته الخاصــة أو أنها أحضرت له •

وفى هذه الأثناء أخذ أهل الحى يتوافدون للاشتراك فى الوليمة وأخذوا يرددون أغانيهم الجبلية باللهجة المهرية وذلك على عكس أغانى الحب التى يغنونها باللهجة الشحرية ، وكان المغنى عبد الله شخصاً لطيف المعشر ، ولكن ما إن أخذت أتبادل معه الحديث حتى بدأ يشكو لى سوء حاله ومــا يعانيه من متاعب ثم سألنى إذا كنت أحتفظ بدواء لأحد قدميه المتورمتين ، وقد فشلت فى إقناعه بأننى لست طبيبا ، لأن هناك ما يشبه الأعتقاد المسبق بين هؤلاء المرضى بأن لدى قوة روحية تستطيع أن تشفيهم من أمراضهم ؛ فسألته : منذ متى أصيبت قدمك ؟ فأجاب منذ ثلاث سنوات وقال إنهــا

= ولا يهم أن تكون هذه التعويذة آية من القرآن مثلا فقد اعتاد رجال الدين أن يكتبوا مثل هذه التعاويذ ويربحون منها كثيرا يأخذونها معهم الى المنــادلق السكانية ويبيعونها لمن يريد وهناك تعويذة ضد الحسد بريال وتعويذة لبقرة مريضة بريالين وتعويذة لكثير من الأمراض بأكثر من هذا .

لا تؤلمه إذا كان مستريحا ، ولكن عندما يسير فما أسرع ما يعتريه الألم على الرغم من أنه قد غمسها فى دم أحـــد الأغنام إلا" إنها لم تتحسن •

وتنتشر بين هذه القبائل عادة ذبح البقر والأغنام إذا مرض أحـــد أفرادها ثم يؤخذ دم الغنمة أو العجل المذبوح ويرش على كتفى المريض وعلى صدره • وتتم هذه العملية عند الظهيرة — ويشترط أن يكون الحيوان المذبوح أنثى وليس ذكراً •

وقد أشرت إلى ندب فى إحدى يديه وسألته عنه واعتقدت أنه لايزال يؤلمه ، فأجاب بأنه أثر كى بالنـــار إلا أن الكى لم يؤد إلى شفائه ، ثم عاد يسألنى عما إذا كان لدى دواء لجرحه هذا ثم قال ليس لدى أولاد ولكننى لو خيرت بين أن يكون لى ولد أو أن تشفى ساقى فإننى ســـوف أختار شفاء ساقى ولكن زملاءه أخذوا ينظرون إليه فى استغراب •

قلت لعبد الله بأننى لست جراحا وأنه من الأفضل أن يتوجـــه إلى عدن أو مسقط غير أن عدن أو مسقط بالنسبة إليه وهو الجبلى البدائى تبدو بعيدة جدا كبعد الأرض عن السماء ، كما أن رحلة كهذه قد تتطلب أن يتغيب عن عائلته فترة كبيرة من الوقت ، الأمر الذى يتعذر عليه ، ولكنه قال فى استسلام مطلق إنى أفوض أمرى إلى الله وأعتمد عليه فهو الذى يمرض ويشفى وهو الذى يحيى ويميت •

كان عبد الله على جانب كبير من الخلق والسماحـــة • إنه من تلك المجموعة من القبائل التى تعتبر ذات صفات خاصـــة ، وأفرادها يتميزون بالصلابة والخبث والشـــك وعـــدم الميل لمعاشرة الناس ، ورغم هـــذه السلبيات فإنه يمكن الاستفادة من الجانب الطيب فيه وتطويره ، وهم ذوو عادات شاذة فإن الواحد منهم لايحيى من يلتقى به بالتحية التقليدية ، كما إنه لايقوم بتوديع ضيفه أو صديقه ولكنك تراه ينهض فجأة من المكان ويتأبط بندقيته ويتسلل إلى الخـــارج ، كما إنهم يميلون إلى التشـــاجر

والخصام بين بعضهم البعض وهو ما كنت أخشاه خلال وجودى بينهم حتى لايكون ذلك عقبة أمـــام مهمتى التى جئت من أجلها •

ويبدو أن السبب الرئيسى لهذه الخلافات هى الثارات المنتشرة فيمـــا بينهم ، فهذه المشكلة لا يمكن أن تنتهى سلمياً وإنما تدور فى حلقة مفرغة من الانتقام والانتقام المضاد وأبســـط مثل على ذلك ما قاله لى الشيخ حسن من أنه سرقت منه نحو مائة بقرة • وإن الذين قاموا بالسرقة معظمهم من خصومه وكانوا يعمدون إلى تقطيع أجساد هذه الأبقار بطريقة لا يمكن الاستفادة من لحمها بعد ذلك • بل إن البعض أخبرنى بأن الشيخ حسن قد مارس الثارات على نطاق واســـع للانتقام من خصومه ومقابلة شرهم بشرٍ مثله وأن الأهمية التى يحتلها الآن قد تحققت له من هــذا الطريق •

فى هذا اليوم سمعنا صيحات تقول « ياوليد •• يافرحه ••• ياوليد يافرحه •• » وقد جرى الناس لاستطلاع الخبر ، كما أخذوا يتساءلون عما إذا كانت تلك الصيحات صادرة من بدو المنحدرات الجبلية لأن قبيلة الصيعر سبق لها أن قامت بغزو قبيلة بيت قطن •

كان بخيت نجل الشيخ الذى كنت سأوفده إلى ظفار لإحضار بعض الطلبات ولجمع المعلومات ، وكان يستعد للتوجــه عندما أطلقت صيحات الحرب ، فتأبط بندقيته فورا وذهب مع الذاهبين ولم يبق معى فى المخيم إلا بعض الشحرة ، لأن الشحريين مشهورون بالجبن وضعف الشخصية ويستسلمون بسهولة لأعدائهم أو يفرون أمامهم دون أدنى مقاومـــة أو محاولة للدفاع عن أنفسهم ويسمونهم هنا بـــ « البهائم » •

وعلمت من الشيخ حسن فيما بعد أن الشحرة يخافون من رؤية الدماء ولذلك لايمكن أن يسفكوا دم أى إنســـان ، وهذا هو جوهر مشكلتهم ، إنه الحـــد الفاصل بين الشجاعة والجبن وبين القبلى وغير القبلى ، وبين سكان القرا والمهرة وبين كثير من ناحية وبين الشحرة وبين الشيخ من ناحيـــة أخـــرى •

والخلاصة أن إرادة القتال هى مظهر الوعى الجماعى فى رجل القبيلة ، والذى على أساسه يتصرف الفرد القبلى تجاه الفرد الآخـر • فالشحرة ليسوا أكثر من خدم • هذا رأى رجل القبيلة فيهم • والذى يرى كذلك إن الزواج من الشحرة كالزواج من الخدم لا يمكن التفكير فيه ، وهو على أبسط صورة امتهان للكرامة دعك من طبقة النبلاء أو السادة والتجار الذين يتخذون ممن يملكون من الرقيق نوعا من الجوارى لهم •

إن معاملة القبلى من سكان الجبل للشحرى تترك انطباعها فى ذهن كل رحالة أجنبى عن شعور كل منهما تجـاه الآخـر • هذا على الرغم من أن الشحرى الأصيل (والذى بحكم زواجه من خارج عشيرته يعد مـن سلالة أنقى) يتميز بأن وجهه أعرض من وجه عرب الشمال ، كما ان السلاح الـذى يقتنيه يساهم فى اضفاء هذه الصفات عليه ولكن قلما تراه يسير وهو يحمل سلاحـه •

كما لا يقتصر هذا التمييز على الزى وحده ، وإنمـا على نوع الأسلحة التى يستعملونها فسكان الجبل يحملون سيفا ذا حدين (من النوع المستدير والمنتشر بين القبائل المنحدرة من سلالة حامية) ، وهذا السـلاح هـو الذى يميزهم عن غيرهم من عرب شبه الجزيرة ، بالإضافة إلى النـوع العريض المستقيم من العصى[1] • وهذه العصى تحل محل السلاح وهم يجيدون استعمالها بكثير من الحـذق والمهارة ، أما طبقة الأغنياء وعلى الأخص فى جبال القرا فإنهم يحملون البنادق ولكن العرف لا يلزمهم بحمل السيف ذى الحدين ، ويكفى السيف ذو الحد الواحـد ، كما إنهم يحملون العصى العادية بدلا من العصى العريضـة •

---

(١) .. ان هذا النوع من العصى يستخرج من الأخشاب الثقيلة جدا التى لا تنمو الا فى منطقة جبال ظفار ، وهو لثقله يغطس فى الماء .

وذات مرة سألت أحـــد الشحرة الذى صادف وجوده معنا عن تاريخ نسب الشحرة فعلمت أنهم ينحدرون من نســـل القبيلة التى عقرت ناقـــة النبى صالح وأنهم مصابون بهذه العقدة حتى يومنا هذا ، لأنهم يعتبرون من طبقة أدنى من الأشراف والســـادة فى المنطقة .. ولكنى عدت أسأل أثناء الحديث متظاهرا بالجهل بالموضوع هل كان لصالح ناقة بالفعـــل ؟ فرد محدثى وكأنه يرثى لهـــذا الجهل من جانبى ، ألم تسمع عن ناقـــة صـــالح والتى كانت أفضـــل الحيوانـــات جميعا ؟ .. لقـــد كان للنبى صالح عصى تدور فى كل اتجـــاه تدور فيها الشمس ، فإذا كانت الشمس فى المشرق فهى تتجه إلى المشرق ، وإذا جرت إلى المغرب اتجهت العصى إلى المغرب ، وكانت تلك الناقة تزود الناس باللبن والعســـل والنبيذ ، وقد عاشت فى عهد قبيلتى ثمود وعاد ، فقام أحـــد الشحرة وعقر الناقة فعاقب الله الشحرة بإرســـال جحافل النحل عليهم فالتهمتهم[1] . حتى لم يبق منهم غـــير هذه الشرذمة .

وقد سمعت نفس الحكاية من عجوز من نفس المنطقة أخـــذ يرويها لى بشىء من المبالغة فقال بأن الشحرى الذى عقر الناقة كان مفتونا بحب إحـــدى النســـاء ، فتتبع ابن تلك الناقة ليذبحه أيضا ولكن الله نجـــاه منه ، فقد اختبأ بأحد الكهوف الذى أغلق فتحته عليه وبذلك لم يتمكن الشحرى من قتله « شوف سبحان الله » ، فهل لازلت غير مصـــدق لهذه الواقعة ؟ ولكنى سألته عن أصل قبيلة القرا ومن أى الأجناس ينحدرون ؟ فأجاب : إن العرب يسموننا « القرا » أما نحن فنسمى أنفسنا « الحكلى ». فقد نزح أجدادنا أولا إلى حضرموت من طريق البحر .

لقد تكرر على مسمعى هذا الرأى كثيرا . وأما الشيخ حسن فيعتقد بأن قبيلته نزحت مـــع قبيلة المهرة من الغرب وأن القبيلتين عاشتا معا فى

---

(١) .. جاء بالقرآن الكريم ان الله عاقب قوم صالح لمـــا عقروا الناقة بأنه دمر قريتهم وسواها بالارض ولم يرد به ذكر لجحافل النحل .

منطقة حبروت ، وهــذا الرأى قد لايكون صحيحا لسبب بسيط وهو أن هذه القبائل مثلها مثل قبائل الشحرة وبورحمه لاتعتمد فى معيشتها على الجمال ، وأن عدم وجــود الجمال فى حياتها وهو العنصر المميز للقبائل البدوية يعتبر دليلا قاطعا على أن هــذه القبائل نزحت إلى المنطقة عن طريق البحر . كما قال الشيخ حسن بأن الحكلى هم الأجداد وأن سكان القرا ينحدرون فى الأصل من قبيلة قريش ولكننا عبرنا إلى المنطقة مــن البحر وقد عاق أحــد الموجودين وكان من طبقة السادة بان قريشا التى ينحدر منها الظفاريون ليست قريشاً التى خرج النبى صلى الله عليه وسلم من أصلابها ، ولكنها قريش أخرى غير معروفة لغير سكان القرا .

وكان هذا الوعى بين السكان بالفوارق العرقية بينهم وبين العرب بوجه عام مثيرا للاهتمــام وربما كان دليلا على احتمال أن يكون ســكان القرا من ســلالة الفاتحين الأحباش المسيحيين الذين غزوا جنوب غرب الجزيرة العربية واعتنقوا المسيحية .. وعلى أية حال فإن هــذا الاحتمال لم يتأكد بصورة قاطعة من الأشخاص الذين ناقشتهم فى هــذا الموضوع لأن العالم فى نظر هؤلاء الناس ينقسم بين مسلم وكافر ولا شىء غيرهما بالرغم من أنهم لايفقهون شيئا من القرآن .

ومن النادر أن ترى شخصا يجيد القراءة والكتابة فيما عــدا بعض السادة المتجولين ، وقد ترقى إجادة القراءة والكتابة إلى مستوى السحر وهو أمر يمكن ملاحظته من خلال تاريخ المهرة وغيرهم من القبائل فى هذه المنطقة . وكان كلما اتصل شخص منهم بى للعلاج يتوقع منى أن أفتح له الكتاب ، وهــذا الكتاب هو كتاب أطلس الخرائط التى تحــدد مواقــع النجوم ، وذلك لكى أكشف له عن نوع المرض الذى يشكو منه .

وهناك من يعتقد بأن سكان القرا ينحــدرون من ســلالة حِمْير ، ولكن الرجل المثقف الذى كان معنا تساءل عما إذا كنت أعنى حميرا الأولى أو الثانية فهناك كما قال اثنان أى « حميران » وليس حميرا واحدا ولكن

رجلا قرويا قال إن الله هو العالم فإننى لم أكن موجودا خلال ذلك التاريخ. فكيف أعرف أيهما على حق ، وعلى أية حال فإن لفظتى مهرة وحمير لفظتان مختلفتان ، بالرغم من أن العرب يستعملون لفظة مهرة . أما أهـل الجبل فيلفظونها « نهـرو » ، بالنون المضخمة فضـلا عن الفوارق الفيزيائية واللغوية بين سكان المهرة وسكان القرا ، غير أن الرجلين لم يوافقا على أن القبيلتين من أصـل واحـد .

وعندما جاء عليهما الدور للتحدث سألا وماذا عنكم أيها الإنجليز ؟ فأجبتهما بأننا لانقل عنكم عراقة فى الأصـل .. فقالا إذن أنتم قبليون ، لكنه من الصعب ضمن المعنى الدقيق لهذه الكلمة أن تشمل الإنجليز ، فالذين لايسمح مجتمعهم بحمل السلاح أو الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم وحيث تسـير النساء سافرات ويتمتعن بحقوق متساوية مع الرجال ، لاينطبق عليهم هذا المفهوم ، غير أنى لم أشأ أن أقلل من شـأن الانجليز أمـام هؤلاء الضيوف ، وإن كنت قد أوضحت لهم بأن النصارى (وهذا طبعا يشمل الإنجليز أيضا) قبائل قوية .

ثم سألنى الرجلان : ومن هو جدكم ؟ .. فقلت لهم إنه آدم . ومن حيث المبدأ فنحن جميعا من جد واحد ولكن تفرقنا خلال العصور .. فقالا : نعم هذا صحيح ثم أخذا ينظران أحدهما إلى الآخر كأنما يريدان أن يؤكدا لى بأننى قد قلت الحقيقة ، ثم عادا يسألانى : وهل تمارسون الختان ؟ .. فرددت عليهما بالإيجاب ولكنى قلت إن الختان ليس إجباريا عندنـا .. فقالا : معنى هذا أن هناك بعض الأشخاص لم تعمل لهم عملية الختان ؟ .. فرددت عليهما بالإيجاب ، وهنا قال محدثاى « غفر الله لكم » .

يعتبر الختان من العادات ذات الأهمية البالغة بين هذه القبائل ويختلف عنه فى أنحاء شبه الجزيرة العربية الأمر الذى يوحى بأن للختان جذورا تكاد تكون مستقلة ، ويتم الختان بالنسبة للذكر عند بلوغه الحلم أما بالنسبة للفتاة فيتم يوم ولادتها ، وذلك على عكس ما هو متبع فى أجزاء أخرى من

شبه الجزيرة العربية [١] • وعلى الأخص فى عمان حيث يتم ختان الذكور أثناء طفولتهم (فى نحو السادسة من عمرهم) ، أما البنت فيتم ختانها عند بلوغها سن العاشرة • وفى كلتا المنطقتين تتم عملية الختـان بإزالـة القشرة الخارجية للذكر ، بينما يتم بالنسبة للأنثى بقطع الجزء العلوى للبظر • أمـا فى هذه المناطق الجبلية فيتم بإزالة البظر كله •

والختان فى هذه المنطقة يشبه الختان الذى كان متبعا فى مصر فى العصور القديمة كما ثبت من المومياء التى تم اكتشافها • وتصاحب عملية الختان احتفالات كبيرة فتتجمع أعداد كبيرة من الصبية فى المكان الـذى تتم فيه عملية الختان ، كما أن الختان يعتبر اختبارا لقوة احتمال الشباب ورجولتهم •

ويحضر الاحتفال الذى يقام بهذه المناسبة كل من الرجال والنسـاء فى منطقة مكشوفة فيؤتى بالشاب الذى يُراد ختانه ويجلس على صخرة ويحمل سيفا حاد الشفرة بيده ، وقد خصص لهذه المناسبة ، ويقوم الشاب بقذف السيف إلى أعلى ثم يلتقطه بحيث تلمس راحته حد السيف ثم يأتى الخاتن ويجلس إلى جانب الشاب بينما تقف خلف الخاتن فتاة عذراء محجبة وتكون عادة إحدى قريبات الشاب أو أخته وفى يدها سيف[٢] • وتأخذ الفتاة تلوح — بالسيف يمنة ويسرة وتضرب به على راحتها ، وهذه العملية تعتبر تمهيدا لعملية الختان •

ثم يجلس الشـاب ويرفع يده اليسرى إلى أعلى انتظارا لإجـراء

---

(١) .. لقد تناهى الى علمى أن الختان بالنسبة للذكر يتم عند بلوغه سن الرشد فى العراق اما الاناث فلا تخضع لهذه العادة ، وتعتبر سن الرشد هى من السنة الثانية عشرة الى السنة الثامنة عشرة فى هذه المنطقة .

(٢) ... من المألوف ان يقوم بعملية الختان أحد زعماء القبائل أو شخص من عائلة مرموقة ، وذلك على عكس ما يتم فى عمان اذ يقوم بالختان الفجر (الزطى) أو فرد من عامة الناس .

العملية وبمجرد انتهائها يتعين عليه أن ينهض ويدور حول الجمع يرفع سيفه ويخفضه بطريقة لايظهر منها أنه يشعر بأى ألم .

وبهذا الاستعراض يثبت الشاب رجولته ، وفى تلك المناسبة تقوم النساء بإنشاد الأغانى وقرع الطبول ، كما تقمن بتعرية صدورهن ابتهاجا بذلك . بينما يتم ختان الإناث [1] فى خفية وبدون ضجة ، كذلك يتخلل هذه الاحتفالات إطلاق النيران فى الهواء .

أما تسريحات الشعر فى هذه المنطقة فإنها على مايبدو مرتبطة بالنواحى التجميلية ، ومن أبرز هذه التسريحات خصلة الشعر التى تتدلى على رؤوس الرجال ، وربما كان لذلك علاقة بقدماء المصريين الذين استعملوا هذا النوع من التسريحات التى تشبه خوذة رجل الشرطة فى عواصم المدن أو العمامة الهندية ، ولكن خصلة الشعر هذه تحلق عند الختان ، وبعد ذلك تترك للشخص الحرية فى إطالة شعره أو حلقه .

ولا تقل غرابة عن تلك التسريحات إلاّ تسريحات النساء ، فيحلق شعر الفتاة على شكل خطوط فى الرأس تترك منه خصلة متدلية على الجبهة بينما يحلق شعر مؤخرة الرأس حلقا كاملا فيما عدا ثلاث أو أربع خصلات رفيعة ، وتحتفظ الفتاة بهذه التسريحة لحين زواجها الذى يتم فى نحو الثالثة عشرة من عمرها وبعد ذلك تترك لها حرية التصرف فى شعرها .

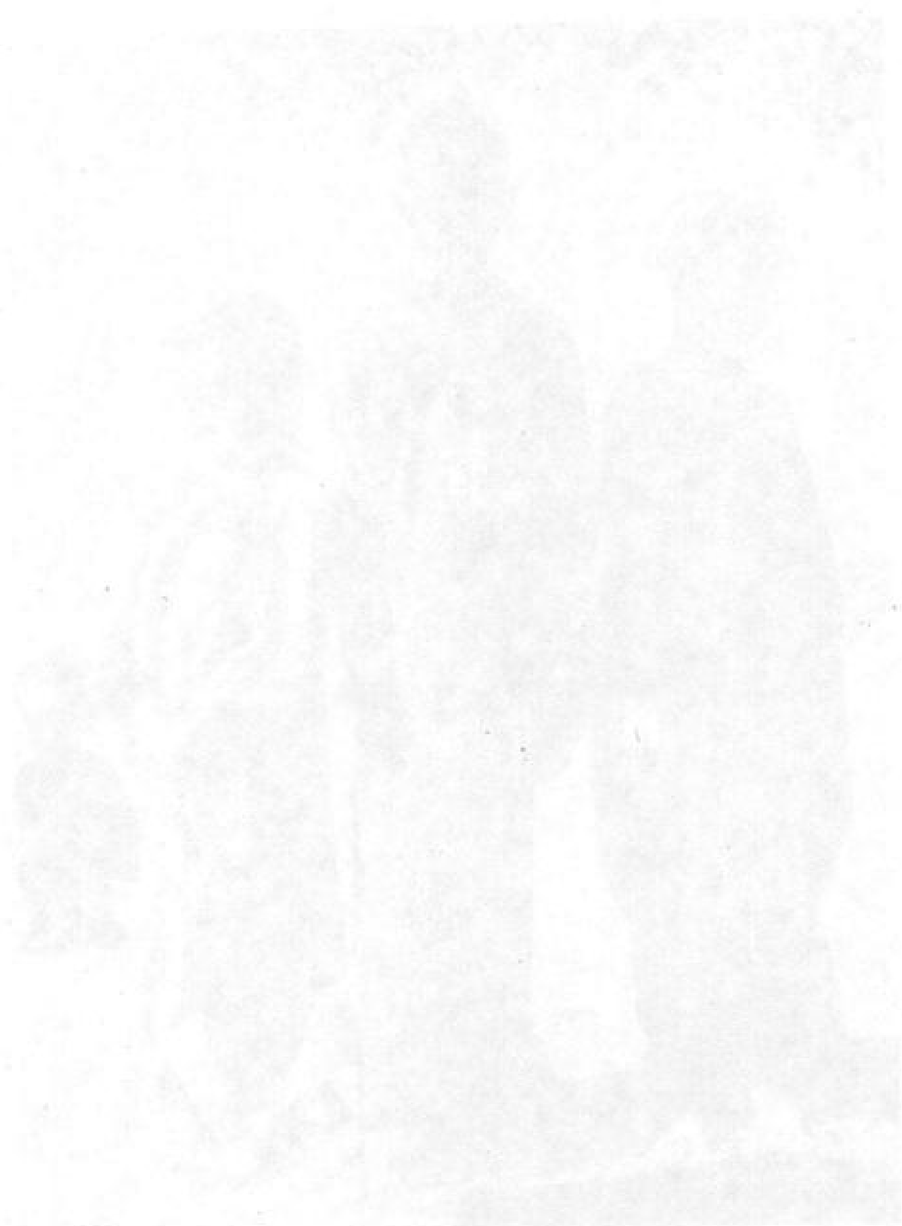
وبعد مضى شهر على الزواج يحلق جزء من شعر الزوجة به ٣/٨ البوصة ويتم الحلق بالموسى فى وسط الرأس بحيث لا يمكن للشـ

---

(١) ... تتم عملية الختان عند قبيلة المهرة بالنسبة للذكر وقت عقد القران .. وكان هذا فى الماضى ، اما الآن فان الختان يتم فى أحد المناطق الصحراوية المكشوفة الذى يجمع فيها الرجال والنساء وامامهم نار مشتعلة وخلال هذا تقوم نحو ١٨ امراة باستعراض امام الرجال ليقرروا من هى اجملهن وعندئذ تحتج بقية النساء على الاختيار .



تسريحة الشـــعر للفتيات



أن ينمو مرة أخرى [١] • وقد يؤدى ذلك إلى ازالة جزء من قشرة الرأس مما يسبب ألمـا شديدا للمرأة قد يتسبب فى وفاتها فى بعض الأحيان • ومن أنواع التزين التى تستعملها نسـاء المنطقة طلاء للوجـه من صبغـة سـوداء غريبة الشكل •

وفى المناسبات الهامة فإن هذا الطلاء يجمع بين اللون الأسود والأبيض والأخضر غير أن هذا النوع من الطلاء يشـوه وجه المرأة ، كما ترسـم المرأة خطوطا سـوداء عريضة حـول عنقها وقد تضع نقطة حمراء فوق الجبين ، كما تضـع نوعا من أحمـر الشفاه على شفتيها • أما المرأة المتزوجة فإنها ترسم خطا أسود على الرأس فى المكان المنزوع منه الشعر ومن العادات المنتشرة بين نساء المناطق الجبلية وضع وشم على ذقونهن على شكل نقطتين يتوسطهما خط فاصل كهذا (•ا•) •

وقد لاحظ « لبين » انتشار هذه العادة فى ريف مصر •• أما الحلى والمجوهرات فتستعملها نسـاء الجبل بكثرة • فهناك حلى للأذنين كالأقراط والسلاسل التى تعلقها المرأة فى أذنيها كما تضع الفتاة بعد بلوغها سن الرشد حلقة فى الجهة اليسرى من أنفها ، أما الخواتم فتستعملها النساء سـواء كن متزوجات أم لم يتزوجن بعد ، كما تتزين المرأة بنوع من الخلاخيـل الكبيرة الحجم وذلك على عكس سكان المناطق الساحلية •

وقد اجتمعت بامرأة مهرية سافرة الوجه مثل بعض زميلاتها وكانت تصبغ وجهها بطلاء أصفر وأخضر ، وعرفت أن هذا الطلاء يستخرج من جذوع بعض الأشجار التى تنمو عندهم • وقد جاءت هذه السيدة لزيارتى وكانت تضع نفس الطلاء على ساعديها وركبتيها وفى الجزء الأعلى مـن الصدر حتى عنقها وكانت ترتدى ثوبا فضفاضا أسـود تلامس أطرافة

---

(١) ... لا يسمح للاناث بترك شعر العانة أو الابط اطلاقا ، وتتم ازالته بنزعه باليد أو باستعمال الشمع .

الأرض وتعصب رأسها بقطعة قماش من « الموزلين » يتدلى طرفاها على كتفيها وكان منظرها كمنظر القردة ، وقد قدمت لى هدية من عندها وعندما فتحت سلتها التى تحفظ فيها حاجاتها كشفت عن جانب آخر من عـــادات النســـاء فى هذه المنطقة فقد كان فى السلة نشـــوق .

إن استعمال النشوق عادة منتشرة فقط بين النســـاء دون الرجال . بينما التدخين مقصور على الرجال ، وإن كان الرجال والنســـاء يمضغون نوعا من التبغ وهو مزيج من التبغ والليمون وقد قيل لى بأن هذا التبغ له مفعول مخـــدر ، أما الهدية التى قدمتها لى وكانت ترمى من ورائها إلى مجاملتى ، فقد كانت وعاء من الخزف لحفظ أدوات الزينة ، ويصنع محليا وكان جميل الشكل للغاية وينتشر استعماله فى كل أنحاء المنطقة الجبلية ، وكان فى الوعاء بعض الزبد التى كانت السيدة قد طلت أنفها ورأسها منه ، وذكرت لى بأن الزبد دواء للصداع والعين كما أنه مطهر للبشرة .

وكان معها أحد الفتية الذى جاء إلى بسنجاب من النوع النادر جدا لصعوبة صيده ، ثم أخذ الفتى يقبل المرأة العجوز فوق خدها الأيمن ثم خدها الأيسر ثم فوق رأسها وعلى صدرها مما كان يدل على أنه من أقاربها ، وقالت المرأة : ألا تعرف هذا الفتى . إنه هيرين بن مرعى ابن عمى ؟ .. لقد كان فى مسقط، وعندئذ تحدث الصبى مؤكدا قولها فقال : لقد كنت فى مسقط . وعندما جئت أنت إلى سجن الجلالى أخذت مقياس رأسى ، غـــير انى كتمت هذا الأمر حتى لاتعترض عشيرتى على ذلك .

وقد سألته عن الأسباب التى أدت به إلى السجن . ويبدو أن الفتى كان قد تعرض بالأذى لإحدى الفتيات مما حمل أهل الفتاة إلى رفع دعوى ضده عند الوالىّ ، وقد حكم عليه بالسجن فى سجن الجلالى بمسقط لمدة عام واحد ، ولكنه قال بأن السجن لم يؤثر عليه إطلاقا وبأن الله قد هيأ له رزقا كثيرا فى مسقط ، وأنه عاد من هناك ببندقية ثم أخرجها ليرينى إياها .

ومن العادات الغريبة المنتشرة بين القبائل الجبلية هى طريقتهم عند

التحية ، وإذا ــ كانت المصافحة هى الطريقة المتبعة بين العرب ، فيما عدا النســاء ، فإنهم هنا يكتفون من هذا بلمس أطراف أصابع بعضهم البعض ويتعين على المرأة أو الفتاة فى هذه الحالة أن تسحب يدها بسرعة فائقة من يد الرجل أثناء التحية أما إمســاك يد الفتاة أو لمس راحتها كما هــو معروف فى أوروبا فيعتبر عملا منافيا للتقاليد ، وقد يدفع ذلك أهل الفتاة للانتقام من الرجل ، وعندما يلتقى الرجال تكــون التحية بتقبيل الخــد الأيسر ثم الكتف الأيمن ، غير أن رجال القبائل البدوية فى الواقع لا يعرفون تقاليد المجاملة ، فإذا حضر أحد أفرادهم إلى مكان فإن الموجودين فيه لا يقفون لتحيته الأمــر الــذى يخالف التقاليد المتبعة فى ســائر البلاد العربية •

أما بالنسبة للرجل المسن أو الشيخ فإنه يحيىء بتبادل القبلات أولا ثم التراجع إلى الخلف لبضع ثوان قبل الجلوس •

وقد أعطيت مكافأة للمرأة وقريبها عندما غادرا المخيم وقد أخذا يرددان « بيّض الله وجهك •• الله يحفظك » •• وفى هذه الأثناء سمعت أصوات بعض النساء اللاتى كن قريبات من إحــدى عيون المــاء وقد ذهبن إلى هناك لإحضــار المــاء • وقد فهمت بأن الأغانى التى كانت الفتيات ينشدنها تعبّر عن فرحتهن غير إن معرفة معانى هذه الأغنيات الغرامية كان يتطلب وجود شخص يحسن اللغتين لكى يترجمها لى إلى العربية • ولمــا لم يكن مثل هــذا الشخص موجوداً فقــد اكتفيت بتسجيل لحن الأغنية بالنوتة الموسيقية •

وهنا تساءلت فى نفسى ما إذا كان يوجد فى أى منطقة من المناطق الجبلية فى البلاد العربية نســاء على ذلك المستوى من الجرأة على الغناء فى مكان عام لأن هذا لو حدث فى عمان المعروفة بالتزمت فإنه يعتبر عمــلا منافيا للأخلاق وتعاقب عليه الفتيات ، إلا أن مثل هذه الأغانى تتردد فى كل مكان من هذه المناطق والوديان ولها وقع جميل على الأذن •

الفصل السابع

جبال القرا - الحسد وطقوس النار

العين : الأسبوع الثانى من نوفمبر • كان القمر بدرا فى السماء وقد تذكرت هذا المشهد عندما كنت فى مسقط قبل شهر ، وكنت أستعد لمغادرة الميناء •

غير أن ثمة فرقا شاسعا بين المشهد الذى رأيته فى مسقط والمشهد الذى أراه الآن فضلا عما ينطوى عليه هذا التصور الآن من ظروف وملابسات • وعلى الرغم من أننى كنت فى تلك اللحظة أتصور الأهوال التى قد تصادفنى فى الوصول إلى بحر الرمال إلا أننى فى قرارة نفسى كنت أشعر بارتياح كبير وأنا جالس أجيل الطرف فى أرجاء هذه الجبال التى تفيض سحرا وجمالا وهدوءا •

قضينا الليل تحت إحدى أشجار التين التى كانت أغصانها تشكل منظرا جميلا وكانت أسراب هوام الليل تحدث أصواتا عالية متواصلة كما كانت الخنافس تثب فوقنا من غصن إلى غصن بينما كشف هبوب الهواء عن النسور التى كانت تطير بسرعة فائقة فوق رؤوسنا كما أخذت طيور اللقلق البيضاء وذات اللون البُنِّى تتجمع كعادتها على قمم الأشجار للمبيت ولكنها أخذت تطير فى بداية الفجر ربما لأنها امتعضت لتطفلنا على المكان ولم تعد تضفى على الحقول التى سطعت فوقها الشمس مسحة من ألوانها المزخرفة والمنفرة فى نفس الوقت •• فهل كان فجرا جميلاً حقا ؟ •

لقد طلع الفجر على أصوات مزعجة لأحد طيور الوروار وهو ينادى على رفاقه • فهل كان فجراً جميلاً ؟ •• كلا •• لأن الأرنب الرضيع الذى اصطدناه وكنا نرضعه من لبن البقرة وجدناه فى الصباح ملفوفا فى قماش خشن بارد •• ولما لم نكن فى حاجة إليه فقد قررنا ذبحه غير

إن منظر الذبح وسلخ الجلد قد جعل الجندى المرافق لنا ينسحب مطأطىء الرأس الأمـــر الذى يعتبرهزيمة عند هؤلاء الناس المتوحشين ، وقد تقرر أن نغادر مخيمنا إلى مخيم آخر على بعـــد نحـــو أربعـــة أميـــال إلى الغرب وقد طلب أصحاب الجمال التى حملتنى إلى هـــذا المخيم أن أترك لهم الجمال لأنهم أحسوا بأن بقاءهم فى ذلك المكان غـــير مأمون وقـــد كان من الممكن الحصـــول على مجموعة أخرى من الجمال من نفس المنطقة التى كنا فيها غـــير أنه لابد من اتخاذ كافة الاحتياطات وذلك حفاظا على العينات الهامة التى كنت أحملها معى •

وكان طريقى من ذلك المخيم يتجه غرباً من حوض العين عبر مروج صخرية ومنحدرات عميقة بحيث اضطرتنا إلى النزول من فوق ظهور الجمال بالرغم من أن الطريق كانت فى بعض المناطق ترتفـــع عن سطح البحـــر ونستطيع أن نطل مـــن فوقها على ســـلاسل الجبال كلها ، وعلى يسارنا كانت هناك أودية واسعة جميلة المنظر وخلفها عدد من الأودية يمتد حتى السهـــول ومنها إلى التلال والأودية التى تمتـــد إلى سهل" جربيب ، وفى هذه المنطقة توقفنا بعض الوقت لأسجل ملاحظاتى عن المناطق الهامة من الســـاحل الذى يبلغ طوله نحـــو سبعة عشر ميلا تقريبا •

وقد اتجـــه أحـــد المرافقين إلى ذلك المنحـــدر الأخضر ليستريح تحت بعض الأشجار بالقرب من إحـــدى عيون المـــاء ثم عاد إلينـــا يحمل كمية من الليمون الأخضر وبعد فترة وصلنا الى حافـــة إحـــدى الوديان الكثيفة الأشجار والذى يعتبر من المنابع الرئيسية لوادى « عربوت » • ومنه انتقلنا إلى جانب من الوادى الذى يرتفع نحـــو ١٦٥٠ قدماً فوق سطح البحر وأقمنا مخيمنا فيه •

وقد تعودت من خـــلال هذه الرحلة على أصـــوات الرعاة وجـــرى

القطعان وكانت عين خينوت قريبة من هذا المكان كمـا كانت المنطقة التى نخيم فيها مليئة بقطعان الماشية وهى فى طريقها من العين وإليها .

وتعتبر الثروة الحيوانية لهـذه المناطق الجبلية وفيرة بالمقارنة بالمناطق الأخـرى لشبه الجزيرة العربية ، وتكاد لا تجـد رجـلا أو امرأة إلا ويملك بعض الماشية ومنهم من يملك نحـو مائة رأس أو أكثر ، ومعـدل الثروة عندهم يبدأ من عشرين رأسا كما إن الذى يملك أربعين رأسـا يعد من أثرياء المنطقة ، والأنثى من البقر تعتبر أهم عناصر تلك الثروة وذلك لمـا تنتجه من اللبن والزبد .. ومعلوم أن عجلا أو اثنين يكفيان قطيعـا بأكمله ، فإن بقية العجول تذبح ليؤكل لحمها ويعلق جلد العجل بعد ذبحه على جسـم أمـه ، وذلك يساعدها على زيادة كميات اللبن التى تدرها . وهذه العادة منتشرة فى شبه الجزيرة العربية .

ونفس الشىء يحـدث بالنسبة للنوق فى عمـان . وتربى النوق فى مناطق الوديان التى تكسوها الغابات كالتى تحتنا وذلك على نطاق واسع ولكن تربيتها تنحصر فى مجموعات قليلة لأن عائدها أقل وتحتاج إلى رعاية أكثر .. بل إن عملية تزاوجها لا يمكن ان تتم بدون مسـاعدة من أحد .. ولاتستخدم النوق للركوب لأنها غير مريحة وهذه حقيقة تأكدت منها بنفسى وبالتالى فإن أهمية هذه الإناث تنحصر فى الإنجاب بينما تستخدم الجمال فى الأعمال الشاقة كنقل اللبان من المناطق الجبلية إلى مناطق السـاحل ، ثم تعـود إلى مواطنها بحمولات السمك والعلف ... الخ .

أما المواشى فتربى فى منطقة « قطن » بأعداد غير كثيرة وفى المناطق التى ينمو فيها العشب وفى منطقة سهل جربيت ، كما تربى على نطاق أوسع فى منطقة سهل ذلول على سفح جبل سمحان وتتألف هذه القطعان مـن الأغنام ، وأهل الجبل لا يأكلون لحومها وإنما يقدمونها فى الولائم والمناسبات للضيوف .. كما هو الحال بالنسبة للدجاج وبيضه .

ولا توجد الكلاب فى هــذه المناطق ويوجــد عدد قليل من الحمير التى يقــوم بتربيتها بيت كثير •• أما بالنسبة للحاصــلات الزراعية فى منطقة القرا فهى منحصرة فى الحبوب لعــدم وجــود أراض تصلح لنمو العشب فيها •

وفى جبل سمحان الذى له نفس الظروف المناخية يزرعون اللبــان ويعهدون بزراعته إلى أفراد قبائل المهرة ومع ذلك تظل تربية الماشية هى عماد الحياة ، لأن الجبليين كبدو الصحراء لا يكلفون بأعمال الرعى ومحظور على السيدات أن يمسسن ضرع البقرة أو الناقة أو المــاعز وإذا فعلت إحداهن ذلك فانها تكون قد ارتكبت مخالفة خطيرة [١] •

وإذا مرضت هذه الحيوانات وامتنعت عن إدرار اللبن على سبيل المثال فإنهم يعزون ذلك إلى الحســد « أى العين » فيعمدون إلى تبخيرها باللبان إما وقت شروق الشمس أو عند غروبها ، وقد شاهدت تلك العملية وهى تتم بأن يُحضر صاحب البقرة المصابة مبخرة ويضــع فيها بعض العيدان ثم يبصق فى المبخرة ثلاث مرات فى الوقت الذى يمسك اثنان من زملائه البقرة أحدهما من فكها والثانى من ذيلها مع ليّه قليلا ، ورفــع رجليها الخلفيتين بينما يقوم صاحبها بتمرير المبخرة فوق جسمها فى حركات دائرية وهو يتلو بعض التعاويذ باللهجة الشحرية معناها « •• انظرى إلى بخورك من اللبان والجمر من عين الحســود من الناس من مكان بعيد من أحبائك أقربائك من بعيد ، إذا كان منى فردى العين وإذا كان من غــيرى فردى العين أيضــا من عين الحســود من الناس • أنا رجل جئتك بكفارة من عين الحســود رجلاً كان أو امرأة أنظرى إلى بخــورك من اللبــان والجمــر •• » •

---

(١) ... على النقيض من ذلك شــمال عمــان اذ يعتبر قيام الرجال بحلب الأبقار من الأعمال المشينة .. ويختلف عن ذلك المهرة وبيت كثير الذين يسمحون للنســاء بحلب الماعز فقط دون البقر او النوق .

وبعد انتهاء الرجل من تلاوة التعويذة يطلقون البقرة من أيديهم ثم يقومون بربطها وشـد ذيلها وهم فرحون على الرغم من أن هذه الحركات تسبب ألمـا للبقرة[١] • وكان هناك بعض الرجال من بيت كثير وسألتهم عما إذا كانت هذه العادة موجودة عندهم فرد أحدهم يقول : توكل على الله" ثم حكى لى عن طريقة أخرى عندهم لعلاج الحيوان وهى الكى ، وقال بأنهم بعد الكى يأخذون غصنا ويكسرونه نصفين ثم يلقون به على الحيوان المريض ، وأثناء ذلك يقولون له : كسَّرت العـود والشر ما يعود • • وبعد ذلك يشفى الحيوان من مرضه •

فى اليوم التالى دعيت لأشهد إحدى عمليات « نفخ » البقرة ، والنفخ عادة منتشرة بين قبائل هذه المنطقة ويعتقدون أنها تساعد البقرة على إدرار اللبن ، وعند وصولى وجدت البقرة واقفة ورجلاها الخلفيتان مربوطتان ربطاً شديدا ، وكان هناك صبى يقف أمامها ويقدم لها الطعام لكى تستسلم للعملية ، واقترب صاحبها من مؤخرتها وسحب نفسـا طويلا ثم أمسـك بذيلها ونحاه جانبا ، ثم وضع فمه بعد ذلك فى دبرها وأخـذ ينفخ بشدة ويتوقف بين الحين والآخر ليمنع خروج الهواء منها ثم يمسـك بأضراعها الأربعة ويدلكها لكى يتأكد من نجاح العملية وقد قيل لى بأن بعضهم يضع فى فمه شيئا من الملح عند النفخ ، ولكنى لم أشاهد مثل هذه الطريقة •

ومما لاحظته أن قبيلة القرا بمنطقة « ثيدوت » عصبيون ، وقـد تصورت فى بادىء الأمـر أن ذلك قد يكون حدث لهم بسبب وجودى فى المنطقة وخشيت أن يقبضوا علىّ كرهينه عندهم ، ولكن مثل هذا التصرف لم يسبق أن حدث فى شبه الجزيرة العربية ، كما إنى خشيت أن يؤدى وجودى هناك إلى نشوب نزاع وسفك دماء أجد نفسى متورطاً فيه •

---

(١) ••• بعد أن يتم دور الرجال فى عملية البخور ويعود الحيوان الى البيت يبدأ دور النساء ليكررن نفس العملية .

وذات يوم توجه القوم إلى ظل بعض الأشجار وجلسوا تحتها القرفصاء على شكل دائرة وأيديهم على زناد البنادق ولكن الموقف مرّ بسلام ، وكان الجميع يتبادلون الحديث على عكس مثل هذه الاجتماعات التى تتم بين العرب وتسودها فترات طويلة من الصمت ، ولكن فجأة تكهرب الجو وتصاعد النزاع وتبادل الاتهامات بشكل ينذر بانفجار الموقف ، وساد الجمع الهرج والمرج حتى لم تعد تعرف من المستمع ومن المتحدث .

وفى هذه الأثناء بادر أحد الصبية من الموجودين بجذب والده الذى كان أكثر الموجودين تشدداً وطلب من الجمع أن يصحبه إلى الخارج ولكنهم أخذوا يشتمون هذا الرجل ، فكر راجعاً اليهم وقال لهم هذه العبارة « رهان عليك » .. وأخذ يتحداهم لمبارزته بما كان لديه من البنادق والعصى ، وعندها قام أحد الموجودين ثائرا وأمسك بزناد بندقيته . غير أن الآخرين بادروا إلى تهدئة الموقف وحله سلميا وهكذا تفرقوا وانتهى الخلاف .

أما الاحتكام فى مثل هذه المنازعات فيتم عن طريق العرف ويسمى هناك حكم العوض [1] . وتختلف هذه الأحكام باختلاف المناطق وتقوم على أساس مبدأ العين بالعين والسن بالسن ، ويشترط أن تتناسب العقوبة مع الجريمة ، وقد حدثنى والى ظفار عن قضية كانت قد عُرضت عليه مؤخرا فقد كان أحد المواطنين مسافراً من منطقة إلى أخرى فطلب الأمان « الربعة » . من القبيلة التى كان متوجها إليها ولكن بمجرد وصوله إلى القرية التى تقيم بها القبيلة أطلقت عليه النار فأصابته رصاصة فى فخده

---

(١) .. فى تلك المنطقة يفضل الناس حكم العوض « العرف » على حكم الشرع ، اما فى المناطق الساحلية فتطبق الحكومة قانون الشريعة عن طريق القوة ويمتثل المواطنون لهذا الحكم فى قضايا الزواج اما المنازعات المدنية وغيرها من الجنايات فتخضع لقانون العوض ويتولاه القاضى الذى يتقلد منصبا وراثيا فى أغلب الأحيان وقد يكون أيضا زعيم القبيلة أو من يقوم مقامه .

وعدّ ذلك خرقا من أهل القرية لمبدأ الحماية المعمول به بينهم وقد اجتمع مجلس العوض للبت فى هذه القضية ، وقضى بأن الرجل الذى كان ملتزما بالحماية يعتبر بريئاً وأن المعتــدى وهو أحد أفراد القبيلة التى تعــد هى كذلك معتدية وبالتالى ينبغى تطبيق العقوبة عليه بالمثــل • وقد جىء بعصاً طرفها حاد وغرزت فى قدم المتهم لتكون ثقبا ثم أدخلت رصاصة فى هذا الثقب وبهذه العملية حصل المجنى عليه على حقه[1] •

أما فى عمان الداخلية فقد يؤدى خرق العرف إلى نشــوب حروب بين القبائل إلا إذا عادت القبيلة المعتدية فخضعت لأحكام العرف ، وفى هذه الحالة يتعين على الجانب المعتدى دفع غرامة مقدارها ٤٠٠ ريال ، ويسمى هــذا الحكم « لوم الوجه » وفى المجتمعات القبلية يكون الحكم فى جرائم القتل على أساس دفع « دية » لأهل القتيل تتراوح بين ٤٠٠ وألف ريال أو مايعادلها عينا •

وتزيد هذه الدية كثيرا عن هذا القــدر فى منطقة جبال القرا فقــد تصل نسبيا الى ٥٠٠٠ ريال وهو مبلغ يحتاج إلى عمر طويل لإمكان الوفاء به ، ولهــذا يستعاض عن الدية بتنفيذ حكم الإعدام على القاتل ، وإذا كان القاتل فقير الحــال فإن الدية تستوفى من أقاربه وقد يسبب لهم هذا مزيداً من العوز ولكن العادة جرت على أن يشترك جميع أفراد القبيلة فى تحمل هذا العبء ، أما إذا كان القاتل عبدا أو شحريا فإن حكم الإعدام ينفذ فيه على الفور لأنه ليس قبيليا وبالتالى ليس له قبيلة تؤدى عنه الدية•

وبالنسبة لموضوع ردّ التحية[2] فإن قبائل المنطقة الوسطى لهم سمعة سيئة • وفى المناطق الأخرى من جزيرة العرب هناك قاعدة معترف بهــا

---

(١) .. الربعة هى اعطاء الحماية والأمان للشخص الذى يطلبها وذلك حماية له من اى اعتداء يقع عليه من قبيلة الشخص الذى اعطاه الأمان .

(٢) .. منذ عهود قريبة نسبيا اعترفت قبائل البطاحرة بمبدأ الربعة اى الحماية فقط .

بالنسبة لهذه القضية ، فإذا التقى اثنان من رجـال القبائل بين قبيلتيهما ثأر وبادر أحدهما بلفظ « الســلام عليكم » ثم رد عليه الآخر بالمثل فإن الخصومة بينهما تنتهى ويسقط الثأر مؤقتا •

وإذا اغتال شخص من أحد القبائل شخصا آخر فإن عمله هذا يعد خيانة فى العرف القبلى ويعاقب القاتل بتجريده من انتمائه القبلى ، غير أن هـذه القاعدة غير معمول بها بين سكان الجنوب الأوسط من شبه الجزيرة العربية • لأن هؤلاء لا يعترفون بأى قانون • وكـذا بالنسبة للدية التى تعتبر امتداد لقانون الضيافة •

فمن العادات الشائعة فى هذه المنطقة استضافة شخص لآخر فترة ثلاثة أيام وهذه الضيافة تضمن للضيف الأمان القبلى بعد مضى أربعة أيام من بدئها ، فإذا صـادف واعتدت قبيلة المضيف على ذلك الضيف خـلال فترة الضيافة فإن العرف يوجب عليها أن تعيد ما استولت عليه من أسلاب وغنائم إلى الضيف ، ويعد هذا العرف من أهم القوانين السارية بين سكان المنطقة الجنوبية باستثناء أهل الجبل •

ومن غرائب الاعتقادات التى تدين بها هـذه القبـائل هى إيمانهم بالأولياء وقرابين النار ، وهى فى أغلبها عادات قديمة نشـأت قبل الإسلام، وفى حالة ارتكاب أى مخالفة فيتعين على المخالف أن يؤدى اليمين أو يمارس قربان النار وذلك وفقاً لمـا يقرره مجلس القبيلة ويصر البعض على أن يتم حلف اليمين أمام ضريح الولى اعتقاداً منهم بأن للأولياء قدرة على الانتقام من الحالف إذا كذب •

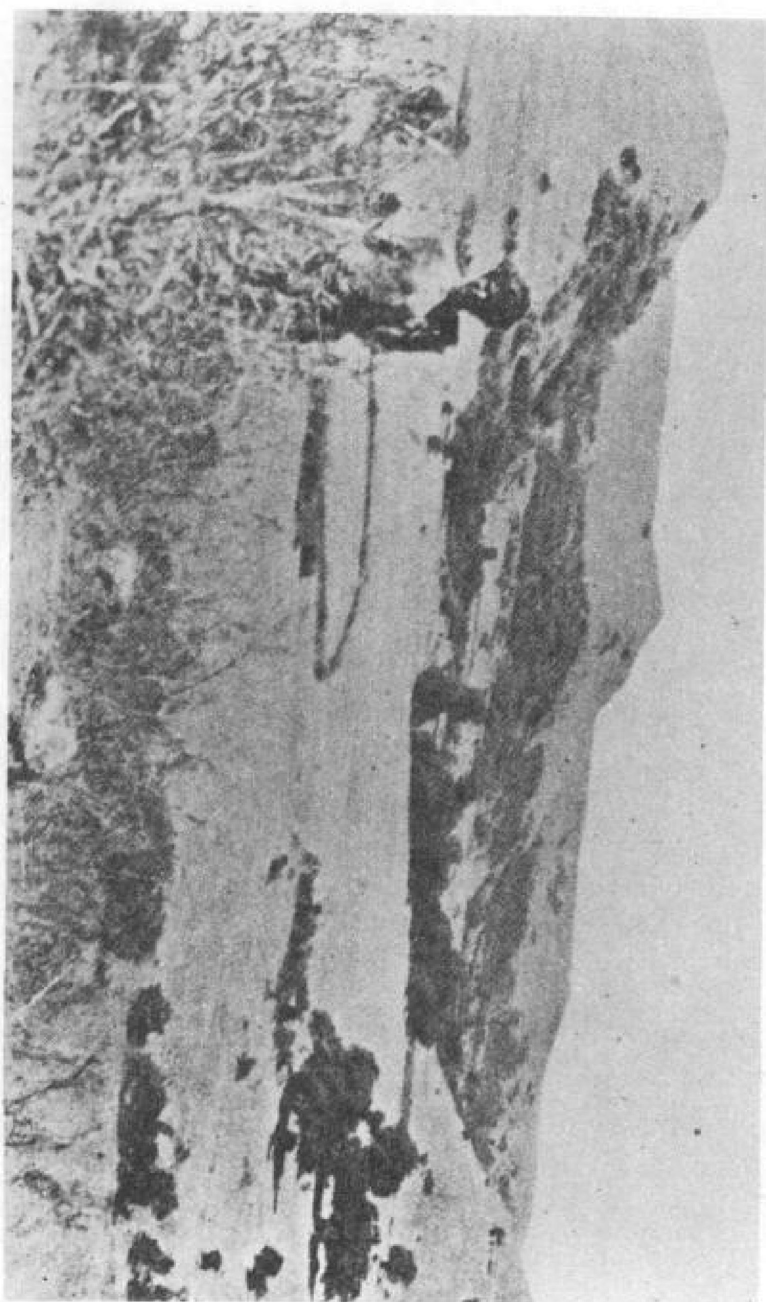
ويبدو أن رجـال السلطة حتى الأقوياء منهم ، لابد وأن يضعوا فى الاعتبار رأى المجموع • وبنفس القدر قد يتأثر الشيعة برأى الغالبية فيما يتعلق بولائهم للإمام على •

وقد يطلب المدعى من خصمه أن يحلف اليمين باسم ولى معين ويكون الخصم غـير مستعد للحلف بذلك الولى وإنما بولى أقل مقاماً ، كما أن مجلس القبيلة عادة يتأثر بموقف الرأى العام الذى يقرر رتبة الولى الذى يتم حلف اليمين على ضريحة ، وغالباً ما يفضل المتهم الاعتراف بجرمه على أن يحلف اليمين •

وذات مرة سرق أحـد الكثيريين من سكان ظفار واسمه على بعيرا وذبحه ثم أكل من لحمه ، واعتقادا من السـارق أنه يستطيع الإفلات من التهمة ، أنكر السرقة ، ثم حلف اليمين على الولى ابن عثمان ، ولكن لدغه ثعبان فى نفس اليوم فى قدمه فأصيبت بالشلل ، ومن هناك توجه فورا إلى صاحب البعير واعترف له بالسرقة ودفع له ثمن البعير خوفا من أن يتعرض لمصائب أخرى ، وهـذا الرجل لايزال يعيش حتى اليوم ، وحين تسأله عن إصابة قدمه يذكر لك بأنها من الولى ابن عثمان •• وفيما يلى قائمـة بأسماء الأولياء وفق رتبهم ومقاماتهم :

الأسـم	الضريح
صالح بن هــود	بن حاسك ورأس نـوس
بن عـلى	مربـاط
بن عربيـة	ريسـوت
الشيخ على عفيـف	طاقـة
الشيخ عيسـى	خور طاقـة
زاهـر	مربـاط
النبى عمـران	حافـه

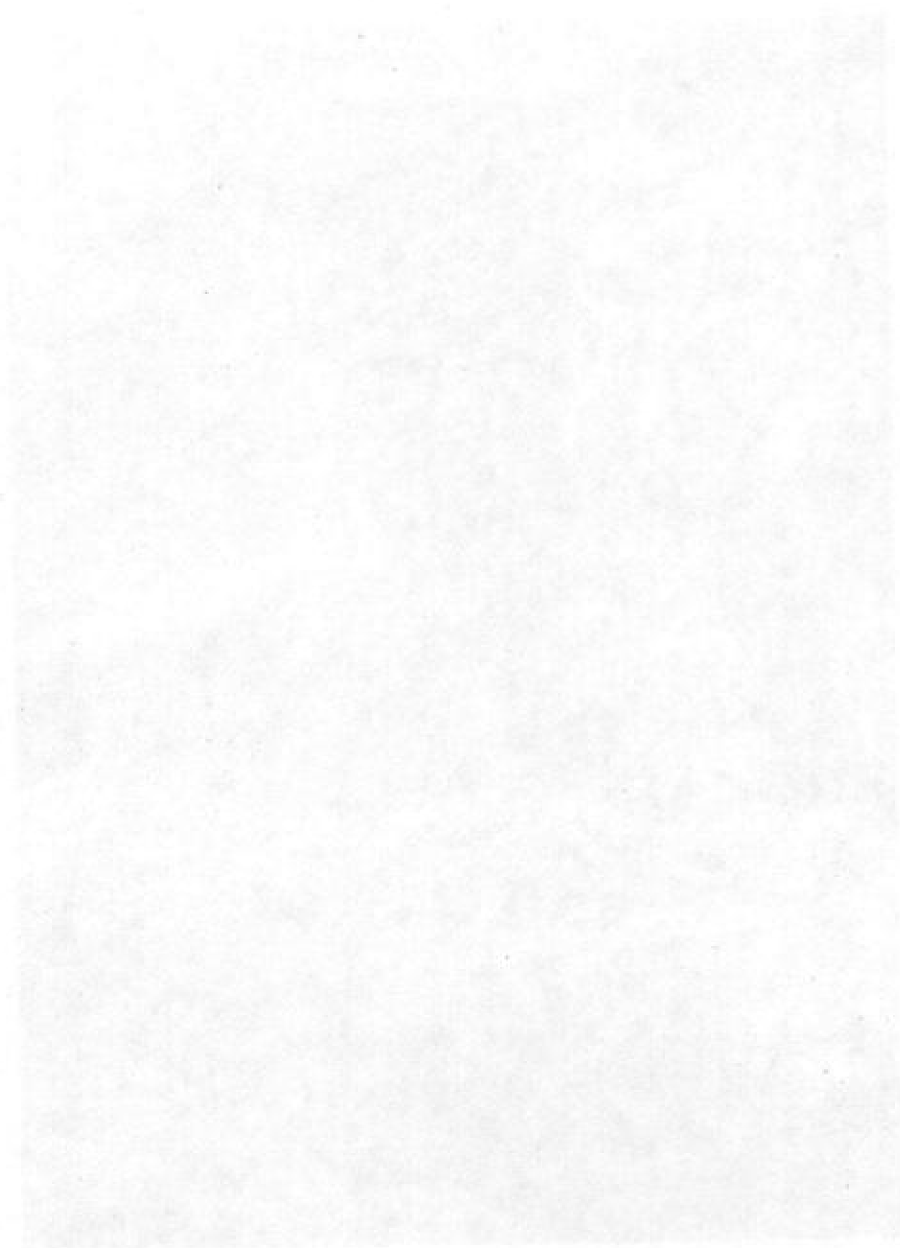
وفى حضرموت يوجـد ضريح للنبى هـود ، وهو نبى قوم عاد كمـا ورد فى آى الذكر الحكيم وهو يأتى فى المقام الأول بين الأولياء •• وربما



(مروج ورياض)



(عيون مياه خيونت)



كان أشهر ولى فى المنطقة هو بن جوهرى ويوجـد ضريحه فى بلاد المهرة وهو يتمتع بمكانة لا يرقى إليها أى ولى آخـر ، وعلى ضريحه يتم حلف اليمين فى القضايا الخطيرة كالقتل وغيره ، وهناك غيرهم من الأولياء أقـل مقاما ومن هؤلاء بن عثمان ويوجـد ضريحه فى « رخيوت » ، والنبى أيوب وهو الولى الوحيد المدفون فى منطقة جبال القرا •

وعلى كل حال فإن حلف اليمين من قبل المتهم لا يعتبر إجراء كافيا لبراءته فقد يطلب إليه تقديم قرابين النار ، ويسمى هذا عندهم « ثمريت أو مرث » ، وهذه العملية سبق للشيخ حسن أن مارسها عندما كان شابا وأرسل إلى حضرموت خصيصاً لتقديم قربان النار ، وقد حكموا ببرائته ، ومنذ ذلك الوقت ظل الشيخ حسن من أشـد المؤمنين بهـذا الاعتقـاد ، ولكن ليس كل شخص مؤهلا لتأدية هذه الطقوس ، خوفاً من أن يصيبه خنجر قاتل ، وهذا ما حدث لشخص يدعى بيحان وهو من قبيلة « يحم » ، وكان يعمل حدادا واشتهر باتقانه ممارسة هذه الطقوس ، وقال محدثى : لا يوجد شخص يجرؤ على رفض حكم على بن عبد الله بن عبد الودود مذنبا كان أو بريئا •

وتتم عملية طقوس النار بين صـلاة الصبح وصلاة الظهر ، فيجتمع أطراف النزاع أمام نار مشتعلة ويقوم المدعى بإدخال سكين أو خنجر فى النار ، ثم تمضى فترة من الوقت يطلب بعدها من المتهم بأن يخرج لسانه ، ويقوم المدعى ممسكا بمنديل بإحـدى يديه ، ثم يسحب النصل الملتهب باليد الأخرى ليضعه أولا على لسانه لاكتساب البركة ثم يوخز بطرف النصـل لسـان المتهم وخزتين إحداهما من الجانب المفرطح للنصـل والأخرى من الجانب الآخر •

والمفروض بعد هذه العملية أن يكون المتهم قادراً على أن يبصق فورا إذا كان غير مذنب ، ولابد أن تمضى ساعتان قبل فحص اللسـان والتأكد

من العملية ، فإذا ظهرت هناك بوادر انتفاخ أو حرق فى اللسان أو إذا تأثرت غدة المتهم فإن ذلك دليل على أنه مذنب ويجب أن يقدم نفسه لينفذ فيه حكم الإعدام أو وفق ما يقرره أصحاب الدعوى ، أما إذا لم تظهر مثل هذه الأعراض فيعتبر المتهم بريئا ، وقد سألتهم عن وجه العدالة فى هذه العملية .. فرد على سعيد يقول : والله إن هـذه حقيقة فالنار لا تضر البرىء .. وساعتها تذكرت بختنصر [1] .

كما تذكرت نار المسيح ، وترجع سفسطائية سعيد هذه الى الأيام التى كان يسافر فيها إلى خليج عمان لصيد اللؤلؤ ، فضلا عن أنه كان من الأشخاص الذين يجيدون القراءة إلى حد ما أو ليست البشعة هى نوعا من الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى ؟ وهى :

« .. بسم الله الرحمن الرحيم .. يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم .. » ، وهنا قلت لسعيد : ما هذا الذى تقوله عن إبراهيم ؟ فأجاب : إن عندكم ولاشك شيئا من هـذا فى الإنجيل أليس كذلك ؟ ، فأجبته : كلا . فقال ألا تعرف أن أجدادكم النصارى أرادوا أن يقتلوا النبى إبراهيم وألقوا به فى النار ولكن الله أرسل جبريل فأطفأ تلك النار ونجا سيدنا ابراهيم [2] ؟ .

لقد تحدثت فى اسهاب عن المعتقدات الدينية السائدة فى تلك المنطقة ، غير أن الكلام لايكتمل إلا بالحديث عن معتقدات السحر وعن السحرة التى

---

(١) ... بختنصر / قائد عسكرى قديم ظهر فى دولة بابل .

(٢) ... هذه القصة وردت فى القرآن الكريم ولكن لا علاقة لها بالنصارى ، حيث ان عبدة الأصنام من اهل جنوب العراق (وهم قوم ابراهيم عليه السلام) .. هم الذين القوا به فى النار ونجاه الله منها ولم يكن المسيح قد جاء بعد .

يؤمن بها سكان تلك المنطقة ، ومن الغريب أن الرأى العام فى تلك المنطقة ضد المعمرين ، ويعتقدون أن المعمر وراءه قوة خارقـــة هى المسئولة عن بقائه حياً حتى تلك السن •

وفى الكثير من الأحوال تعتبر وفاة مواطن من المواطنين نتيجة لأعمال سحرية الأمر الذى يعرض المشتبه فيهم إلى الاعتقال والمحاكمة وأبسط مثل على ذلك ما حدث لنا فى وادى غفار ، عندما أطلق النار علينا أحد أفراد قبيلة الشيخ الذى اغتال ابن عمه وكان ابن عمه هذا متهماً بممارسة أعمال السحر ، وقد قوبل هذا العمل من الجمهور بالاستحسان والتأييد ، كما وقعت حادثة أخرى من هذا القبيل بعد مضى شهر على وصولنا فقد أعدمت امرأة كانت مشـــهورة بالسحر إذ ألقى القبض عليها أولا ، ثم طبقت عليها طقوس النار وبرئت من التهمة ، غير أن ذلك لم يشفع لها عند رجال قبيلتها فتمّ إعدامها بطريقة تعد من أسوأ الطرق البدائية وبدون محاكمة •

أما الاغتيالات فى هذه المنطقة فهى من الأمور المألوفة وتقع كثيرا ، فحياة الفرد هناك رخيصة ولا أهمية لها ، كما أن عادة الثأر تثير التفرق بين القبائل التى لا تعترف بسلطة زعيم واحد عليها ، خاصـــة إذا كانت العلاقات التى تربطها بعضها البعض تتأرجح بين مـــد وجزر ، وهم يعتبرون أن الحكومة قبيلة أيضا ولكنها من مرتبة أعلى •

وذات يوم رأيت أحد الأفراد من قبيلة القرا يمر بالقرب من بعيرى ، وقد أدركت على الفور بأن هذا الشخص يحتل مكانة طيبة بين أفراد قبيلته وذلك من نوع البندقية التى كان يحملها ومنطقة الخراطيش التى كان يحيط بها وسطه • فضلا عن مشيته المزهوه •

وكنت أسير فى مقدمة القافلة وكان سالم يمسك بمقود ناقتى ليرشدنى الى الطريق فى داخل تلك الغابة حتى لا تعترضنا الأشجار ونضطر الى

النزول من فوق ظهور الجمال ، وأثناء سيرنا سألنى سالم : هل جميع الكفار مثلك أيها الصاحب ضخام الجسم ذوو ذقون حمراء وعيون زرقاء ؟ فأجبته بالإيجاب • ولكنه عاد يسأل : وكم عدد البقر التى تملكها ؟ •• فأجبته بأننى لا أملك شيئا من البقر •• ولكنه رمقنى بنظرة كلها شـك ولعله كان يتساءل فى قرارة نفسه • إذاً من أين لى كل هذه الريالات ثم عاد يسأل : هل صحيح أن الكفار يستخرجون أموالهم من الجبال ؟ •• فأجبته : نعم هذا صحيح • ولكنه نظر الى كأنه يطلب الصفح من رجل يعتقد أنه كان يملك كل هذه القوة السحرية التى تمـكنه من استخراج المال من الصخر •

وهل تعتقد بأنه توجد أموال فى جبالنا هذه ؟ • لا أدرى يا سالم • فسألنى : إذاً ما الذى دعاك الى الحضور الى هذه البلاد ؟ فأجبته : جئت الى هذه البلاد لأنى مولع بالأسـفار والتعرف على الناس من أمثالك ودراسة المخلوقات •• فسألنى : ولكن هل تحصل على نقود مقابل عملك هذا ؟ •• فأجبته : كلا •• ولكن هذا العمل هو الذى يكلفنى أموالا لأن النقـود التى أدفعها لك هى من أموالى الخاصة وقبيلتى لا تدفع لى شيئا •• ولكن سالم أخذ ينظر الىّ مستغربا وقال : ألا تخاف من هذه الجبال ؟ •• فأجبته : كلا •• فقال : يا حومر العين إن السلطان تيمور نفسه لم يزر هذه المناطق إلا مرة واحدة فكيف تجازف أنت بالحضور اليها ؟ فقلت له : ولكن بلدكم يا سالم تشبه بلادى وهى تذكرنى بها •

غير أن موضوع القتل والاغتيالات بقى مسيطرا على صاحبى وكان يعود الى هذا الموضوع من حين لآخر • وسألنى عما اذا كنت قد سمعت عن رجل من قبيلته اغتال أحد جنود الحكومة من فترة قريبة • فسألته : ولمـاذا قتله ؟ فأجاب : ألا تعلم أن الحكومة أيام حكم الوالى سليمان قد قتلت أحد رجال القرا ؟ •• ولكنى قلت له ان هذا الحادث مضى عليه خمسون عاما ، وان الجندى الذى أغتيل من وقت قريب لم يكن قد ولد بعد •• فقال :

هذا صحيح ، ولكن سبب اغتيال الجندى يرجع الى سخريته من أحد القرويين الذى كان ابن أخ الرجل الذى اغتاله الوالى سليمان فبادر ذلك القروى الى قتل الجندى •• فقلت لسالم : هذا صحيح ، أما فى بلادنا فلا يوجد غير حل واحد لمثل هذه الأعمال ، وهو الحل المناسب فإذا اعتدى شخص على حياة شخص آخر فلا تستطيع قبيلته حمايته كما انه ليس من حق الحكومة أن تقبل منه دية • وانما يتم تنفيذ حكم الاعدام فى القاتل •

بالطبع هذا عندكم ، غير إن الأمر هنا يختلف ، فيمكن أن تستعيض القبيلة بإعدام رجل آخر من قبيلة القاتل ، ثم ألم ترسل الحكومة بعض جنودها سرا فى العام الماضى لاغتيال أحد رجالنا ؟ وعلى أية حال فنحن واياها على قدم المســاواة •

غير أنى سألته : ولمــاذا اغتيل حمدان بن جاسم (وكان بطلا بين أفراد قبيلته) ؟ فقال سالم : أقسم بالله أن حمدان كان رجلا طيبا وكان من الأفضل لو أنهم اغتالوا ثلاثين فردا وأبقوا على حمدان ، ولكن ذلك كان أمرا مقـــدرا •

من خلال هذا الحوار ، أحببت سالما وقررت أن أصطحبه معى الى ظفار وأقدم له هدية صغيرة ، ولكنه هرب ولم يعد له أثر بعد ذلك ثم اكتشفت فيما بعد أن سالما هذا الذى معى هو الذى قتل الجندى التابع للحكومة وكانت نفسه تصور له أن عليه ثأرا لحكومة السلطان التى كانت لابد وأن توقع عليه ما يستحق من عقوبة جزاء لقتله أحد رجالها •• ولكنى تذكرت الحوار الممتع الذى كنت أتبادله مع سالم ونحن فى تلك الغابة الموحشة أمس وتنفست الصعداء •

الفصل الثامن

جبال القراتحيات الوداع

بدأ اليوم بصلاة الصبح ، وأخذ المرافقون الذين ناموا على العشب يستعدون ليومهم الجديد وقد أدى الشحرة والقرا الصلاة وهم جلوس فى أماكنهم بعد أن تيمموا للصلاة ، وقد سألت كيف يبيح مذهبهم الشـافعى التيمم ؟ .. أما العمانيون الثلاثة وهم من العناصر الأباضية المحافظة فقد توجهوا للوضوء من إحدى برك الماء ، لأن مذهبهم لا يبيح لهم التيمم وكان الثلاثة يحملون بنادقهم معهم .

أما الصـلوات الخمس وهى فريضة على المسـلمين فإنها لا تعنى شيئا عند أهل تلك المنطقة ، والمتزمتون منهم يعلقون أهمية كبرى على الوضوء وعلى أداء الصلاة فى أوقاتها المحددة ، أكثر مما يهتمون بما يتلى فى الصلاة من شعائر أو هكذا تظهر الأمور بالنسبة للشخص المحايد ، وكل ما يفعله هؤلاء الجبليون أنهم يرددون كلمات غير مفهومة ويتلفتون يمينا وشمالا أثناء الصلاة وبدون اكتراث لحرمتها .

أما بالنسبة للنساء فى هذه المناطق فإن أكثرهن — كما عرفت — لا يؤدين الصلاة وهذا رأى تقريبى ، لأننى لم يسبق أن شاهدت أو التقيت بامرأة تصلى فى مكان عام ، وان كان من غير المعقول أن يشترك النساء والرجال فى الصلاة معا ، ولكنهن بالنسبة للصيام ، كما دلت معلوماتى أنهن يصمن شهر رمضان كله ، ولكن صيامهن هذا صيام شكلى انطلاقا من الاعتقاد بأن الإفطار فى شهر الصوم يجلب غضب الله على المسلم .

وفى هذه الأثناء وصـل خمسة من البـدو والرحالة ، قادمين من المرتفعات ، وقد استطعنا التعرف عليهم بسهولة من حديثهم ومظهرهم ،

لأن الأقدام التى لم تتعود صعود الجبال تبدو أرق وتميل الى التقوس لكثرة الركوب ، بينما الأقدام المائلة الى الخلف هى أقدام سكان المرتفعات الجبلية ، وبالنسبة للملابس فهى نفس الملابس أى «المسر» و «الدشداشة»، كما أن أسماء أهل الجبال تميزهم عن غيرهم من السكان مثل ابن عنقيد وابن عويجة وابن نجم وذلك على نمط ابن كيث وابن جون •• الخ •• عندنا فى انجلترا •

والمتبع بين سكان القبائل البدوية أن يرث الابن لقب والدته وليس والده ، وهى عادة غير معروفة فى المناطق الحضرية أو بين المناطق الجبلية ، وكان الخمسة قادمين على إحدى السفن الى منطقة « سدح » ، وهو مرفق لنقل اللبان فى منطقة « رأس نوس » ، ويبدو أنهم كانوا قادمين لتحصيل بعض أموالهم من عبيدهم الذين يجمعون محصول اللبان فى فصل الحصاد ، وكانوا فى ذلك الوقت عائدين الى مناطق سكناهم فى وادى « رمه » والذى يسمى فى بعض الأحيان « وادى رماه » •

كذلك فقد جاء إلىَّ شخص آخر من المهرة سكان الجبال ، وفى يده ثعبان ، وكان الثعبان يلتف حول رقبة المهرى ، ثم صاح : آه •• لقد لدغنى الثعبان ، فلمحت بعض قطرات الدم على أحد أصابعه الذى بدأ منتفخا ، ربما بسبب ضغط الرجل على أصبعه لمنع تسرب السم الى بقية يده ، وقد ألقى الثعبان على الأرض ، وكان لايزال حيا ، وعندما ابتعدت عن الرجل ، أخذ يسحب يده من تحت الثعبان ، ربما ليتفادى لدغة أخرى منه ، غير أن حركة الثعبان كانت أسرع ، فلم يتمكن الرجل من امساكه إلا من الذيل ، ولكن الثعبان استطاع أن يسحب رأسه ويلدغ الرجل لدغة أخرى ، وقد اشمأزت نفسى من هذا المنظر ، وذهبت بعيدا عن المكان ، خصوصا وأن الحاضرين أكدوا أن ذلك الثعبان من الأنواع السامة ، غير أن الرجل عاد فأمسك الثعبان من ذيله بإحدى يديه مدليا رأسه لأسفل

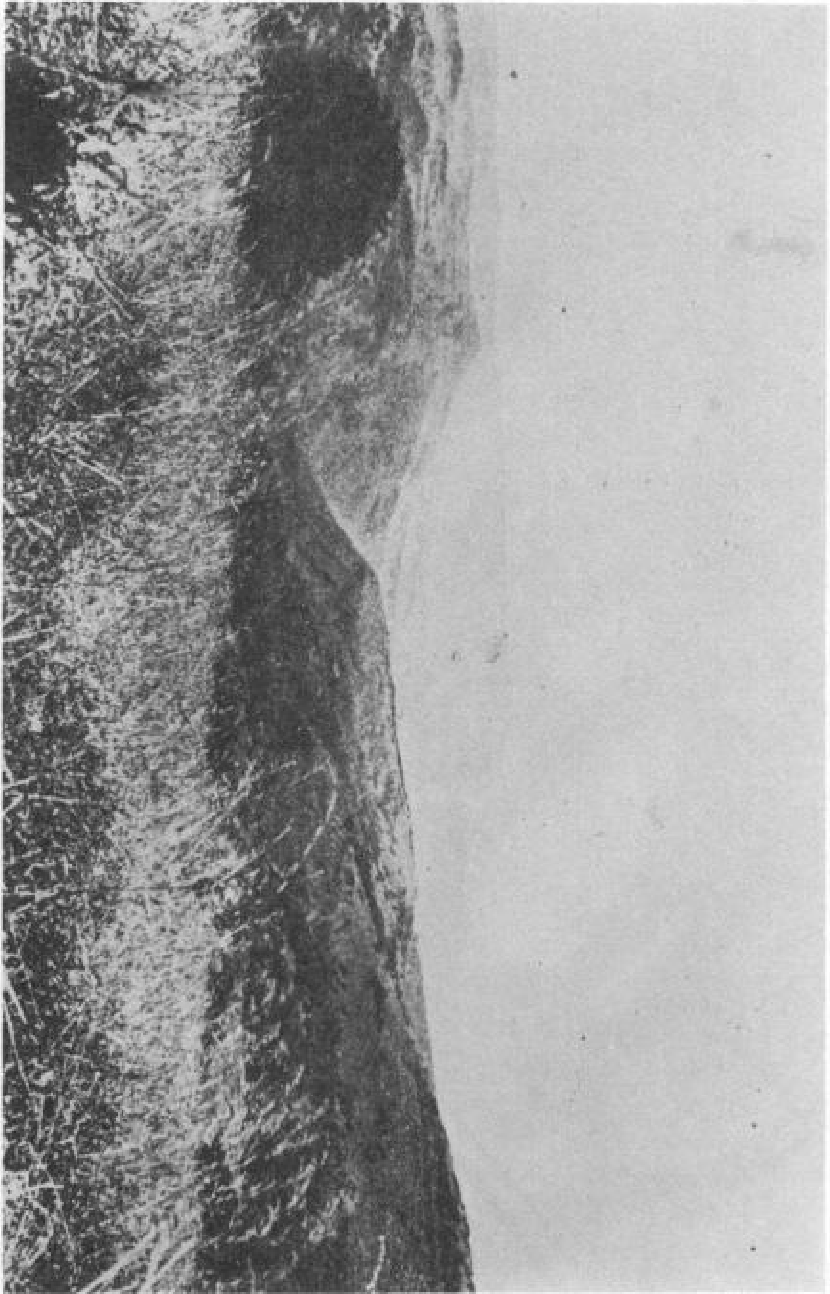
ثم مرّ بيده الأخرى على جسمه الى وسطه ، حتى أمسك بعنقه فى سرعة فائقة وضغط عليها حتى فارق الثعبان الحياة .

وقد أعطيت الرجل ريالا ، رغم ما أبديت له من عدم ارتياحى فقد كنت قلقا من أن يتأثر الرجل من لدغة الثعبان فيموت ، فيؤدى ذلك الى تعطيل مهمتى فى الأيام المقبلة .

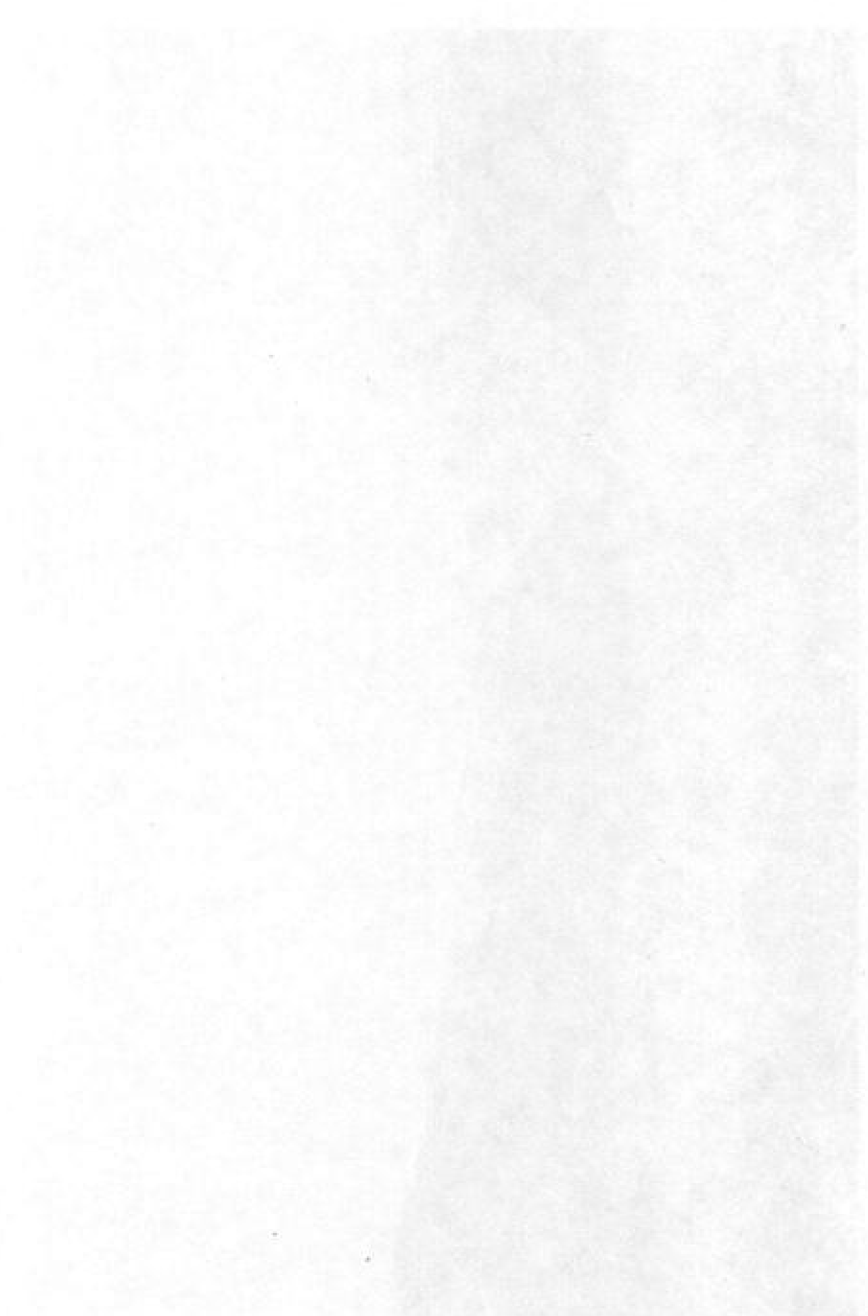
كان على الرجال المرافقين لى فى الرحلة أن يتناوبوا عمليات الحراسة الليلية للمخيم ، ولكنى عندما خرجت للتأكد من هذا وجدتهم جميعا يغطون فى النوم . فاقتربت من الكثيرى الذى كان قد علق ذبيحة على أغصان إحدى الأشجار حتى لا تسقط على الأرض فاكتشفت إهماله إذ كان مكلفا تلك الليلة بعملية الحراسة فلما أيقظته واقتربت منه أفاق من نومه مذعورا ، ثم نهض وأمسك بزناد بندقيته ، كما هى عادة البدوى فى مثل هذه الظروف، لأن لكل قبيلة أعداءها . ولكن عندما استيقظ سعيد وأخذ دوره فى الحراسة ، تمكن من اصطياد ثعلب ، غير أن الثعلب لا يغنى عن النمر الذى سبق أن أطلقنا عليه الرصاص فى وادى نحيز ولم نوفق فى العثور عليه .

إن القبائل الجبلية بحكم خصائصها الحضرية لديها وعى بالتملك ، وهذا الوعى غير موجود بين نظرائهم من البدو العرب ، وعلى الرغم من أن المراعى والمزارع ليست ملكا خاصا من الوجهة النظرية ، إلا أن بعض هذه القبائل تعرف تملك الأراضى عن طريق وضع اليد عليها ، كما أن المغارات والكهوف الجبلية تعتبر ملكا خاصا لأفراد هذه القبيلة ، وتنتقل ملكيتها بالوراثة أبا عن جد ، ومن حقها أن تتصرف فى هذه الأراضى كيفما تشاء فى نطاق مجموعتها القبلية .

وقد سألت أحد الكثيريين عن الكهوف المتاخمة للمرتفعات ؟ فأجاب بأنها ليست ملكا لشخص معين ، وإنما هى مشاع كالهواء والماء ؛



(وادي أربوت)



فاذا كان عندى كهف وأخليته فانه قد ينتقل الى غيرى ، فالكهوف ليست ملكا لشخص معين أو جماعة معينة لأنها هبة من الله لنا .

وقد حضرت لزيارتى مجموعة أخرى من المهرة ، من بيت « الشطنه » ، وربما كان لقبهم هذا اسما على مسمى فقد كانت شهرتهم بالميل الى الشر ذائعة ، وكان زعيمهم ويدعى الشيخ بخيت الأعرج ، وكان أحدهم يشكو من الربو بسبب رصاصة أصابته خلال معركة من المعارك وطلب منى دواء ، وقد أرانى المكان الذى أصابته فيه الرصاصة وأثر على رئتيه ، ثم سألنى عما اذا كان عندى دواء لرجل مصاب فى قدمه ولم يكن يستطيع المشى . فسألته منذ متى ؟ فقال : بعد اصابته بطلقة فى رأسه .. فأجبته بأنه لا يوجد دواء لمرضه فى أى مكان فى العالم . لأنى كما فهمت منه أن الرجل كان مصابا بالشلل .. فقال أحدهم : الحمد لله رب العالمين .

ثم أخذوا ينظرون الى بعضهم البعض فى أسى بالغ بحيث شعرت وكأنهم يحاولون اختبارى وربما اعتقدوا بأنى لا أريد مساعدتهم أو أننى لم أكن أتمتع بالمهارة والقــوة الروحية التى كانوا يظنونها .. ولكنى أعطيتهم شيئا من التمر فانصرفوا وطلبت منهم أن يصطادوا لى غريرا وهو حيوان يصعب اصطياده .

بعد الغروب دخل الأربعة خيمتى ليسمعونى أغانيهم ، فى الوقت الذى كانت جثة الأرنب الذى اصطدته فى اليوم السابق ملقاة على الأرض لكى تشمها الذئاب أو الثعالب فتأتى الى المكان ، وهذه المنطقة مشهورة بوجود نوع من الثعالب العربية الكبيرة الحجم ، وهو نوع مسطح البطن قاتم اللون وكنت كلما أضأت المصباح (الكشاف) حول المنطقة القريبة من المخيم شاهدت هذه الثعالب ذات العيون النحاسية البراقة .

وهناك اعتقاد بين سكان القرى الساحلية بأنه عندما يبنى أحدهم بيتا فإن أول شىء يفعله عند بناء البيت هو دق أربعة مسامير طويلة فى

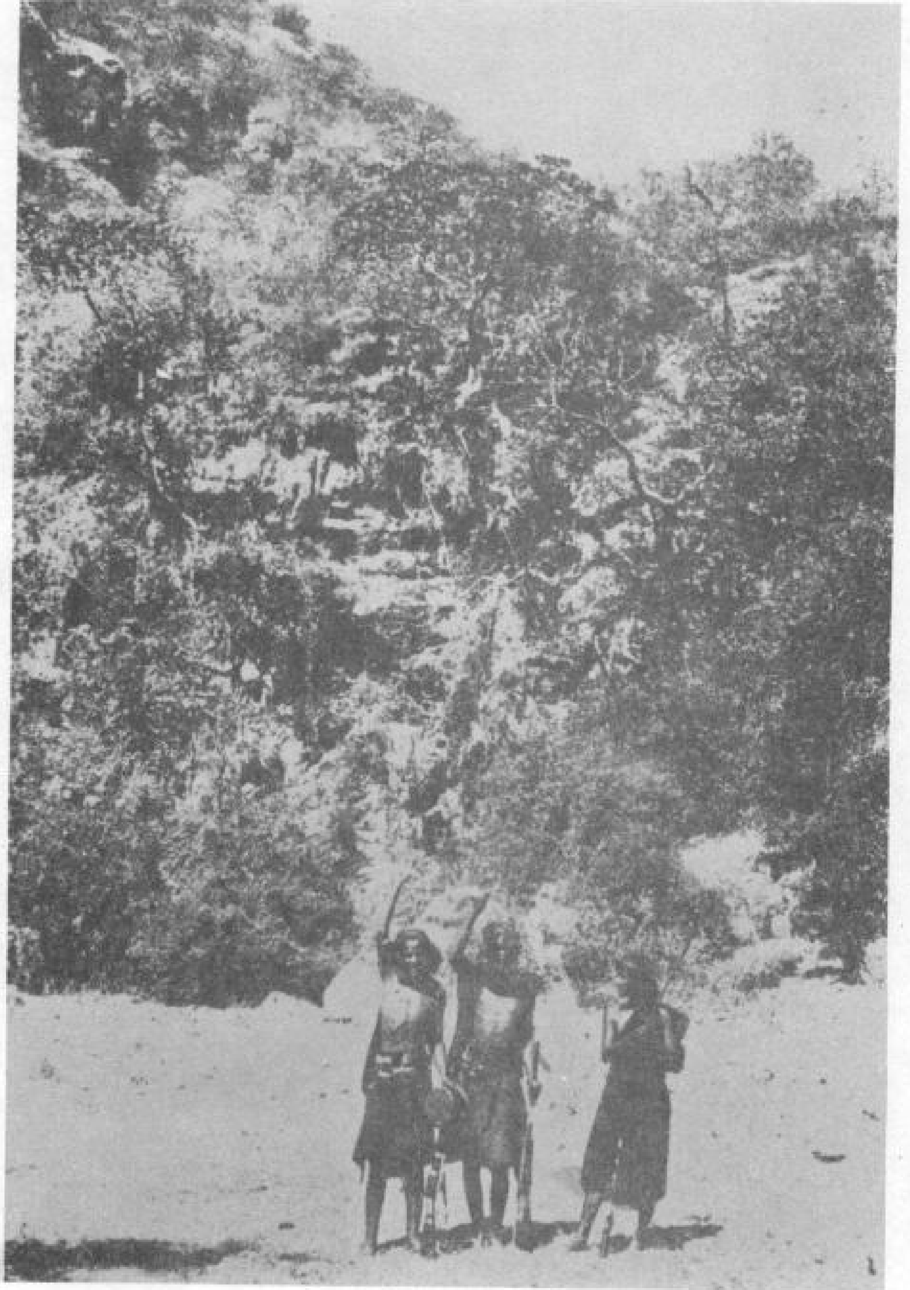
الأركان الأربعة منه بقصد رد العين • وعندما يتم بناء البيت يقوم صاحبه بذبح خروف على عتبته كقربان يحفظ البيت من الشر ويديم لأهله الخير ، وذلك على غرار ما نفعله نحن فى الغرب عندما تسكب زجاجة من النبيذ عند تدشين البواخر •

وفى بعض مناطق عمان يقوم صاحب البيت بعد الانتهاء من بنـــائه بذبح ماعز ورش شىء من دمها عند عتبة البيت • وهذا التقليد معمول به فى ظفار أيضا وان كان يختلف فى تلك المنطقة بعض الشىء حيث تجرى العملية أثناء بناء المنزل ، وليس عند الانتهاء منه ، ويوزع لحم تلك الماعز على عمال البناء ، وأما الدم فيرش بطريقة عشوائية على جدران المنزل ، كما تكسر بيضتان عند عتبة البيت وبيضتان أخريان على السلم ومثلهما على السطح •

ويجرى الزواج للجنسين فى سن الخامسة عشرة ولكن الذكور قد يتزوجون قبل بلوغهم هذه السن لئلا تفسد أخلاقهم ، وقد تتزوج البنت قبل البلوغ اذا كان والدها على قيد الحياة ويوافق على زواجها ، أما اذا كان أحد الزوجين قد بلغ سن الرشد فلا يمنعهما أحد من ممارسة النكاح •

وقد سألت الشيخ حسن ، هل هذه الزيجات شائعة عندكم ؟ وما هى تقاليد الزواج عند قبيلتكم ؟ •• فقال بأن والده زوجه عند بلوغه السادسة عشر تقريبا ، وكان الشيخ بخيت حاضرا معنا فأشار الى أكبر أولاده ، وكان يبدو على عتبات الرجولة ، وقال بأنه زوجه من ابنة عمه منذ سنتين . ولكنه الآن بعد أن كبر ، أحب امرأة أخرى وعندما تنتهى مدة خدمته عندى ، فسوف يتزوج مرة أخرى بحصيلة الأجر الذى سأدفعه له •• ثم سألت عن ابنة عمه التى تزوجها فأجاب أبوه بأنها من أجمل فتيات الجبل • وعندها بعض الأملاك ومع ذلك فانه لا يحبها وانما يحب المرأة الأخرى التى يريد الزواج منها الآن •

فسألته : وهل هى شابة (أقصد زوجة الابن) ؟ •



(فى سهول وادى اربت)

فأجاب : كلا .. انها سيدة كبيرة .

ثم عدت أسأله : هل هى فى العشرين مثلا ؟ .

فأجاب : ربما يكون عمرها نحو ثمانية عشر عاما ولكنه سوف يطلقها لتتزوج هى من رجل آخر .

وليس من الغرابة فى شىء اذا قررنا بأن الزواج فى مناطق الجبـل يتم بدافع النزوات ، وأن أغلى صداق للزوجة لايزيد على عشرين بقرة (أى ما يعادل ٢٠٠ ريال) وأقل صداق لايزيد على بقرة واحدة (أى ما يعادل عشرة ريالات) ، ويطلق على هذا النوع من الزواج اسم « جيـلاب » .

وتتم اجراءات الزواج بأن يتوجه وكيلا العروسين ، وهم عادة والدا العروسين الى القاضى لتقنين الزواج وعند عودتهما تقوم نساء الحى بزف العروس الى زوجها ويتقدم هذا الموكب رجال المنطقة . وأثاث بيت الزوجية الوحيد هو سجادة صغيرة تشترى خصيصا لهذه المناسبة . ويقوم الرجال بذبح بقرة أو بقرتين ان كانوا من الأغنياء لإعداد وليمة بهذه المناسبة ، ويتم الاحتفال بالزواج بانشاد الأغانى من جانب رجال الحى ، غير أنه لا يصحب المناسبة رقص قبلى كما يحدث بالنسبة للاحتفالات التى تقام لختـان الذكـور .

أما الطلاق فيتم بمنتهى السهولة من جانب الزوج ، كما هو الحال فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ويحدث هذا نتيجة لملل الرجل من زوجته ويقوم باشهار الطلاق وفق العرف المتبع ، وبعدها فإنه على المطلقة أن تغادر بيت الزوجية الى منزل والدها ، أو أحد أقربائها ومعهـا مؤخر الصداق الذى لا يزيد عن نصف بقرة (خمسة ريالات) .

ويجوز للمرأة أيضا أن تطلب الطلاق اذا هى شاءت وان كان هذا

يكلفها كثيرا من الناحية المالية ، اذ عليها أن تعيد الى الزوج نصف الصداق المدفوع لهـــا (أى ما يعادل عشرة بقرات) أو « ١٠٠ ريال » .

ومن حق الزوجين المطلقين أن يتزوجا مرة أخرى ، وليس من الضرورة اتمام اجراءات الطلاق أمام القاضى ، ومن هنا تكثر الزيجات كما يكثر الطلاق . فمن حق الرجل وفق الشريعة الاسلامية أن يتزوج بأربعة نساء ويجمع بينهن . واذا حملت امرأة من زوجها فيحق له الزواج من أخرى أيا كان سنها ، ولكن عليه فى هذه الحالة أن يدفع لها (أى الزوجة الأولى) تعويضا ماليا لكسب رضاها ، وهذا التعويض لا يقل عن نصف الصداق ، وذلك هو أحد الأسباب التى تمكن النساء من جمع الأموال ، كما من حق كلا الزوجين أن يمتلك ما يشاء .

وذات يوم سألت (مستهيل) . أحد المرافقين لى من أهل القرا عن عدد أولاده . فقال : ثلاثة أولاد ـــ بنت وصبيان ، فعدت أسأله وهل هم من زوجة واحدة ؟ فأجاب بالنفى وقال إن البنت وهى أكبر الثلاثة من زوجة أخرى طلقتها ـــ وعندما سألته عن السبب الذى دعاه لطلاقها أجاب لأنها لم تنجب ولدا ذكرا ، ثم انها هى التى طلبت منى الطلاق . ثم سألته هل استرجعت منها الصداق ؟ فقال نعم . بل حصلت على أكثر مما دفعت لها عند الزواج فقد دفعت لها ست بقرات وبعد الطلاق دفعت لى ثمانى بقرات ، وأخيرا سألته عن صداق ابنته عندما زوجها ؟ .. فقال : انها حصلت على أربع بقرات ، وأنها كانت تستحق أكثر من هذا غير أن ابن عمها لم يكن لديه أكثر من ذلك ، ولهذا وافقت على زواجها . فقلت : ان معنى هذا أنك حصلت على ست بقرات ، اثنتين من مطلقتك ، وأربع من ابنتك أليس كذلك ؟ .

فضحك وقال : والله كنت أحمق ، فقد تزوجت مطلقتى من ابن زيدى وأنجبت منه أربعة أولاد ذكور .

فسألته وماذا عن زوجتك الثانية ، وهل لك منها أولاد ؟ فقال : نعم لقد أنجبت لى ثلاثة أولاد ذكور ولكن لم يبق منهم الا اثنان •• فسألته كيف يكون تصرفك عندما تقابل مطلقتك المتزوجة الآن من غيرك ، وكيف تسير العلاقة بينكما ؟ ••

فقال : إننى أسألها فقط عن صحتها •

ان المرأة فى هذه المنطقة تعمل فى ظل نوعين من المحرمات ، فلا يباح لها حلب الماشية كما لا يباح لها أن تطهو الطعام •• فهذه الأشياء تعتبر من الأعمال المخصصة للرجل وحده ، ويقتصر عمل المرأة على الرعى ، ورعاية الماشية وجمع الحطب وجلب الماء الى جانب صناعة الأوانى وجمع التبن وعمل حشيات منه للنوم •• أما وظيفتها الأساسية فهى الانجـــاب فحسب •• ولكن الأفضلية للذكور •

وطرق منع الحمل غير معروفة فى هذه المناطق ، وقد ينفرون منها ، وتعمل المرأة حتى اليوم الأخير من الوضع ، وتضع أولادها اما تحت الأشجار أو داخل الكهوف وتباشر المرأة عملها فى اليوم التالى للوضع •

وعلى الرغم من الحرية الواسعة التى تتمتع بها النساء فان السفاح يكاد يكون معدوما ، وربما كان ذلك راجعا الى سهولة الزواج والطلاق والزواج مرة أخرى ، أكثر مما يرجع الى التطبيقات الشرعية المعمول بها فى شبه الجزيرة العربية ، وفى عمان مثلا تقتل المرأة اذا حملت سفاحا ، وقد يقوم بالقتل والدها أو أخوها أو ابن عمها ، وليس زوجها ، أما فى هذه المنطقة فانهم يجردونها من تبعيتها القبلية ويتركونها تذهب الى حيث تشاء ، والزانى فى جبال القرا مطارد من أقارب الزانية لكى يقتلوه واذا تمكن من الفرار فانهم يلاحقون زوجته أو أى قريبة له للانتقام منه •

واذا خطبت احدى الفتيات الجميلات قبل بلوغها ، فانها لا تعرف أى

مسئولية وبالنسبة لأول زواج فان والد الفتاة هو الذى يقوم باختيار الزوج المناسب لها دون موافقتها أو استشارتها وفى عمان تعتبر استشارة الفتاة البكر فى أمر زواجها شيئا مخجلا ، فوالدها هو الذى يدبر لها أمر الزواج ، وهو الذى يتصل بالوالى فى هذا الشأن ، أما هى فلا تعرف شيئا عن هذا الزواج الا يوم تهيئتها له •

أما فى المنطقة الجنوبية فان والد الفتى قد يفضى الى الفتاة بموضوع الزواج ويأخذ فى مدح ابنه والاشادة بأخلاقه •• وعند طـلاق الزوجة من زوجها يؤخذ رأيها بالنسبة لزواجها من رجل آخر ، وهناك من الحالات ما يثبت أن المرأة بعد الطلاق قد تكون لها الحرية فى اختيار الزوج المناسب الذى تريده ، اذا وافق والدها على هذا الزواج •

أما اعطاء الأفضلية لابن عم الفتاة فى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية ، فهو لا ينطبق على هذه المناطق فيما عدا قبيلة المهرة ، لأن الشخص الذى يحق له اتخاذ القرار النهائى فى الأمر هو الأب[1] •

غادرنا منطقة « خيونت » عبر طريق يمر بضفة احدى الوديان الذى تكسوه الأشجار وكان اتجاهنا نحو الجنوب الغربى صعودا الى ارتفاع يبلغ ١٩٥٨ قدما عن سطح البحر • وقد استطعت تحديد موقعنا بالضبط من المواقع الساحلية المعروفة ، ومن ذلك المكان واصلنا السـير بقية اليوم باتجاه الشرق الجنوبى عبر مزارع الشعير ، وابتداء من هذا المكان أخذ الطريق يزداد وعورة ، والأشجار تزداد كثافة ، فاضطررت للنزول من فوق البعير للسير على قدمى وأخرجت شبكة صيد الفراشات وأرسلنا الجمال عن طريق آخر أسهل وان كان أطول •

---

(١) ... ان الرسـول صلى الله عليه وسـلم يقـول : « اغتربوا لا تضووا » .. ومعنى الحديث انه ينصح بالزواج من غير الأقارب الأقربين لأن ذلك يؤدى الى ضعف الذرية .

وقد انفصلت عن بقية المجموعة ، وفجأة سمعت أحد البدو من بيت آل كثير يجرى من خلفى ويصيح : قف .. قف .. أيها الصاحب ، فأنت هنا فى مكان غير مأمون وبيت قطن حجزوا جمالنا .

كان بيت قطن وهو أحد القبائل الجبلية فى نزاع مع حكومة ظفار التى اعتقلت أحد رجالهم وأودعته السجن فى صلاله ، بعد أن رفضوا دفع الضرائب المستحقة عليهم ، كما كانوا يشنون الغارات على المناطق الحكومية ، وعلى أية حال فانى لم أكن أفضل التوقف فى هذا المكان ، غير ان البدوى أخذ يتكلم بصوت عال وفى عصبية ان بيت قطن قد يعتدون علينا وسبق أن اغتالوا أحد رجال الحكومة ، على أنه لم يكن عندى أحد من القرويين ، ولو أنى رجعت فقد لا يجدى هذا شىء ، ولهذا قررت السير مع العبد الوحيد الذى كان يصحبنا متوقعين بألا نتعرض لأى حادث أو اعتداء فى الطريق .

كان طريق حمرير يؤدى الى جرف منحدر يقع على جانبى الوادى وكان كثيف الأشجار كما كانت قرية « عربوت » ووادى نحيز موطن بيت قطن الى اليمين .

وبعد مسيرة ثلاث ساعات فى مناطق غير مأمونة وصلنا فى المساء الى « فزح » المطلة على « أربوت » ، وكنا فى غاية التعب والارهاق ، كما كانت أقدامنا تؤلمنا من طول السير ، وعندما أخرجت البوصلة ثبت أننا على ارتفاع يبلغ ١٣٥٠ قدما .

فى « فزح » اخترت بقعة تحت الأشجار فى احدى الحقول وكانت تطل على منظر طبيعى من أروع المناظر ، وكان ماء وادى عربوت الذى يقع تحتنا ينساب فى هدوء عبر مجراه ، بينما الشاطىء على الجانب البعيد يحف به ذلك الشريط الفضى من مياه البحر ، وفى هذا المكان على حافة السهل تمتد المنحدرات الجبلية المواجهة للبحر والتى تأخذ فى التقلص تدريجيا حتى تلتقى عند الهضبة .

وفى فزح ، لم يكن هناك أى عدو يتربص بنا ، فيما عدا الرعاة الفتيان الذين يمرون بنا من حين الى آخر ، وقد اشتريت منهم نعجة أخذتها الى المخيم فى الوادى ، كطعم للنمور التى كنت أحاول اصطياد واحد منها ، وبعد مرور ساعتين انضمت الينا بقية القافـلة ، غير أن المرافقين فضلوا ألا يتحدثوا عما صادفوه من متاعب أثناء الرحلة • وفور وصولهم تناولوا قرب المـاء ونزلوا الى الوادى لملئها من عين فزح رغم ما كانوا يشعرون به من تعب الرحلة •

ويعتبر هؤلاء الجبليون من أمهر متسلقى الجبال فى المنطقة ، فقد صعدوا الجبل الى ارتفاع ٨٠٠ قدم وهم يحملون قرب الماء على ظهورهم ، غير مبالين بمشاق الصعود ولا بالظلام فى مناطق تعج بالأفاعى والثعابين ، بحيث أننى استطعت أن أجمع بين يوم وليلة أربعة ثعابين •

أمضيت فى هذا المكان ليلتين وفى احدى هاتين الليلتين بينما كنت مستلقيا على الأرض أشاهد القمر يظهر ويختفى من تحت السحب ، وكانت الساعة تشير الى الثالثة والنصف صباحا سمعت فجأة صوت طلق نارى ثم أعقبه أصوات غناء خافت ، وقد تصورت فى البداية أن الذى كلفته باصطياد نمر فى منطقة الوادى كان يعبر عن سروره بنجاحه فى مهمته ، غير أن الأمر كان غير ذلك فقد فوجئت بأحد شيوخ القرا ، ينهض ويمر بجانب خيمتى ؛ لأننى لم أسمع أى صوت لحركته ، وتوجه فورا الى المكان الذى كانت تصدر منه أصوات الغناء • فاكتشف جثة قتيل من المهرة على التل وكانت لاتزال فيها بعض الحياة ، وكان مصابا برصاصة فى القلب والدم ينزف منه •

وفى وقت مبكر من الصباح جاءنى الشيخ حسن وشيخ المهرة ، ونبهانى الى أن المنطقة غير مأمونة ومن الأفضل أن نغادرها على الفور • وقد وافق الجميع على رأيهما ، لأن ذكريات الثأر الذى لهم على المهرة ، كانت ترغمهم أن يظلوا يقظين دائما ، وكان رأيهم أن تلك العملية من فعل بعض المتهورين أو المتطرفين من قبيلتهم • ومن هنا فقد أصبح وجودهم هنا يعرضهم

للخطر ، وقد طلبت من الشيخ حسن أن يحدد لى القاتل • فقال ان ذلك علمه عند الله ، فقد يكون من بيت « جعيوب » (فـــرع من القـــرا) • وسألنى : ألم أسمع ذلك السيل من الطلقات الذى يصاحب مظاهر الابتهاج فى المنطقة ؟ • فقد كانت تلك الأصوات تأتى من ناحيتهم ، وكانت تدل على أنها احتفالات تعبر عن فرحتهم بإحدى عمليات القتل أخذا بالثأر •

وقد تأكد لى هذا الرأى فيما بعد عندما قتل أحد المهرة قبليا من آل جعيوب وهاهم الآن يثأرون من القاتل • وعلى أية حال فقد كان على المهرى أن يلتزم الحذر ولا أعرف كيف سمح لنفسه بأن يسافر فى مناطق تعتبر من مناطق قبيلة القرا • لقد نجح السلطان فى عقد هدنة مع هاتين القبيلتين مدتها عام واحد انتهت منذ شهرين ، ثم جددت لعامين آخرين •• أليس هذا العمل مناقضا للهدنة وانتهاكا لها ؟ قال الشيخ حسن : ان هذا أمر مقدر ثم عاد يقول : صحيح ان هناك اتفاقية معقودة لوقف القتال ، وان الذى وقع الاتفاقية هو القاتل نفسه ، وقد تعهد فيها بأنه لن يسفك دم مهرى واحد لمدة عام على الأقل ، ولكن بعد شهرين من توقيع الاتفاقية قام باغتيال أحد أفراد قبيلة المهرة أثناء نومه •

لقد كنت أعرف القتيل • انه سهيل وهو من قبيلة بيت الشطنة الذين زارنى بعضهم عندما كنت فى جعيوب قبل ثلاثة أيام ، وقص علىّ بعضهم قصصهم الشعبية •• ولقـــد كان سهيل شابا ونموذجا فريدا بين رجال القبيلة • ولكن تلك هى قوانين الثأر التى لا ترحم ولا يكتفى أهل القتيل بمطاردة القاتل ولكنهم يلاحقون كل فرد من أفراد القبيلة وكل من له صلة القربى به ، وحادثة الاغتيال التى أشرنا اليها أبلغ دليل على ذلك •

ثم سألنا ، ولكن ما هى الدوافع وراء ارتكاب الجريمة فى هذا المكان بالذات ؟ وفى ســـيادة من تدخـــل هذه المنطقة ؟ وهل هى تابعة لقبيلة جعيـــوب ؟ •

فأجاب الشيخ حسن : بأن المنطقة تابعة له ولكن العرب لا يحملونه أى مسئولية لأن القتيل لم يطلب لنفسه الأمان منه ، ولو أنه فعل ، لأدى هذا الحادث الى تعكير صفو الأمن فى المنطقة واعتبر قتله بعد منح الأمان جريمة نكراء ، ثم لو أن بخيت (وأشار بكلتا يديه الى ابنه) كان عليه ثأر لأى مواطن من سكان القرا ، لكان قد اغتيل ، وكنا سنضطر كذلك الى الثأر له ، وانى لأفضل طبعا أن يقتل ابنى من أن يقتل شخص هو فى عهدتى .

كان بين الشيخ حسن وقبيلة القاتل عداء شديد ، فقبائل القرا منقسمة على نفسها فقد لمست من لهجة حديثه عن القاتل ، نوعا من الشعور بالارتياح لقتل أو اغتيال واحد من قبائل القرا .

ثم التفت الى أحد الكثيريين وخاطبه قائلا : لابد أن تكون سعيدا لأن أحدا من جماعتك لم يشترك فى هذه العملية ، فرد عليه يقول « سامحهم الله » فنحن البدو نحترم كلمتنا على عكس سكان المناطق الجنوبية ، فانهم مشهورون بالغدر ، ولعل القرا والمهرة لا يدركون الآثار المؤلمة للجرائم المفجعة التى يرتكبونها علنا ، بل انهم لا يحترمون العهد ولا الربعة (الأمان) وقد لا تصدق أن القاتل ربما استضاف القتيل فى بيته وأكل من قراه ، سامحهم الله جميعا .

عندما كنت عائدا الى ظفار من منطقة الجبال فكرت أن أضع حدا لهذه الرحلة ، فالضباع وغيرها من الحيوانات المتوحشة لن تأسف على عودتى ، الا أنه على الرغم من الأحداث المؤسفة التى صاحبت الرحلة ، فقد كان التفكير فى العودة أمرا غير مقبول ، لأنه لو حدث ذلك كنت سوف أحرم من مشاهدة منطقة من أجمل المناطق فى شبه الجزيرة العربية ، وهى معين لا ينضب من الالهام للفنان ، وعاشق الطبيعة ، وعالم الأجناس فضلا عما كانت ستقدمه الى من متعة حقيقية وبهجة روحية .

منذ ذلك الوقت لم يكن زملاء الرحلة يفارقوننى بعد الغروب كما

كانوا يفعلون سابقا وقد ظل مخيمنا يعج بالحركة وقد انشـغل الرجال بتجهيز أمتعتى والعينات[١] • التى جمعتها استعدادا للرحيل •

وقد نمت فى تلك الليلة نوما عميقا واستيقظت فى الصباح لكى ألقى نظرة على وادى عربوت وقد أخذ ينفض عنه النعاس • ومن فوق التلال حيث كان الزملاء يؤدون الصلاة كنت أسمع تسابيحهم كما لو كانت آتية من احدى الكتدرائيات الكبيرة • وكان ضوء النجوم يخفت تدريجيا تحت زحف ضياء الصبح يتلوه شروق الشمس التى أخذت ترسل أشعتها الذهبية على البطاح • ومع نسمات الصباح العليلة أخذت أعواد العشب تتمايل وتهتز ، بينما أخذت الطيور على الأغصان تغرد بألحانها الشجية ابتهاجا بطلوع النهار بينما كانت الشمس تلقى بضيائها على جنبات الوادى الذى كان لايزال يغشاه الصمت ويكتسى بردائه الأحمر • إذن هاهى شمس الصباح قد بدأت تنشر أشعتها البنفسجية على الكون ، غير أن جبل نشيب الشامخ وهو يستلقى على شاطىء البحر كان المكان الوحيد الذى ظل يتحدى كل الظواهر ، ومع انقضـاء النهار كان الأفق يكتسى بألوانه الزاهية ، بينما أخذت قطع من السحاب تنقشع فى زرقة السماء وتتغير ألوانها من الأخضر الى البنفسجى • ومع استفاقة الوادى من غفوته أخذت الأشجار على السفوح تكتسى بألوان جميلة زاهية ••

---

(١) .. تتألف هذه المجموعة من الأشياء الآتية :

اسم الحيوان	العدد	اسم الحيوان	العدد
ضباع	٥	خفافيش حقل	٢
ثعالب	٣	عقارب	١٦
ذئاب	١	أم أربعة وأربعين	٤
أرانب	٢	حشرات متنوعة	١١٢
غرير	١	سحليات	٢٨
فئران حقل	٢	فراشات	٦٦
جراد	٥٠	ضفادع	١
ثعابين	٢١	يعسوب	٦٠١

.. بالاضافة الى فرس النبى والعنكبوت والزنابير .

الفصل التاسع

الساعات الأخيرة في ظفار

حصن ظفار : اليوم السادس من ديسمبر • كنت أشعر بتحسن في ذلك اليوم من مرض « الدوسنتاريا » ، الذى أصبت به وألزمنى الفراش ثلاثة أيام بعد عودتى من منطقة الجبال •

لقد مضى شهران منذ تركت مسقط ، كما مضى أكثر من ستة أسابيع منذ بدأت أحلامى فى اجتياز الربع الخالى تتبدد • وقد تبين لى بوضوح أن تلك المنطقة كانت أكثر قسوة مما كنت أعتقد وكنت قد يئست تماما من وصول أى خبر عن المبعوثين الذين أرسلتهم للتمهيد والاستطلاع ، فمن المحتمل جدا أن يكون أولئك الرسل قد لقوا حتفهم فى الطريق على يد بعض خصومهم ، وهنا أحسست بأن الأعوام الطويلة التى أنفقتها فى التحضير لهذه الرحلة والهدايا التى جمعتها ورتبتها فى عناية فائقة ووزعتها فى كثير من الكياسة ، قد ضاعت سدى •

وفى الغد سوف تصل السفينة الحربية « آل سعيد » • قادمة من مسقط • ومن المفروض أن أعود عليها • كما أنى أشك فى أن تعليمات رسمية جديدة قد تصل معها اذ ليس من المستبعد أن تكون عمان قد شهدت بعض الأحداث كالحروب والاضطرابات مما يستدعى عودتى الى العاصمة •

ومن مرباط كان قد وصل أحد المواطنين بعد أن علم بوصول هذه السفينة وسمع طلقات مدافعها ورأى العلم السلطانى يرفرف فوق ساريتها • وقد جاء مسرعا لكى يتمكن من الوصول الى السوق لعرض ما يحمل من السلع والبضائع التى يعرف أنها سوف تدر عليه كثيرا من الربح •

وعلى أسطح المنازل كان جمهور المواطنين يطلق النار احتفالا بوصول

السفينة الى ظفار • وفى هذا الوقت بالذات كنت فى داخل غرفتى بالحصن مستلقيا أفكر فى مصير الرحلة ، واذا كنت فى العام الماضى قد نجحت ى الدخول الى المنطقة من الشمال مسافة مائتى ميل تقريبا حتى مشارف منطقة الرمال ثم اضطررت الى العودة ، فاننى فى هذه المرة لم أتمكن حتى من القاء نظرة على المناطق الواقعة وراء جبال القرا •

وقد مرت نحو ساعة وأنا على هذه الحال ، ولم يقطع حبل تفكيرى غير دخول (الخادم محمد) عند الغروب ليخبرنى بأنه يحمل لى أنباء سارة ، فقد وصل فى نفس اللحظة بدويان من الصحراء ، وقالا له بأنهما مقدمة لقافلة كبيرة يقدر عددها بأربعين بعيرا من بينهم (معيوف وخويتم) اللذين كنت قد كلفتهما بالتوجه الى منطقة الرمال • وقال بأنه من المتوقع أن يصل الاثنان الى عين غروم هذه الليلة وغدا سيصلان الى « جربيب » • ان شاء الله •

حقا ! ! لقد كانت أخبارا سارة لو انها كانت صحيحة ، غير أن السفينة سوف تصل غدا هى الأخرى ، فهل كان من المقدر أن يتأخر وصول المبعوثين يومين أو أن تلك خدعة القدر تأتى فى اللحظة الأخيرة •

بينما كنت فى اليوم التالى أطل على بهو الحصن رأيت مجموعة من راكبى الجمال ومعهم عدد من البدو الذين يرتدون بعض الملابس المهلهلة ، وكانت تلك هى قافلة الجمال التى وصلت من منطقة الرمال ، والتى سوف تصحبنى فى رحلتى الى الربع الخالى •

ومن ناحية أخرى كانت السفينة «آل سعيد » التى وصلت فعلا ترسو فى الميناء ، وقد حضر قبطانها الشجاع « سالم المنذرى » ليصحبنى الى البارجة التى ستبحر الى مسقط •

وعلى الفور عكفت على قراءة كومة الرسائل التى كانت وصلتنى وكانت احداها وعليها الشعار السلطانى من صديقى الحميم السيد تيمور •

وقد قرأت هذه الرسالة أكثر من مرة ، وبحكم الثقة المتبادلة بينى وبين جلالته ، فقد أعددت على الفور قرارا بعدم السفر الى مسقط وذلك حتى أقوم بمحاولة أخرى لاجتياز الربع الخالى عن طريق غير تلك التى رسمتها سابقا • ومنذ تلك اللحظة فسوف يرتبط مصيرى بهؤلاء الرجال الغـــرباء الذين سأشترك معهم فى اقتحام تلك الصحراء المجهولة •

وعندما دخل على خويتم ومعيوف يصحبهما الشيخ صالح تحدثوا الىّ عن الصعوبات التى عانوا منها فى محاولتهم اقناع البدو بالحضور بعد أن أبدى هؤلاء البدو لهم ما سوف يتعرضون اليه من متاعب وأخطار وجوع أثنـــاء الرحـــلة •

والواقع أن حالة الجمال كانت خير شاهد على تلك المتاعب ، كمـــا طمأنوهم على المكافآت السخية التى سوف يحصلون عليها من تلك العملية ومن أول وهلة أعجبت بالشيخ صالح وكان يلقب بـــ « ابن كلوت » وهى احدى النساء الشهيرات فى الربع الخالى وابنة محارب مشهور وأم لثلاثة من المقاتلين فى المنطقة •

ومن التقاليد التى تتميز بها هذه المنطقة هى الانتصار على الخصوم والوقوف بجانب الأصدقاء ، وهى صفات تمثل قمة البطولة والنبـــل الانسانى ، وكان صالح قصير القامة ، عريض البنية ، كبير الرأس أصلع ، عريض الوجنتين — وهى سمات قلّ أن تجتمع فى البدوى ، كما كان له حاجبان كبيران وربما يرجع ذلك الى صلعته وعينيه الواسعتان • وكان سمحاً وصريحاً وكان يتحدث فى صوت خافت واتزان وقد شجعتنى هذه الخصال الى أن أضع فيه مطلق ثقتى •

وبعد أن كشفت له عن خطتى ، طلبت منه بأن يعاهدنى على عدم افشاء خبر رحلتى وقلت له بأن ما أهدف اليه هو أن أقطع الربع الخالى من البحر الى البحر •

وسألنى : وفى أى منطقة تريد أن تنتهى الرحلة ؟ •• فقلت له : فى أى بلد ممكن الرياض أو البحرين أو أبو ظبى •• ولكنه قال باصرار بأن هذا الأمر مستحيل • فعدت أسأله وما هو الممكن اذن ؟ •• نأخذك الى موطننا فى ديرة الراشد جنوب الربع الخالى ثم نعود بك الى ظفار ومع ذلك فانى أسأل الله أن يكفينا شر قبيلة « الصيعر » • وهكذا فنحن لا نستطيع أن نأخذك الى مناطق القبائل الأخرى ، غير أننى أصررت على رأيى ، فاما أن أعبر الصحراء من الطرف الى الطرف ، أو أعود فالغى الرحلة نهائيا ، وقلت له : بأننى لا أرى أى فائدة من رأيك هذا •

فعاد يقول بأن شهر رمضان سوف يحل بعد شهر منذ ذلك التاريخ ، ومن عادة الناس ألا يسافروا فى هذه الآونة لأن الكل يفضل البقاء مع أسرته خلال شهر الصيام •

ومن الطبيعى أن الشيخ صالح لم يكن على استعداد للسفر فى رمضان خصوصا فى رحلة طويلة كهذه •• غير أن البدوى عنيد الطبع ولأنه عنيف أيضا فانه لا يعرف التردد فى اتخاذ قراراته ولهذا رأيت من المناسب أن أمهله بعض الوقت — يومين أو ثلاثة للتفكير واتخاذ قرار فى الموضوع ، أو الاهتداء الى فكرة لم يكن قد اهتدى اليها فى تلك اللحظة •

وعندما عاد الى صالح فى اليوم التالى وجدنى مصرا على تحقيق هذه الفكرة حتى لو استدعى الأمر السفر على البارجة الى أبو ظبى والاستعانة هناك بقبيلة العوامر فى عبور الرمال ، وقد توخيت من مساومتى هذه أن أدفعه الى الموافقة على مرافقتى •• وبالفعل فبعد هذا الحديث أبدى الشيخ صالح مرونة أكثر واستعدادا للاتفاق معى وقال : ولكنك أيها الصاحب لا تعرف شيئا عن الظروف التى قد تحيط بالمنطقة وأن ما تطلبه منى هو فوق طاقتى •• وأما بالنسبة لديار آل الراشد فهذه يمكننى أن آخذك اليها وأدعو الله أن يقينا مكائد الأعداء •• وبما أنك تريد الذهاب الى مناطق آل مرة فاننى لا أستطيع الدخول اليها لأنه ليس لدى الأمان

من تلك القبائل فالدخول الى مناطقهم دون اذن أو أمان سابق أمر غير ممكن . كما أنى لا أعرف ما اذا كانوا سيوافقون على دخولك الى مناطقهم أم لا .. ولهذا فاننى لا يمكننى أن أتحمل مسئولية هذه المغامرة .

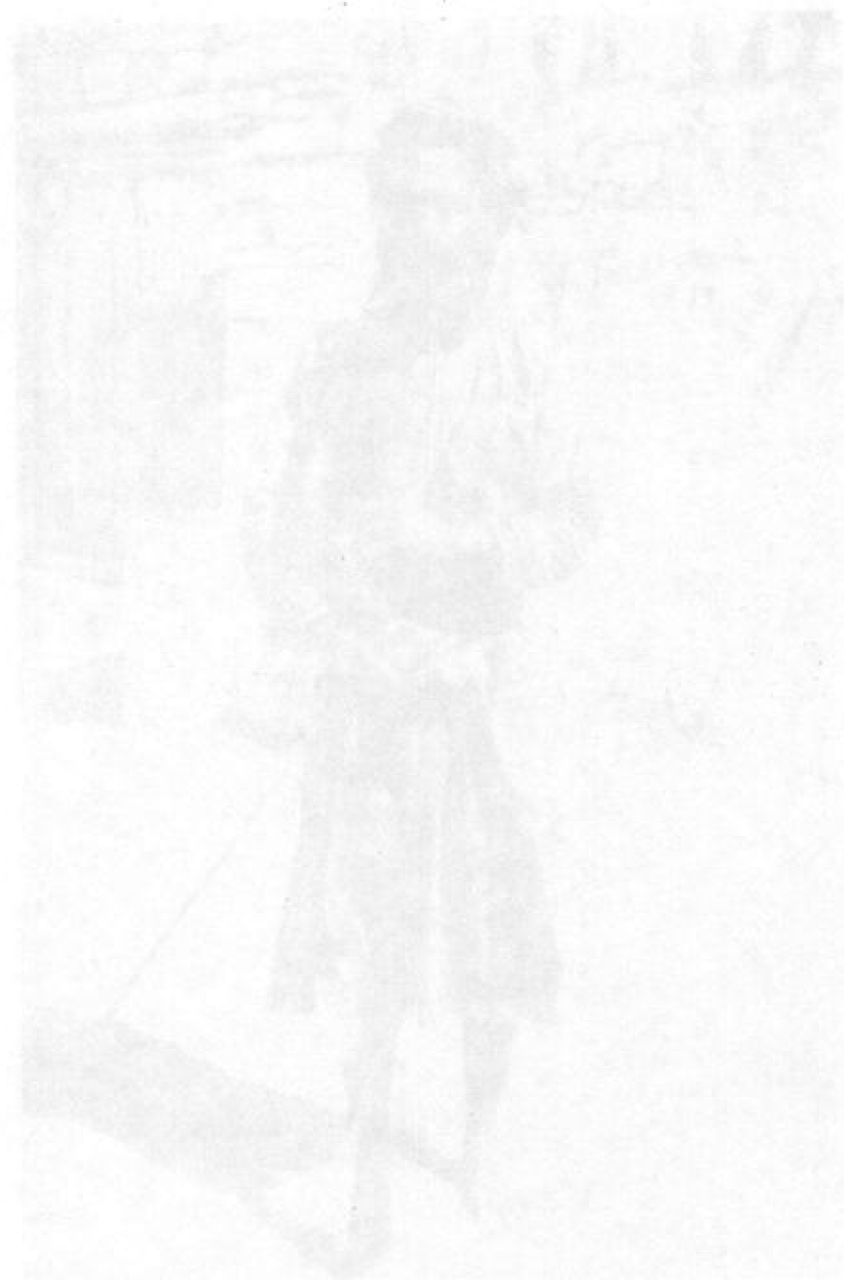
ولما كانت البارجة « آل سعيد » لاتزال لحسن الحظ موجودة فى ظفار واذا كان ما قاله رجال البدو عن مخاطر الصحراء صحيحا فان المجازفة بالرحلة ستكون عملا خاطئا ، لاسيما وأن المخاطر التى أشاروا اليها قد تتضاعف كلما توغلنا داخل الصحراء . ولقد جربت هذا بنفسى فى الرحلة السابقة ، فان التوجه الى الرحلة والفشل فيها سوف يعنى شيئا واحدا هو العودة الى ظفار ومنها الى مسقط بسفينة شراعية بما تنطوى عليه من خطر دون تحقيق الهدف الذى جئت من أجله . ولهذا فكرت فى أن أستبقى البارجة « آل سعيد » بعض الوقت الى أن تتضح الأمور .

فى اليوم الثالث بدأ رجال البدو الذين قدموا من الصحراء يتنصلون مما وصلت اليه الأمور ، فقد كانوا يتوقعون أن يحصلوا على شىء من المال ، ولكنى لم أدفع لهم شيئا وفضلت أن أعطيهم بعض المواد الغذائية .

عاد صالح إلىَّ فى اليوم التالى ليشرح لى حرج موقفه إزائى وإزاء البدو الذين اتفق معهم ، وقال بأنهم متذمرون من الطريقة التى عالجت بها الأمور وقال بأن هؤلاء قوم بسطاء يتأثرون من أبسط الأشياء ، وانه كان من الأجدر بى أن أكسب ثقتهم أولا ، وأطمئنهم على حقيقة نواياى ، فهم يعتقدون بأنى قد جئت الى هذا المكان لأتجسس عليهم لحساب سلطان مسقط أو الملك ابن سعود وأحصى ما يملكون من ابل ، ولذا فقد وجدت من الحكمة أن أصارحهم بأهدافى بوضوح وأن أجرد الرحلة من أى صفة رسمية وأن أؤكد لهم بأن الرحلة شخصية لأنى رجل مغرم بالرحلات ، كما حاولت أن أستنهض فيهم الهمة والمروءة بأن أقنعتهم أن مشاركتهم لى فى الرحلة ستكون خدمة كبرى لقضية العلم التى يجلها ويقدرها أهل



(الشيخ صالح بن كلوت)



بلدى ثم سألت الشيخ صالح : كيف ترى الموقف الآن ؟ •• فأجاب الشيخ صالح : سبق أن بينت لك أننى مستعد لتقديم المساعدة اليك ولكن ليس فى وسعى أن أتعهد لك بتحقيق طلبك ••

وقد يكون الشيخ صالح صادقا فيما قاله ولكنى لم أكن مستعدا لقبول ما كان يترتب عليه من نتائج ، فقد كان من الواضح أن صالحا لم يكن فى وضع يسمح له بتقديم ضمانات حيال قبيلة أخرى وعلى الأخص بالنسبة لأجنبى غير مسلم مثلى ، ولكنى عدت أقول له بأن قبيلة مُرة من القبائل الصديقة وأتصور أننى لو دفعت لهم مكافأة سخية وتأكدوا من أننى فى حمايتك فانهم قد يسمحون لى بالمرور من أراضيهم • فرد قائلا : نعم وأنا أؤيد رأيك فى هذا فى أنهم قد يوافقون ولكن هناك مشكلة أخرى ، وهى مشكلة العشب وموارد المياه ، فلو توفرت هذه الأسباب ، فان القيـــام بالرحلة سيكون ممكنا ، كما أن قبائل مُرة أكثر القبائل خبرة بالطرق التى تؤدى الى بحر الرمال • وكان هذا بالضبط ما كنت أرمى اليه ، وهو ضمان موافقة الشيخ صالح على تنفيذ الرحلة واستعداده لمرافقتى فيها بنفسه ، فلو تحقق هذا وأمكن الوثوق من تعاون قبائل مرة فلسوف أتمكن من القيام بالرحلة فى شهر رمضان •

وقد وعدت الشيخ صالح أنه فى حالة نجاحنا فسوف أهديه جمــلا وبندقية وبعض الملابس ، وأثناء هذه المساومات طرأت لى فكرة الاستعانة بالسيد سعود والى ظفار الذى كان قد عاد لتوه ، لكى يكون وسيطا بيننا فى هذا الاتفاق وخاصة وأنه كان يحظى باحترام القبائل ، كما كنت من ناحيتى أقدر له مواقفه وأسلوبه فى معالجة الأمور وكان أول شىء طلبته من الشيخ صالح تعهدا منه بحمايتى وبأن لا تبدر أية خيانة أو غدر من أى جهة فيما عدا شيئين كانا خارج سلطته وهما غارات القبائل والقضــاء والقــدر •• وتمّ ذلك أمام الوالى السيد سعود بحكم مركزه الرسمى والدينى •

ولما كان الشيخ صالح قدريا ، كما عرفت ، فقد تصورت أن العهد الذي طلبته منه لا أهمية له ولكن لم يكن من المعقول أن أطلب أكثر من ذلك ، حتى لا يثير ذلك حساسيات دينية ، وكان روح التعهد وليس التعهد نفسه هو المهم بالنسبة لي .

وتأسيسا على ذلك فقد تعهد الشيخ صالح بشرفه بأن يتعاون معي في اخلاص وحسن نية ، ولكنه طلب أن يبقى موضوع الاتفاق سرا بيننا ، وألا يعرف أحد من البدو شيئا عنه ، وشرح لي أسباب ذلك قائلا : انهم صحبوني الى هنا على أمل أن تأتي أنت الى مخيمنا في الدكاكة كما سبق أن اتفقت على هذا مع سهيل الراشدي في العام الماضي ، كما أنهم علموا بالمكافآت التي أغدقتها على هؤلاء وقد قبلوا المجيء هنا طمعا في مثل هذه المكافآت .

وكان صالح يتحدث بلهجة البدوي وحماسته الفائقة ، ثم أضاف قائلا : وعلى أية حال فعند وصولنا الى عين الدحية ستكون جمالهم قد انهكتها التعب ، وعندئذ يمكنك أن تنهي الاتفاق معهم ان شئت وأتولى أنا قيادة القافلة ونبحث هناك عن مجموعة نواصل بها الرحلة . فسألته وماذا عن الطريق يا شيخ صالح : أجاب : الحرب .. الحرب يا سيدي .. ان بيننا وبين سكان منطقة المعراب ثأر ، وهي من القبائل القوية[1] . ولكني

---

(١) ... في جنوب شرق الجزيرة العربية توجد قبيلتان رئيسيتان هما الغافرية والهناوية ومن هاتين القبيلتين تتفرع القبائل الأخرى ومنشأ هذين الاصطلاحين يعود كما يبدو الى صراع سياسي قديم على السلطة في عمان ، وذلك في القرن الثامن عشر .. غير أني عرفت من مصادر أخرى أن جذور هذا الاختلاف أعمق من ذلك ، وأن الهناوية بوجه عام تنتمي الى تلك القبائل المنحدرة من قحطان .. بينما تنحدر الغافرية من قبيلة نزار أو معد وغيرها من القبائل ذات الأصل الغير يمني .. وفي هذا الاطار فان التقسيم هو تقسيم عرقي في الأصل أكثر منه سياسي ، ولهذا فان قبيلة الصيعر تقيم في تلك المناطق التي تشملها الغافرية بينما تشمل الهناوية قبائل بيت كثير والراشد ، أما القبائل التي تسكن المنطقة الوسطى فتعتبر من الغافرية .. ذلك على الرغم من انه

آمل ألا نصادفهم فى الطريق • أما قبائل المهرة فأمرهم يختلف ، وهؤلاء لابد أن نستعين بهم اذ بدون ذلك لن نستطيع مواصلة الرحـــلة •

كان لابد أولا من اجراء جرد دقيق لعدد أفراد القافلة وما تحتاج اليه من المؤن وكان واضحا أننى لم أكن أستطيع بطاقم أو طاقمين من الجمال أن نأخذ كل هذه الحمولات على الجمـــال عبر مناطق رملية تجتاحهـــا المجاعات خصـــوصا وأن الجمال سوف تفقد بيئتها الأصلية ولهذا اقترح الشيخ صالح أن نجعل الرحلة على أربعة مراحل على أن نعيد النظر فى هذه التقديرات كلما توغلنا فى داخل الصحراء •

ولكن بما أننا فى المرحلة الأولى قد نلتقى ببعض قبائل الصيعر فلم يحس من الحكمة أن نخرج الى الرحلة بأقل من أربعين فردا • غير أنى لأسباب مالية كنت أفضل عددا أقل من ذلك ولكن تبين فيما بعد أن رأى مستشار الرحلة كان هو الأصح ، لأن مجموعة الأربعين قد لا تكون كافية لتغطية الرحلة ، وذلك لأن جماعات الغزو تتألف فى أغلب الأحيان من ٢٠٠ الى ٣٠٠ شخص حيث أن عمليات القتل والسرقة والنهب تعد من النشـــاطات العادية فى الحدود الجنوبية لشبه الجزيرة العربية • ولهذا سألت صالحا : ما الذى سنفعله اذا اعترضت طرقنا مجموعة أكبر عددا ؟ •• فقال : عندئذ لا حول لنا ولا قوة الا بالله العلى العظيم •

كانت مؤونتنا تتكون من الأرز والدقيق والزبد والتمر ، وعلى أساس طبيعة هذه المواد يمكن تحديد عدد الأكياس التى يمكن حملها فى كل مرحلة

لا يوجد ذلك التماسك القبلى فى جنوب شبه الجزيرة العربية باستثناء عمان .. كما أن هذه التسميات ليست لها اهمية سياسية .. اما قبيلتا المعراب والشعاشعة فهى تسميات اقليمية وهى تشمل جنوب وشرق ظفار .. وبالتالى فان قبائل الصيعر وغيرها من مناطق المنطقة الغربية تعتبر من قبيـــلة المعـــــراب .

من مراحل الرحلة فلو أننا أخذنا كمّيات كبيرة من تلك الأطعمة فان ذلك سيكلفنا كثيرا ليس من الناحية المالية فحسب وانما بسبب ارتفاع الأجور ، لأن الجمال الصحراوية صغيرة الحجم ولا تقوى على الأحمال الثقيلة أما اذا أخذنا كمية محدودة فان ذلك لا يساعدنا على تحقيق أهداف الرحلة ، ولهذا كان الحل الأمثل هو تقسيم القافلة الى أربع مجموعات ، تبـدأ بأربعين بعيرا ، ثم تنخفض الى ثلاثين ثم الى عشرين ثم الى خمسة عشر ، على أن توزع المؤونة قبل بدء الرحلة فيعطى كل جمال حصته من هذه المؤونة أما الجمال الأخرى فانها سوف تقوم بحمل مؤونة بقية المجموعات الثلاث وهكذا يتكرر هذا التنظيم على كل مرحلة من مراحل الرحلة ؛ وعن طريق هذا التخفيض التدريجي لأفراد الرحلة فقد قدرت أننا سنحتاج الى خمسين كيسا من المؤون فى بداية الرحلة .

كذلك فقد اتضح أن التنظيم السليم والدقيق سوف يكون أمرا أساسيا لتحقيق النجاح حتى ولو لم يكن ضمانا له فمن المحتمل أن نلتقى باحدى المجموعات الكبيرة من قبيلة الصيعر (وان وجود ٣٠٠٠ ريال فى حقيبتى) قد يدفع القبائل المعادية بالاغارة علينا هذا فضلا عن أننا بعد دخول الصحراء سوف نواجه ثلاثة عوامل لم تكن فى الحسبان الأول : هو موقف قبيلة مُرة من دخولى أراضيهم ، والعامل الثانى : هو اذا ما كانت المراعى وموارد المياه متوفرة بالقدر الكافى هذا العـام ، والعامل الثالث : ما اذا كان يمكن وجود بعض البدو على استعداد للاشتراك معنا فى الرحلة خلال شهر رمضان .

أما موقف قبيلة مُرة فلم يكن معروفا حتى ذلك الوقت ولم يسـبق لأى شخص من خارج الحدود أن سار فى مناطقهم ، وعلى اليقين لم يقدر لأى رجل أبيض ومسيحى مثلى أن يرى تلك المنطقة ؛ وقد أخذت أتساءل فى قرارة نفسى .. هل ستتعاون معى هذه القبيلة يا ترى ؟ .

وكان رأى الشيخ صالح أن احتمالات النجاح والفشل تكاد أن تكون متساوية وفى غمرة هذه الشكوك والأمل واليأس قررت بعد انتظار دام شهرين ان أغادر ظفار الى وجهتى وذلك فى اليوم العاشر من ديسمبر عــام ١٩٣٠ ٠

الفصل العاشر

عبر التلال إلى بحر الرمال

انطلقت الجمال من بهو الحصن وسط جموع من الناس جاؤوا بهذه المناسبة لتوديعنا متمنين لنا رحلة موفقة .

شيء واحد فقط يمكن أن يشغل البدوي عند السفر ألا وهو بعيره أو ناقته وقد يحدث أن يتذكر شيئا نسيه فيعهد ببعيره الى أحد معارفه ويتوجه هو الى السوق لساعة أو بعضها لشراء ما كان يحتاج اليه .

وفي هذه الأثناء جاء خويتم الى حاملا في يده ثلاثة مسامير كبيرة وسلمها لخادمي وقال له : هل تعرف لأي شيء هذه المسامير . انك سوف تحتاج اليها قطعا في منطقة الرمال ، وكان هذا سببا للتأخر ريثما يقوم الحداد بصنع الكعوب الحديدية لجمال القافلة .

خذ واشرب ايها الصاحب ، ثم ناولني جرة مليئة من الماء الذي أحضره من المسجد وبعد أن فرغت من الشرب ، جلس هو وزملاؤه على الأرض ليشربوا ، لأنه من التقاليد عند هؤلاء القوم ألا يشربوا وهم وقوف ، وقد ابتهجت كثيرا من هذه اللفتة التي ذكرتني بأيام العراق ، حين كنت أزور العتبات المقدسة هناك ، وأرى الآن هذه الظاهرة بين عرب الصحراء .

وبعد أن قطعنا في السـير نحو خمسة أميال بدأ الزملاء يبطئون من سيرهم ويتحركون في تشكيلات مبعثرة الى أن وصلنا عند بعض الشجيرات ، فأخذوا يصيحون هيا دعوا الجمال ترعى .. هيا دعوا الجمال ترعى ، ثم اقترحوا علينا النزول فورا من على الجمال لأن مجموعة الشيخ صالح لازالت خلف الركب .

وما ان ترجلت من فوق ناقتى ، حتى قام أحد البدو بحل مقودها وساعدها حتى بركت لتتناول نصيبها من العشب من احـــدى الأكمات القريبة وقد أمضينا الليلة فى ذلك المكان ولما جئ بالعشاء وضع كله فى كومة واحدة ، ربما خوفا من اللصوص الذين كانت تعج بهم المنطقة . ولـــما كان الشيخ صالح يعرف طبيعة زملائه البدو ، فقد حضر الى المـــائدة متأخرا .

وبمجرد وصوله صاح بهم : يا جماعة .. يا قوم .. ان هذا زاد الوزير فى أمانة الله وأمانتكم ، وقد رد عليه الجميع فى صوت واحد : تم ـــ تم ، فى الوقت الذى كان فيه الجميع مشغولين بشئونهم الخاصة ، فمنهم من كان يقطع العيدان ليصنع منها عصيا ، ومنهم من كان يصب الزيت على القرب لتقويتها حتى تتحمل الرحلات الطويلة بينما كان آخرون يصنعون الأكياس لارتدائها لأن الملابس الجاهزة لم تكن متوفرة هناك . وقد اضطرنى هذا الى شراء مجموعة من هذه الأكياس فى ظفار قبل بدء الرحلة كما توجه آخرون منهم الى الســـوق لاحضار بعض الحاجيات ، ومنها ابريق كبير من الألمونيوم ، بينما رأيت شابا آخر يقلب فى يديه مرآة ذهبية اللون ، لعله كان يزمع اهداءها الى فتاة عزيزة عليه .

وفى هذه الأثناء نادانى الشيخ صالح وقال : تعالى أيها الصاحب لترى خفى الناقة ، وكان فى يده ابرة كبيرة من التى تستعمل لحياكة أشرعة السفن ، وكان مكبا على أحد النوق بينما كان أحد البدو يمسك بالناقة من أحد جنبيها ، ويمسك الآخر رأسها ويجذبه نحو مؤخرتها . بينما كان الثالث ينزع شيئا من شفتها ويمسك الرابع باحدى رجليها من الخلف . وكان الغرض من كل تلك العمليات هو خياطة قطعة من الجلد فى خف الناقة لتغطية خف أصيبت به أثناء سيرها فى الطريق الصخرى . وسوف تمكن تلك العملية الناقة من السير واستئناف الرحلة فى اليوم التالى .

وبعد أن انتهى البدو من هذه العملية دخلوا يتجادلون بشأن وزن الحمولات وقد كان كل منهم يفضل أنيكون وزن حموله جمله أو ناقته أقل من الآخر • ولهذا السبب أعيد تقسيم الحمولات وأسفرت هذه العملية عن نقل حمولة ناقتى بحجة أنها لم تكن مناسبة وبعد أن تم توزيع الحمولات على الجمال ، وجدت نفسى فى اليوم التالى أمتطى جملا لم أشعر بالراحة عليه • ولم يكن يمر يوم واحد دون حدوث مثل هذه المشاكل والخلافات • لأن البدوى أحرص على جمله من أى شىء فى الوجــود لدرجة أنه مستعد دائما أن يضحى بحياته فى سبيل جمله •

بعد الغروب تجمع زملاء الرحلة لأداء صلاة المغرب ، وكان يؤم أحد الفريقين الشيخ صالح ، ويؤم الفريق الآخر « الكربى » •• وعلى حد رأى خادمى فان طريقتهم فى أداء الصلاة كانت تختلف عن طريقة بيت كثير الذين كنا معهم فى السنة الماضية ، فأولئك كانوا يؤدون الصلاة فرادى وليس جماعة ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يرفعون أصواتهم الا أنهم لم يكونوا يفقهون شيئا من الكلمات التى يرددونها أثناء الصلاة فقد كانت غير مفهومة اطلاقا •

فى صباح اليوم الثانى تحركت القافلة وبعد مسيرة ساعتين عبر السهل فى اتجاه نحيز ، وصلنا الى غار فضل وهو كهف فى احدى التلال السفحية التى يكسوها العشب ، وكما فهمت من بعض المصادر المحلية ، فان ذلك الكهف يفسر لنا ما ورد فى مؤلف « بنت » عن وجود احــدى الظواهر الطبيعية فى تلك المنطقة والتى قد تكون لها صلة بقصة « وحى العمــر » للبطليموس •

وقد أحسست فى تلك اللحظة بشىء من خيبة الأمل ، فقد كان الكهف كبيرا بشكل غير عادى بحيث يبلغ قطر فتحته نحو عشرين قدما ، وعلى جوانبها أكوام مستديرة تشعر الناظر اليها وكأنها تحجب ورائها الحائط

الذى أشار اليه « بنت » ، كما أنها تضم بعض الآثار وقد بنيت جوانب الفتحة من الطين الأحمر الفاتح اللون ، وترص كما لو كانت تلك الفتحة مسورة بحائط من القرميد أو الحجر وعندما ألقيت بحجر من الكهف استغرق نحو ثانيتين لكى يصل الى بطن الكهف • ومن هنا يمكننا أن نتصور أن عمق الكهف قد يبلغ نحو مائة قدم تقريبا •

أما سكان القرا فينسبون ذلك الكهف الى « المنجوى » وكان من أشهر حكام تلك المنطقة خلال العصور الوســطى •• كان هذا رأيهم ولعلى أوافقهم على أن الكهف من صنع الانسان وليس من صنع الطبيعة •

وكان بالقرب من الكهف وحوله متاريس على شكل مساكن النحل يصل ارتفاع بعضها الى علو جبل ، ولم يكن ذلك البناء أثرا كما ارتأى « بنت » ، وانما كان نوعا من المساكن التى تشبه بيوت النمل بلغة أهل الجبال الذين يطلقون على النمل « أزدريد » •

وعلى بعد نحو ميل من الكهف وعلى مدخل وادى نحيز وعلى جانبه الغربى بالذات ، رأيت كهفا آخر يسمى « صحور » وهو فتحة سوداء على ارتفاع ٢٥٠ قدما وتقع وسط غابة كثيفة • وقد صعدت الى ذلك الكهف ومعى سهيل من بيت قطن وحفيد سهيل الأول الذى رافق الرحالة « بنت » فى رحلته الى الكهف المذكور ولكنهما لم يدخلاه ، وفتحة الكهف كانت عبارة عن فجوة سعتها نحو مائة قدم ، وترتفع من الداخل نحو أربعين قدما الى سقفها الذى تتدلى منه هوابط صغيرة قد تغير شكلها بفعل العــوامل الجوية كما كانت أسراب الحمام تطير بالقرب من ذلك المكان •

وثمة خرافات شائعة عن ذلك الكهف منها أنه مسكن للجان ومرتع للعقارب ، وعندما طلبت من بعض المرافقين مصاحبتى فى دخول الكهف تطوع عدد كبير منهم ، وكانوا جميعا يؤمنون بوجود الجن ، فتوكلنا على

الله وبدأنا الدخول زحفا على بطوننا فوجدنا أنفسنا داخل غرفة داخلية واسعة غير متناسقة التصميم ، وكان يوجد بالاضافة اليها غرفة رئيسية أخرى وكانت الغرفتـــان مظلمتين ، وعندما أضأت المصباح الكشـــاف رأيت صخرة بيضاء صافية كالبلور وكانت قطرات الماء تنزل من هوابط داكنة اللون الى حد ما ، كما رأينا بعض القطع الصخرية بارزة من الأرض ، ثم كان هناك عمود ملحق يشبه الحوض ويبلغ قطره نحو ثلاثة أقدام . مقام على نصف دائرة مجوفة من نفس تركيبه • وكانت القاعة تؤدى الى قاعات أخرى معظم مداخلها ضيقة جدا ، كما كان الوصول الى المداخل الأربعة الأخرى غير ممكن الا عن طريق المدخل الذى اكتشفناه •

وقد قال لى بعض الأهالى بأن عددا محدود جدا من الناس استطاع الوصول الى المكان الذى وصلنا نحن اليه ، وكان الكهف عبارة عن سلسلة متصلة من الغرف المتصل بعضها بالبعض على امتداد أميال وراء الجبل وكانت توجد به بعض الأجزاء الفسيحة بحيث لو ألقى أحد بحجر فلن يصل الى السقف وكان الجو داخل الكهف حارا ، شديد الرطوبة بحيث لم نستطع البقاء داخله أكثر من نصف ساعة قضيتها فى جمع العينـــات الجيولوجية ، كما اصطدت بعض الخفافيش قبيل الخروج من الكهف • وفى النهاية خرجنا الواحد تلو الآخر من ذلك السرداب الى حيث الضـــياء والهـــواء •

ثم صعدنا « عقبة حمرير » ، على الناحية المقابلة من الوادى عبر منحدرات كثيفة الأشجار وبعد نصف ساعة من الصعود وصلنا قمة الجبل فتبين أننا ارتفعنا عن منطقة فزح بنحو ١٣٣٠ قدم ومن ذلك المكان سرنا وسط مناطق خضراء فى اتجاه الشمال الى أن وصلنا « نحيز » ، وكانت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، وكنا وقتئذ على ارتفاع يبلغ ٢٣٧٠ قدما أى أننا كنا تحت منطقة القطن ، وقد جاء خويتم ليخبرنى عن وجود عين ماء على بعد ميل واحد تقريبا غربا ويسمونها نبع « أرويز » ، وأن ماءها حلو كالعســـل •

وفى الغد سوف نتزود بالماء من عين « هنون » ، وان كان ماء عين « هنون » ليس عذبا كماء عين « أرويز » ، ولذلك كان من الأفضل فى رأى خويتم لو قطعنا الرحلة هناك وتوقفنا لاستراحة قصيرة ريثما نتزود من مياه أرويز الحلوة ، وقد اعترضت أولا على اقتراح خويتم بالتوقف هناك ولكنى عدت فوافقت لأننا كنا فى منطقة تكثر فيها الأشجار من نوع « السمر » الكبيرة الظليلة • وكان ذلك وحده مبررا كافيا للتوقف بعض الوقت على ذلك الارتفاع الشاهق ، كما كانت أشجار المنطقة أفضل طعام للجمال • وعلى ذلك الأساس وافقت على قطع الرحلة لبعض الوقت ، كما انى من خلال معايشتى لأولئك القوم أدركت أهمية اكتساب ثقتهم واحترامهم من خلال اهتمامى براحة الجمال وما تتطلبه من رعاية •

وهكذا تقدمت المجموعة فى طريقها الى اقامة المخيم ثم عادت الينا ، لتغير أكياس القش بكميات جديدة منه ، وكان الشيخ صالح كسلفه الشيخ حسن الذى رافقنى فى رحلتى الى جبال القرا من أنشط رجال المجموعة فى جمع الحطب وذلك من تقاليد البيئة القبلية فى توجيه الزعماء لأتباعهم سـواء فى الحرب أو فى السـلم •

ولقد تجمع جمهور من مواطنى المنطقة حولنا ، وخشى بعض رجال البدو والمرافقين على ما كان لدينا من مؤن فقاموا بتكديسها ثم نام البعض فوقها والبعض الآخر بالقرب منها خصوصا وأن سكان منطقة الجبال من أشـهر اللصـوص •

فى هذه الأثناء سألنى أحد المرافقين هل تحب أيها الصاحب أن تطلع على طريقة عجيبة من طرق العلاج ، وكانوا قد جاءوا برجل من الجبل للكشف على مريض بالمخيم ، وبعد محاولات كثيرة اقتنع المريض برفع الغطاء عن جسمه حيث ظهر من تحت الغطاء رجل عليل جدا كانت يده مقطوعة ، وكانت قد قطعت وفقا لقوانين الشريعة الاسلامية التى توجب قطع يد السارق ، وكان

قد قبض على ذلك الرجل متلبسا بالسرقة فأمر جلالة السلطان بتنفيذ العقوبة فيه وقام بقطع يده حارس السجن الخبير بمثل هذه العمليات وهذا النوع من العقوبات تطبيق لمبادىء العقيدة الدينية .

كانت الريح الجنوبية تهب مُغيرة اتجاهها نحو الجنوب ، وكان الجو باردا على هذا الارتفاع الشاهق كما كانت السحب المنخفضة القاتمة تحجب وجه السماء ، ولكن الرطوبة كانت شديدة الى درجة مزعجة ولم أكن أحمل معى خيمتى ، فقد تعلمت من الرحلات السابقة أن بعض القبائل البدوية كقبيلة مرة وغيرها سوف ترفض شحن الخيمة على الجمال . ولهذا السبب لم أحضرها فى هذه الرحلة ، وقد شعرت فى تلك اللحظة بأهمية الخيمة وعلى ذلك الارتفاع الكبير حيث البرودة شديدة .

وكان كل من مقياس الحرارة الجاف والرطب يسجلان درجة الحرارة بنفس المعدل ، وقد تبللت بطانيتى ووسادتى من الندى بحيث اضطررت الى أن أقلبهما أكثر من مرة أثناء الليل . وكنت فى نفس الوقت ألبس الكوفية الصوفية العربية ، ولكن درجة الرطوبة العالية جعلتنى أستيقظ من النـــوم مثقل العينين .

أما جمالنا فقد أمضت الليل كله جاثمة على الأرض تجتر طعامها وقد استيقظت فى الفجر على صوت أصحابها وهم يؤدون الصلاة فنهضت من أماكنها تنتظر ضوء النهار ودِفأه أيضا ، ثم جاء أصحابها فاقتادوها الى أحد المراعى القريبة الى أن جاء وقت استئناف الرحلة .

كان الطريق يؤدى الى منطقة قطن ، أعلى قمة فى سلسلة جبال القرا . والتفت ورائى لألقى نظرة على ساحل المحيط الهندى الذى كان تحتنا بعمق ٣٠٠٠ قدم وهناك انتهت المناطق التى يكسوها العشب لتبدأ مزارع اللبان المكتظة بالأشجار .

وقد جرى بعض الصبية نحوى يقدمون الى اللبان ظنا منهم بأنه سيكون من الأشياء التى قد تثير اهتمامى ، وطمعا فى الحصول على هبة ، وقد رأيت نوعين من النباتات أحدهما يشبه الطماطم ويسمى « الحلقوم » ، والثانى نبات الصبار ويستعملونه كدواء للمغص وللرمد ولحاء شجرة الصبر يفرز سائلا أخضر ضاربا الى الصفرة وتستعملها النساء عندهم للتزين .

ونظرا لوعورة المنطقة فقد اضطر الموكب الى أن يسير فى وصف واحد ، ثم بدأنا فى طريق النزول من مكان بعيد من جبل القرا . وذلك عن طريق وادى القبلى الذى يبلغ ارتفاعه نحو ٢٠٠٠ قدم ، وكان الطريق من خلال أحد الجروف الداكنة اللون وعلى جانبيه فجوتان تستعمل احداهما كحظيرة للدواب بينما كانت توجد صخرة ضخمة بالوادى عليها بقع من القشـــور البيضـــــاء .

وعند مرورنا على بعض القبور الواقعة خلفنا مباشرة ، قرأ الشيخ صالح الفاتحة . ورأيت أن أرفع قبعتى تحية للأموات ، وهنـــا سألنى الشيخ صالح عن الطريقة التى ندفن بها الأموات فى بلادنا وهل صحيح ان الكفار يحرقون موتاهم ؟ .. وقبل أن أرد عليه تساءلت فى نفسى أنه اذا اعتقدنا أن هناك بعثا أو حياة أخرى ، فإن حرق الميت ، وهى عادة أخذت تنتشر فى العالم ، يعتبر جناية فى حقه وأجبته بأننا نأخذ موتانا الى الجامع لاقامة الصلاة عليهم ثم نلفهم فى كفن أبيض وندفنهم وهنا صاح أحد المرافقين من قبيلة الرواشد « والله مسلمون » ..

ولكن آخر النهار شعرت بأن اجابتى التى أدليت بها كانت موضع شك ، رأيت أحد الكثيريين يجرى بالقرب من ناقتى ، فاقترب منى وكان بشوشا ، وأخذنا نتحدث ، فقال له الشيخ صالح : « ان هؤلاء قـــوم صادقون » .. وكان يعنينى بهذا الكلام . ولكن الشاب البدوى قال : ان

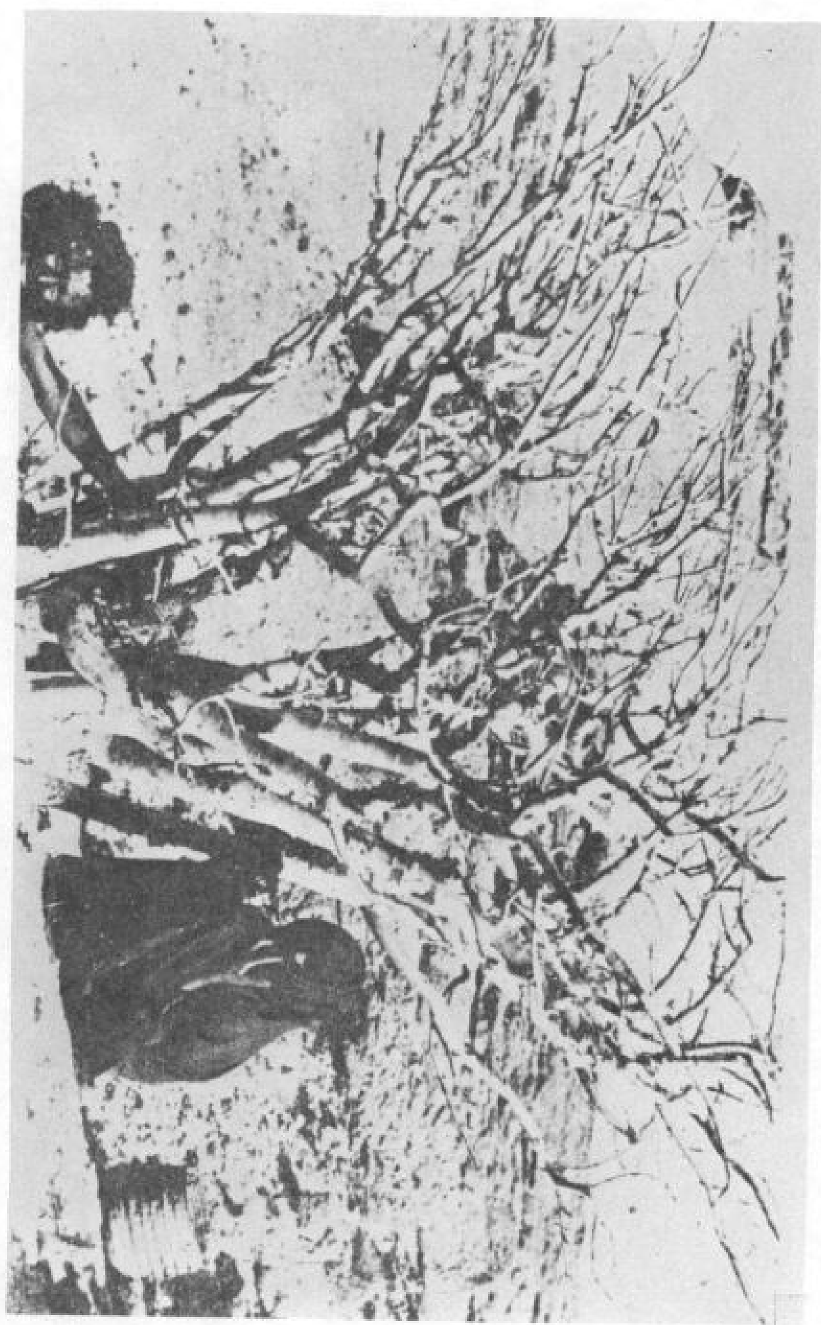
الله قد أعطاهم هذه الدنيا ولكنه سيحاسبهم فى الآخرة ، استغفر الله ، قال له الشيخ صالح لا بل ان الله سيغفر لهم أيضا وكأنه كان يعتذر لى بالنيابة عنهم باعتباره الرجل المسئول عن القافلة •

وهنا بدأ مقياس ضغط الهواء يشير الى انخفاض درجة الحرارة عندما أخذنا نسير فى الممر الضيق ، وبعد أن قطعنا أربعة أميال وصلنا منطقة وادى صعطان وهو وادٍ ناعم الرمال ورأينا أمامنا سلسلة من المرتفعات الجيرية الشاحبة اللون ذات أشكال مخروطية وهرمية ومن أبرز تلك المرتفعات « قرن فهد » • الذى كان يقع الى القرب منا وفى مواجهتنا مباشرة « وقرن الشيبة » على الجهة الشمالية الغربية • وقد ارتأينا بأن نقضى الليلة فيه • ومن هناك رأيت منطقة فضاء واسعة أرضها متدرجة وكانت على عكس المرتفعات المكسوة بالأشجار التي خلفناها وراءنا •

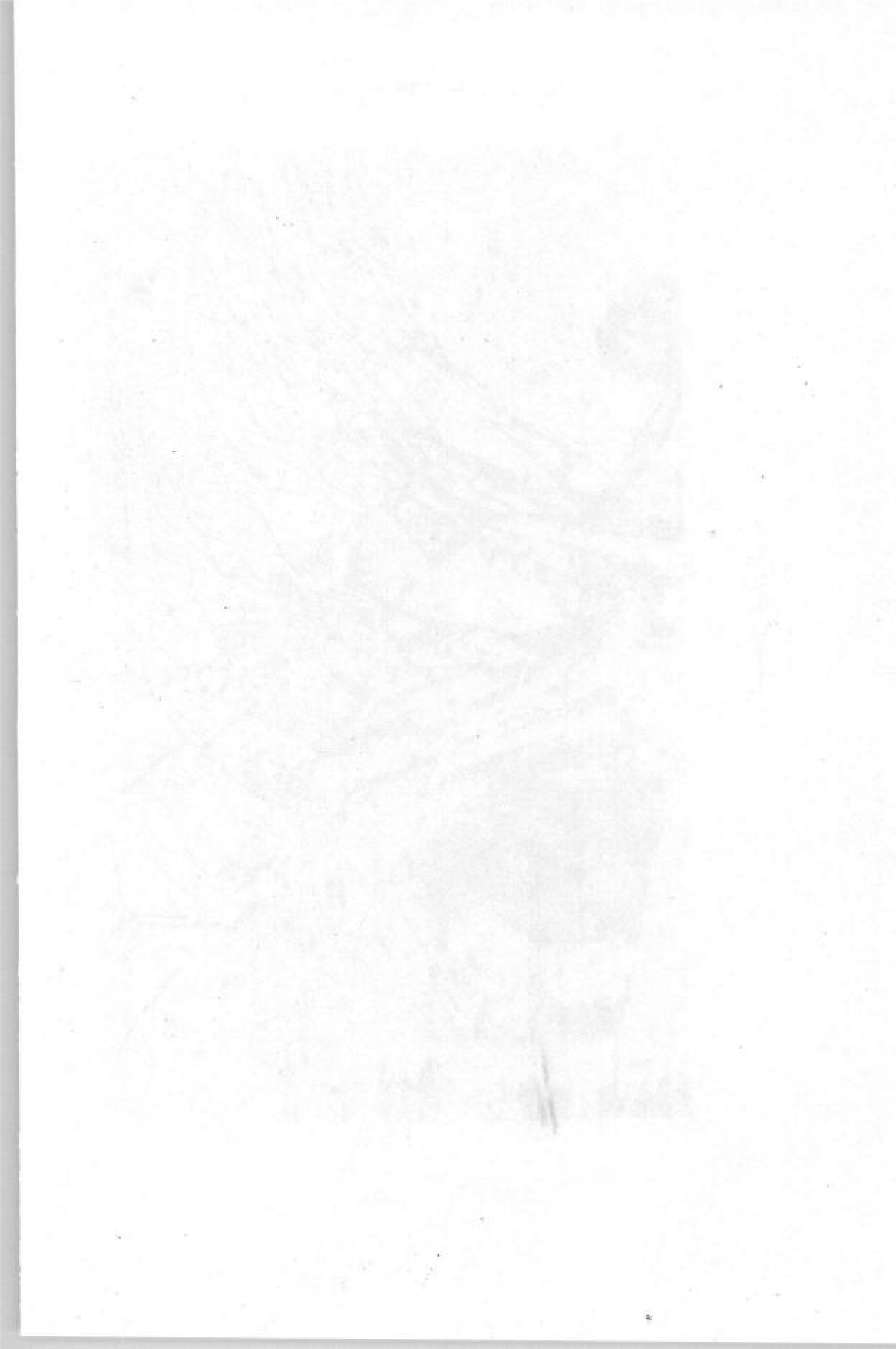
وخلف الضفاف المقفرة للوادى الذى يجرى شمالا عبر المنحدرات تختفى أشجار اللبان البرية ، ومن مظهرها تبدو تلك الشجيرات وكأنها ليس لها سيقان رئيسية بل تتفرع أغصانها من تحت التربة مباشرة وترتفع الى علو جمل أو أكثر وقشرتها رمادية اللون وأوراقها صغيرة مجعدة ، وقد قفز أحد المرافقين من على ناقته ليحضر لى عينة من ذلك اللبان قبل نضجه ، ثم وضعها على طرف نصل خنجره • وكان شكله أشبه بالفحم الأخضر وكان شفافا وله رائحة ذكية •

وتبدأ شجرة اللبان فى اخراج ثمرتها فى العام الثالث أو الرابع من عمرها ويشترك الرجال والنساء فى جمع محصول اللبان ويتم استخراجه عن طريق احداث شقوق كثيرة فى أغصان الشجرة بسكين خاصة ، وتفرز تلك الشقوق السائل الذى يتجمد على شكل حبات الزيت وهو ما يعرف باللبان •

وتتشكل المادة التى تخرج من تلك الأغصان الى أشكال متعددة ، وهكذا



(أشـجار اللبان البرية)



تستمر شجرة اللبان فى افراز ذلك السائل كلما زاد تعميق الشقوق فى أغصانها ، الأمر الذى يتم على فترات من عشرة أيام الى خمسة عشر يوما • وعند نضوب الشجرة من السائل تجف وتترك الى أن تستعيد حيويتها خلال فترة تتراوح بين ستة أشهر وعامين تبعا لحالتها •

ويتم جمع المحصول فى فصل الصيف ثم يودع داخل الكهوف الى أن يحل الشتاء وعندئذ تتم تعبئته وشحنه الى موانىء التصدير ، لأن حركة النقل فى الموانىء تتوقف خلال فصل الرياح الموسمية العاصفة ، وفترة تخزين اللبان تسمح له بأن يأخذ نصيبه من الجفاف على الرغم من أنه يمكن تصديره بعد عشرة أيام أو عشرين يوما من جمع المحصول •

ومن مدينة بومباى فى الهند ، يجد اللبان الظفارى طريقه الى معابد الشرق الأقصى ، والسيدات فى ظفار يستعملن اللبان الذى يتبخرن به كعطر فى المساء ، كما يستعمل لطرد الشياطين •

واللبان منذ العصور القديمة يعتبر من المواد النفيسة ، ومن أفضل وسائل القرابين للآلهة ، فقد استعمله المصريون القدماء لتحنيط الأعزاء عليهم من الموتى كما عرفه الفراعنة وغيرهم من أصحاب الدماء الزرقاء ، كما كان يقدم للتماسيح وكان الإسرائيليون يحرقونه فى معابدهم فى عهد النبى موسى ، كما ورد ذكر اللبان فى أقوال النبى سليمان كما جىء به المسيح عند ولادته مع الذهب وصمغ المر •

ينمو الصمغ بكميات تجارية فى الجزء الأوسط من جنوب الجزيرة العربية فقط فى منطقة تقدر مساحتها ما بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ قدم[١] مربع

---

(١) .. اشجار اللبان تنقسم حسب حجمها الى : (١) **المنزلة** : وهو نوع كبير الحجم ومن اهم انواعه العفور ، والمسوق ، والعفار ، والزوا ، والعطا ، والتنشيط ، والتايم ، والعموت .. (٢) **الحويل** : وهذا النوع يكفى خمسة

من جبال القرا من خط طول ٠٠ر٥٣ درجة الى خط طول ٢١ر٥٥ درجة شرقا ، ولعل وقوع مناطق زراعة اللبان على حزام منطقة الرياح الموسمية الفريدة فى طبيعتها ، انما هو دليل على أن الأحوال الجوية الملائمة لزراعته لا توجد فى أى منطقة أخرى من شبه الجزيرة العربية ، ومن هنا تجىء شهرة تلك المنطقة من شبه الجزيرة العربية ، وعلى أية حال فان مزارع اللبان فى اليمن وفى حضرموت قد تضاءلت أهميتها بحيث لم يعد هناك من يذكرها فى تلك المناطق .

ولمدة ساعة أخذنا نسير وسط أحراش من أشجار اللبان الحديثة العهد ، وكانت تظهر على جذورها آثار شقوق حديثة ، وأصحاب هذه المزارع رعاة وليسوا متفرغين لجمع اللبان ، وانما يكتفون بتأجير مزارعهم الى أفراد قبيلة الكثيرى أو المشايخ على أساس المناصفة ، وفى ذلك الموقع وعلى مسافة تربو على العشرين ميلا من شاطىء البحر تنتهى الحدود الشمالية للقبائل المستقرة وأعنى قبائل القرا والشحرة وغيرها من العناصر الجبلية التى تنتمى الى بيت كثير والمهرة وهى تكاد تكون تقسيمات جيولوجية ، والى الخلف منا تقع سلسلة الجبال الكلسية « العصر الجيرى الأخير » وأمامنا صحراء واسعة تتناثر فوقها مرتفعات على مساحة تمتد الى مسيرة ستة أيام حتى أطراف بحر الرمال ، وفى تلك الصحراء تقيم بعض قبائل البدو الرحل أغلبها من بيت كثير والمهرة وبيت المشايخ .

= أشخاص او اقل لجمع محصوله . . اما بالنسبة الى اللبان نفسه فثمة ثلاثة اصناف : النجدى ، والشزرى ، والشهابى ، وترتب اصنافه تدريجيا على نفس المنوال فالنجدى وهو فضى اللون ينمو على المرتفعات على جبال سمحان والقرا واما الشرزى — فهو من منتوجات الاقليم المسمى باسمه وينمو فى سلسلة جبال القرا والقمر والنوع الثالث هو الشهابى وهو اقليم جودة وينمو فى المنطقة المحيطة بسهل عربوت . واما الموانىء التى يصدر منها اللبان فهى حسب مواقعها من الشرق الى الغرب : جربيب . رخيوت . ريوت . عوقد . صلالة . حافة . طاقة . مرباط . سدح . حضبرم .

ولقد كانت سعادتى لا توصف وأنا أعود الى ظهر ناقتى وأبتعد عن حياة الصخب والضجيج فى ظفار الى هذه الآفاق الواسعة الهادئة ، ولم يكن المرافقون حتى تلك اللحظة قد شرعوا فى الغناء كما كان يفعل زملاؤهم فى رحلتى السابقة ، ولقد تذكرت فى تلك اللحظة حداء الإبل الذى كنت أسمعه فى عمان ، وكان سهيل هو الشخص الوحيد الذى يغنى بين رجال القافلة ، ومع ذلك فقد كان جميـــع المرافقين ظرفاء مرحـــين وان كانت أحاديثهم تنحصر فى الجمال والبنادق والنساء ، فالوجوم الذى يخيم عادة على المجالس الأوروبية ويعتبر من تقاليدها لا وجود له فى تلك المناطق على الاطلاق • فلقد كان البدو كأطفال المدارس فى تصرفاتهم حيث يتبادلون الفكاهات والنوادر فيما بينهم ، ولم يكونوا يخجلون حتى من ذكر شئونهم الخاصـــة •

كان «قرن الشيبة» ـ وهو المكان الذى خيمنا فيه للمبيت ـ عبارة عن تل مخروطى الشكل على الناحية الشمالية من ضفة وادى صعطان • وقد سبقنا أنا وسهيل الى النزول الى الوادى عبر طريق مكتظ بأشجار السمر ، وقد أقمنا مخيمنا فى ذلك المكان ثم انضم الينا بقية المرافقين الذين حضروا الينا مشيا على الأقدام ، وبعد قليل كان الجميع قد فرغوا من اناخة الجمال وبدأوا يشعلون النار ، ولـــا كانت منطقة الشصر لا تبعد عنا أكثر من مسيرة أربعة أيام ، ولـــا لم تكن هناك عيون للماء على الطريق فيما عدا « عين هنون » القريبة منا ، فقد كان أن يتعين علينا التزود من الماء بما يكفينا استعدادا للرحلة القادمة •

وبعد صلاة الصبح تفرق البدو لتجهيز جمالهم والاستعداد للرحلة الى « هنون » وبعد أن سرنا ساعتين شرقا عبر تلال جرداء ، وصلنا الى « تل هنون » والذى يواجهه من الناحية الأخرى تل « أرداف » الثلاثى الشكل •

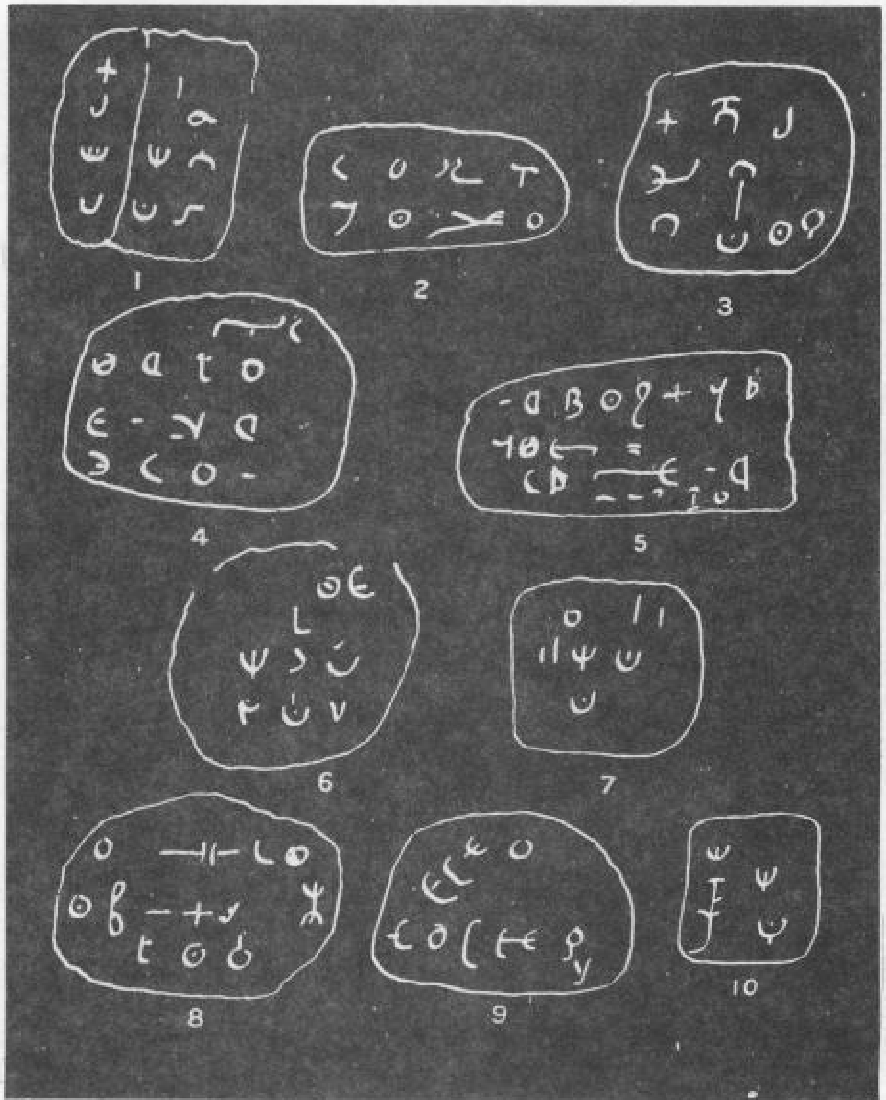
وفى هذه المنطقة شاهدنا فتحة من الصخور البللورية ومنها هبطنا عبر ممرات بيضاء الى أحد الوديان الخضراء والذى يقع على انخفاض ١٥٠ قدما

تحتنا ، وكانت الطبقات العليا من الوادى تتغير من منطقة الى آخرى بحيث تكونت منها كهوف طويلة منخفضة ، وكان هذا هو وادى « غبرتان » . والذى يتصل بوادى « ركبيت » . ثم يكوّن الاثنان واديا كبيرا على الجهة الشمالية من بحر الرمال .. وعند منبع ذلك الماء وقفت ألقى نظرة على ضفاف وادى « هنون » وتذكرت وقتها الحكايات التى يتناقلها البدو فى اطراء هذه المنطقة وجمالها .

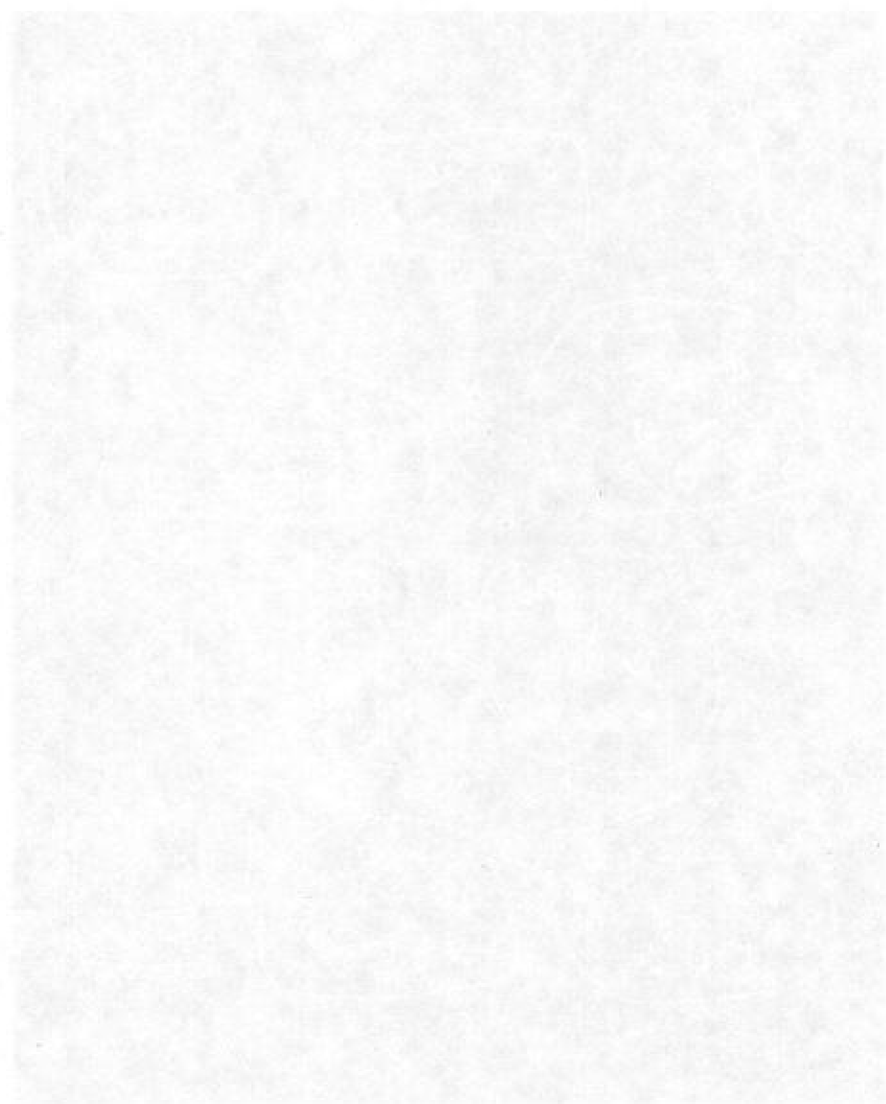
وكان البدو يقولون عن هذا الماء أنه ماء عذب ، غير أننى وجدته على العكس من ذلك ماء ملحا ، وتساءلت ماذا ستكون إذاً مياه منطقة الرمال التى كان البدو يقولون عنها إنها مياه مالحة ، خاصة وانه لم يكن هناك ماء فى تلك المنطقة أحلى من ماء « هنون » .. وتبين لى أن كل تلك التسميات كانت نسبية ، ولكن لابد للانسان أن يقنع بالماء الذى يجده ، ومما لاشك فيه أن عين هنون كانت تعتبر عين مياه حلوة فى تقدير البدو وقد تذكرت منطقة شبيهة بهذا فى «غيدون» .. وكانت منطقة جافة ولكن وصفها بعض البدو بأنها من أفضل المناطق لإقامة المخيمات . وكان هذا الوصف حقيقيا . وان كان مضحكا ولقد تذكرت المثل العربى الذى يقول « حمارى ولا حصـــان غــــيرى » ..

وكان الوادى الصغير الذى يتجه الى « غبرتان » يسمى (بامزغيف) وفيها أحد المقابر التى دفعنى الفضول الى اكتشافها لأنها كانت تشير الى وجود بعض الآثار فى ذلك المكان من النوع الذى اكتشفته سابقا فى هذا الحزام من مناطق زراعة اللبان والتى لم تكن تبعد سوى بضعة أميال الى الشرق .

وكانت المقبرة عبارة عن مجموعة من الآثار التى تحمل فى بعض نواحيها كتابات من المحتمل أنها مخطوطات حبشية ، مما يســاعد على الاستنباط بأنه كانت هناك صلة قديمة بين لهجة سكان الجنوب الأوسط لشبه الجزيرة



(خطوط وجدت فى عدة اودية ، نقشت فى اشكال زخرفية على الصخور)



العربية وبين اللغة الحبشية ، أما « بامزغيف » فقد خيبت أملى لأنى لم أعثر هناك على أية كتابات على الشواهد العديدة التى كانت فيها والتى كانت فى أقصى حالات الاندثار •

كما كان هناك نوع آخر أكثر دقة اكتشفت مثله فى مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية ، وكان يتكون من تركيب ثلاثى ، بمعنى أنه كان يتكون من ثلاث كتل حجرية عارية ومستطيلة الشكل وجنادل قائمة يبلغ ارتفاع كل منها نحو ثمانية عشر قدما وتقوم على قواعد ، وهى مسقوفة من الداخل وذلك ضمانا لثباتها على الأرض • وكانت هذه الثلاثيات مركبة على خط مستقيم كل عمود منها يبعد عن الآخر بمقدار خطوة ونصف ، وفى بعض المواضع كانت الثلاثيات مغطاه بطبقة من الحصى البيضاوى الشكل ، وكان عدد كل مجموعة من تلك الثلاثيات يتراوح ما بين خمس وسبع وتسع كتل ، وكذلك أحدى عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة كتلة ، وبمحاذاة كل مجموعة منها وعلى بعد ثلاث خطوات تقريبا تقوم سلسلة أخرى من الأعمدة الصخرية المخروطية الشكل تشبه ذلك النوع الذى اكتشفته فى مكان آخر من تلك المناطق ، وكان المواطنون يشوون اللحم عليها •

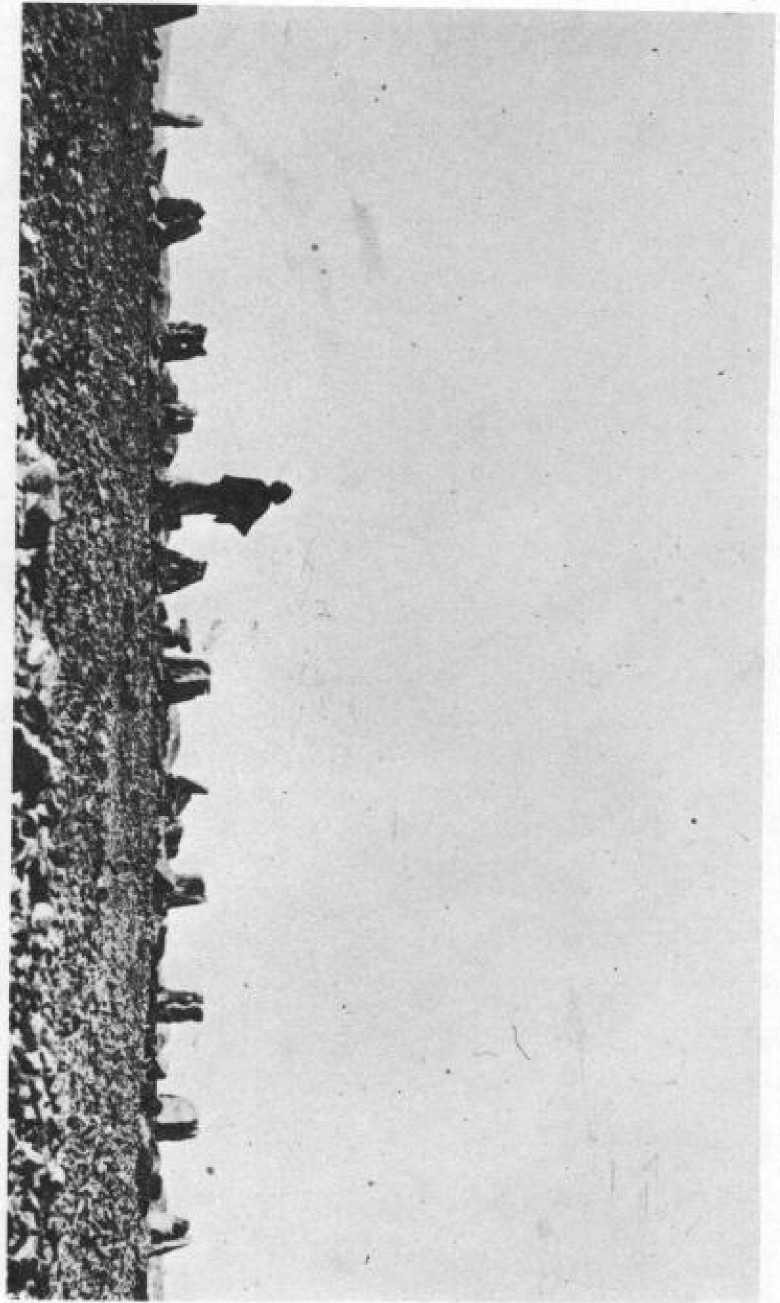
وربما كان لتلك الثلاثيات أهمية بالنسبة لاجراء الطقوس وتقديم القرابين ، أما الثلاثيات الأصغر من تلك المجموعة فلم تكن عليها تلك الحجارة بينما الصفوف الطويلة عليها تلك الحجارة ، وفيما بين الثلاثيات والأعمدة شاهدت جنادل مربعة الشكل صغيرة لعلها كانت تستخدم كمقاعد ولم يكن لتلك الآثار طابع مشترك ، ولعل الصفة الوحيدة الغالبة عليها أنها جميعا كانت تقع على ضفاف الأنهار وبمحاذاة مجاريها ، ولكنى لم أجد عليها كتابات مما يدل على أن الكتابات قد انمحت ربما لأنها كانت مكتوبة بالجير •

أما الجنادل المكتوبة فقد عثرنا عليها فى منطقة الآثار بوادى «نضور»•

غير أننى فى وادى « دكور » وجدت تلك الجنادل مركبة فوق الثلاثيات كغطاء لها • وكانت الكتابات على العموم بحروف متفرقة يبلغ طولها بوصة ونصف وقد كتبت بطريقة بدائية مما يدل على أن الأداة التى استخدمت فى كتابتها كانت حجرا مسنونا ، ونظرا لتآكل الألواح فان معظم الكتابات كانت غير واضحة فيما عدا واحدا منها •• ولنفس الأسباب كانت الصور التى التقطناها سواء بالكاميرا أو بطريقة الضغط كانت غير واضحة • غير أننى استطعت أن أستنتج أفضل المجموعات من تلك الكتابات بالكامل ولقد حالت وسائل النقل دون احضار أكثر من عينة واحدة من تلك الأحجار وكانت تحمل صورة جمل ، وقد أهديت ذلك اللوح الى المتحف البريطانى •

كما اكتشفت آثارا أخرى فى المناطق التالية : سراب ، العينين ، الرغيف ، الحرضى ، نضور (تحت ممر الخنجرى) ـ الداغوب ، ديكور ، بامزغيف ، وبالقرب من العيون •• وأغلبية تلك النقوش والكتابات توجد فى وادى ديكور •• ووادى الداغوب ، وهى توجد على هيئة صفوف الى جانب بعضها البعض ومن المحتمل جدا أن تكون تلك شواهد لبعض القبور ، ولم استنتج ذلك الرأى من منظر الشواهد فحسب وانما من كثرتها فى الوادى المذكور وهو الوادى الذى لايزال أهله يحتفظون بتقاليد الدفن تلك • كما اتضح لى ذلك من المقبرة التى بنيت فى عهد قريب ثم من المقبرتين اللتين يرجع تاريخهما الى ما قبل الاسلام أو على الأقل من الأطرزة غير الشرقية من المقابر التى رأيتها ، وأعنى بها المقابر المبنية من الصخور والعجيب أن السكان لم يكونوا يعرفون بأن الرموز التى على الشواهد كانت كتابات كما لم يكونوا يعرفون شيئا عن أصلها ، هذا على الرغم من أنهم ينسبون تلك الآثار الى ناقة سيدنا صالح بن هـود •

وفى منطقة « الكثير » فى الغرب يطلقون على هذه الشواهد « بيت أبى غســان » نسبه الى بنى غسان ، كما جــاء ذلك فى قصة الغساسنة للبطليموس • وبالطبع فهناك أسرة غسانية فى ظفار نزحت اليها بعــد



(نصب تذكارية ثلاثية الظهر)



الاسلام وبقيت فيها • غير أن الطريقة التى أقيمت بها تلك الشواهد تدل على أنها تمتد الى ما بعد حدود ظفار ، واذا حكمنا على تلك الشواهد من الكتابات التى عليها والتى يرجع تاريخها الى ما قبل العصر العربى فان طابعها غير الاسلامى يشير الى أنها تنتمى الى العصر الجاهلى •

ان الديانة القديمة لسكان جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، هى عبادة النجوم التى أدخلها الصابئون ، ومن هنا يجوز الاعتقـاد بأن نظام الثلاثيات الذى أشرنا اليه آنفـا رمز لثالوث العربى القديم وهو اله الشمس والقمر والزهرة والأخيرة هى فينوس العرب •

كانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ، ولما كنت حريصـا على استئناف الرحلة بأسرع ما يمكن فقد حثثت المرافقين على أن يستعدوا للتحـرك بعد أن يتزودوا بكفايتهم من الماء • وعلى الرغم من أنهم سمعوا ندائى الا أننى لم أكن أتوقع أن يسرعوا الى ذلك • وكان من عادتهم التباطوء عند عيون المـاء وعلى الأخص وأن عين الماء الثانية كانت بعيدة من المخيم مما جعلنى أستسلم بحكم التجربة لتلك العادة •

أما الشيخ صالح فلم يتزود بشىء من الماء من ذلك المكان فلقد كان من المقرر أن يسبقنا فى الخروج من أجل الترتيب لمجموعة أخرى من الجمال ومن أجل استطلاع أخبار الطريق وكان المرافقون يفكرون فى الإتفاق على دليل آخر من منطقة الدكاكة من آل مرة ليكون فى انتظارنا عند خور الدحية حيث كنت قد عزمت على قضاء أيام عيد الميلاد هناك ، وكان ذلك اليوم هو الثالث عشر لبدء الرحلة ، وقد اقترح صالح ألا نسير عن طريق الشصر لوعورته وخلوه من الزروع والماء وبالتالى لم يكن ذلك الطريق يصـلح للجمال البطيئة السير غير المحملة بشىء

وكنا سنتزود بالماء من عين « مشديد » وهى من الآبار العميقة فى

منطقة « غيدون » كما أن النزول الى تلك البئر التى يبلغ غورها ستة وثلاثين قدما لابد وأن تتم على مراحل ، وثمة اعتقاد بين السكان عن تلك البئر مؤداه أنها قد تكونت من سقوط أحد الشهب • وأنه لم يقم أحد بحفرها • ولكنى لا أستطيع أن أقطع ما اذا كان ذلك الاعتقاد من بقايا عهد عبادة النجوم فى تلك المنطقة • ولكنى عرفت بوجود ذلك الاعتقاد فى أجزاء أخرى من جنوب الجزيرة العربية ، وهكذا فان مثل هذه الاعتقادات مألوفة فى كل المناطق الرملية الواقعة ضمن مناطق (غانم وجدة الحراسيس) ، حيث توجد آبار وعيون ترتبط بمثل هذه الخرافات • وكذلك المنحدر المائى فى منطقة « بخير » فى بلاد البطاحرة يعزى وجوده وبدرجة أقوى الى نفس الأسباب •

وهكذا غادر الشيخ صالح ومعه احتياطى من الدقيق والتمر الذى سوف نحتاج اليه فى الطريق ، كما سلمته عباءة لتقديمها هدية الى شيخ قبائل مرة الذى كان يمارس نفوذا واسعاً ، وبعد أن أقيمت صلاة المغرب وعاد طاقم الرحلة من موارد المياه تحركت القافلة وكان ذلك فى نحو الساعة الثانية والنصف بعد الظهر •

وسرعان ما تركنا منطقة سعطان وأخذنا نسير فى اتجاه الشمال الغربى وهو الطريق الذى كان سيؤدى بنا الى منطقة تتوسط وادى غيدون والدوكة • والطريق الأول منخفض ، فيه كثير من المرتفعات المنبسطة والكثبان الرملية الحجر • وفى طريقنا تقع « أمستاح » وهى فرع من وادى الدوكة المكتظ بأشجار السمر والنخيل بحيث اضطررنا أن نسير فيه ببطء شديد ، ثم عبرنا سلسلة أخرى من التلال ثم توقفنا هناك للمبيت ، وكان بعض الجمال عند وصولها تحمل بعض أوراق النخيل فوق ظهورها وكان البدو قد أحضروها لتقديمها الى نسائهم ليصنعن منها أوعية لحفظ اللبن كما يصنع الرجال منها الأحبال والأكياس • وقد ذكر أحد البدو بأنه سوف يصنع مقودا لناقته منها ، بحيث عندما نستأنف الرحلة يكون عنده مقود جديد •

كانت الرياح الجنوبية التى ظلت تهب على المنطقة فى تلك الليلة معاكسة لقراءات أجهزة الرصد ، لأن هبوب الرياح يؤثر على السائل الزئبقى فى أجهزة الرصد ، فلا تؤدى عملها ولذلك لم يكن فى الامكان تحديد مواقع النجوم على المؤشر ، وبالتالى تعذر علىّ تحديد مواقعنا فى تلك المناطق المنخفضة • وكان مركز القطب قريبا الى الناحية الشمالية من الأفق •

ولهذا كان لابد لى لتحديد المواقع أن أقف بعيدا جدا من المكان الذى كنا فيه • ولحل هذه المشكلة كنت أصطحب معى طاولة أضع عليها تلك الأجهزة عند استعمالها فى الليل • أما بقية الأجهزة فقد كنت أخفيها حتى لا يعتقد البدو أنها أجهزة أزاول بها أعمال السحر ، وكانت الأجهزة تبقى فى صناديقها فى النهار ولا أخرجها الا فى الليل •

وكانت عملية رصد النجم القطبى وارتفاعات الكواكب خلال النهار وسيلة لمراجعة مواقعنا من يوم الى آخر وقد حرصت منذ البداية على ضمان سرية هذا العمل ، على عكس المرافقين الذين كان شبح الأعداء والأخطار تطارد أفكارهم باستمرار ، فقد كنت أختار مكانا على بعد ثلاثين أو أربعين ياردة من المخيم ، وفى ذلك المكان يتولى خادمى اعداد السرير وفتح الصناديق بينما أتعمد أنا تبادل الأحاديث مع الزملاء الى أن يحين وقت النوم •

وكان من بين واجبات خادمى أن يمنع أى فرد من المرافقين من الدخول الى الخيمة ، وقد جرت العادة على أن تحفظ كل هذه الأجهزة فى صناديقها كل صباح عند القيام بالرحلة ثم يعاد فتحها فى الخيمة ليلا ، كما كان من عادتى بعد أن أخلو الى الراحة بعد كل مسيرة أن أقوم بعملية تسجيل القراءات ومقارنتها ، كما كنت أجرب الأجهزة كل صباح لأتأكد من صلاحيتها للعمل ولاستخلاص نتائج القراءات وفقا للتوقيت فى لندن « جرينتش » ، أما درجات الارتفاع والحرارة فكان يتم تسجيلها بالأجهزة الأخـ[illegible] عند الشروق وبعد الغروب ثم مرتين أو ثلاث مرات فى أثناء الليل •

وكان يبدو أن بعض المرافقين لم يكن قد رأى ساعة فى حياته وكانوا يدهشـــون للغاية عندما كانوا يضعون آذانهم على وجه الكرونومتر ويسمعون دقاته وكانوا يبتسمون كتعبير عن الدهشة والاعجاب ، ثم ينظر أحدهم الى الآخر فى حيرة تامة بعد ذلك يرددون عبارة « لا إله إلا الله » تعبيرا عن تلك الدهشـــة •

وكانوا يطلقون على أى جهاز يرونه اسم ساعة •• صحيح أن البوصلة التى كنت أخرجها بين كل دقيقة وأخرى لتحديد الاتجاهات وقراءة المساحات الطبوغرافية كانوا قد تعودوا عليها غير أن الأجهزة التى كانت تدق أو تحدث أصواتا فقد كانوا يسمونها ساعة وذات يوم عندما توقفنا فى احـــدى المناطق لتغيير طاقم الجمال ، اقترب أحد البدو المرافقين وأمسك بمقياس الحرارة ووضعه على اذن أحد زملائه ولكن زميله لم يثر اهتمامه ذلك الجهاز فأخذه بيده ووضعه على أذنه كأنما ظن أن فى الأمر خدعة ما •

بعد مسيرة ثلاث ساعات توقفنا ، ولكن أحد المرافقين نبه الى أن بعض رجال القافلة لم يصل منذ الليلة الماضية • وكان هذا شيئا مفهوما لأننا كنا نسير فى مناطق كثيفة المراعى ، بينما المكان الذى كنا نتجه اليه هو « الشصر » منطقة قاحلة ليس فيها ماء ولا عشب ، ولـــا كنت حريصا على أن نصل منطقة الرمال فى أقل وقت ممكن فقد اقترحت على رجال القافلة بأن نسرع فى السير ، على أن اقتراحى لم يقابل بالتأييد •

ان المسافر فى الصحراء يكتشف على الفور بأن حياة الجمل هى أهم من كل شىء وأن السير أو التوقف يعتمد على نوعية المراعى التى يعثر عليها المسافرون وعلى الطعام أو العشب الذى تأكله الجمال ، والذى هو أهم حتى من المـــاء لأن الجمـــل فى استطاعته أن يعيش أسبوعا كاملا بدون مـــاء • وأن الفـــرد الأوروبى المتعـــود على النظـــــام وعلى برمجـــة رحلاته لا يستطيع بهذا المقياس أن يعتمد على هذا الوضع ، إن أبنـــاء

الصحارى والمناطق القاحلة يخضعون كل شىء لمصلحة الجمل وصحته وحياته •• ان البدوى ليس من طبيعته أن يبارح منطقة فيها المـاء والمراعى ، فهو اذا وجد مثل هذه المنطقة فسوف يتشبث بها حتى ولو كان ذلك أثناء النهار والطقس حارا ، وعلى العكس من ذلك فى المناطق التى تخلو من الماء والمرعى ، فانه يواصل سفره حتى ولو كان فى أشد حالات التعب والارهاق من عنـاء الرحلة •

لهذه الأسباب فقد كان يوما سيئا بالنسبة لى ، حين اضطررت الى التوقف فى منطقة تبعد عن مخيم الليلة السابقة بنحو سبعة أو ثمانية أميال • وبمجرد الوصول الى ذلك المكان حملت بندقيتى وتوجهت الى الغابة • وقد لاحظت آثار ذئاب وثعالب وغزلان ، ولم يتكشف المساء عن أى من تلك الحيوانات غير أننى فى وادى « غيدون » وكان يبعد عن مكاننا بنحو بضعة أميال الى الغرب وعلى ارتفاع ١٢٠٠ قدم حيث تكثر أشجار الصفصاف والسمر ، استطعت أن اصطاد بقرة وحشية كبيرة وقد حرصت على أن أنزع جلدها لأخذه كعينة للبحوث العلمية لأن بدو تلك المنطقة يتخذون من جلد البقر الوحشى تذكارا كما يصنع صيادو الثعالب من فرائها كساء لبنادقهم ، وكان من النادر أن تجد أحدا من المرافقين لى لم يكْسُ قاعدة بندقيته بفراء بقرة وحشية أو ظبى ، كما يتخذ البدو من أمعاء الحيوانات غذاء لجمالهم ودواء لهم •

ومن معتقداتهم أنه لا يوجد دواء يعادل ذلك الدواء •• ويعد ذلك من مميزات الحيوانات عند البدو[1] • كما أنهم يصنعون من قرون تلك البقرة

(١) .. من المميزات لبقر الوحش جلدها ، كما يستعمل دمها لدواء لدغة الثعبان ، وأما مياه الأمعاء فتستعمل كدواء للمفاصل ، ولحمه عندهم مفضل على لحم سائر الحيوانات ولو ان لديهم اسبابا لتلك المعتقدات ، فلربما اذا اصطادوا واحدا منه يكونون فى غاية الجوع فيلتهمون لحمه بشراهة ، وعلى الرغم من أن البدو يشربون الماء بكميات قليلة الا انهم اذا عثروا على بقرة وحشية فانهم يأكلونها بشراهة ولهذا السبب فان معظم الذين اكلوا من لحم البقرة الوحشية جاءوا الى يشكون من آلام فى المعدة ويطلبون منى ان اعالجهم •

نوعا من الناى يسمونها ربابة تستعملها فتيات البدو فى جنوب الجزيرة العربية ، لأنهن لا يعرفن الطبل ولا أى نوع من أنواع الآلات الوترية •

فى ذلك اليوم خرجنا مبكرين وكنا نتجه الى أحد السهول ومنها الى أحد المناطق الرملية الصلبة ، وكنا نصادف بين وقت وآخر طبقات متحجرة وبارزة من الأرض تعلوها طبقات من الرمال الخفيفة ، ثم مررنا بحقول من الكسارة فى مناطق متباعدة ، ثم مررنا على مناطق مغطاة بطبقة من الرمال الحجرية ، ولم نجد فى تلك البقعة أثرا لأى حيوان ، والحيوانات الوحيدة التى رأيناها هى الثعابين والجعران والسحالى ، وقد كانت الأخيرة ذات أهمية خاصة بالنسبة الى متحف التاريخ الطبيعى فى انجلترا ، لأنها كانت من الأنواع الجديدة التى لم يسبق للباحثين العلميين أن اهتدوا اليها ، ويسميها البدو أبو قرش بسبب ذيلها المستدير •

ومن هناك واصلنا السير مدة سبع ساعات متواصلة قطعنا خلالها ما لا يقل عن ٢١ ميلا تقريبا ، وخلال اليومين التاليين من وصولنا الى «الشصر» كنا ندخل متاهات صحراوية شاسعة وحين هبت علينا عاصفة رملية شديدة حاملة معها الأتربة لم أر أى أثر لنبات أو زرع فى تلك المنطقة ، ولعل الجمال كانت تعلم ذلك فقد أبدت حماسا لمواصلة الرحلة الى أن وصلنا الى صحراء كبيرة وكنا نرى السراب وهو يغطى أرض الصحراء كلها ولم يكن هناك أثر لماء على الاطلاق •

الفصل الحادى عشر

النجود - الحياة على المرتفعات الجبلية

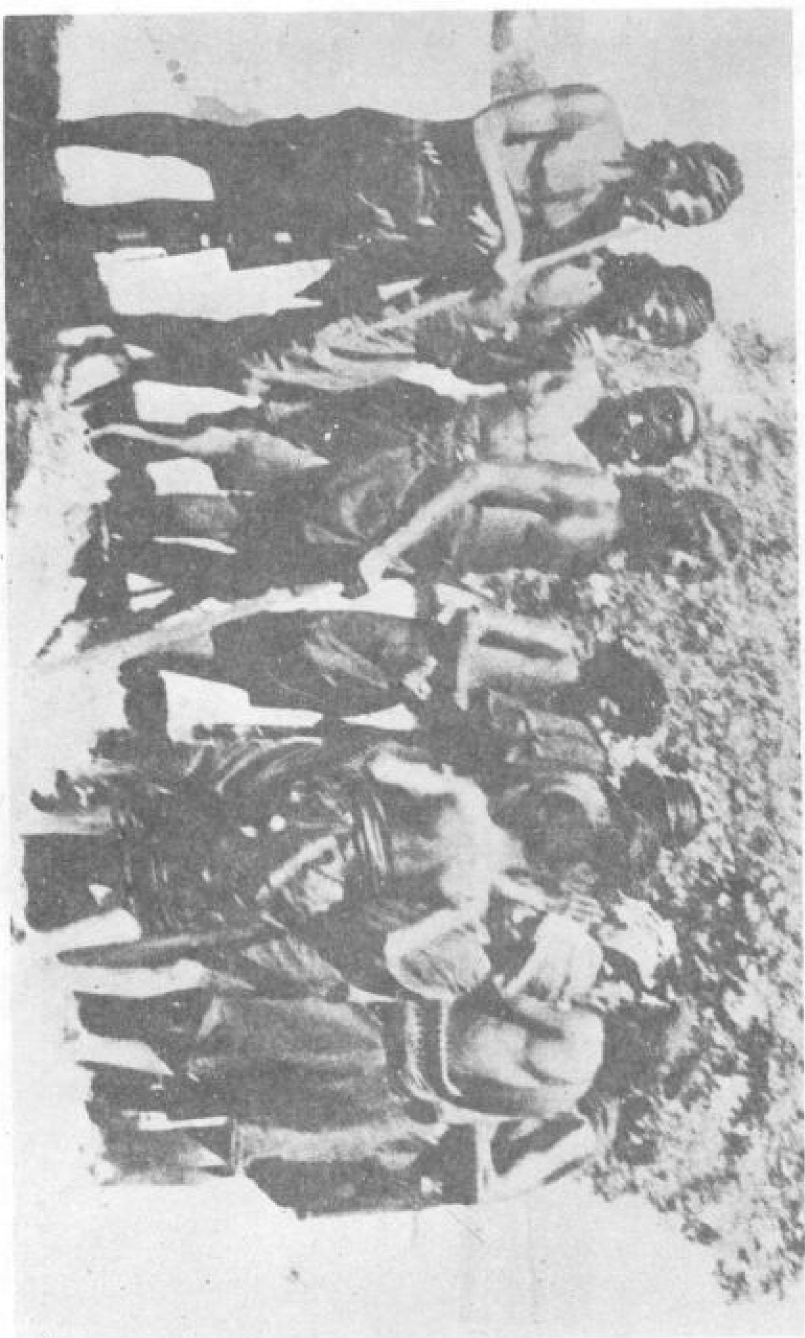
كنا نتوقع أن نصل « الشصر » فى اليوم التالى ، ولم يكن من الغرابة أن أرى على البدو كل هذا الاهتمام بالشصر • لأنها كانت أول عين ماء نصل اليها بعد مسيرة خمسة أيام ، كما أنه لم يكن هناك عين ماء أخرى قبل سبعة أو ثمانية أيام أخرى ، وبعد مسيرة يوم كامل فى تلك الصحراء القاحلة المحرقة التى لم نر فيها غير السراب • وصلنا عند غروب الشمس الى واحة صغيرة تقع الى الشرق ، وعلى أية حال فان الاقتراب من عين مثل تلك العيون يجب أن يكون بمنتهى الحذر •

فاذا كان هناك عدو ، فلن يكون أمامنا سوى خيارين اما التراجع بسرعة متحملين عذاب العطش والخوف من المطاردة ، أو الاقتتال لاحتلال العين • وكالعادة فعندما وصلنا الى تلك العين كان الماء عندنا قد نفد ، ومن عادة البدوى عند الوصول الى مثل هذه الأماكن أن ينزل من فوق ناقته ويتجول فيها بحثا عن أى عدو محتمل ، أو لاقتفاء أثر أى جماعة من جماعات الغزو • ولذلك فبعد وصولنا بقليل خرج ثلاثة من البدو والمرافقين للبحث عن منطقة يحفرونها للبحث عن المـاء •• ولمـا كانت « الشصر » من المناطق غير المأهولة فقد كان من الأفضل بأن نسرع فى التزود بالماء خوفا من أى حدث محتمل • وكان من المعتاد أن تتدخل الطبيعة فى مثل هذه الأحوال فتردم البئر بعد يوم أو اثنين من حفرها •

فى اليوم التالى غادرنا ذلك المكان فى مجموعات كل مجموعة من ستة أو ثمانية أفراد وكان من عادة الابل أن تستغرق وقتا طويلا فى الشرب خصوصا من القرب الصغيرة التى كنا نحملها أو من مياه العيون القليلة •

وكان الطريق يمر وسط احد السهول الواسعة المنبسطه (وكان مكانا مثاليا للمخيم) ، لأنه كان يقع فى واجهة احدى المرتفعات التى كانت بها بقايا قلعة أثرية قديمة • وقد رأينا تحت الأكمة وعلى عمق خمسين قدما أى عند السفح فجوة تتسع بصعوبة لدخول يد انسان وكان وراء الفجوة نبع ماء وهناك أسطورة منتشرة بينهم عن ذلك المكان وهى أن الذى بنى قلعة « الشصر » هو بدر بن طويرق فى العصور القديمة ، وسمعت منهم بأنه يوجد فى السهل الصحراوى المحيط بذلك المكان بقايا مناطق زراعية مما يدل على أنه كانت هناك حياه زراعية فى الماضى فى تلك المنـــاطق ، ولكن ذلك الاحتمال لا يتفق والواقع • لأن « الشصر » صحراء قاحلة ووجود المـــاء نادر فيها لدرجة أن أى غزو قبلى لتلك المنطقة قد لا يستمر أكثر من أسبوع •

وعلى الجانب الشرقى أو بعبارة أدق على ذلك السهل تقع حلة «الشصر» تلك الواحة الصغيرة التى كانت قبل ثلاث سنوات مسرحا لمعارك دموية بين القبائل المتناحرة وقد اشترك فى تلك الحرب بعض الأفراد البدو المرافقين لى وكانت لتلك الحوادث أهمية بالنسبة لى ، فقد كدت أتعرض بنفسى لصدام مع بعض جماعات الغزو فى المنطقة الشرقية التى تقع على بعد مائة ميل من مكاننا ، وكانت تلك الجماعة مؤلفة من خمسة وعشرين شخصا كانوا من قبيلتى الكرب والصيعر هاجموا مجموعة صغيرة من قبيلة المهـــرة كانت تخيم فى عين نضر وخلال المعركة تمكن المغيرون من قتل سبعة من المهرة مقابل سقوط واحد منهم وكان القتيل شيخ القبيلة ، وقد غنمت القبيلة المغيرة أربعين جملا وبعد مضى أربعة أو خمسة أيام من ذلك الحادث وصلت مجموعة الاستطلاع التابعة لقافلتنا قادمة من الناحية الشرقية من «نضور» ، بعد أن قطعت مسافة ٦٠٠ ميل ، وعند وصولهم فوجئوا بنبأ ذلك الحادث الذى رواه لهم بعض من اشتركوا فى المعركة وكانوا من قبيلة المشايخ • وخلال الأحاديث التى جرت بيننا فى تلك الليلة ، نبهونا الى عدم اشـــعال



(مجموعة من الرجال الجبليين)

نار فى أثنـاء الليل ، وقد امتثلنا لذلك التحذير على الرغم من شـدة البرودة •

وقصة ذلك الحادث كما رواها لى أحد شهود العيان تتلخص فى أن فريقا من القبائل التقى مُصادفة بمجموعة من قبيلتى المهرة وبيت كثير ، وكان بينهم اثنـان من الذين كانوا يرافقوننى فى الرحـلة وقد صحبنى « نويخر » الى ذلك الموقع الذى دارت فيه تلك المعركة وأخذ يصور لى عمليا كيف وقعت أحداثها وبالمصادفة فانها حدثت فى نفس المكان الذى كنا نخيم فيه وقال اننا أخذنا نتعقب آثار تلك القبيلة طوال اليوم اعتقادا منا أنهم قد يعودون الى نفس المكان ليخيموا فيه لأنه لم تكن توجد عيون ماء فى الجهة الغربية حتى منطقة « سـناو » • وفى ذلك المكان المكشوف توقفنا للاستراحة حتى صلاة المغرب ، وبعد أن تركنا الجمـال فى عهدة بعض رجالنا رجعنا نزحف على بطوننا فى الظلام نحو مخيم الأعداء وكان الوقت منتصف الليل فوجدناهم يغطون فى النوم واستطعنا أن نراهم بوضوح من خلال أثوابهم المصبوغة فتقدمنا مسافة خمسين خطوة ثم أطلقنا النار عليهم ، وفى غمرة الفوضى التى تجمعت عن ذلك استللنا خناجرنا وأطبقنا عليهم وقد حقق الله لنا النصر والحمـد لله الذى يمنـح بركته لمن يشـاء • وقد سقط أربعة منهم قتلى واسترجعنا الجمال التى كانوا قد استولوا عليها فى نضور كما استولينا على خمسة من جمالهم ، وبالتالى فان عددا كبيرا من الذين تمكنوا من الفرار قد اضطروا الى الركوب كل اثنين على جمل •

وهنا تدخل أحد البدو مؤيدا لحديث نويخر وقال : فى اليوم الثانى بينما كنت أرعى الابل فى وادى غيدون اكتشفت أن واحدا من أفراد قبيلة الصيعر والذى كان مختبئا طوال الليل يخرج من مخبئه وعندما تقدم نحوى طلب الأمان وأنى لأشهد الله أنه كان أعزل من السلاح ولهذا أعطيته الأمان •

فسألتهم لنفرض أنهم لم يقاتلوكم وألقى الجميع بسلاحهم .. هل كنتم ستمنحونهم الأمان ؟ فرد نويخر بالنفى ، فمادامت هناك حرب قائمة بين قبيلتين فان ذلك يعتبر عملا مخجلا عند العرب .

تقع الشحر على بعد ٩٠ ميلا من الساحل الجنوبى وعلى ارتفاع ٩٣٥ قدما من سطح البحر على حافة مرتفعات بحيث تلامس الرمال ، وفى ذلك الوقت كنا على بعد مسيرة يوم واحد منها فقط ، وقد عبرنا هضبة الحدود الجنوبية الواسعة والواقعة بين شاطىء البحر وبحر الرمال الذى يمتد الى الغرب والجنوب الغربى الواقع على حدود نجران ومن الشرق الشمالى شرقا حتى «جدء الحراسيس» وقد سبق لى فى العام الماضى أن قمت برحلة الى المناطق الرملية فى نفس الاتجاه وعلى امتداد نحو مائة ميل حتى واحة مقشن[1] المشهورة وكنت فى هذا العام أنوى أن أعود الى الجهة الغربية لاكتشاف الطرف الجنوبى للوادى ولكنى قبل أن أقوم بسرد مراحل هذه الرحلة فانه يبدو من المناسب أن أعود الى بحث جغرافية المرتفعات الجنوبية فى تلك المنطقة فى شىء من الايجاز :

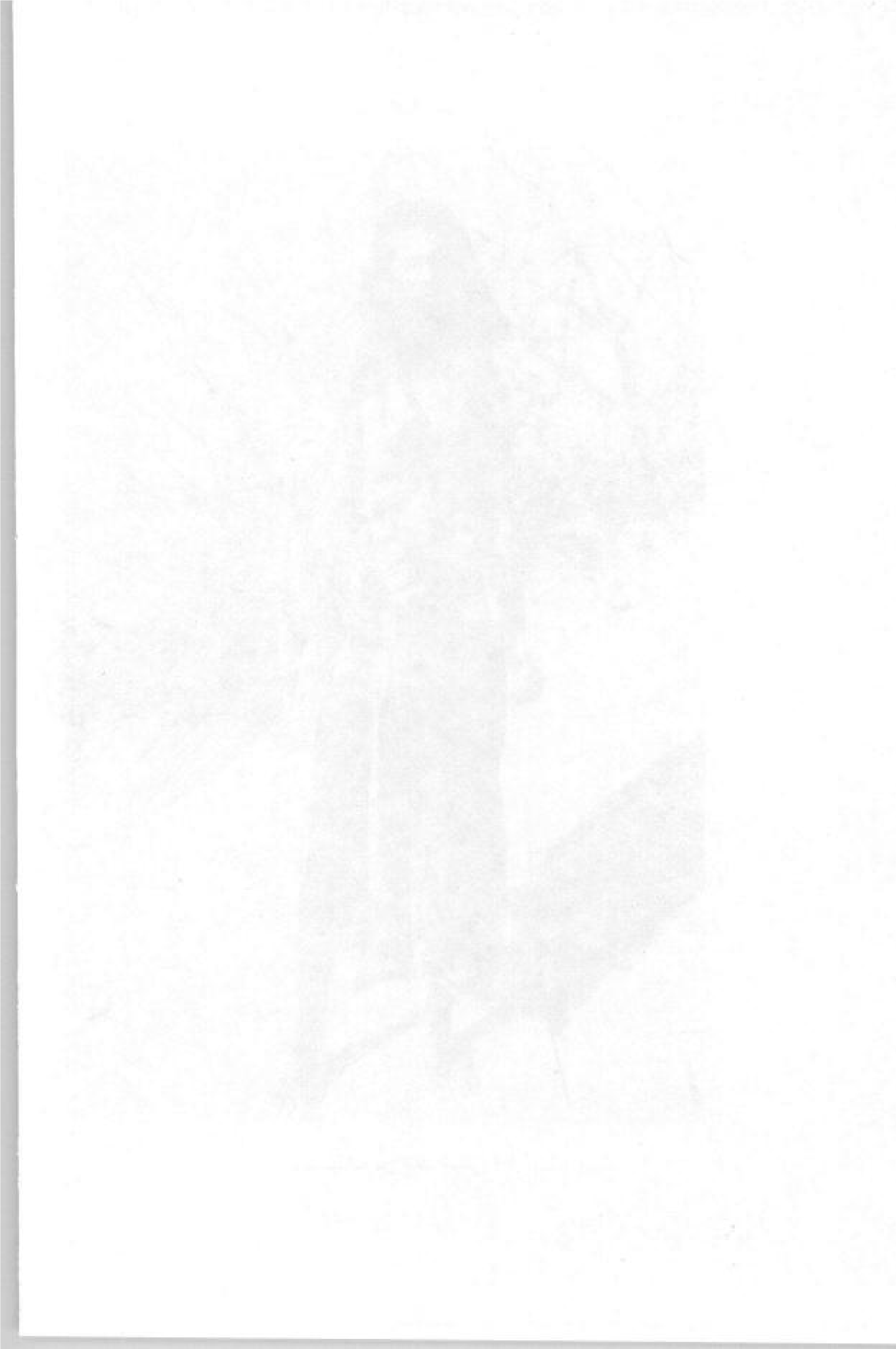
بالرجوع الى خريطتى تظهر السلسلة المتصلة بالمرتفعات الساحلية على خطوط الطول ٥١٫٤٠ — ٥٤٫٤٠ والتى تسمى جبل القمر وجبل القرا وجبل سمحان ومن جانبها الداخلى تتفرع سلسلة من الأودية الأثرية الجافة والتى تكوّن فى مجموعها عددا من الوديان المنتظمة ، ويتفرع من الوادى

---

(١) .. يعتبر وادى مقشن من أهم الأودية فى منطقة جنوبى شرق الجزيرة العربية بلا منازع لأنى لم أر له مثيلا فى تلك المنطقة وهو يتألف من حزام واسع من شجر « السدر » التى يكون منها غابة طولها حوالى ثلاثين ميلا (على محور الشرق — الغرب) على امتداد حافة الجنوب الشرقى للرمال . وتوجد على ضفته الشرقية (وعلى ارتفاع ٤٠٠ قدم) مياه صالحة للشرب تنبع من عين أو عينين . وهناك خميلة كبيرة من اشجار النخيل البرية المهملة تمتد على ضفاف ذلك الحزام . وعلى الناحية الشرقية توجد بحيرة يبلغ طولها بضع مئات من الباردات وعرضها نحو ١٥ باردة .



(شبـــاب من بيت امانى)



الرئيسى سبعة وديان[1] فرعية تمتد على شكل متواز فى الاتجـــاه الشمالى من سلسلة الجبال الساحلية حتى حافة الصحراء ثم تواصل امتدادها حتى تلتقى بواد كبير يمتد على مسار الرمال فى اتجاه نحو الشمال الشرقى . وعند احدى النقط من مساره ينحرف عنها ليصب داخل الرمال عند خط عرض ١٩٫٣٥ درجة وخط طول ٥٤٫٥٠ درجة وعند البقعة التى يلتقى فيها بالرمال تقع واحة مقشن الخصبة .

وترتفع الوديان السبعة بالقرب من ذلك التقاطع بمعدل يصـــل الى ثلاثة آلاف قـــدم على امتداد مسيرة يومين من الساحل وتشكل مصادر تلك الأودية المنطقة التى تتراكم فيها مزارع اللبان ، وأسماء هذه الأودية من شرقها الى غربها كالآتى : **قتبيت ، الدوكة ، غيدون ، عيدام ، شحن ، حات** .. وتلك الأودية تمتد الى مسيرة تتراوح بين ثمانية [illegible] سبيت الى أربعة أيام من حات ، أما بالنسبة للوادى الرئيسى [illegible] ترتفع الـ[illegible]ستة وديان فرعية هى حات وشحين وأثبتا وأم الحياة والأرض ومقشن وذلك فى مساره من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، ويمكن تسمية هذا النظام باســـــم **« أم الحيــاة »** ، والذى يسمى أحد فروعه به .

ومن الجانب الشمالى الغربى تمتد كثبان الرمال الى ما لا نهاية حتى

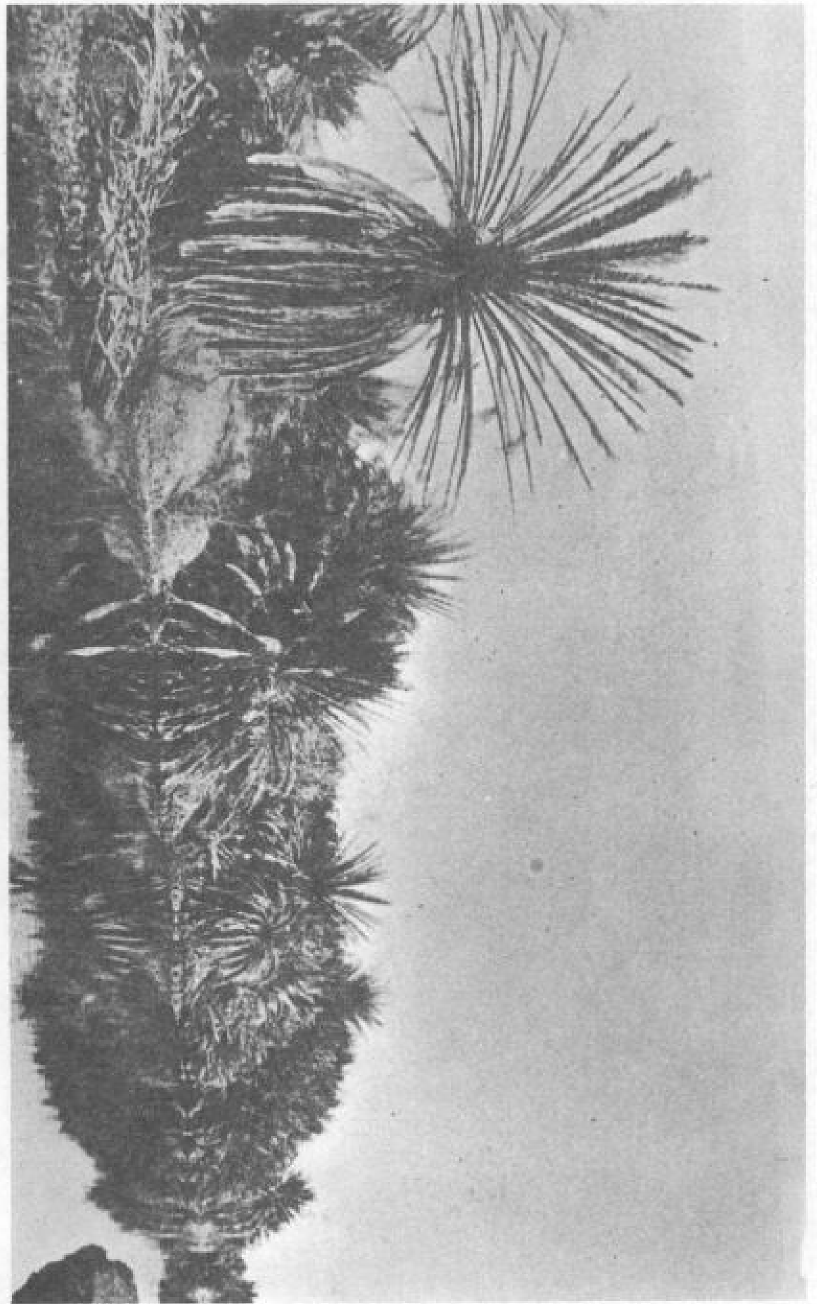
---

(١) .. تشكل الأودية الرئيسية لتلك المنطقة نظاما قائما بذاته ، فوادى تتبيت وفقا لتلك القاعدة يرفد عددا من الوديان الفرعية هى : نضور ، ذهبون ، انجودان ، ورخبيت .. كلها تتصرف على الجزء الشرقى من جبال القرا والجزء الغربى من جبال سمحان . اما الطرف الشرقى لنظام الصرف المذكور والذى يرتفع الى الشمال من قمة جبال مرباط (والذى يسمى فى الخريطة بجبل الدعن) فغير معروف للأهالى بهذا الاسم وانما باسم زيون .. اما وادى الدوكة فهو يرتفع فى مستطيل صلالة ويستقبل الحوف وحرفيت ، بينما يرتفع وادى غيدون قليلا الى الغرب من الدوكة ويستقبل حله وظهير وغلوت على ضفته اليمنى وغارة على ضفته الشمالية اما وادى عيدان فيرتفع فى مستطيل رخيوت وبفرعيها الكبيرين دفين وجبروت اللذين يرتفعان الى الشمال من جادب ودمقوت فانهما يصبان بكليتهما فى سلسلة جبال القمر ، وبخصوص وادى شنين وحات فانهما من الأودية القصيرة ويرتفعان معا على الأطراف الشرقية والغربية .

تخوم منطقتى **الواسر ونجران** ، والواقع ان الطرف الجنوبى للرمال يلتف حول الوادى الرئيسى فى كل من **مقشن والأرض** ، ويلامس منطقة أم الحياة ثم يبتعد عنها من شمال **شحين** الى مسافة تمتد مسيرة يومين • وتظهر السفوح السفلى لمرتفعات الحدود الجنوبية على ذلك النحو وكأنها تشكل أسفينا بحيث تضيق من الجهة الغربية ثم تميل برفق شديد الى الاتساع حتى خط طول ٥١٫٣٠ درجة أو أكثر من ذلك الاتساع •

والى الغرب من أم الحياة فان المرتفعات تفصلها أودية متوازية ترتفع **فى جبال حضرموت ثم الى الشمال حتى تختفى فى أطراف منطقة الرمال** • وأسماء تلك الأودية التى تبدأ من غرب أم الحياة هى : **ميتان ، خوات ، شعيت أرخوت ، عربوت ، ثمريت ، الدحية ، الصاف ، رامة أيوات ، المناهل ، جناب خضرا ، خضر ، أيوات الصيعر ، وحدى** •• ومن النادر العثور على عيون ماء فى منطقة سنا بوادى الدحية ، وثمود بوادى رامة ، وشفم بوادى ضرار ، ومنواخ بوادى أيوب الصيعر ، وبالتالى فان طرق الغزو من شرق وغرب وادى منداخ محفوفة بالأخطار •

أما فى المنابع الجبلية للوديان فتوجد فى أندهور وحبروت مياه جارية ، غير أن مجاريها السفلى جافة جدا ، وهكذا فهى تزداد اتساعا وضحالة ورملا كلما استمرت فى مسارها نحو الشمال الى أن تفقد مياهها على السهل القريب من الرمال ، ولا يمكن تمييزها الا بذلك الشريط من الأحراش الجافة ، أما فى المرتفعات فانها تعتبر شريان الحياة ، كما أنها طرق تحركات البدو ، فضـــلا عن أنها مرتع للحيوانات لوجود العشب فانه يزدهر على ضفافها رغم ضآلته (**انظر ملحق ٤**) ، أما فيما عدا تلك الأجزاء فان المرتفعات قاحلة وجرداء ، ولهذا فليس فى وسع المناطق أن تكون مصدر عيش لغير البدو الرحل وعند جفاف تلك الأودية فى فصول الصيف ينتقل البدو الى المناطق الجبلية بالقرب من عيون المـــاء فى أندهور وهنون وشوبرمه وحبروت (التى تقع على حدود أم الحياة) ولكن ما ان يهطل المطر حتى يعـــودوا للبقاء شهرا أو شهرين فى المناطق التى تناسبهم مسترشدين بالنيران ومصـــادر البرق •• أنها حيـــاة العطش والجـــوع •



(أنواع من النخيل البرى فى احدى الغابات)

أما من كان يقطن منهم فى ظفار فيقضون فصل الصيف فى مزارع اللبان حيث الاقامة مريحة وحيث يتمكنون من شراء ما يحتاجون اليه من السلع والأغذية كالأسلحة والأرز والبن وذلك من حصيلة بيع اللبان • غير أن رجل البادية الحقيقى يحتقر مثل تلك الحياة ويرى فى حياة الصحراء المثل الأعلى للعيش حيث يعيش عموما على لبن الناقة مسترخصا فى سبيل تلك الحياة كل شىء كما ان الغزو والغارات القبلية بالنسبة اليه هى ملح الحيـــاة • ولم أجد بين الجماعة الذين رافقونى فى تلك الرحلة من لم يشترك فى غارة من تلك الغارات على حضرموت أو لم يتعرض موطنه أو مرعاه الى غارة مضـــادة • ورأيت فى أجسام بعضهم ندوبا وعلامات لنصـــال الخناجر أو رصاص البنادق وهم يفخرون بتلك العلامات • ومن ثم فان السلاح والقتال والجمل هى دعائم القانون بالنسبة اليهم كما ان الأحقاد القبلية المتوارثة تمزق شملهم حيث القوة فوق القانون وحيث يتحرك كل فرد وسيف الخوف على حياته وممتلكاته مسلط فوق رأسه •

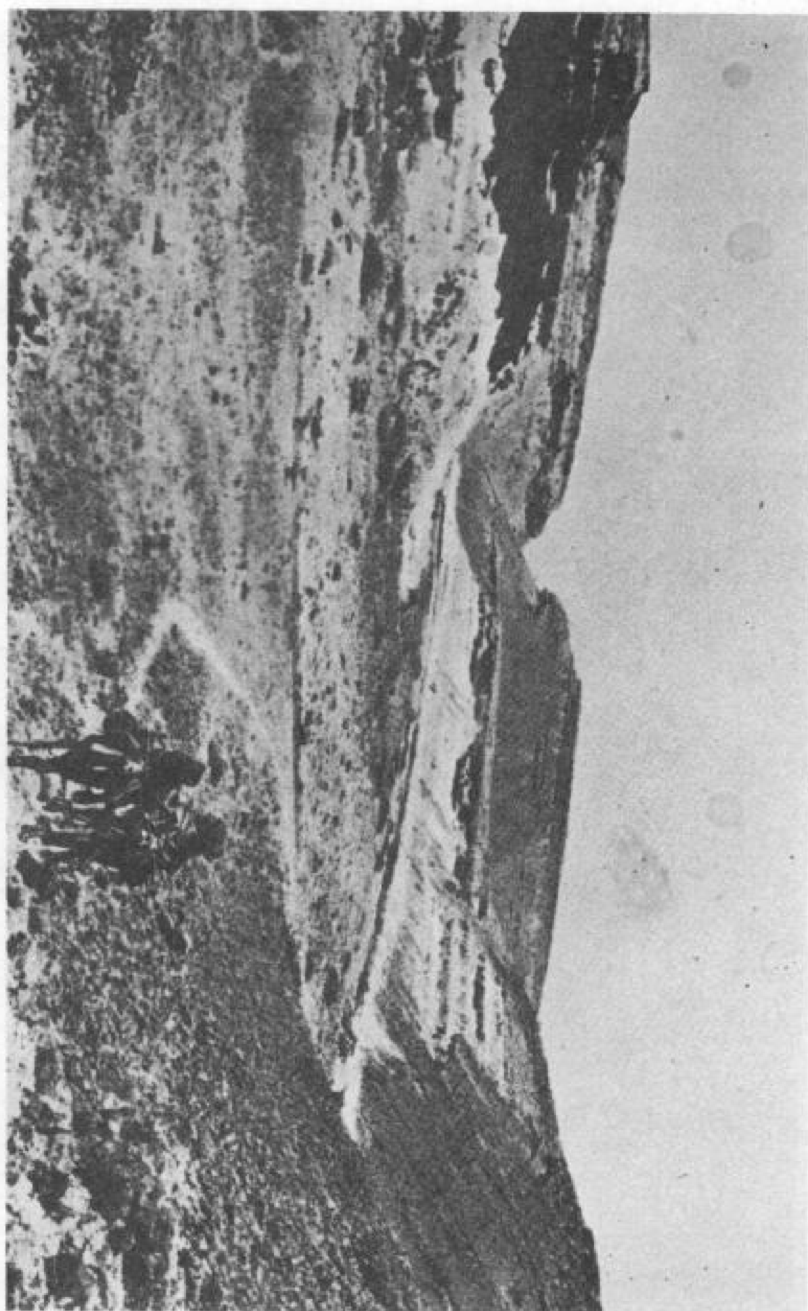
والقبائل البارزة التى تستوطن الحدود الجنوبية من الشرق الى الغرب هى **بيت كثير ، المهرة ، المناهل ، العوامر ، الصيعر ، النهد** ، أما المهرة فهى أكبر تلك القبائل اذ يصل تعدادها الى الالآف ، بينما نهد وكرب[١] أصغرها جميعا اذ لا يزيد عدد كل منها على مائة أو مائتين •

---

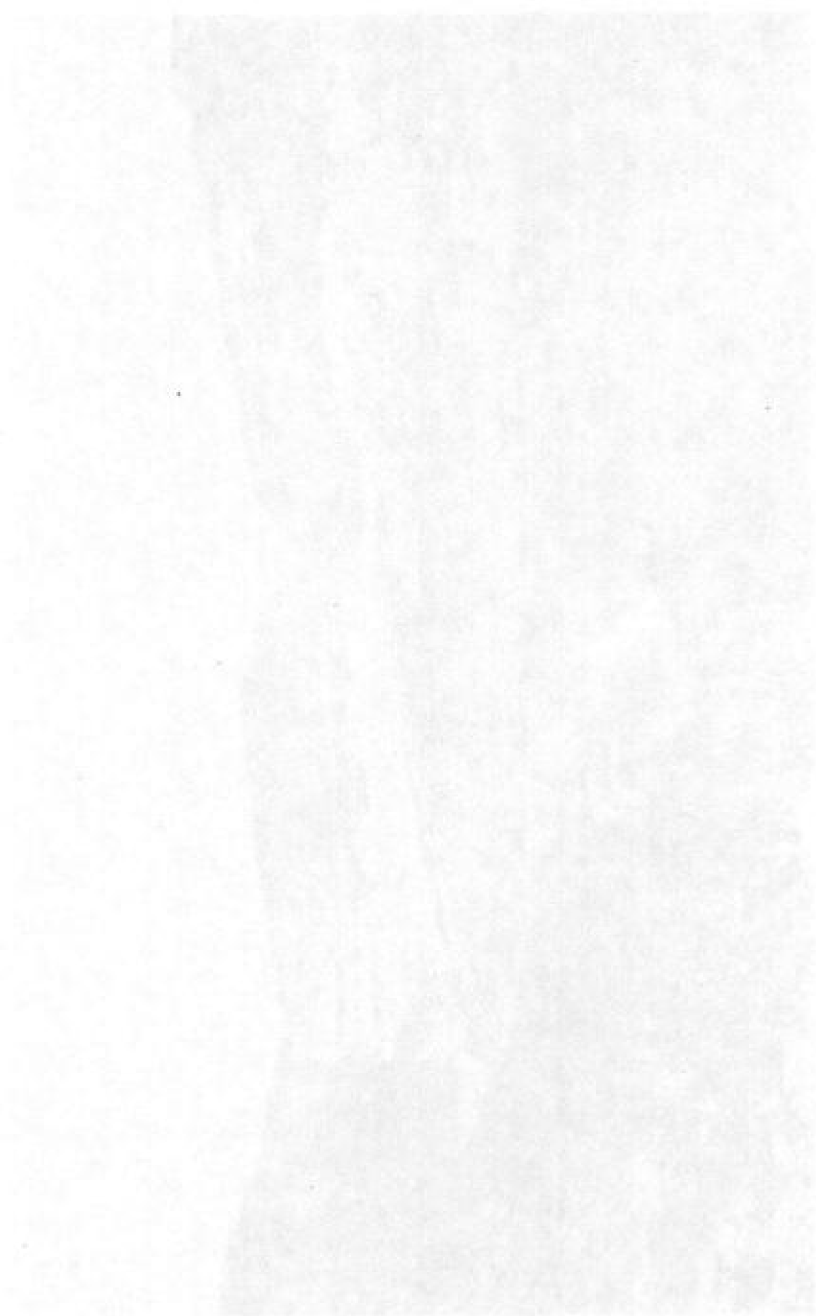
(١) • • ان التقسيمات القبلية فى هذه المناطق هى كالآتى : فى منطقة أم الحياة تقيم قبيلتا المهرة وبيت كثير ، وقد تمتد منطقتهما الى الغرب . ومن الضفاف السفلى بالوادى وهى الدوكة وغيدون وعيدان وحياة تخص بيت كثير ، هذا على الرغم من أن المهرة يستخدمونها فى حرية تامة ، اما المنابع العليا للأودية (باستثناء غيدون) فهى فى الغالب فى يد المهرة وعلى الأخص حبروت وغزال وانجودان ، والدهيون ، هذا بالاضافة الى الأودية الفرعية الواقعة مباشرة الى الغرب ، كما أن هناك عددا من القبائل الصغيرة التى تنتمى الى الحضر ، وهى من أصل غير عربى تنتشر بين قبيلتى المهرة وبيت كثير ، وهكذا فعلى الجانب الغربى من وادى الحياة وفى منابعة السفلية تقيم قبيلة بلحاف . وهى قبيلة غريبة لا يعرف اسمها ولا تدين بالولاء لأى فريق وان كانت تتحدث لغة المهرة ،=

ان الحياة فى تلك المنحدرات بدائية الى أقصى الحدود ، وكما أشرت آنفا ، فان الجفاف وخطر الغارات يدفع بتلك القبائل الى مناطق المياه الجبلية ، وان كانت فى قرارة نفوسها تفضل البقاء بالمناطق الصحراوية ، وعند حلول موسم الأمطار تراهم يخرجون بمواشيهم وأمتعتهم الى الصحراء حيث لكل بئر مياه اسم وذكريات يعتزون بها ويمكثون فى تلك المناطق الى أن يعود الجفاف اليها .. والواقع انه لا يوجد فى تلك المناطق الصحراوية ما فيه الكفاية من المياه وسبل العيش كما أنهم لا يعرفون البيوت أو الخيام ، وفى المنحدرات فانهم يأوون تحت أشجارهم ، وفى الجبال يقيمون فى كهوفها وكل أولئك السكان أميون ، وقليل منهم يقرأ القرآن رغم أنهم يواظبون على أداء الصلوات ، وهم لا يقربون المشروبات الكحولية وان كانوا يدخنون . وهم ينتمون الى المذهب الشافعى ويؤمنون بالأولياء ، كما أن تعدد الزوجات وكثرة الطلاق التى يشتهر بها العرب غير موجودة عندهم وهم لا يجمعون بين زوجتين الا نادرا على الرغم من كثرة انجابهم للأطفال . وتربية الماشية هى من أعمال النساء وان كان غير مسموح لهن بحلبها .

= ومن مميزات أفراد هذه القبيلة انهم يحملون سكينا بدلا من الخنجر وهى لا تغير على احد ولا احد يغير عليها ولا تدين باى ثار لاى قبيلة شانها فى ذلك شان قبيلة سلوب فى نجد .. ووليها هو الجوهرى فى منطقة (أم الطباخ) وهو الضريح الذى يزوره المهرة ويقدمون له القرابين والأضحية وفى الطرف الشمالى لأم الحياة يوجد وادى نضور الذى يعتبر موطن قبيلة البطاحرة (بيت بحمور) هذا على الرغم ان قبيلة المهرة تستوطن هذه المنطقة ايضا ، ان قبيلة البطاحرة وهى من مستوى أدنى ويهددها الانقراض ومعظم افرادها يزاولون مهنة الصيد ولهم لغة خاصة بهم ، كانوا فى الماضى هم السكان الرئيسيون للمنحدرات الشرقية برمتها ابتداء من وادى غيدون (التابع لبيت كثير) الى وادى كادون التابع للحراسيس .. بينما الطرف الغربى منه يعرف بأنه كان موطن قبيلة دربوت الخرافية وهناك عناصر من قبيلة صغيرة أخرى وهى عفار تستوطن بالاشتراك مع المهرة والمشايخ (بيت استبت) وبسمى أحيانا (انشحت) منطقة حبروت ويقال انها ترتبط بنسب الى قبيلة الشحرة وهى تستوطن وادى « انغدوم » بالقرب من عين هنون والى الغرب من أم الحياة تمتد مواطن قبيلة المهرة الى وادى رامة والمناهيل الى وادى الجوف ، أما العوامر فتمتد مواطنها الى وادى الخضرا حيث تبدأ بعد ذلك مواطن قبيلة الصيعر .



منظر لاعالي احد الوديان



أما تسوية المنازعات فى تلك المناطق فتتم عن طريق التحكيم حسب اصطلاحهم (حكم العوض) ، الذى هو مجموعة القوانين المحلية ، وهى طبعا غير قوانين الشريعة الاسلامية أما السرقات الصغيرة فنادرة الحدوث وتعتبر عندهم من الأعمال المنافية لقيمهم الأخلاقية وذلك على نقيض عمليات السلب والنهب التى تتم عن طريق القوة وتعتبر من أعمـال الرجولة شأنها شأن الغارات القبلية التى تشنها القبائل بعضها على البعض فهم ينظرون اليها نظرة تقدير واحترام كما تنظر الشـعوب الأوربيـة الى الحـــروب •

والأعشاب هى وسيلة العلاج عددهم (انظر الملحق الرابع) ثم الكى والرقية بالبخور والتعاويذ ، كما تدخل فى قائمة الأدوية أمعاء الحيوانات التى يصطادونها ، كذلك فان بول النوق الصغيرة من الأدوية الشائعة عندهم • غير أن الكى يأتى فى الدرجة الأولى من وسائل العلاج •

ويندر أن يوجد بين مواطنى تلك المنطقة من لا يحمل على جسمه أثرا أو ندبا لكى ، ولقد أتيح لى أن أشهد بنفسى احدى عمليات الكى فظننتها عملية من عمليات السحر فقد أصيب أحد أفراد قافلتنا بامســاك شديد لم تنفع معه كل الأدوية المسهلة وبذلك تعطلت الرحلة ، فقام زملائه باستعمال طريقة **الفويرة** لعلاجه ، وقد تمت تلك الطريقة بايلاج مسمار داخل النار الى أن أحمر ثم كوى به الرجل فى سبعة من المواضع فى جسمه ، الكعب الأيسر ، والكعب الأيمن ، وخلف طبلة الأذن اليمنى ، وخلف طبلة الأذن اليسرى ، ووسط الجبين تحت الشعر مباشرة ثم أعلى الرأس وأخيرا فوق السرة •• لقد كان لذلك العلاج مفعول قوى فقد تحركت القافلة صباح اليوم التالى •

أما الاصابة بالعين (الحسد) فتعالج بطريقة أخرى ، وقد حضرت مرة

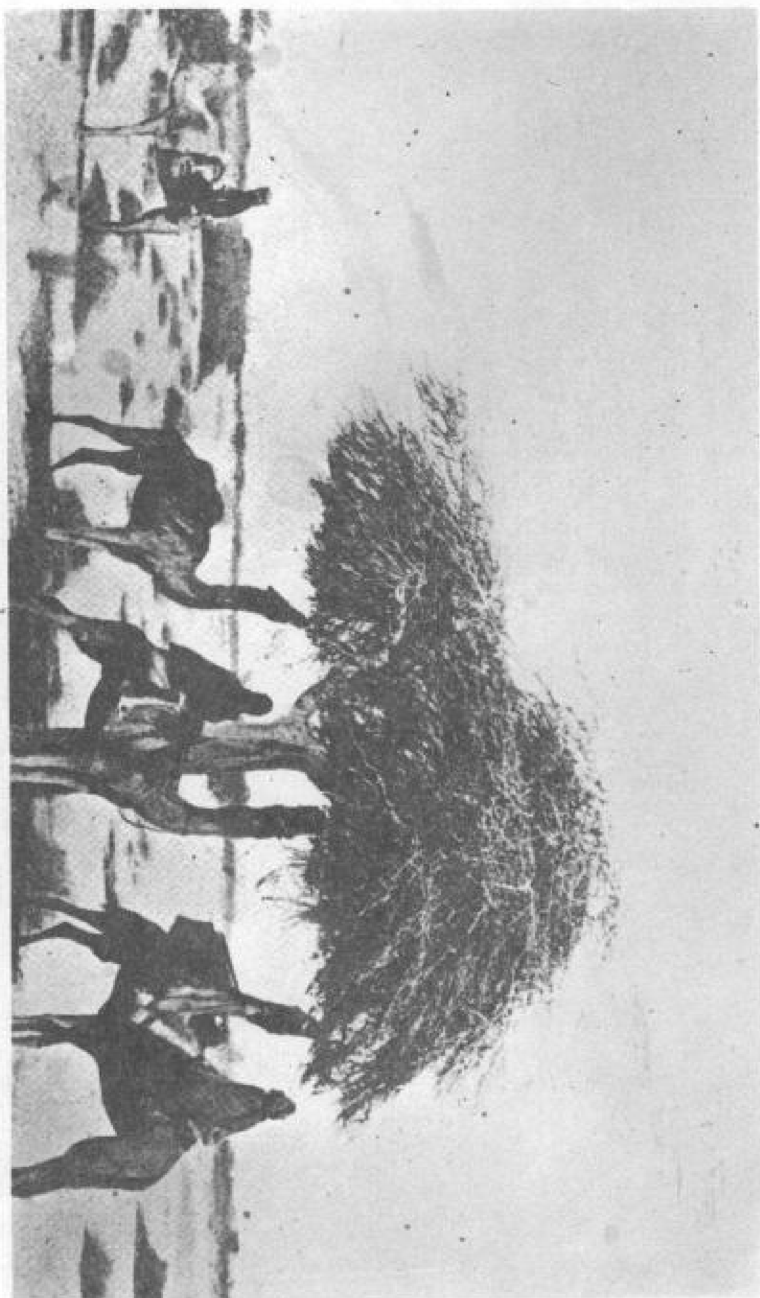
اجدى هذه الطرق وكانت تسمى حمراء الراية[١] وهذه العملية تستمر على مدى ثلاثة أيام من يوم الاصابة بالمرض كمـا تستعمل كذلك لعلاج لدغة الثعبان ، وتجرى بأن يقوم أحد أصدقاء المريض المصاب بتعرية الجزء المصاب من جسمه ثم يلقون بأجسامهم فوقه ويتلون الرقية بصوت خافت فى البداية ثم يرفعون أصواتهم تدريجيا ويقوم القارىء بتلاوة التعويذة بصوت مرتفع ثم يردد من وراءه بقية المشتركين عبارة واحدة (حمراء الراية) ومن حين الى آخر يخرج أحد المشتركين فى التلاوة ويلعق جسم المريض فوق مكان القلب ويشد على الجلد ثم يرفع رأسه عن المريض بينما يصيح الآخرين ثم يبصقون على جسم المريض وهنا تصل العملية الى ذروتها ، كما يحدث أن تطلق البنادق بعد نهاية العملية ، غير أن تلك التعويذة لا تستعمل الا لابعاد العين (الحسـد) .

لقد حضرت عملية أخرى بعد تلك العملية التى لم يكتب لها النجاح والعملية الثانية هى نوع من استرضاء أو استحضار الأرواح وتسمى بعملية (الحبل) ، ويمسك المشرف على هذه العملية بحبل فى يده ثم يجلس على بعد ثلاث خطوات من المريض ويطلب الى شخص آخر الاقتراب والامساك بطرف الحبل وبعد أن يقيس المشرف الحبل باصبعه وبساعده ثلاثا ينكس رأسه ويتمتم ببعض كلمات غير مفهومة ثم يتناول حفنة من التراب وينثرها على الحبل وعندما ينتهى يصف للمريض العلاج الآتى « خذ عند غروب الشمس شيئا من التمر والزبد ثم توجه وألق به فوق الرمال » . هذا بالنسبة للراقى وطريقته فى علاج مرضاه .

أما بالنسبة للحيوانات التى تعيش على المرتفعات الجنوبية فهى قليلة وخلاصة القول أنه نظرا للطبيعة الجافة لتلك البيئة تضطر الحيوانات التى

---

(١) .. عند اجراء هذه الطريقة تتلو قبيلة الكثيرى (الرقية) بلهجة الشحرة . وقد سجلت تلك التلاوة ولكننى لم اترجمها حتى الآن .



في منتصف الوادي

تعيش فيها الى تكييف حياتها مع طبيعة تلك البيئة الجافة ، والاكتفاء بما تجود به من قطرات الماء فوق الأعشاب أو الصخور ، أما من حيث نوعها الحيوانى فان تلك الحيوانات تنتمى الى المجموعة الثديية •

وكانت بقرة الوحش من الحيوانات الثديية التى اصطدتها وهى من النوع النادر ، كما اصطدت ظبية وثعلبا ، واكتشفت أثناء الرحلة آثار ذئاب وقطط متوحشة وغرير ، ولكنى لم أعثر على واحد من تلك الحيوانات فى المرتفعات ، أما الريم أو الظبى الأبيض فيعتبر من الحيوانات المنقرضة فى المنطقة ، رغم أننى شاهدت زوجا من قرون ذلك الحيوان وكان يشبه القيثارة وعليه خصلة من الشعر لاتزال موجودة ، وعلى عكس الظبى الأحمر ، ينتمى الريم فى الواقع الى المناطق الرملية أكثر ما ينتمى الى منطقة المرتفعات ، وكان القنفد الذى اصطدته رملى اللون وصغيرا بالمقارنة بالقنافد الكبيرة السوداء التى تعيش فى عمان •

ويعتقد السكان هناك ان القنفد يهاجم الثعابين ويقتلها ولكنه شديد الخوف من الصقور ، واذا رآه فانه يستسلم له بسهولة • أما الصقور فلم أشاهد أيًا منها فى المرتفعات ، بالرغم أننى كنت أتوقع ان أراه هناك وبدلا منه رأيت نسرا كبيرا أسود وكان ميتا ، ويرى سكان المنطقة فى ظهور النسر أو الصقر نذيرا بغزو محتمل وأما الغربان السود فتوجد بكثرة وقد اصطدت واحدا منها وكان عنقه أبيض اللون ، وقد طلب منى أحد البدو قلب أحد الغربان لكى يأكله لأنه يعتقد أن فيه بعض الفوائد وهم يستعملون قناة الغراب الصفراوية كحلا للعين ، وهذا الاعتقاد ينتشر بكثرة بين سكان المدن ، أما البومة فلم أرها قط وان كنت أسمع صوتها كل ليلة وأنا فى مقشن •

وقد أخبرنى أحد المرافقين أنهم اصطادوا نعامة منذ بضع سنوات ولكن النعام لم يعد له وجود بعد ذلك فى تلك المناطق (فيما عدا منطقة قبيلة الصيعر

الواقعة فى الغــرب) هذا برغم أننى وجدت بقــايا متحجرة لبيض النعام ، ويرجع سبب انقراض النعامة فى المرتفعــات الجنوبية الى كثرة اصطيادها .

ومن الطيور التى اصطدتها عصفور من أندر العصافير ، وكان يمثل أهمية علمية ، أما البلبل والحمراء فإنهما من الطيور التى يراها الانسان كثيرا فى تلك المنطقة ، أما طائر الزعرة واللقلق وغيرهما من الطيور فانها من الطيور التى تهاجر فى فصل الشتاء الى افريقيا أو حضرموت .

كذلك جمعت عينات من الفراش والخفافيش والعناكب والنمل (انظر الملحق الثانى من الكتاب) وقد اصطاد أحد البدو عقربا كبيرا غير ســام وكان يمسك به من ذيله ، أما الزواحف فقد شاهدت ثلاثة أنواع منهــا أحدهما الأفعى السامة ذات القرون ، عدا ما شاهدته من السحالى التى لا يقل عدد أنواعها عن عشرة منها ثلاثة عينات جديدة الى جانب العينات العادية من النوع الذى يؤكل ويعتبره أهل المنطقة من أشهى الأطعمة . بل يفضلونه فى الأكل على الحيوانات الثديية ، وقد طاردت أحد تلك السحالى وكانت مطاردة مثيرة جدا عندما اختفت السحلية فى أحد الثقوب فقام بعض البدو المرافقين بالحفر حول المنطقة التى اختفت فيها وفجأة ظهر ذيلهــا فأمسك به مرافق آخر وجذبها من الثقب ، ثم أمسكها رافعا ذيلها الى أعلى ورأسها الى أسفل وكانت عيناها تتحركان بوحشية وفكها مفتوحا وأخذ البدو يجرونها على ظهرها ولكن السحلية قفزت نحو البدوى وعضته فى ركبته فى محاولة منها للهرب ، وقد جاء البدوى بعد ذلك لأعالجه ولكنى بعد أن أدركت قصده ناولته ريالا فعاد وكأنه لا يشكو شيئا .

كذلك شاهدت نوعا آخر من هذه الزواحف يسمونه (شويرة الشمس)

وهو لا يؤكل وقد سمى بهذا الاسم لتفضيله للبقاء فى المناطق الساخنة موليا وجهه للشمس وكان كبير الحجم وله ذيل أحمر وبشرة ناعمة وله كيس أزرق اللون تحت الذقن وبعد موت ذلك الحيوان يتلون ذلك الكيس ويصبح فضيا وكان ذلك الحيوان هو الحيوان الوحيد من الأنواع التى تعيش فى المرتفعات التى شاهدتها والتى تخشى ضوء الشمس .

الفصل الثانى عشر

استئناف الرحلة على الطرف الجنوبي للرمال

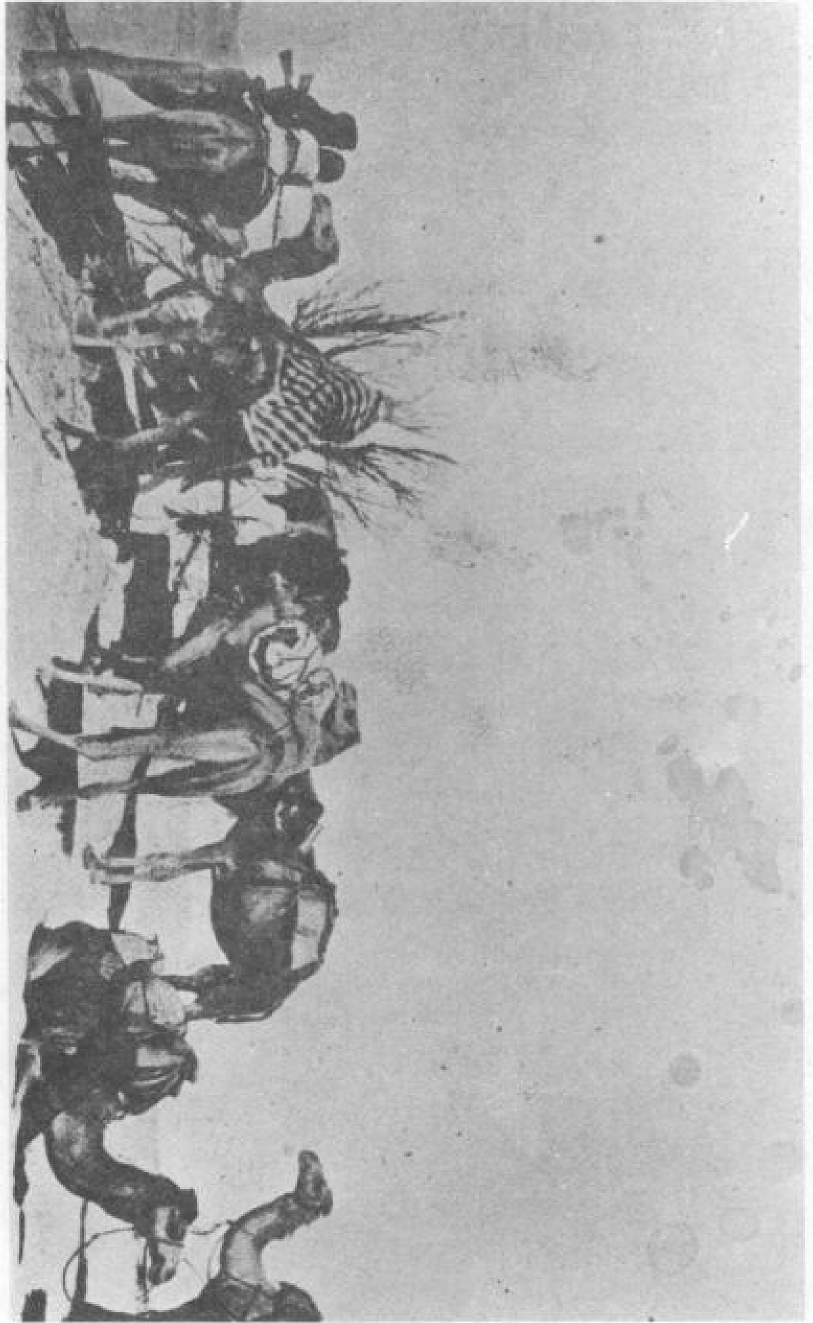
ودّعنا واحة **مفينيج** الواقعة على ضفة وادى غيدون بعد أن أمضينا فيها ليلتين نستريح من متاعب الرحلة ، ومن أجل أن ترعى الجمال ونتزود من الماء من منطقة الشصر التى كانت قريبة منا • وفى الصباح الباكر من شهر ديسمبر ومن تلك المنطقة التى كانت سماؤها فى تلك اللحظة تتألق بالألوان الذهبية والقرمزية بارحنا مخيمنا فى طريقنا الى سهل مقفر ذكرنى بأرض النيلين •

وما كدنا نسير بعض المسافات حتى سمعت المرافقين يصيحون صياحا مثيرا : الرمل •• الرمل ، ثم أخذوا يشيرون بعصيهم الى الأمام ، وعندما سرحت ببصرى فى الأفق البعيد لمحت شريطا أصفر ثم أخذت أنظر بشوق إلى تلك الكثبان التى عشت حياتى أعشقها وأمنى نفسى برؤيتها وكان يفصل بيننا وبين الرمال سهل موحش لا يغير من رتابته سوى بعض النتوءات البيضاء التى تكون سلسلة التلال الصخرية المنخفضة وهى **دم الحملة** ، **ثويرب** ، **لحجة** ، **قارون كلبه** ، وهى مناطق لها منزلتها عند البدو لأن فيها تتجمع مياه الأمطار •

وكان يمتد أمامنا والى مسافة مائة ميل متاهات خطيرة لا حصر لهـا ونظرا لوجود حالة حرب بين القبيلة التى كان أفرادها يرافقوننى وبين قبيلة قوية من جاراتها ، فقد أصبحت رحلتى محفوفة بالأخطار • لقد شهدت تلك المنطقة ولسوف تشهد دائما صراعات دموية تنشب على حدودها الجنوبية لكونها مناطق مشاع لا تخضع لسيادة مجموعة معينة من القبائل ، الا أنها فى نفس الوقت الطريق الرئيسى الى موارد المـاء التى ترتادها جماعات الغزو والسلب والنهب ، فعندما تلتقى مجموعة من تلك القبائل بمجموعة أخرى



منظر لرمال الجنوب



وقفة للبحث عن المرعى فى الحدود الجنوبية القاحلة

من خصومها فان من عادة القبيلة الأقوى أن تعلن عن وجودها باطلاق عدد من الأعيرة النارية فى الهواء كتمهيد لبدء القتال للقبيلة المعادية •

ونظرا لخطورة الوضع فى تلك المنطقة فقد كان زملائى يتحركون كأنما لو كانوا يسيرون على أشواك ومن وقت لآخر كان يجىء أحد المرافقين ليؤكد لى أننا لانزال فى منطقة معادية وعلى الرغم من أنهم عندما كانوا يتوقفون أو يخيمون فى منطقة ما فان الطريقة التى يوزعون بها أنفسهم لم تكن تدل على أنهم يتوقعون هجوما أو يستعدون للانسحاب من تلك المنطقة • وبعـــد فان الصحراء بالنسبة للبدو ترمز فى حد ذاتها الى الايمان بحتمية الأحداث (أى الاتكال على الله) و (المقدر كاين) و (الحمد لله رب العالمين) ، هذه هى الفلسفة التى على البدوى سواء فى مواجهة الشدائد أو الموت أو من خلال احتمال وتوعبا أن يتقبل الواقع من غير تذمر ، كما يرى فى الحرية الفردية هرطقة وخروجا على نواميس الحياة ، وهو يؤمن فى قرارة نفسه بأن الانســـان لا يصيبه الا ما كتب الله له ، وان ما يحدث فى حياته من اعتداء على الأفراد أو الابل انما هو بارادة الله والا لكانت الحرب عملا شيطانيا والثأر معصية ليس لها ما يبررها ، ولاستحال على الانسان ان يمارس شـــعائر دينـــه •

كانت كثبان الرمال الضخمة البيضاء بمنطقة بن جولى تبدو واضحة لنا من خلال التقائها بمنطقة أم الحياة حيث تصب مياه المرتفعات ويتغير اسمها الى اتينا • والى الشمال من هذه المنطقة كان بحر الرمال يبدو شاحب اللون ومن خلفه سلسلة التلال الوردية اللون • وأمام كل هذه المناطق كان يمتد وادى أم الحياة بخضرته الزاهية • وكنا كلما اقتربنا من الرمال كانت تبدو وكأنها روابى تشبه قباب المساجد • ثم بعد مسيرة قصيرة ظهرت لنا بعض الشجيرات التى كانت تتناثر على المنطقة والتى استهوت جمال القافلة ، فخفت لتأكل من أعشابها •

ان منطقة أم الحياة تعد من المناطق الهامة لسكان المرتفعات ، رغم أن الأمطار قد لا تهطل فترة قد تمتد [illegible] • وبذلك تتعرض

المنطقة للجفاف • ثم ما ان ينزل المطر حتى تخضر تلك الروابى وتزدهر فيها الحياة ، أما معالم الخصب الذى رأيناه فقد كان نتيجة هطول أمطار غزيرة فى السنة السابقة عندما كنت أزور المنطقة ولقد تذكرت جماعتى عندما كانوا يشيرون الى المناطق التى هطلت عليها الأمطار فى ذلك العـــام والى مناطق العشب والمناطق التى جرفتها السيول[1] • وكانت البهجة والسعادة تعلو وجوههم وهم يتحدثون عن ذلك •

أخذت السحب فى تلك الليلة تتجمع متدافعة فى سماء المنطقة وأخذ البرق يضىء الأفق الأسود ، وقد لجأت مع المرافقين الى بعض الأكمات القريبة منا ، بحثا عن مكان نأوى اليه وكان الجميع سعداء وهم يتوقعون نزول المطر • فالمطر بالنسبة لسكان الصحراء يشبه الذهب عند الباحثين عن ذلك المعدن النفيس • ثم أشرق الصباح وتحركنا وأخذ المرافقون ينشـــدون أغانيهم بينما كانت الصواعق لاتزال تزأر فى جنبات الوادى ، وكأنها موســـيقى تشنف آذاننا بألحانها • وكان الجميع يتمنون نزول المطر حتى ولو غرقت المنطقة فقد كانت تلك أغلى أمنية عند سكان الصحراء •

وكنا كلما تقدمنا فى السير كلما ازداد الأفق اضطرابا ثم أخذت البروق تقترب منا والصواعق تزداد هديرا • وقد شاركت الجمال أصحابها فى تلك السعادة فأخذت تنفخ الهواء من أنوفها تعبيرا عن سعادتها هى الأخـــرى وقد انقسمنا الى ثلاثة مجموعات للبحث عن بعض برك الماء وكان ذلك القرار خلافا لرأيى ، فقد كنت أعتقد بأننا حتى لو عثرنا على بعض تلك البرك ، فانها لن تفى بالغرض ، وكنت أفضل أن نواصل السير حتى نصل الى العيون المضمونة • بعد عشرين دقيقة من ذلك الوقت سمعنا طلقا ناريا ، وقد فسر المرافقون ذلك بأن أحدا ما قد اصطاد ظبيا ، وقد نتناوله فى العشاء غير أن نويخر صاح « لقد عثر العرب على المـــاء » ومن عادة البدوى عندما يتحدث عن نفسه فانه يشير الى ذلك بالشخص الثالث •• ضمير الغائب ••

(١) .. اخاديد الرمال تشبه فى شكلها خراطيم الفيلة .

ثم قال آخر وعلامات السعادة بادية على محياه : صحيح ؟ • ثم تحركنا فى طريقنا الى مكان المـــاء مع أنى لم أشعر أنه فطن الى وجود المـــاء قريبا منا • بل تصورت أن أحد النوق قد شدها الحنين الى ناقة من المجموعة الأخرى • لأن من عادة الابل التى تنشأ معا منذ مولدها بغض النظر عن الفصيلة التى ينتمى اليها ، أن يشدها الحنين الى زميلاتها تلك •

ولكنى سألتهم قبل ذلك وعلى سبيل الاختبار ، ما اذا كانوا متأكدين من وجود ماء قريب • لأنه قد مر علينا ست ساعات ونحن على ظهـــور جمالنا ، بينما المكان الذى كان من المتوقع أن نتوقف فيه لايزال على بعـــد ثلاث ساعات • وهنا صاح نويخر موجها كلامه الى : « اسكت » ، وان كانت تلك اللفظة تعنى فى مناطق أخرى من البلاد العربية « اخرس » أو « أغلق فمك » فانها هنا تعنى « بالطبع » أو بلاشك •

بعد قليل تسلقنا أحد المرتفعات فى منطقة السهل للبحث عن بعض رجال القافلة الذين كانوا موجودين تحتنا فى احدى المناطق الصخرية البارزة وكانوا يملأون قربهم بالمـــاء ويزودون جمالهم من العين ولمـــا كنت حينذاك فى شدة الظمأ فقد وجدت نفسى أنحنى على المـــاء مستندا على ركبتى لأشرب من النبع الموجود فى الصخر وكان الماء عذبا بالفعل ويبدو أنه قد تكون من تجمع المطـــر ، ولمـــا قارناه بالمـــاء الذى كنا متزودين به ، وجدنا لون الأخير مغبرا كلون الرمل وطعمه كطعم اللحم المتعفن لطول بقائه داخل القرب وتلك طريقة البدو فى تخزين المـــاء • ولقد مرت علىّ لحظات كنت أفضل أن أبقى عطشانا من أن أشرب من ذلك المـــاء ، غير أن المـــاء الذى اكتشفناه كان عذبا ولم أشعر بعد الشرب بأى تعب خاصة وأننى لم أكن متعودا على شرب الماء المعقم خلال رحلاتى لأن الوقت والظروف فى تلك الرحلات لا تسمح بذلك ولكن هاهو صوت ثعيلب ينطلق بالغناء مرة أخرى بينما يردد من وراءه زملاءه فرادى وجماعات معبرين جميعا عن سعادتهم •

وكان المقطع الأخير من تلك الأغنية هو الترديدة (الكورس) ولقد ترجمت تلك الأغنية الى الانجليزية وتقول كلماتها :

مهلا فالبرق يبدو هناك على المدى البعيد
لعل حملها يسقط عند أم الحيـــاة
منهمرا أمطـــارا دائمــة
تسقط عبر كثبان الرمل وممرات الأنهار
حتى تعبر أبو وارد وتصل الى ما بعدها
هناك حيث توجد امرأة جميلة تعيش وتستمتع
تقف بلا حجـــاب
وحبيبها راكع عنــد قدميهــا
وقد التأمت جراح قلبه

فى ذلك اليوم تعطلت رحلتنا بسبب ما أبداه الجميع من رغبة فى أخذ قسط من الراحة للترويح والمتعة ولقد كانت قطرات المـاء القليلة التى فى حوزتنا سببا كافيا لقافلتنا للتوقف ورعى الجمال •

وعندئذ أعلن سهيل وهو من قبيلة الرواشد أنه سوف يدخن واذا بالجميع يتجمعون حوله ويجلسون فى شبه حلقة لمشاركته التدخين ، ومن عادة البدو أن يشتركوا جميعا فى تدخين الغليون ، وأدخل يديه تحت حزام الخنجر واستخرج أدوات التدخين وهى عبارة عن كيس من التبغ مصنوع من الجلد يحيطه حزام ، وكان ذلك واحدا من ممتلكات سهيل القليلة ، وان كانت له فى نفسى منزلة خاصة ، وحين هم سهيل بفتح ذلك الكيس كانت العيون كلها ترقبه ، وهذا الكيس مكوّن من جيبين جيب للتبغ وآخر للغليون الى جانب حجر القداحة لأن الكبريت لم يكن معروفا فى هذه المناطق بل ويعتبر من الأشياء الكمالية •

وبالاضافة الى الغليون فقد كان سهيل يحمل حزاما لخراطيش بندقية عيار ٣٠٣ بغير غطاء ، وقد أخذ سهيل يملأ الغليون بأوراق التبغ الأخضر

العمانية ، وكان يمسك بالغليون بطريقة محكمة بحيث يمنع تساقط تلك الأوراق الثمينة ، وكان معه خرقة قديمة يبدو أنها من بقايا قميص له وأخذ يشعلها بواسطة حجر القداحة ثم وضعها على الأرض ، وتناول شيئا من بعر الجمال • وأخذ ينفخ فيه حتى أشتعل ثم أدخل الى النار عود شجرة الى أن أشتعل ، وأخذ العود المشتعل ووضعه على فتحة الغليون ، على غرار ما يحدث عندما يدخنون النرجيلة (الشيشة) •

وقد مرت تلك اللحظات التى استغرقها اشعال الغليون وكأنها من اللحظات الممتعة ، فأوقات التدخين عند أولئك الناس تعتبر من اللحظات السعيدة ، وقد جذب سهيل نحو ست أو ثمانى أنفاس سريعة وعميقة ، بينما استمر فى النفَس الأخيــر فترة أطول حتى أخذت عيناه تدوران يمينا ويسارا ، وجسمه ينتشى • وفى تلك الأثناء سلم الغليون الى جاره الذى كرر ما قام به سهيل ، وهكذا دار الغليون من فم الى فم ، كانت طريقة التدخين عندهم تشبه نفخ المزمار أو البوق بينما هناك طريقة أخرى يتم التدخين فيها من بعد تشبه الفلوت ، غير أن تلك الطريقة تعجبنى ولذلك لم أفكر أن أسألهم عن أى الطريقتين أفضل من الأخرى ، كما أننى لم أسخر من سهيل الذى كان يعتبر الغليون من ممتلكاته الطريفة النادرة •

حيمنا فى أم الحياة فى موقع يتفرع منه واد يسمى وادى **نخذه الورقة** يقع الى الشمال الشرقى وأما **نخذه هشان** وهو واد توأم وهو الذى يقع الى الشمال الغربى فان مساره يتخذ اتجاها شماليا أكثر ، غــير أن الواديين يسيران الى منطقة الرمال الجنوبية على امتداد مسيرة يوم ونصف حتى منطقة **أم الضرطة**، وفى تلك المنطقة انخفضت درجة الحرارة أثناء الليل الى ٤٧° فهرنهيت ؛ فأحسسنا ببرودة شديدة لأننا كنا نخيم فى منطقة مكشوفة بعد يوم مرهق من أيام الرحلة وعندما أفقت وجدت يدى كالمخدرتين فلم أستطع أن أسجل أى شىء من الملاحظات عن الرحلة فى ذلك اليوم ، وقد استمر ذلك المناخ لستة أيام أخرى بنفس معدل درجة الحرارة ، وبالرغم من أننى

كنت ملتحفا ببطانيتين وأرتدى ملابسى كاملة فقد كان البرد شديدا بدرجة لا تحتمل .

وأما بالنسبة للمرافقين فقد كان الأمر أدهى وأمر ، فالبدو متعودون على أن يعيشوا فوق الرمال التى تكون حارة فى النهار وباردة فى الليل ولا يرتدون من الملابس الا بعض الاسمال القطنية كما أنهم لا ينامون على الأسرة ويعتبرون مثل هذه الوسائل مخصصة للنساء فقط .

ففى النهار يجمعون الحطب والأعشاب الجافة ليشعلوها أثناء الليل فى المخيمات ثم يجلسون أمامها شبه عرايا أما ما كان عندهم من الملابس الأخرى وأهمها الجلابية فيخلعونها ويضعونها على الأرض ليجلسوا عليها ، وتفعل نساؤهم نفس التىء باستثناء شىء واحد وهو أنهن يصنعن لأنفسهن خياما من شعر الحيوانات ويأوين اليها وحصائر ينمن عليها ولكنهن فى الليل لا يرتدين غير السراويل وأما ملابسهم الخارجية اذا استثنينا الفانلات الموسرة فانهم يفرشنها على الأرض ليجلسن عليها ، أما فى النهار فان الرجال والنساء يمشون وهم حفاة ، واذا كانت الرمال حارة فانهن يرتدين الجوارب الصوفية وهم يمقتون الترف الزائد .

كان خط سيرنا خلال الخمسة أيام التالية يمر عبر البطاح الجنوبية للرمال ، وفى البداية كنا قد اتجهنا نحو الشمال الغربى ثم أخذنا ننحرف تدريجيا الى الغرب ولكننا حافظنا على الايقاع بمعدل واحد وهو ٩٥٠ قدم ، هذا بالرغم من أن المناطق المنخفضة فى الوادى كانت تدل على وجود مناطق أكثر ارتفاعا من المنطقة الغربية وقد أخذت مسيرتنا تتعثر بسبب السير فى اتجاه الشمس ، وقد سبق أن عانيت من نفس المشكلة فى رحلتى السابقة عندما أحالتنى المسيرات الطويلة فى الشمس الى اللون الأسمر ولكنى فى هذه

المرة فطنت الى تلك المشكلة فأرتديت الكوفية العربية وبتلك الطريقة حميت وجهى من حرارة الشمس •

كما كانت هناك صعوبة أخرى فيما يتعلق بالسير فى الاتجاه الغربى وهى صعوبة تخطيط الخرائط لأن الكرونوميترات التى كنت أحملها معى تخضع لتوقيت جرينتش (توقيت لندن) وكان فى استطاعتى أن أحدد الارتفاعات بدقة تامة وبذلك استطيع مراجعة حساباتى اليومية عن طريق الساعة والبوصلة عندما تكون المسيرة من الجنوب الى الشمال (ومن حسن الحظ أن كل رحلتى تقريبا تقع فى هذا الاتجاه) غير أنه لا يمكن الاعتماد على الكرونوميترات لتحديد خطوط الطول بين الشرق والغرب خصوصا اذا كانت تلك الأجهزة محمولة على ظهور الجمال ، حتى مع وجود ثلاثة منها تعمل الواحدة بعد الأخرى وبصفة مستمرة قبل القيام بالرحلة وبعدها ولو كان لدينا جهاز ارســـال لأمكن تحديد القياسات بمنتهى الدقة ولكنى خشيت أن يكون وجود مثل ذلك الجهاز معى مثارا لشكوك رجال القافلة فضلا عن كونها أجهزة ثقيلة •

بعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف فى مناطق رملية كثيرة الكثبان ، وبعد مغادرتنا هشمان عبرنا السهل بسرعة دون أن تعترضنا عقبات من الرمال التى كانت تتراكم بكثرة فى تلك المنطقة وبعد أن قطعنا منطقة أم الرؤوس ، أزداد اعتراض تلك الكثبان لطريقنا بحيث أبطأت من سرعتنا ، وقد تطلب عبور أحد تلك الكثبان نحو نصف ساعة ومنه دخلنا عبر ممر طويل تحيط به من الجهة الشمالية سلسلة من التلال الرملية على امتداد ميل واحد بينما تحده من اليمين منطقة الرمال ، ويطلق على ذلك الممر اسم « حرير » وقد تميزت مسيرتنا خلال الأيام القليلة التالية بوجود بعض المناطق الجافة للغاية ولم نجد بقعة خضراء واحدة سوى تلك التى يسمونها عبالة أو مرخ وكانت تقع على احدى جوانب كثبان الرمال • وكانت مجموعة الكثبان تقع على الطريق الذى كنا نسير فيه ، ثم تمتد منه الى السهل على ضفة الوادى

حيث تبدأ فى التقلص تدريجيا الى أن تنتهى فى احدى المناطق القريبة منا .

تلك هى المناطق التى توقفنا فيها فوادى (نخذة الفسد) وهو فرع وادى ثنا الذى يشتق اسم المنطقة الرملية منه يقع تحت ثلاثة من كثبان الرمل الكبيرة وتسمى على التوالى (أم الجوع ، أم الليثة ، أم الدولة) .. غير أن المرعى فى تلك المناطق كان سيئا جدا ، بحيث اضطررنا الى أن نتفرق الى ثلاث مجموعات ، وأن نرعى الجمال فى منطقة يزيد قطرها على ميل واحد ، وكانت مجموعتى تتكون من أفراد من قبائل الكرب والعوامر وبيت كثير ، الذين انبروا يتسلقون بعض الأحراش الكبيرة (مرخ) ويجمعون من أوراقها علفا للجمال وكان من جراء ذلك أن حصل جملى وجمال النقل على نوع من أفضل أنواع العلف ولقد كان ذلك الاهتمام الزائد من جانب البدو بالجمال أمرا مثيرا حقا ، وهو ما كان يتعارض تعارضا صارخا مع المرونة التى تحكم العلاقات الشخصية فيما بينهم ، فعندما يكون هناك نقص فى الطعام أو المـاء فان الجميع يشتركون فيـه واذا كان أحدهم أو بعضهم متغيبا لسبب من الأسباب فان رفاقه يضطرون الى انتظاره حتى يأتى ويشاركهم الطعام ، غير أن موقفهم من بعضهم البعض يختلف كثيرا عندما تتعلق المسألة بالجمل أو بطعامه أو بالحمولة التى يحملها ففى تلك الحالة يضع البدوى مصلحة جمله فوق مصلحة رفاقه . فمصلحة الجمل فى تقديره تأتى فى المقـام الأول .

خلال رحلتنا أثناء النهار ، لم يطلب أحد من المرافقين قطع الرحلة لتأدية صلاة الظهر وذلك لأنه يحق للمسافر أن يجمع[1] بين الصلوات أثناء سفره ، وهذا التيسير على المسافر ليس مصدره عند أهل الصحراء ضعفا فى عقيدتهم

---

(١) .. تنص أحكام الشريعة الاسلامية على أن يرخص للمسافر لأكثر من ستين ميلا فى الجمع بين صلاتى الظهر والعصر او المغرب والعشاء ، وقصر الصلاة (أى يصلى الصلاة ذات الأربع ركعات فى ركعتين فقط) . (المترجم) .



الجمل ابن الصحراء

فقد درج سكان المدن على اتهام البدو بعدم التقيد بالفرائض الدينية ، غير أن هذا الاتهام لم تثبت صحته من خلال تجربتى معهم ، فقد كان المرافقون حريصين على تأدية الصلاة فى أوقاتها بحماس بالغ بالرغم من المخاطر التى يتعرضون لها فى الصحراء ، وهم يذكرون الله صباحا وظهرا ومساء ، بينما شبح العطش والجوع يطاردهم باستمرار ، والوحوش تجوس خلال الصحراء على مقربة منهم .

ولعل الوعى بتلك الأخطار التى تحيط بهم قد جعل منهم ــ مثلهم فى ذلك كمثل جنودنا وبحارتنا من الجيل السابق ــ مزيجا من التوكل والقدرية التى يمارسونها بسذاجة تشبه الأطفال . وهذه السذاجة ليست السمة الوحيدة لتلك العقلية ، ولكنها فى الواقع المحور الذى تدور حوله حياتهم والذى تنعكس مبرراته العملية على جوانب معيشتهم اليومية وتشكل قاعدة أساسية يعتمدون عليها فى تلك البيئة القاسية ، الى جانب العقلية البدوية التى لا تختلف فى جوهرها عن التقاليد السائدة عندنا فى الغرب ، وعبارة بسم الله الرحمن الرحيم .. هى الصيحة التى أسمعها من هؤلاء البدو كل صباح عندما تبدأ الرحلة ، وكثيرا ما كنت أسمع بعض المرافقين لى يصيح بعد فترة من الصمت بقول (اللهم أكفنا شر ما فى الغيب) والمقطع الأخير من كلمات آذان الصبح الذى ينادى به المسلمون للصلاة تصاحبه دعوات وتضرعات كثيرة من أولئك البؤساء ، وهم يرتعدون من شدة البرد فى طريقهم لتأدية صلاة الصبح ، وكل متعصب من المسيحيين يستطيع رغم تعلقه الشديد بالشئون الدنيوية أن يتعلم من أولئك القوم أشياء كثيرة اذا ما اختلط بهم أو عاشرهم وذلك من خلال تسليمهم المطلق وايمانهم العميق بخالق الكون ، وكثيرا ما كان يحدث ونحن جلوس أن ينادى أحدهم بقوله « لا إله إلا الله » .

وذات مرة عندما كنا جميعا جلوسا فى المخيم صاح أحد البدو الذى كان ينتمى الى قبيلة مُرة (لا تخفوا ايمانكم أيها المسلمون) . وقد قالها

فى لهجة كلها انفعال وحماس شديد ، غير أنى كنت على يقين من أن ذلك التعصب لم يكن يمس العلاقة التى تربطنى بهم وكنت أحس منهم قدرا• كبيرا من التسامح نحوى يندر أن يجده الانسان فى كثير من سكان المدن المصابين بالغرور الناتج عن معرفتهم بالقرآن الكريم وبالمسائل الدينية والذين يعتقدون أن معرفة الحق هى حكر عليهم وحدهم •

وسوف أقص عليكم قصة حدثت لى مع الشيخ صالح وكان ذلك فى بداية الرحلة فقد تقدم الى أحد أتباع الشيخ صالح وطلب منى أن أنطق شهادة ألا إله إلا الله ، ولعله كان يريد بذلك أن يتأكد من أننى مسـلم ومؤمن بالله ورسله فأمسكت لحيتى بيدى وكنت فى ذلك الوقت قد أطلقت اللحية كما يفعل غالبية الأوروبيين خلال الأسفار وقلت له لا إله إلا الله ، ولكن عندما قال الرجل « وأن محمدا رسول الله » توقفت عن القول وقلت له دعنى أوضح لك الأمر ، لاشك أن محمدا هو نبيكم وهو شخصية ممتازة وعلى خلق عظيم ، ولكن محمدا هو نبى العرب [(١)] ، ونحن من ملة أخـرى ولكننا مثلكم من خَلْق الله ونؤمن بأن عيسى هو نبى الله • فسألونى وابن من يكون عيسى ؟ — ولأن البدو أميون ولا يتلون القرآن الذى ينص على أن « عيسى هو من روح الله » [(٢)] وهنا تدخل الشيخ صالح معززا قولى وأنهى المناقشة بقوله (ان لكل أمة نبيها ولكنى أحمد الله فان هذا الرجل — أى أنا — ليس من الكفار وهو يؤمن بالله الواحد الأحد) •

وقد سألنى ما اذا كنا نحن المسيحيين نحرق موتانا أم أننا ندفنهم مثل المسلمين وما اذا كان الزواج يتم بالعقد أو بدونه وما اذا كنا نصوم ونصلى مثلهم • فأكدت لهم ذلك كما صححت بعض الانطباعات غير الصحيحة عنا والتى اكتشفتها خلال رحلتى السابقة وهى انطباعات منتشرة فى كل أنحاء الشرق الاســلامى •

---

(١) هذا التعبير يرفضه الدين الاسلامى ، فالاسلام دين الناس جميعـا يقول تعالى « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » (المراجع)

(٢) وهنا خطأ آخر فعيسى خلقه بدون اب كما خلق آدم بدون اب وبدون ام وعيسى من روح الله اى من خلق الله (المراجع)

ومن المعتقدات الشائعة عندهم أن غير المسلمين عندما يرون السماء يخفون وجوههم • وربما كان سبب ذلك الاعتقاد هو القبعه التى يلبسونها والتى تحجب عنهم رؤية السماء[1] ولما كان السجود فى الصلاة وفقا للشريعة الاسلامية يحتم على المسلم أن يلمس الأرض بجبهته • فان ارتداء القبعة الذى هو عادة مسيحية لا يسمح بتطبيق هذا الشرط من شروط الصلاة ، ومن ذلك نشأ اعتراض الجماعات الاسلامية المحافظة فى ايران وأفغانستان والعراق وغيرها من الأقطار الاسلامية على استعمال جنودهم للخوذات العسكرية ذات الطابع الأوروبى •

أما أنا فقد كنت أرتدى الكوفية العربية فى الرحلة (أضع تحت الكوفية خوذة جوية منزوعة الحاشية وهى من النوع الذى كان يستعمله سلاح الطيران البريطانى قديما ، أما ملابسى وطعامى ولحيتى وحديثى فقد حاولت أن تكون متطابقة مع ملابس زملائى ولحاهم وذلك بهدف تحقيق الألفة والانسجام فيما بيننا وللسبب نفسه فلم أكن أستعمل نظارات الشمس أو غيرها من الأجهزة البارزة على رأسى ، لأن ارتداء القبعات أو الخوذات وسط أولئك الناس قد يعرقل مهمتى ويعطل الخطط التى أعددتها لاكتشاف تلك المنطقة ثم أننى لم أشعر بالحاجة الى تلك الأشياء •

كانت طبيعة السهل فى منطقة **فسد** ترابية ومنبسطة ولكنها اليوم تحولت الى تربة صخرية فيها كثير من التعرجات والنتوءات كما صادفنا فى مسيرتنا بروزات أخرى يبلغ ارتفاعها نحو عشرين قدما ، وبروزات رمادية اللون تتخللها عروق حمراء لامعة واستطعت بالمنظار أن أرى الكثبان البعيدة التى كانت تبدو من المكان الذى كنا فيه وكأنها رمال صخرية صلبة وقد لاحظت على سطحها طبقات صدفية وغيرها من متحجرات قد تفتتت وبلى

---

(١) .. لعل هذا الراى يرجع الى العهود القريبة لأن القبعة الشمسية لم تكن شائعة الاستعمال بين الأوروبيين منذ اكثر من مائة عام وهى غير مستعملة فى الأمريكتين ولا فى استراليا وجنوب افريقيا فى اعتقادى .

معظمها ولكن كان لايزال عليها من الآثار ما قد يساعد الباحث على اكتشاف المرحلة التاريخية الجيولوجية للمنطقة •

وكانت المنطقة يسودها الجفاف ولاحظت الجمال وقد وقفت فى صمت أو بركت على الأرض ولعلها كانت تتعجل استئناف الرحلة بسبب جفاف المنطقة ، وعلى الرغم من أن الجمال ليست من الحيوانات الجميلة الشكل إلا أنها تتمتع بمقدرة فائقة على الصبر وتتحمل الظروف العصيبة وأقصى ما تطمع فيه من أصحابها هو أن تحصل على بعض العلف فان توفر ذلك بالقدر الكافى فعندئذ يمكن لأصحابها أن يضعوا فوق ظهورها ما شاءوا من الحمولات حتى ولو لم تشرب لمدة أسبوع ، والشىء الوحيد الذى لا يريد أن يفعله صاحبها هو أن يعقلها فى كل مرة حتى لا تضل الطريق •

كان سيرنا فى الصباح من ميتان بطيئا بسبب برودة الطقس والجوع والتلال الرملية التى كانت تعترض طريقنا بين فترة وأخرى وبعد مسيرة ساعة من الزمن وصلنا الى منخفض كبير تؤدى ضفته الغربية العالية الى طرف الوادى والذى تقع عند منبعه منطقة « الشفوت » والذى يبعد عنا مسيرة ستة أيام وهذه المنطقة من أخصب الأودية وأكبرها وخلف ذلك الوادى عادت الى الظهور المرتفعات الصخرية وبدأنا فى السير السريع ، وفجأة صاح الرفاق الذين كانوا حريصين فى كل مرة الى شد اهتمامى الى أى شىء يعتقدون أنه يهمنى •• صاحوا انظر أيها الصاحب تلك هى الطريق الى أوبار وسألتهم ما هى أوبار ؟ ؟ فردوا بأنها احدى المدن العظيمة كما يروى آباؤهم وقد كانت مدينة مزدحمة فى الزمن الماضى ، وكانت تزخر بالرخاء والثراء ومزارع النخيل ، وكانت فيها قلعة ذهبية •

ويروى البدو أن تلك المدينة مدفونة الآن تحت رمال تلك المنطقة المسماه « رملة شعيت » على بعد بضعة أيام الى الشمال • وقد سبق أن سمعت نفس القصة من العرب الذين رافقونى فى رحلتى الأولى وتحدثوا

عن مدينة اسمها « أوبار » وهى المدينة التى يقال عنها أنها غاصت تحت الرمال ولكن لم يستطع أحد أن يحدد مكانها • ولقد تبددت صورتها من ذهنى عندما أشار المرافقون بأيديهم الى آثار طرق بائدة على بعد نحو مائة ياردة من المكان الذى كنا فيه على خط عرض ١٨٫٤٥ درجة شـــمالا وخط طول ٥٢٫٣٠ شرقا تقريبا على أطراف الرمال[1] •

وبعد أيام من ذلك حكى لى معيوف الراشدى قصة طريفة وكان معيوف أذكى رجل فى القافلة فقال : بأنه عندما كان صبيا وكان يرعى القطيع بعد أيام ممطرة فى المنطقة الواقعة فيما بين ميتان وفسد « ويبدو أنه نفس الموقع الفعلى وان كان يرجح بأنه يقع على بعد يومين من الرمال « وأثنـــاء رعيه للقطيع رأى وعاء من الخزف مكسورا وكان لونه بين الأحمر والأصفر كما عثر على قطعة من حجر الرحى وزوج من الهاون أسود لامع بالاضافة الى لوحين من الحجر مستديرين لونهما أبيض ، ومثلومين من الأطراف وكانا متشابهين فى الشكل غير أنهما كانا كبيرين فى الحجم بحيث أن كلا منهما يلزم لرفعه من الأرض شخصان على الأقل •

---

(١) .. اننى ادين للمستر فلبى الذى لفت نظرى الى الشبه بين أوبار ووبرة . ولا يوجد بين الجغرافيين البارزين من العرب من تعرض الى تلك المدينة ، الا ان ياقوت الحموى اورد بعض الروايات المستقاة من المصادر المحلية وكلها تجمع على نفس الرواية وتحدد مكان المدينة بوجه عام فى منطقة الرمال بين الشحر وصنعاء وتقول انها كانت مدينة عظيمة تقع وسط واحة خصبة وينتمى اهلها الى قبيلة عاد ولكن نزلت عليهم لعنة الله فمسخوا الى قردة من النوع الذى بنصف جسم وعين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة وبعدهم سكنها الجن الذين كانوا يمنعون كل واحد من الدخول اليها اما الذين يصلون اليها فان الجن تبيدهم ، ويقال ان الجمال المهرية هى من سلالة تلك الجمال التى تنتمى الى اولئك الجن . وفى بعض الروايات ان اهل الشحرة كانوا يصطادون النسانيس وياكلونها ويقول عالم الآثار العربى الجنوبى نشوان بن سعيد الذى عاش فى القرن السادس الهجرى والثانى عشر الميلادى ان لفظة « وبار » هى اسم البلد الذى ينتمى اليها عاد فى الأجزاء الشرقية من اليمن . اما اليوم فقد طمستها الرمال .. كما يقال بأن تلك المدينة كانت لأهل الراس . وربما يكون اكثر توافقا فى الرواية أن العريشة « وهى ارض الحاكم الزناتى » هى المرادف للكلمة الشحرية « راس » .

ثم أخذ معيوف ينبش الرمال ولكنه لم يعثر الا على تراب أسود • ولكن معيوفا لم يرجح أن تكون تلك الأشياء بقايا أو آثار لاحدى المدن الكبيرة على الرغم من أن وجود الخزف فى الرمال قد أثار دهشته لأنه ليس من عادة البدو استعمال الخزف أو الصينى فى تلك الأصقاع حيث أن الأوعية والأوانى التى يستعملها البدو كلها مصنوعة من سعف النخيل وجذوع الأشجار ويستعملون أحيانا بعض الأوانى المعدنية •

ويومئذ فكرت فى الذهاب الى المكان الذى وصفه معيوف ولكنى أدركت أن محاولة كتلك سوف تعرضنى للخطر (حتى ولو رافقنى كل رجال القافلة) • وكان ذلك أمرا بعيد الاحتمال بسبب سوء حالتهم النفسية فى ذلك الوقت كما أن كمية الماء التى كانت معنا لم تكن تكفينا حتى نصل الى مورد آخـــر من موارد المياه • وقد ذكر البدو بأن الطريق الى ذلك السهل ينتهى عند الناحية الجنوبية . وربما يرجع سبب ذلك الى أن الطرق القديمة ربما كانت تمر من أحد الوديان المليئة بالحجارة وهى المر الطبيعى الى المناطق الجبلية حيث لم تكن هناك طرق أخرى . أما أن الرمال كانت تزحف جنوبا ، فان ذلك يتفق مع رأى العرب الذى يؤيده هبوب عواصف شمالية على امتداد تلك الحدود الجنوبية ، وهو العامل الذى كيّف طبيعة تلك المنطقة من المرتفعات والسهول والرمال •

أما الطرق المنخفضة الواقعة على المنحدرات فالتفسير الوحيد لتكوينها يرجع الى الظروف المناخية التى كانت تتغير خلال العصور التاريخية المعروفة • والى الجنوب من تلك المنطقة تقع مزارع اللبان المشهورة منذ القدم والتى من المحتمل أن تكون متصـــلة بالطريق البرى المؤدى الى « جرهم » ، الميناء القديم على الساحل الفارسى أو تكون متصلة بمدينة بطرة التابعة للنبطيين كما أنه من المحتمل أن يكون موقع مدينة أوبار فى نفس تلك المنطقة •• فهل هناك فى هذه الحالة أى صلة بين كلمتى « أوبار » و « أفار » ؟؟ •

لا ينبغى بأى حال أن نقلل من الأهمية التاريخية لتلك الطرق التجارية القديمة التى تحولت الآن الى كثبان من الرمال ولا نعرف ما اذا كانت شبه الجزيرة العربية قد مرت بعصر جليدى وفى الوقت الذى كانت المناطق العليا فى الجزء الشمالى من الكرة الأرضية تلتف تحت طبقات من الجليد كانت الجزيرة العربية تمرء بمرحلة مطرية انتشرت حتى بحـــر الرمال ، ومن تلك العوامل نشـــأت الكتل الرملية الضخمة فعملت على تجفيف الرمال الساحلية والى ظهور المتحجرات الكلسية التى انتشرت حتى بحر الرمال ، ومن المحتمل أن يكون ذلك المناخ الجوى قد استمر حقبة طويلة من الزمن ولكن بشكل مخفف مما ساعد على ظهور مدنية مبكرة فى ذلك الجزء من العـــالم •

وثمة دليل آخر على وجود تلك المدينة الأثرية وذلك فيما كتبه علماء الحيوان حول تقسيم السلالات الحيوانية لجنوب شبه الجزيرة العربية • فالحيوانات التى جمعتها فى جبال القرا كانت كما دل الفحص من أصـــل افريقى أو حبشى بوجه عام • وهى حيوانات تنتمى الى منطقة بذاتها بينما تلك التى جمعتها فى المنطقتين الشرقية والشمالية تعود فى أصلها الى العصر البلياركتى •• والتى تحتمل أن تكون بقايا حيوانات القسم الجنوبى من شبه الجزيرة العربية عندما كان كل من الهند وافريقيا وجنوب شبه الجزيرة العربية يعيش ضمن مناخ واحد وتسكنها حيوانات واحدة •

غير أن ظفار ــ وهى الجزء الوحيد فى شبه الجزيرة الذى يتميز بهطول الأمطار والنباتات الموسمية بفعل الرياح التى تهب عليه من الجنوب الغربى ــ أنفردت بحيوناتها بعد مرحلة الجفاف التى حلت بالمنطقة • أما الأجزاء الأخرى الجافة • فتسكنها أنواع أخرى من الحيوانات قدمت اليها من الشـــمال •

الفصل الثالث عشر

عبر طريق الكثبان الرملية - فى منطقة عرق الدحية

كانت كثبان الرمال المعروفة باسم « شعيث » ، تتجه الى الناحية الجنوبية الغربية ، ومن هنا فقد كان اتجاهنا فى مواجهتها • وكان يبدو أننا كلما خرجنا من منطقة المرتفعات نجد أنفسنا مرة أخرى فيها ، فتارة يحجبها عن أنظارنا بعض التلال وتارة أخرى نجد أنفسنا وقد ابتعدنا عنها بمسيرة نصف يوم الى الجنوب ، كما كانت التلال الفاتحة اللون فى القسم الجنوبى من المنطقة تأخذ فى التحول الى اللون الأحمر ثم كلما سرنا تأخذ فى التدرج لتكون مجموعة من التلال المفرطحة التى كانت ترتفع فى شكل صفوف كالجبـــال •

وكانت معالم الطريق أمامنا هى بعض المرتفعات • وكنا فى بعض الأحيان نتوقف عند بعض الأعشاب التى نمر عليها فى بعض المرتفعـــات فنتسلقها ونأخذ فوقها قسطا من الراحة ونرعى الجمال وفى تلك التلال لفت نظرى أحد الظواهر الغريبة ألا وهى وجود رقع من الأرض فضية اللون على بعض التلال وكانت تبدو من بعيد كأنها ألواح من الجليد أو كبقع من الملح متخلفة عن بعض البحيرات المالحة الجافة ، وقد تبين لى أن تلك البقع هى من الجبس ، وقد مررنا عليها فى طريقنا عبر الكثبان الرملية وهم يسمونها بيبلة (الجبيلة) وبديلة (الجديلة) كما شاهدنا فيما بعد على الجبال الرملية التى تسمى (عرق الدحية)[1] نفس تلك البقـــع الفضية •

---

(١) .. تنطق قبيلة الرواشد سكان منطقة الرمال الجنوبية والتى تختلف لهجتها عن لهجة قبائل مرة .. تنطق الجيم ياء ، ومن ثم فانه من المحتمل أن تكون بيبلة وبديلة هما جبيلة وجديلة .

لقد أثرت المسيرات الطويلة عبر المناطق الجافة والتى كانت تستغرق من تسع الى عشر ساعات يوميا على الجمال ، مما اضطرنا الى اعادة توزيع الحمولات ، فقد تبين لنا أن أكياس التمر التى كان كل منها يزن أكثر من ٦٢ رطلا وكانت تعتبر من الحمولات العادية ، تبين لنا أنها حمولات ثقيلة على الجمال ، ولذلك أعيد توزيعها ونقلها على الجمال التى كانت أشد قوة لمواجهة وعورة الطريق . ولكن أصحابها احتجوا على ذلك فاضطررت الى استئجار مجموعة أخرى من الجمال من بعض البدو الذين صادفناهم فى الطريق وبأجر أكبر • وأخيرا اتفقنا على أن تحمل الجمال التابعة لمجموعتى حمولات أخف وتتغير كل يومين أو ثلاثة ، ولكن ذلك الاتفاق لم يتم بسهولة ولكن بعد كثير من الجدل والوعود بتقديم مكافآت الى أصحابها ، وقد مرت على لحظات فى ذلك اليوم كنت أشعر فيها بضرورة وجود الشيخ صالح معى •

وكان يحدث أثناء الرحلة أن تصاب بعض الجمال بالتعب من كثرة السير فتنحرف عن خط القافلة بحيث كانت تختفى عن أنظارنا فى بعض الأحيان وكان هذا وضعا سيئا فى ظل احتمال تعرضنا لبعض الكمائن من البدو ، وهكذا أخذ التعب ينال منا أكثر وأكثر ، بينما يزداد سيرنا بطئا ، بحيث أصبحنا فريسة سهلة لأى غزو محتمل عند بعض عيون الماء والتى لم تكن تبعد أكثر من مسيرة يومين ، وعندما كنا نقترب من أحد المرتفعات كان يتقدم أحد أفراد القافلة ويتسلق ذلك المرتفع لاستطلاع المنطقة ويبقى فى مكانه يترقب حتى نصل اليه ويتكرر ذلك العمل يوميا طوال مسيرتنا بالتناوب •

ومن ناحية أخرى كنا نراقب المرتفعات البعيدة للبحث عن أى دليل أو نشاط مشبوه غير أن الطريقة البطيئة التى كنا نتحرك بها كانت تؤدى الى تأخيرنا ، كما كانت تجعل عملية اختيار أفضل المناطق للتوقف أكثر صعوبة لأن التوقف دائما يرتبط بمساحة المرعى فى تلك المناطق القاحلة فضلا عن أنه لابد أن نضع فى الاعتبار ، الجماعات الأخرى التى سبقتنا للتوقف فى ذلك

المكان ، وكان ذلك يتطلب أن يقوم بعض رجالنا بعملية استطلاع للمنطقة التى أمامنا والتى تستغرق ساعتين أو ثلاثة قبل غروب الشمس يوميا ، ثم بعد ذلك تتحرك قافلتنا الى ذلك المكان • وكانت أسعد المناسبات التى مرت بنا عندما فاجأنا أحد الزملاء الذى كان يتولى نوبة المراقبة برفع كوفيته وأخذ يصرخ بصوت مرتفع بعد أن اكتشف مرعى ممتازا وقد نسى وهو فى غمرة حماسته احتمال وجود بعض الأعداء فى احدى المناطق •

أخذت الجمال تتقاطر فى سيرها نحو المرعى فى انتظار انزال الحمولات من على ظهورها ثم تسريحها فى أقرب بقعة لتأكل من العشب • وكان من عادة البدو حين نخيم فى أحد المناطق القاحلة أن ينقبوا فى التلال القريبة علهم يعثرون على شىء من العشب لاطعام الجمال ، وبعد أن فرغ القوم من اطعام جمالهم استعدوا لأداء صلاة العصر ، وقد جمعوا بعض أكوام من ورق الأشجار كدسوها بعضها فوق بعض لكى تقيهم برودة الجوفى المخيم •

وكانوا يجتمعون كل ليلة فى شبه حلقة ، وقد تعودت أن أنضم الى مجلسهم هذا لمشاركتهم أطراف الحديث والسمر وقد لفت نظرى وانتباهى فى تلك الليلة • عملية تحضير الخبز من عجينة غير مخمرة ، وكان معيوف الطباخ الفخرى للقافلة يجلس بين نفر من زملائه الجياع الذين كانوا ينتظرون وجبة الطعام بفارغ الصبر ، فأحضر الدقيق ووضعه فى اناء ثم صب عليه المـــاء وأخذ يضغط عليه بأصابعه ويعجنه ليشكل منه أقراص الفطائر وكان يقسم العجينة الى دوائر متساوية وبين الحين والحين يحملق فى وجه زملائه ، ربما لكى يطمئن نفسه على أن الجميع راضون عن طريقة تقسيم العجين •

وأخيرا تناول عجينة ورش عليها ماء ثم فرطحها بيديه الى أن اتخذت الشكل المطلوب ثم وضعها على النار ، وعندما فاحت رائحة الخبز قلبها على الجانب الآخر وبعد ذلك أصبحت الفطائر معدة للأكل •

ولقد استساغ زملاؤه ذلك الخبز كثيرا ، أما أنا فأخذت قليلا منه لأنه كان ثقيل الوزن حيث يعدل وزنه رغيفين أو ثلاثة من الخبز الانجليزى . وعلى الرغم من أن الفطائر قد تركت على النار طويلا حتى أنها أحترقت من الخارج الا أنها لم تكن ناضجة من الداخل بالقدر الكافى ، وربما كان ذلك مما يميز الرغيف العربى عن غيره ، كما وأنه السبب الرئيسى فى اضطرابات المعدة والأمعاء التى يشكو منها البدو باستمرار ، ولما كان البدو غير متعودين على الأطعمة الأخرى كالأرز والتمر وبعض الأرغفة على الطريقة الانجليزية التى كنت أوزعها عليهم بين حين وآخر كانت فى نظرهم من الأشياء الكمالية التى لا يرونها الا مرة فى العام أو ربما فى شهر رمضان .

وقد طهى لنا معيوف فى تلك الليلة وجبة جديدة ، فقد سلق الأرنب الذى اصطدناه فى طريقنا ، ولكن ذلك الطباخ الهاوى لم يكن يعرف شيئا اسمه الزبد لسبب بسيط وهو أن لبن الناقة لم يكن يحوى دسما كثيرا ولهذا لا يمكن استخراج الجبن أو الزبد منه ، ذلك على الرغم من أن بعض الجمال الصغيرة تحوى أسنامها كثيرا من الشحم ، ولهذا السبب فاننى لم أشترك معهم فى تناول شىء من ذلك الأرنب المسلوق فى ماء مالح .

وقد سئلت عما اذا كنت أتناول لحم الظبى ولكن هذا السؤال جرنا الى قصة الظبى والأرنب التى يتناقلونها فيما بينهم . ولكن كان من الأفضل لو استمع الانسان الى تلك القصة بالطريقة الشيقة التى يروونها بها . وتقول القصة .. ان ظبيا جاء ليأكل من أحد الأشجار ولم يلحظ أن تحت تلك الشجرة أرنبا نائما ، وعندما شاهد الأرنب " الظبى " قفز وأخذ يجرى ، ولكن الظبى أيضا أصيب بالذعر وأخذ يجرى ولكنه نسى الأرنب ، وعندما تذكر الأرنب امتعض وأخذ ينشد هذه الأبيات متهكما على الأرنب :

يا من لحمه قليل القيمة
وجلده لا يضفى أى متعة
يا من تعطى مجرد البهجة للأطفال
أيها المزعج لجيرانك
ذلك ما أعنيه •• يا من لحمه لا يكفى بالحاجة

ولكن الأرنب أيضا استدار وقعد على رجليه الخلفيتين وأخذ ينشد هذه الأبيات رداً على الظبى :

الظبى يا أبا النسيان
يا حاد القرن
اذا هبطت الى الوادى الأخضر
أصبحت شريكا للديدان
ذلك ما أعنيه •• يا من لحمه لا يفى بالحاجة

وهكذا تفرقنا ، ولو توفر لنا الحطب لكنا استعملنا النار مرة أخرى ، فقد تجمدت أطراف البدو من شدة البرد وكانت ليلة من الليالى القاسية •

كان البدو مستلقين على الأرض والى جانبهم بنادقهم ، بينما كانت النار تشتعل فى مواقدها بالقرب منهم ، فيما عدا الشخص المكلف بالحراسة والمراقبة ، وفى تلك اللحظة تسللت الى خيمتى لأقوم كعادتى برصد حركة الكواكب •

كان يوم ٢٢ ديسمبر طويلا ومملا ، ولم يشهد أى أحداث ، وكنا نسير عبر طرق رمال **جبلية** وكنا كلما حاولنا أن نتجه جنوبا لنتفادى الكثبان كانت الشمس تسطع بشدة فى وجوهنا ، وهكذا أخذنا نتخبط عبر الكثبان

الكثيفة ، حتى سمعنا أصواتا تشبه الألحان الموسيقية ، تقطع علينـــا ذلك الصمت وقد أذهلتنى تلك الأصوات وبقيت لحظات مستغرقا فى التفكير محاولا أن أعرف مصدر تلك الأصوات .

واذا بأحد أفراد البدو ينادى علىَّ قائلا حنينه[1] .. حنينه .. أيها الصاحب استمع الى الجرف وهو يعوى ، فى الوقت الذى أشـــار أحــد المرافقين باصبعه الى أحد الجروف الرملية وكان على بعد مائة قدم منا ، فانصتُّ الى ذلك الصوت من غير أن أرد بكلمة على البدو وكانت الساعة الرابعة والربع بعد الظهر ، وكانت الرياح الشمالية الخفيفة تهب علينا من جهة قريبة من الجرف .

كنا قد مررنا على مثل تلك الجروف الرملية قبل ذلك الوقت غير أنها لم تكن تحدث أصواتا فيما عدا الغبار الذى كانت تثيره الرياح . أما هذا الجرف فقد كان مائلا ، وعندما حاولت أن أبحث عن وجود مضيق بين الكثبان يسبب مرور الريح منه مثل تلك الأصوات لم أجد شيئا ، كما أن القول بوجود رمال تصدر مثل تلك الألحان هو فى نظرى من قبيل التمييز بين صوت كذلك الصوت وصوت صفارة الباخرة[2] ، ولقد استمر ذلك الصوت ما يقرب من دقيقتين وبنفس الطريقة التى تتوقف فيها صفارة الانذار فى البواخر ، توقف ذلك الصوت فجأة .

غير أن ما سمعته لتفسير تلك الظاهرة وهو أن ذلك يحدث نتيجة تعرض

---

(١) .. حنينه تعنى « عواء » وأن القبيلتين اللتين تستوطنان منطقة الرمال يطلق كل منهما اسما مختلفا عن الاسم الذى تطلقه الأخرى لتلك الظاهرة ، فعلى حين تسميها قبيلة الرواشد « الدمام » .. تسميها قبيلة مرة « الهيال » .

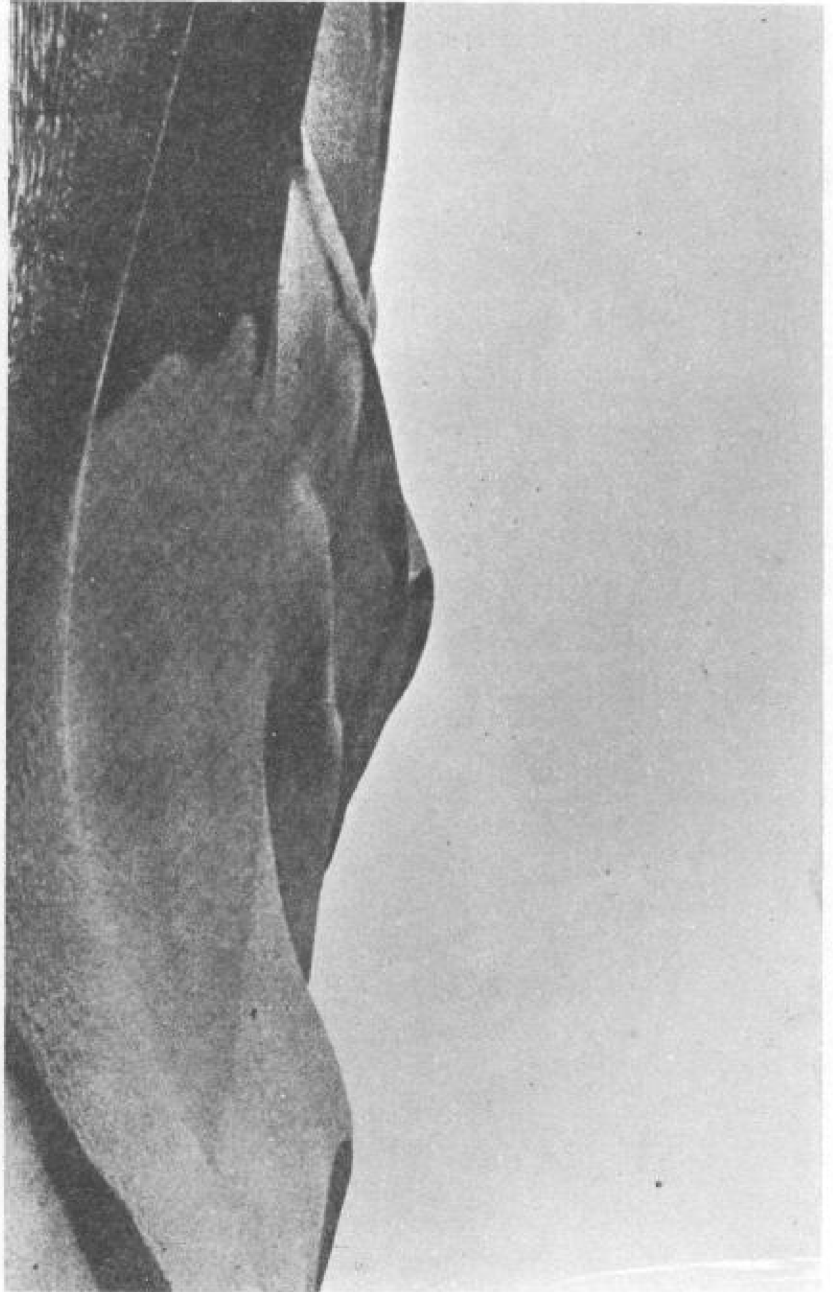
(٢) .. وبالمثل ليس من الانصاف أن نستعمل هذه الكلمات فى العصر الحديث للدلالة على تلك الأصوات الساحرة التى وردت فى قصة الاليـــاذة والأوديسة للشاعر اليونانى القديم « هوميروس » .

الرمال لحرارة الشمس طوال النهار ثم هبوط الحرارة بعد الظهر ، فقد جاء هذا التفسير فى آخر لحظة بحيث لم يترك لى الفرصة للتأكد من صحته ، كما كان حجم الصوت وطبيعته لا يؤيدان ذلك التفسير ، كما أنه لم يخطر على بالى أن أسأل أحد رجال القافلة عن الأوقات التى تصدر فيها تلك الأصوات خلال النهار ، وان كنت قد فهمت بأنه لو أن تلك الأصوات حدثت بالليل فانها لا تثير أحدا منهم على الاطلاق •

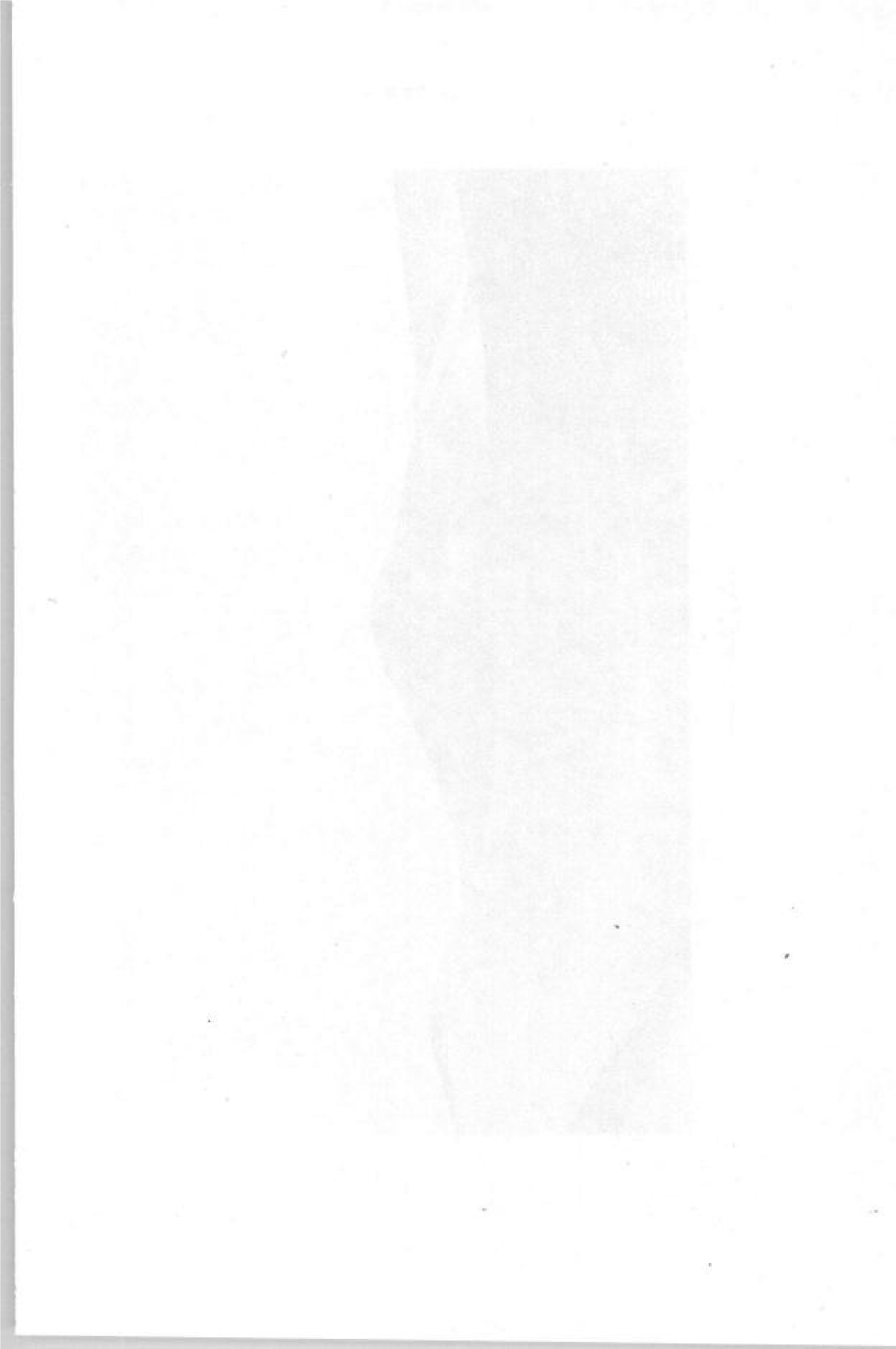
وهناك صور أخرى لأزيز الرمال ، فرمال أم الضرطة التى تقع الى الشمال تصدر نفس الأصوات ، كما أخبرنى المرافقون ، وقد باشرت تلك التجربة بعد شهر من ذلك التاريخ فقد كان ذلك فى منطقة « صويحب » فبينما كنت أسير فوق جملى سمعت فجأة صوتا عنيفا تحت أقدام الجمل انطلق ثم خفت فجأة • واعتقد المرء الذى كان يصحبنى فى ذلك الوقت أن الصوت هو صوت قادم من جهنم • غير أن هذا الصوت كان يختلف عن الأصوات التى كانت تسمع فى كثبان الرمال ، كما قال لى بعض المرافقين •

بعد سير بطىء لمدة يومين فى منطقة « شعيت » ، ودعنا مخيماتنا الجميلة بين المرتفعات وكثبان الرمال • وفى يوم ٢٤ ديسمبر انحرفنا الى الشمال الغربى وتغلغلنا داخل الكثبان الكبرى والتى كانت تمتد الى مسافات بعيدة الى جنوب الغرب الجنوبى ، وكنا نرى أمامنا تلالا رملية حمراء وقد أصبح السير أكثر صعوبة ، وذكرنى مما عانيته قبل عام مضى من متاعب خلال رحلتى الى مقشن على بعد مائتى ميل الى شرق الشمال الشرقى عندما قمت بمحاولة لعبور تلك المرتفعات على جمال جبلية ، ولكنى اضطررت الى العودة •

إن منظر الكثبان يبدو مثيرا عند الوهلة الأولى ، فمنظرها يبدو كمحيط من الكتل الرملية الهائلة ، يرتفع بعضها ارتفاعا مخيفا ثم تنحدر فى اتجاه بعض الوديان الخضراء التى تجد الجمال فيها كفايتها من العشب ، وذلك



(سلسلة كثبان رملية)



على الرغم من عدم وجود مراعى خاصة فى تلك المنطقة ، وتتخذ الارتفاعات الهائلة للكثبان أشكالا مختلفة وبعضها له شكل مستدير •

وكانت تلك المنطقة تنعكس عليها ألوان الطيف الناتجة من الأشـــعة العمودية للشمس ، وكان المشهد عبارة عن مجموعة من السهول المنبسطة والألوان الزاهية الصافية ، كما تبدو الرمال من بعيد ناعمة بدرجة تبدو وكأنها تطلق ومضات خافتة ، ويمكن تشبيهها بالموجات الصغيرة وهى تتكسر فى رفق على الشاطىء ، فما يبدو للرائى من بعد وكأنه طبقة من اللون الأحمر القانى يتحول عند الاقتراب منه الى مزيج من اللونين الذهبى والأخضر ، كما أن الرياح التى تهب من الشمال على المرتفعات تغمرها بسيول من الرمال تتراكم على أطرافها ، وعن طريق ذلك تتكون منطقة منبسطة على امتداد الأطراف المرتفعة للمنطقة ، ومنظرها عن قرب يشبه منظر الخوذات الاغريقية لأبطال فلاكسمان • أما اذا نظرنا اليها من مكان بعيد فسوف نجد أن تعرجات الكثبان تبدو كحوائط مدينة أقيمت على أحد التلال •

كانت عشية عيد الميلاد ليلة حافلة بالمتعة ، ولقد وصلنا المخيم متأخرين ، وما أن وصلنا حتى عقلت الجمال وساقها أصحابها الى مناطق العشب ، وكانت أصوات المرافقين وهم جالسون الى مواقد النار تصل الينا ، وفجأة سمعنا صراخا كأنه نعيق البوم أو عواء أحد السباع[1] وقد أثار ذلك الصوت صفوف القوم وامتلأ المخيم بالصخب • واذا بأحدهم يصرخ (القوم •• القوم) أى الغزو وسرعان ما تقلدوا بنادقهم كما جاءنى خادمى ببندقيتى ومعها حزام الذخيرة • وقد خرج العوامر والقرا وهم يصرخون (مستعدون •• مستعدون) اننى فلان[2] ابن فلان ومن القبيلة الفلانية ،

---

(١) .. السباع مفردها « سبع » وهو كل حيوان مفترس غير مستأنس للانســـــان •

(٢) .. فى شبه الجزيرة العربية ينادون الرجل باسم ابنه وهو تعبير =

وهؤلاء جماعتى أنا المسئول عن حمايتهم ، وكان القصد من اعلان اللقب هو تعريف الجماعة التى هى من نفس القبيلة على الطرف الآخر ، لأن مجرد ذكر اللقب كما يقال يكفى لتحقيق الأمان لصاحبه .

أخذ أفراد مجموعتنا يجرون شمالا ويمينا على الرغم من أنهم لم يكونوا متواجدين فى الليل مع بعضهم البعض ، وخشيت أن يختلط الحابل بالنابل فيظنون أن الصديق هو العدو والعكس بالعكس ، وبعد نحو ساعة من الوقت على ذلك الصوت لم يحدث شىء ، بل لم يتكرر الصوت على الاطلاق ، ومع ذلك فان رجال القافلة لم يطمئنوا تماما ، ولهذا ظل رؤسائهم متيقظين طوال الليل وفى أقصى درجات التأهب والاستعداد ، والواقع أننى كنت متعبا جدا ، وكنت أود أن يتمخض ذلك الصوت عن أى حادث مزعج ، أو أن يكون مجرد صوت بعض الحيوانات المفترسة وليس صوتا من بعض الأعداء ، ولهذه الأسباب فاننى لم اشترك فى حالة التأهب التى كانت تسود المخيم .

وقد ظهر أن افتراضى كان صحيحا ، وفى اليوم التالى صباحا ، اكتشفنا آثار أقدام بعض الذئاب بالقرب من المخيم ، ولكن عواء الذئاب يشبه عادة الأصوات التى ترددها فرق الغزو عند قيامها بهجوم .

ونتيجة للانطباعات التى استفدت منها فى هذه الرحلة فقد عرفت أن تخطيط الغارات التى يشنها البدو ، تتطلب من المسافرين الى الصحراء أن يدرسوها دراسة وافية ، وقد يكون فريق الغزو القادم من الأصدقاء ولكن لابد من الافتراض بأنه قد يكون من الأعداء ، ولو أن عواء الذئب الذى سمعناه فى تلك الليلة كان صوت أحد القوافل المغيرة ، وكان الرد من جانبنا

= يعبر عن الاعزاز الذى يطفى على أبوة الأولاد الذكور . وكان السيد تيمور بن فيصل سلطان عمان يوقع رسائله الخاصة باسم أبو سعيد .. وسعيد هو نجله وولى العهد .

هو اطلاق الرصاص على الجهة التى صدر منها الصوت، لكان مثل ذلك الاجراء كفيلا بأن يردع أى جماعة مغيرة مهما كان عددها ، ولكان فى وسع الأفراد المتمتعين بمبدأ الأمان والموجودين معنا أن يعلنوا عن أسمائهم وأسماء قبائلهم كما فعل من قبل بعض أفراد قبيلة الكرب ، وكان لابد لأولئك أن يحصلوا على الأمان من القبائل ، لأن القبائل تعرف بعضها البعض من لهجاتها الخاصة وفى تلك الحالة فسوف يتعين على أفراد الطرف الآخر أن يعلنوا عن أسمائهم أيضا ، وعندما يتم تبادل الأمان بين الفريقين ، ويتقدم الفريق الأول الى الفريق الثانى يتم اللقاء بينهما دون سفك الدماء •

كما أنه اذا التقى فريقان من القبائل أثناء النهار فان العناصر التى تتمتع بالأمان من الطرفين سوف تتقدم نحو مائة ياردة من بعضها البعض وتعلن عن نفسها ثم تتلقى الرد من الطرف الآخر بالمثل ، بينما بقية المجموعات تبقى فى أماكنها فى انتظـــار النتيجة •

أما فى حالة اكتشاف فريق من الجانب المعادى فان العناصر التى تتمتع بالحماية من أحد الأطراف ، سوف تنتقل الى زملائهم ، وفى تلك الحالة سوف يطلقون بعض الطلقات من مسافة بعيدة ، أو فى حالة اللقاء المفاجىء بين خصمين من القبائل فستقوم القبيلة التى التقت بالفريق المعادى بعقل جمالها ، والاتجاه الى الفريق القادم واطلاق النار عليهم ، والغرض من اطلاق النار فى كلتا الحالتين هو فقط لارهاب الطرف الآخر •

أما اذا كان أحد الطرفين أكثر عددا وأقوى تسليحا فان الغلبة سوف تكون له وفى تلك الحالة سيستحيل على الطرف الآخر (الأضعف) أن يتقهقر أو يلوذ بالفرار وما عليه الا أن يستسلم ، ولكن اذا كان الفريق المغير على درجة أضعف من القوة فان قتالا طويلا سوف ينشب بين الطرفين الى أن تنفذ ذخيرة أحدهما ، اذ أنه طبقا للقوانين المعمول بها بين القبائل فانه لا يجوز لفريق أن يستسلم لفريق آخر قبل أن يطلق آخر رصاصة يملكها ؛

أما اذا كان الفريق المهاجم يتمتع بقوة ساحقة فان المعركة تنتهى بابادة الفريق الأضعف •

ان على الجانب الأضعف أن يستسلم للمهاجم ففى ذلك الأمل الوحيد لبقائه ، ولفظة « سلمنى » هى التعبير المتداول هناك عن رغبة أحد الطرفين فى الاستسلام بشرط أن يرفع بندقيته على رأسه أو يلقى بها فى الأرض ، وعلى الطرف الآخر المنتصر اذا شاء أن يبقيه على قيد الحياة بأن يخاطبه بعبارة « فى وجهى » أى أن يمنحه الأمان على حياته •

أما اذا توقع شخص من الشخص الأقوى قدرا أكبر من الرأفة فإنه يتقدم اليه ويقول « سلمنى مع بندقيتى[1] وخنجرى وجملى » ولكن مثل هذه المحاولة تنطوى على الخطر • فقد لا يقبل خصمه أن يمنحه كل ذلك الأمان ، وان أقصى ما يمكن أن يحصل عليه من خصمه هو أن يبقيه على قيد الحياة ، حتى يستطيع العودة الى أهله ، أما اذا لقى أحد المهاجمين مصرعه فسوف يتم تطبيق شريعة الثأر ، وتذهب حياته هدرا ، وكذلك فى حالة عدم اجابة خصمه لطلبه ، فإن الرأفة تصبح فى حكم المستحيل وسوف يترتب على ذلك أن يكون الفريق المغير من أحد فئتين : الفئة الأولى هى التى لا توجد بينها وبين القبيلة الأخرى ثأر أو دم •• والفئة الثانية هى التى يوجد بينها وبين القبيلة الأخرى ثأر ، ولكن كلا الفئتين سوف يطالب بحياة الشخص وبأسلحته وجماله •• ونحن نغادر المخيم قال خويتم : الله أعلم ما اذا كانت هناك قبيلة واحدة نبادلها الأمان ، وقد تكون تلك القبيلة هى قبيلة الصيعر •

غادرنا المخيم المهدد (الذى قيل أنه يقع شمال وادى عربوت) متوجهين

---

(١) .. اكتشفت ان كلمة بندقية (جمعها بنادق) شائعة الاستعمال فى منطقة الرمال ، الأمر الذى يؤيد ما جاء فى ملاحظات « بول » من أن اللغة الهندية تستمد بعض عباراتها من اللغة العربية .

الى الكثبان التى تعتبر أعلى وأكبر كثبان الرمال التى رأيناها على الاطلاق وهى رمال عرق الدحية •

وخلال الساعات الأربع الأولى كنا نمر على سلسلة من المرتفعات والممرات الرملية وقد اضطرت الجمال لسوء حظها أن تتسلق تلك القمم الشديدة الانحدار ، وكانت أخفافها تنزلق بين حين وآخر ووسط الخوف والقلق أخذنا نبحث عن ممرات أفضل من تلك ، فنزلنا من على ظهور الجمال • وأخذنا نبحث فى تلك المرتفعات الناعمة عن موطىء يصلح لأقدام الجمال ، كى تستطيع الصعود هى الأخرى ، وكنا أثناء تحركنا تلمس الرمال كواحل أقدامنا فى كل خطوة نخطوها ولم تعد الأحذية تفيد ، كما كان الركوب غير ممكن ، لأننا كنا نضطر الى الانحناء عندما نمر على مواقع حادة الأطراف • كما أننا لم نكن نستطيع ان ننظر الى تحت لأننا كنا على ارتفاع يصل أحيانا الى ١٠٠ قدم أو يزيد على ذلك فقد كانت الجمال تواصل السير فى وجه كل الصعوبات بينما كانت أخفافها تغوص فى الرمال فتثير سحبا من الرمال حين ترفعها •

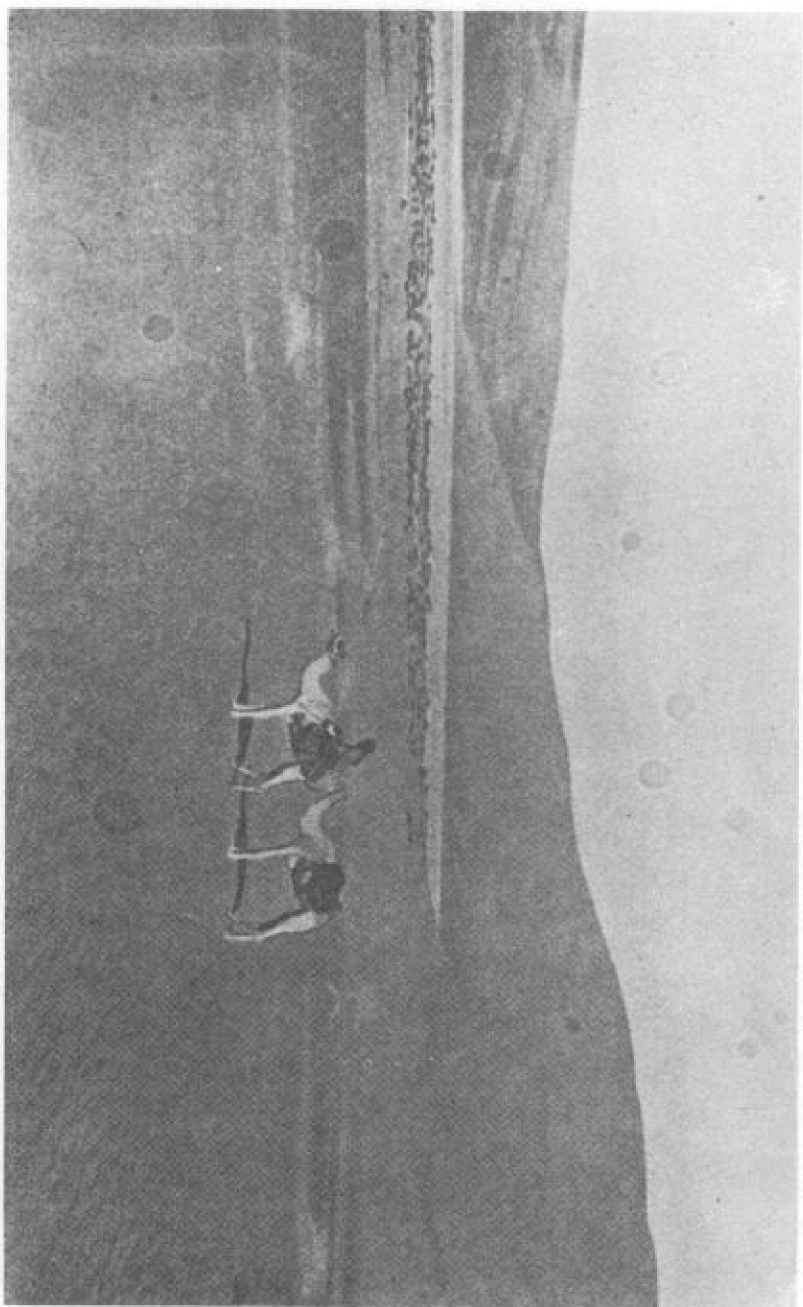
ولا يمكن للخيول أن تمشى فى تلك الرمال ، وان كانت تستطيع السير عبر الرمال الصحراوية الحمراء ، أما السيارات فيستحيل عليها السير فى تلك المنـــــاطق •

وفجـــأة وصلنا الى احدى المناطق بعد أن انتهت كل المتاعب التى عانينا منها أثناء سيرنا فى تلك المنطقة • وكانت المنطقة الجديدة التى وصلنا اليها آية فى الجمال وابداع الطبيعة ، لقد كانت صورة تمثل الألوان الصفراء وجمالها فى ذلك الأفق الذى كانت أضواؤه المشرقة تختلط بصفاء تلك الألوان• لقد كان منظرا من أروع المناظر التى رأيتها وربما لا يضاهيه فى سحره وجماله غير منظر الشتاء على جبال سويسرا •• إنها السعادة التى تمنحها الأرض للانسان فتضفى على نفسه قدرا كبيرا من البهجة والاستمتاع •

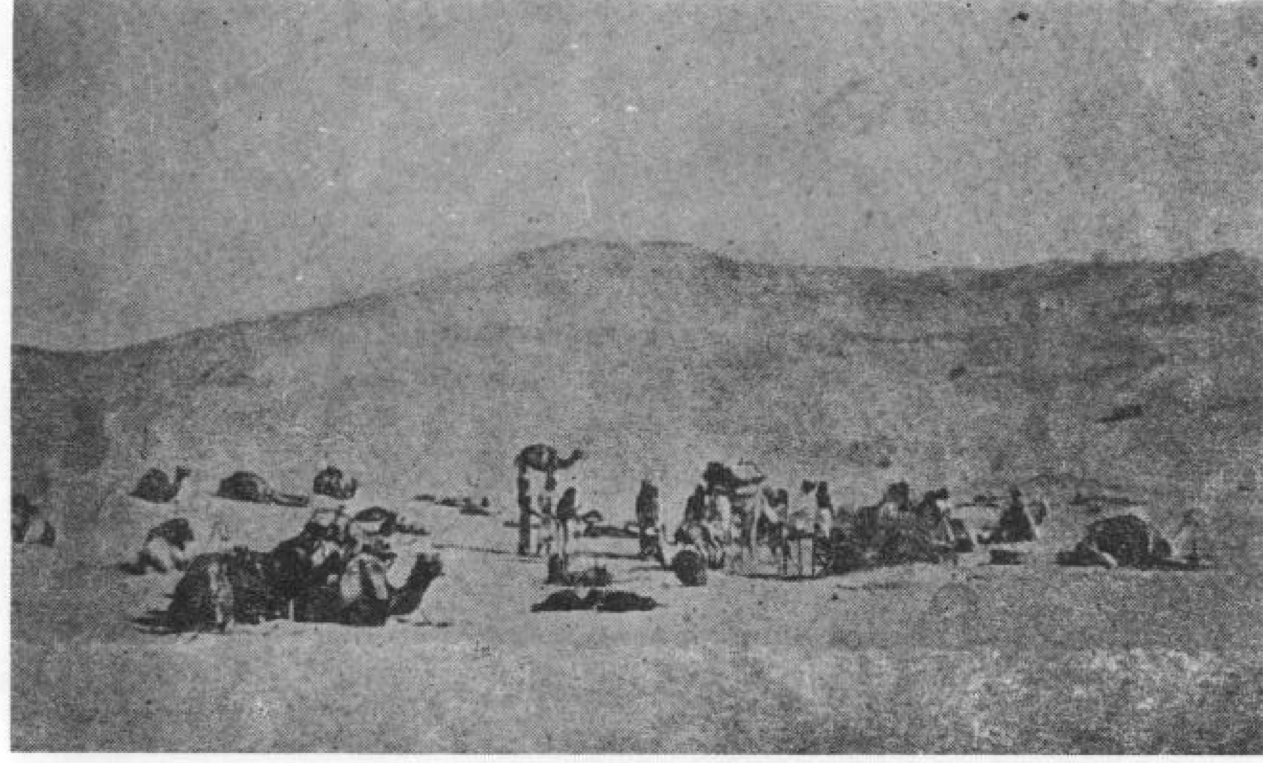
وأخيرا وبعد أن قطعنا أحد الكثبان ويسمونه « ثرب بن يمانى » والذى قيل أنه يقع فى منتصف المسافة بين خور الدحية وعين بن حموده .. المالحة التى تقع على الشمال الشرقى وهناك تحسنت الطريق فغيرنا خط سيرنا منحرفين الى الشمال من الوديان الرملية التى تؤلف فى تلك البقعة محورا شماليا شرقيا بين الكثبان .

قبل الغروب طلب القوم التوقف حيث وصلت القافلة الى خور الدحية وبعد نزولهم عقلوا الجمال . أما أنا فقد ذهبت الى التل القريب منا وأخفيت نفسى عن الجماعة لكى أتمكن من القاء نظرة على ذلك الوادى الهائل الذى كان يمتد الى ناحيتى الشمال الشرقى والجنوب الغربى وكان يبلغ عرضه فى تلك البقعة نحو ميل واحد ، وعلى ضفته التى كانت تحتنا على انخفاض ٣٠٠ قدم شاهدت رقعة خضراء وهى عين المـــاء المشهورة التى سألتقى فيها بالشيخ صالح كسابق اتفاقنا ومعه مجموعة جديدة من الرجال والإبل فى اليوم الرابع من الشهر القمرى . ولكن هذا كان اليوم الخامس ومعنى ذلك أننى تأخرت يوما واحدا عن الموعد المتفق عليه ، فلم أجد أثرا لصالح أو لأحد من رجاله .

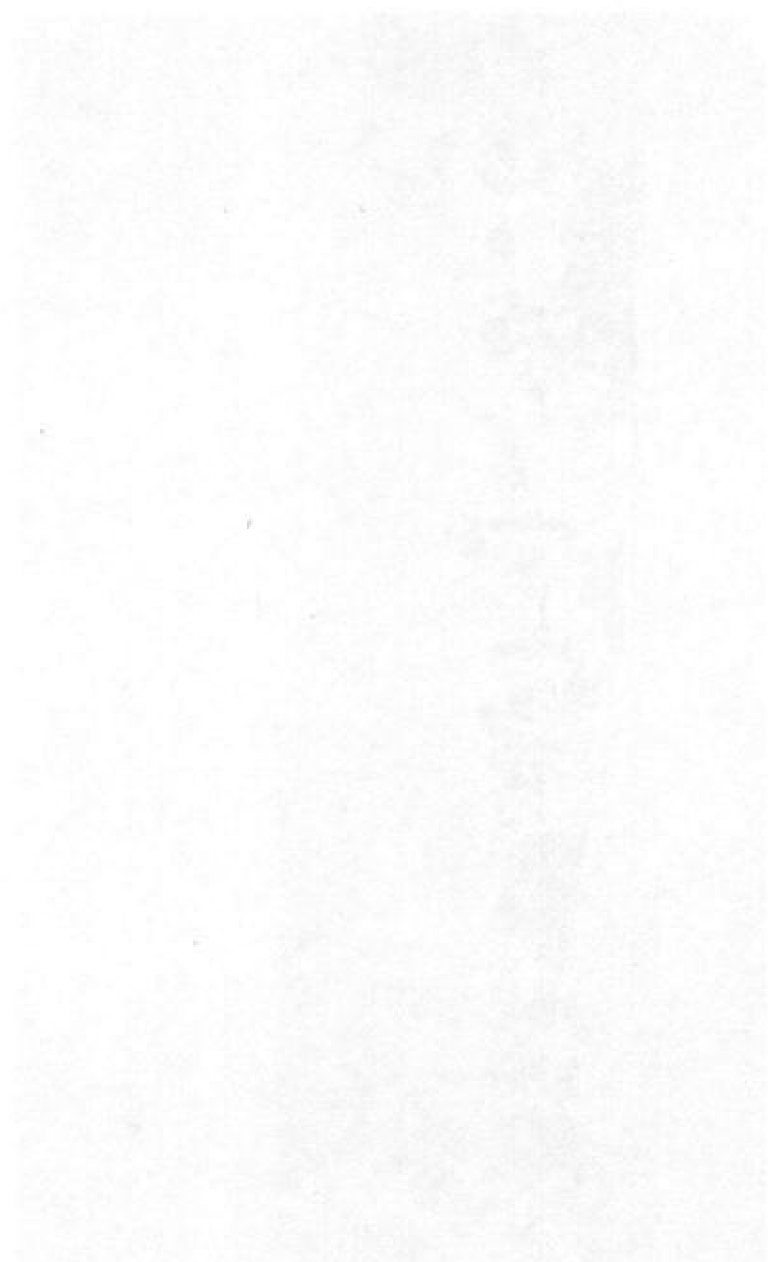
كان هناك الصمت الرهيب يخيم على السهول الجرداء . ولقد رأيت من المناسب أن نتوقف بسرعة عند مرعى صغير . وقد خرج اثنان من رجال القافلة لملء قربهما بالماء ولاستطلاع أخبار المنطقة . وقد تناولت منظارى وأخذت أراقبهما وهما يبتعدان عن المخيم . ولقد تملكنى الخوف من أن يكون هناك أشخاص يكمنون لنا فى احدى المناطق القريبة . وقد عاد البدويان من جولتهما بعد غروب الشمس وقد مكثا هناك فترة لتفتيش المنطقة القريبة والتأكد من أنها خالية من الأعداء وقد أبلغانا بأنهما لم يريا آثارا لأى جماعة هناك وبأن المنطقة لم يدخلها أى انسان منذ زاراها قبل شهرين من ذلك الوقت ، وقالا أيضا أنه من المحتمل أن يكون أحد زملاء الشيخ صالح قد مر بالمكان وأبديا استعدادهما أن يدلانى على آثار أقدامه تأكيدا لمـــا قـــالاه .



(مواقع من الجيش بين رمال الجنوب)



(بئر عند خور زاهية)



كان العشاء ليلة عيد الميلاد يتكون من حساء أعد من الماء المالح الذى تزودنا به من خور الدحية ولذلك لم تكن هناك حاجة الى اضافة ملح عليه ، وفاصوليا مسلوقة من النوع الذى كنت أحتفظ به لمثل تلك المناسبات ، ولم آكن أتناول وجبة الغذاء لأننى اعتبرتها فى تلك الظروف نوعا من الترف لاداعى له . كما كان موضوع التوقف فى أوقات الظهر لتناول طعام الغذاء أمرا غير وارد فى تلك المرحلة ووسط منطقة صحراوية جافة تتطلب تحركا متواصلا من مرعى الى آخر ، وكنت أستعيض عن وجبة الغذاء بلبن الناقة الذى كنت أحتفظ به فى ترمس مع بعض أقراص اللبن الجافة وكنا نتوقف أثناء السير لفترات قصيرة لرعى الجمال ولكى يؤدى البدو صلاتهم ، وكنت أنتهز تلك الفترات حتى أشرب اللبن .

تعتبر فترات التوقف فى رحلات الصحراء مسألة هامة بالنسبة الى الجمال . فذلك الحيوان البائس الذى قد لا يعرف الانسان قدره فى بداية الأمر . لكن سرعان ما يعجب به عندما يكتشف أنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق أهدافه ، أو للفرار به للنجاة اذا داهمه خطر ، وفى بعض مناطق الصحراء فان صاحب الجمل يموت اذا مات جمله . كما أن الرعاية والاهتمام اللذين كان المرافقون يحيطون بهما جمالهم كانت تثير الاعجاب ، وكثيرا ما كان أولئك ينزلون من على جمالهم ليسيروا على أقدامهم عدة ساعات لتوفير بعض الراحة للجمل . بينما يستثنوننى من ذلك كضيف عندهم ، كما كانوا يقدمون للجمال بعض الأوراق والأغصان فى أثناء الرحلة . وأخيرا ظهر التعب على جمال القافلة ، فعند خروجنا كانت أسنمة الجمال منتفخة وكبيرة لأن حجم السنام هو أداة القياس لحالة الجمل ، ولتلك الأسباب تضاءلت أسنمة الجمال وصغرت من طول المسير ، وكان ذلك أمرا مفروغا منه بعد رحلة استمرت ثمانية أيام ، زد على ذلك الحمولات الثقيلة التى كانت تحملها الجمال عبر تلك المناطق القاحلة .

صبيحة اليوم التالى دب النشاط مبكرا فى مخيمنا وقام البدو باقتياد الجمال الى عيون الماء ، وقد بدا على الجمال أنها قد أحست بذلك . وأخذت

أنا أيضا طريقى الى العين متجنبا منظر البدو وهم يسوقون الجمال بطريقتهم البهلوانية ، وعند الوصول الى بطن الوادى وجدت الجمال تشرب وسط صيحات الابتهاج التى لا تسمع الا فى مثل تلك المناسبات ، وكان قطر فتحة العين لا يزيد على ياردة واحدة وتحيط بفتحتها أكوام من الطين[1] غير أن بعض البدو تولوا تنظيفها من الأتربة المحيطة بها • وعندما كنت أنظر الى العين رأيت أحد البدو يملأ قربته بالمـاء كما رأيت أحد أفراد قبيلة الكرب يسقى جمله من دلو يملؤها أكثر من مرة الى أن روى البعير من الماء ورفع رأسه اشارة الى ذلك • ثم قام البدوى برش باقى الماء على عنق الناقة •

وقد سألت عن الشيخ صالح ومجموعة الجمال التى اتفقت معه على تجهيزها وقد مضى اليوم كله وأنا أفكر فى الشيخ صالح ولو أن نجـله « كلفوت » كان مستعدا للاجابة على سؤالى عن مكان أبيه • وكان رأيه أن خور الدحية منطقة معروفة بأنها غير آمنة لأنها منطقة ترتادها قبائل الغزو وهى فى طريقها من حضرموت واليها كما أنها تتخذ منها قاعدة لنشاطها وكما شاهدت بنفسى ، فانها من المناطق التى لا توجد بها مراع •

غادرنا مورد المـاء عند الغروب فدخلنا منطقة رملية مرتفعة ومنبسطة وكانت بها مراع كثيفة ، وان كان قد قيل لنا بأنه يوجد أحسن من تلك المراعى • فقلت ربما يكون الشيخ صالح فى انتظارنا فى تلك المناطق ولذلك أسرعنا فى السير • فقام بعض البدو بمحاولة استطلاع وبحث فى المنطقة الواقعة مباشرة أمامنا بحثا عن الشيخ صالح • وقد عادوا وعليهم علامات الارتياح لأنهم شاهدوا آثار أقدام (محمد بن هادى) أحد أفراد قبيلة مرة الذى كان قد رشحه الشيخ صالح ليعمل دليلا عندى ويتكفل بحمايتى • كما شاهدوا آثارا أخرى لعدد من الجمال قدروها بنحو عشرين • وقد بعث ذلك الابتهاج فى نفوسنا لأن الجمال كانت فى غاية الإرهاق والتعب ولم يعد فى امكانها مواصلة السير بحمولاتها لثلاثة أيام أخرى قبل أن تستريح •

---

(١) .. لقد سمعت بأن الأهالى يستعملون ذلك الطين لانشاء قناة حول تلك العيون وذلك فى فصل الصيف .

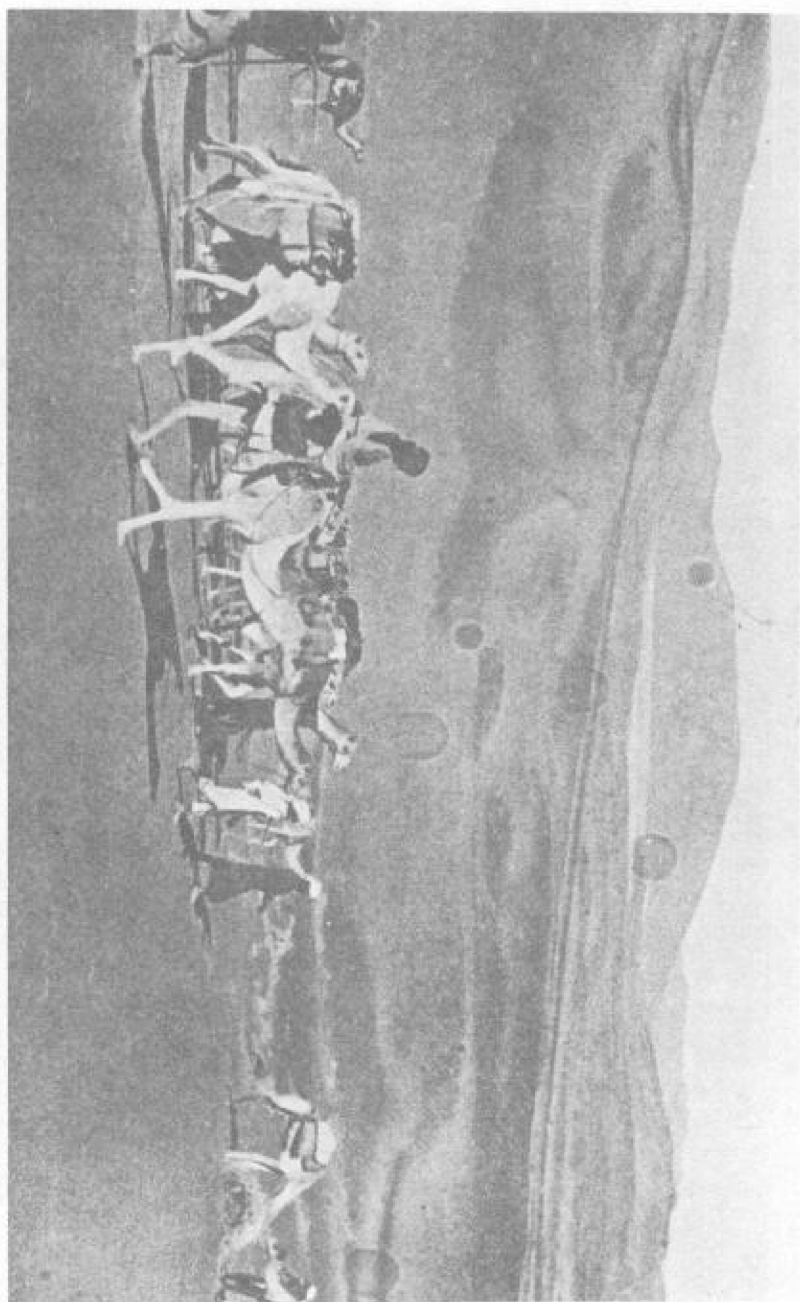
وهنا أخذ المرافقون يقولون انظر أيها الصاحب : تلك هى قدم فلان وهذه قدم فلان •• وكانوا يشيرون بأيديهم الى آثار بعض الأقدام التى لم أرها تختلف عن غيرها من الأقدام فى شىء •• ثم قال أحدهم : ان هذه الأقدام هى أقدام ناقة وكان صاحبها يقودها وكان يرافقها وليدها • انظر الى آثارها الغائصة فى الرمال ولقد استغربت من دقة أوصافهم لآثار أقدام البدو الذين مروا من تلك الطريق ومن الطريقة المدهشة التى كانوا يحددون بها تلك الآثار ، وعندما نقارن طريقة البدو فى اقتفاء الأثر بالطريقة فى الغرب والمبنية على فحص البصمات فان الطريقة الغربية تبدو أكثر بطئا كما تحتاج الى جهد أكبر •

إن الرمال بالنسبة للبدو هى أشبه فى نظرى بجهاز التقاط الاشارات ، فالبدوى أيا كان سنه هو الشخص الوحيد الذى يمكنه حل ألغاز الصحراء ، وبما أنه لم يتعود على انتعال الحذاء ففى امكانه من النظرة الأولى أن يعرف أى جمل أو ناقة من النظرة الأولى من آثار أقدامها بل وفى امكانه أن يعرف القبائل الأخرى صديقة كانت أم معادية من آثارها ، فلا يطير طير أو يتحرك وحش أو حيوان أو تدب حشرة على الأرض •• الا ويعرفها • وعلى أية حال فان آثار مثل تلك الحيوانات والهوام قد تختفى من الرمال بمجرد أن تهب عاصفة أو زوبعة على المنطقة ولكن سبب هلاك الحيوانات أرنبا كان أو ثعلبا أنما يكمن فى تلك الآثار ، حتى ولو تمكنت الحيوانات من الفرار أو الاختباء فى أوكارها وجحورها •

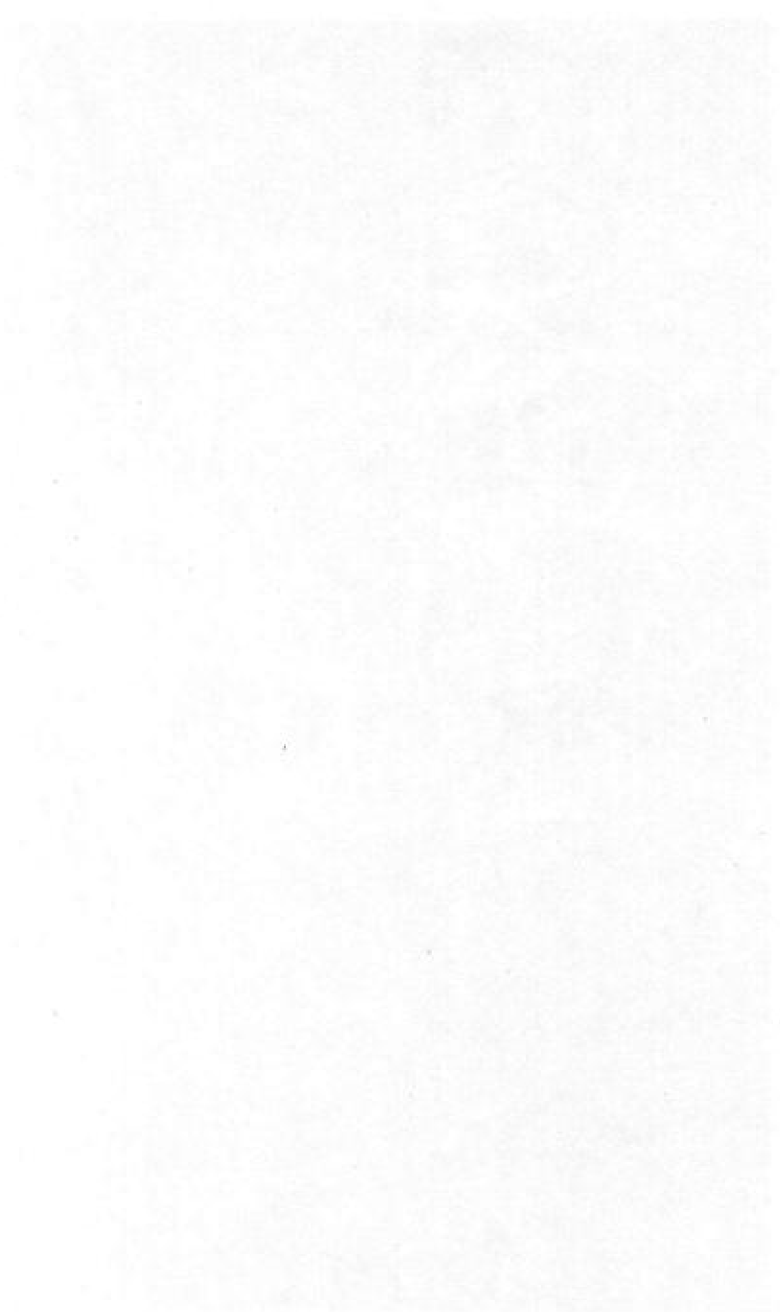
وهكذا غدت الصحراء بما كان على أديمها من آثار باهتة لبعض القبائل الصديقة هى دليلنا فى تلك الرحلة فى اتجاهاتها الصحيحة والعودة ثانية الى حيث خرجنا من الشمال الشرقى مارين بالكثبان الوعرة ، وقد أخذ ميزان المرتفعات الذى كان معى يشير الى الانخفاض • وقد تسلقنا قمة بعض الكثبان لأستطلع المنطقة بحذر شديد بحثا عن مخيم الشيخ صالح وفجأة

سادت جمعنا روح المرح عندما اكتشفنا بعض البقع السوداء قيل لنا بأنها العلامات التى تؤكد اتجاهنا الصحيح .

ولقد ضاعف ذلك الأثر من سرورنا وتفاؤلنا بالمرحلة التالية لأنه سوف يصبح فى استطاعتنا أن نتحرر من ضغط المسيرات الطويلة المرهقة مستبشرين بأنه تهيأت لنا الوسائل الكفيلة بانجاح هدفنا وهو الوصول الى بحر الرمال .



(عين ماء في خور زاهية)



الفصل الرابع عشر

ملاحظات جغرافية على الربع الخالي

والآن أود أن أقطع الحديث عن الرحلة لأناقش فى هذا الفصل ولو باختصار موضوع الربع الخالى من حيث طبيعته وتكوينه الجغرافى .. وبهذه المناسبة فانى ألفت نظر القارىء الى الخريطة التى أعددتها عن المنطقة والمرفقة بهذا الكتاب .

ان المنطقتين الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة العربية والمحصورتين بين خط الطول ٤٨° شرقا وخط العرض ٢٠° شمالا وبخط الطول ٤٦° جنوبا . هما باستثناء الحزام الساحلى الضيق ما أرمز اليهما فى خريطتى بالربع الخالى .. والترجمة الانجليزية لتلك اللفظة ترجمة حرفية من حيث التطبيق ولكنه الاسم المفهوم لدى المثقفين العرب الذين كونوا معلوماتهم الجغرافية من كتب المناهج الدراسية فى الجامعات .. أما قبائل الربع الخالى وحدها فانها لا تعرف شيئا عن هذا الاصطلاح ولا تفهمه بمعناه الجغرافى المعروف به لدى المثقفين .

ويتألف الربع الخالى من الصحراء بشقيها الشرقى والجنوبى ، والسهول فى الربع الخالى تشكل ثلث المساحة ، أما المنطقة الباقية فهى محيط من الرمال يمتد الى أقصى الشمال والغرب ، أما السهل الجنوبى منه فيسمى « النجد » ويسمى سهله الشرقى « السبخة » بينما تقع على جنوبه حدة الحراسيس .

أما الأجزاء الرملية منه فتعرف باسم الرملة أو الرمال ، وتعتبر القبائل فى الربع الخالى جماعات مستوطنة ، وجميع مناطق الربع الخالى من السهول والرمال تسمى بأسماء خاصة بها وقد يحدث أن تسمى منطقة ما باسم القبيلة التى تستوطنها ، ولكنها فى أغلب الأحوال تسمى باسم

الأودية[1] التى تجرى فيها ، أما الطرف الجنوبى للربع الذى قطعته فى رحلتى الاولى والثانية على امتداد مسافة ٢٠٠ ميل تقريبا . فقد أشرت اليه فى الخريطة بأنه يمتد موازيا للشاطىء الجنوبى من شـبه الجزيرة العربية من منطقة « مقشن » الى الشمال نحو « حضرموت » ، ثم يأخذ فى الانخفاض من الجنوب الى الشمال ومن الغرب الى الشرق ، أما طرفه الشمالى فانه يمتد من شمال الشمال الشرقى لمقشن على امتداد مسيرة أربعة أيام حتى قرن السحامة .. ثم ينحرف منها نحو الشـمال على امتداد خط طول ٤٠ر٥٥° درجة الى مسيرة يوم حتى غرب عبرى . ومنه يخترق جانب الغربى من جبل « حفيت » ومنه يواصل امتداده حتى صحراء عمان .. أما فى نطاق حدوده الرملية عند سلسلة جبال عرق الدحية ، فإن الربع الخالى يشكل سلسلة شبيهة بحدوة حصان هائلة تتركز قاعدتها على الحدود الجنوبية الوسطى فى المناطق التى تسمى أم غارب ، خرخير ، عرق الدحية والرجحيت ، بينما تمتد ذراعه الغربية الى خط الطول ٤٩° شرقا حتى خط العرض ٢٠° شمالا على وجه التقريب بحيث يطـوق مناطق المجمدات ، لحويه ، الشويكلة . بينما يمتد ذراعه الشرقى على خط الطول ٥٣° شرقا حتى خط العرض ٣٠ر٢٢° شمالا حيث يلتف حول عروق المجورة والطميشة والشعيبة والمريخة .

وضمن حدوة الحصان التى أشرنا اليها تعيش القبائل التى تقيم بصفة مبدئية فى منطقة الرمال وهى : ١ ــ قبائل مرة وتمتد الى الشمال الغربى . ٢ ــ قبيلتا الرواشد وبيت يمان وهى فصيلة من بيت كثير وتمتد من الجنوب الأوسط .. ومعظم قبائل قبيلتى العوامر والمناصير وتمتد من الشـمال الشرقى .

---

(1) .. ان لفظة (وادى) والذى يعنى هنا مجرى ماء تعنى عند البدو منطقة للرعى أو مرعى ــ اكثر مما يعنيه المكان . والوادى الكبير (وهو لفظ له صلة مغربية فى التعبير الاسبانى) تعنى باللهجة الدارجة « المرعى الجيد » . وليس بالضرورة واديا أو مجرى مائيا كبيرا .

أما خارج هذا المثلث أو الحدوة وفيما بين أطرافه وعلى السهل فتوجد مناطق الحدود الرملية التى تستوطنها حسب فصول السنة قبائل معينة من سكان السهل • أما فى الشرق فتقيم قبائل (آل بوشامس ، والدروع ، والحراسيس ، وعفار) وفى الجنوب تقيم قبيلة بيت كثير والمناهيل والعوامر « الفصائل » والصيعر والكرب ، ولكنها تقيم فى مناطق مأمونة عند عيون المـاء التابعة لها[1] ان القراءات التى سجلتها عن ارتفاعات الربع الخالى خلال رحلتى التى امتدت نحو ألفى ميل وشملت المناطق الشمالية والجنوبية الشرقية والجنوبية الوسطى ، وكذلك قراءاتى عن مواقع ضفاف الأوردية — (إما عن طريق ملاحظاتى الشخصية ، أو عن طريق المصادر المحلية) جميع تلك القراءات أسهمت فى تحـديد منخفض ذلك الجزء من شبه الجزيرة العربيـة •

ان التركيب الجغرافى لجزيرة العرب ، والذى يتصاعد فجأة على الجانب الغربى من البحر الأحمر والشقوق الجلافية للبحر الميت يأخذ فى الانخفاض التدريجى فى اتجاه الشرق نحو سهول العراق ومياه الخليج ، ولكنه لا يصل فى امتداده الى الربع الخالى • فمن ذلك الموقع تبدأ الأرض فى الارتفاع من اتجاهات ثلاثة : من الشمال الشرقى (وهى سلسلة جبال الحجر فى عمان) ومن الجنوب الأوسط (ظفار — المنطقة الجنوبية) ومن الجنوب الغربى جبال حضرموت ونجران ، أما منخفضات الربع الخالى ، فهى سواحل الخليج والبحر العربى على الجنوب الشرقى للصحراء • وواضح من هذا التحديد أن الرمال تأخذ فى الانخفاض نحو الخليج من زوايا ثلاث ، مما يترتب عليه وجود منخفض فى الجنوب الشرقى الأوسط من المنطقة •

إن ارتفاعات الطرف الشرقى للرمال التى تم تحديدها بالفعل هى على وجه التقريب على النحو التالى : فعلى البروز الشمالى الذى قطعته فى

---

(١) .. توجد جزيرة رملية على الجانب الشرقى من مثلث جعلان تستوطنها قبائل آل وهيبة .

عام ١٩٢٦ كان الارتفاع ١٢٠٠ قدم وعلى الجانب الغربى من جبل حفيت كان الارتفاع نحو ١٠٠٠ قدم بينما كان تحديد السير برس كوس للارتفاع المذكور فى منطقة عبرى هو ١٦٠٠ قدم وبالتالى فان أطراف الرمال الشرقية عند ذلك الارتفاع مع انخفاضها على الجنوب الغربى عند وادى العين تكون أكثر انخفاضا ويصل الارتفاع فى منطقة رمال مقشن الى ٤٠٠ قدم •

ومن ذلك يمكننا الاستنتاج أن الطرف الشرقى من الرمال منخفض بين الشمال والجنوب والى الشرق من الحافة الشرقية للرمال يقع سهل يرتفع تدريجيا الى الجهة الشمالية الشرقية لسلسلة جبال الحجر التى كانت هى العمود الفقرى لجغرافية عمان حيث تتحد أوديتها الأربعة وهى : العين . والأسود ، والعميرى ، ومسلم •• مسارا موازيا تقريبا للخط الجنوبى الغربى حتى مصبها داخل حدود الرمال الشرقية ، والى الجنوب الشرقى من مقشن توجد مرتفعات أخرى لم يتضح سهلها ، وان كان من المعتقد بأن سلسلة جبال الحفوف تحده من الشمال الشرقى مجموعة من الأودية هى على التوالى : غيدون ، أدونب ، هيتم ، (وكنت فى عام ١٩٢٨ قد عبرت مصب تلك الأودية على مستوى البحر) •• التى تتدرج فى الانخفاض حتى مداخل الجنوب الشرقى فى خليج صوقره •

ومن الناحية الجنوبية الغربية تستقبل جدة الحراسيس مياه وادى « أرو » وهى مياه السيول التى تتدفق على امتداد الجانب الشمالى لجبل سمحان • وعندما قطعت ذلك الوادى فى رحلتى الأولى لاحظت أنه يجرى فى اتجاه الشمال الشرقى • وفى ذلك الوقت سجل جهاز القياس ارتفاعا يتراوح ما بين ١١٠٠ قدم الى ١٤٠٠ قدم على المنطقة الغربية للمنطقة . أما فى المنطقة الشرقية لجبال الحفوف فإن أهم الأودية الموجودة فى تلك المنطقة هى : وادى حلفين ووادى عندام وغيدون من سلسلة الحجر الشرقى فى عمان حيث يصب جزء منها فى خليج مصيرة على الجنوب •

وعلى هذا الأساس فان ثمة منخفضا على أقصى الطرف الجنوبى

الشرقى للرمال يكون مضيقا يمتد من الجنوب الشرقى ومن ساحل خليج صوقرة عبر جدة الحراسيس ومنها الى داخل الرمال على خط طول ٥٤° شرقا الى ٥٥° شرقا وخط عرض ٢٠° شمالا الى ٢٢° شمالا . وفى نطاق ذلك المضيق يرتفع منسوب المياه الى سطح الأرض فى منطقتى مقشن وغيدان والى الشمال من المضيق أيضا يأخذ السهل فى الارتفاع التدريجى نحو الشمال والشرق ، أما من الجنوب فان أقصى الارتفاعات هى التى تقع على الناحيتين الجنوبية والغربية .

ومن الأمور ذات الأهمية الجغرافية ، وجود الرمال المتحركة فى الجهة الشمالية للمضيق حيث تلتقى ببحر الرمال ، أما « أم السميم » وهو الاسم الذى يطلق على الرمال المتحركة فانها تمتد الى مسيرة يومين فى كل الاتجاهات وتبدو تلك المنطقة للناظر اليها كأنها مستنقعات ملحية ، فهى تخدع المسافر الذى يجهل طبيعتها الخادعة ، وقـد لقى كثير من الناس حتفهم فى تلك المستنقعات والقبيلة التى ترتاد منطقة المستنقعات هى قبيلة الدروع للبحث عن الملح ، وهى القبيلة الوحيـدة التى تعرف المناطق المجهـولة لتلك المستنقعات ، أما القبائل الأخرى أو القبائل المغيرة فهى تفضل الابتعـاد عن تلك المنطقة .

وفى عام ١٨٤٣ نجح المغامر البافارى « فون ريد » من دخول تلك المنطقة متنكرا فى زى اسلامى ، وقد لاحظ نفس الظاهرة فأشار الى أن تلك المنطقة تسمى بحر السافى ، وقد اقترب من أحد المستنقعات ليسبر عمق ذلك المستنقع مستخدما حبلا طوله ست قامات ، وقد كتب يقول : اقتربت من المكان بحذر شديد محاولا فحص الرمال ، ووجدت أنها تتكون من تربة لا أعرف كيف أصفها وقد أدليت الحبل الى أقصى عمق ممكن فغاص على الفور وخلال خمس دقائق فقط اختفى طرف الحبل اذ التهمته الرمال .

ولا أريد أن أشكك فى صحة أقوال فون ريد ، وان كنت أريد أن أسجل هنا بأن أغلبية المرافقين لى فى الرحلة سبق أن قاموا بغارات على منطقة

الرمال الواقعة شمال حضرموت كما أن قبيلة الكرب هى أصلا من نفس المنطقة التى نتحدث عنها ، ولكن لم يكن بينهم واحد يعرف منطقة باسم « بحر السافى » ولكنهم أكدوا جميعا بأن الرمال المتحركة تقع فى منطقة أم السميم بين السهل الواقع بين الشمال والشرق من مقشن وجنوب غرب عبرى . وقد أدلى الىَّ عدد كبير من البدو فى عمان وغيرها بمعلومات عن تلك الرمال المتحركة .

الفصل الخامس عشر

عبر رمال الدكاكة - المجوعة الثانية من الجمال

حيا بوصولكم صاحب •• حيا بوصولكم صاحب •• مرحبا وحيا بكم ••

• بهذه التحية استقبلنى الشيخ صالح عندما كنت أسير فى الطريق الى المخيم وقد مددت اليه يدى مصافحا وأنا أنزل من على ظهر الناقة وكان مع الشيخ صالح شخص أعرفه وهو محمد السمين المرافق القديم الذى صحبنى فى رحلة العام الماضى ، أما بقية الذين كانوا مع الشيخ صالح فلم يكترثوا بوصولنا ، بل أخذوا ينظرون الينا بفتور ، الأمر الذى جعلنى أشعر بالخوف على مصير الرحلة ، وأخذت أتساءل عما اذا كان هذا المكان هو النهاية لرحلتى وعما اذا كنت سأستطيع مواصلتها ••

ولكن ما ان تعايشنا مع هؤلاء القوم حتى بدأوا يعطون انطباعات أكثر ودا وأخذوا يحيون بعضهم البعض بالطريقة البدوية التقليدية وهى التقبيل على الأنف[1] وهى طريقة اثنين يتحابان ولكن بشكل أقل حرارة ، أما ثلاثة آخرون من المرافقين فقد أخذوا يحيون بعضهم البعض بتلك الطريقة ، وهى مس أنفه فى وجه صاحبه من اليسار الى اليمين ومن اليمين الى اليسار ثم على الجبهة بينما يضع كل منهم يده على الكتف الأيسر لصديقه •

وعلى الفور عقد اجتماع على الأرض بين البدو المرافقين وطلبت من المسئول على الفور احضار التمر والقهـوة ، وقد رمقنى أحد البدو بنظرة

---

(١) ان التقبيل على الأنف بين سكان الصحراء يحل محل المصافحة باليد وهو تقليد متبع بين قبائل بيت كثير ، حتى ولو غاب بعضهم عن بعض لفترة لا تزيد عن خمسة أو ستة أيام ، بينما البدو فى منطقة الرمال يحيون بعضهم البعض بتلك الطريقة ، حتى ولو التقوا بعد غياب يوم واحد ، اما قبائل المهرة سكان السهول فعلى الرغم من أنهم يعدون من البدو الا انهم لا يتبادلون تقبيل الأنف وانما يتبادلون تقبيل الخد ثلاث مرات فى كل لقاء .

خاطفة جعلتنى أشعر بأننى كنت فى تلك اللحظة موضع اختبار الحاضرين وقد أخذوا يتحدثون فى همس مع زملائهم القدامى وقد أظهر البدو الجدد كثيرا من الفتور لموضوع تقديم القهوة والتمر عندما أدير عليهم وهو شىء غير مألوف عند أولئك القوم الذين من عاداتهم أن يظهروا إصرارا عجيبا على تناول المشروبات خلال رحلتى الأولى ومن الأشياء التى لاحظتها هى تطبيق مبدأ الضيف أولا .. وعلى أية حال فان القهوة لقيت التقدير المعتاد فى تلك المناسبة الرسمية ، وبقى شىء منها لكى يتناوله زملائى .

مرحبا .. ويا حياكم .. هـكذا بدأ سيف القديم والزعيم الشرعى للقبيلة[1] حديثة على الرغم من أن قبيلته تعتبر من مستوى أدنى (ولقـد اختير لزعامتها فيما بعد رجل من قبيلة « كلوث » ولم تكن مشيخته من سلالة الأب ولكنه انتخب لنفوذه وشجاعته وحزمه) وقد أثار دهشتى عندما انتزع حزام خرطوشه أمام الحاضرين ، وقد كانت تلك دعوة لزملائى الذين كانت زيارتهم للسواحل ونشاطاتهم خلال رحلات الصيد قد جلبت لهم بعض الطلقات لكى يتنازلوا عنها لزعيمهم المطلق ، وقد أخذوا الواحد تلو الآخر يلقون بطلقاتهم على الأرض ، وعندما فرغ الجميع من ذلك كان لدى الشيخ سيف عشر طلقات .

ان الشيخ صالح لم يُخيِّب ظنى فيه فقد جاء ليعرفنى باحدى الشخصيات البارزة وكانا يسيران ويد أحدهما فى يد الآخر ، وقال الشيخ صالح : هذا أحد الشيوخ أيها الصاحب . وهو شيخ مرة . وقد جئت به لدعم مركزك وأنت فى الصحراء ، ولا يوجد دليل أفضل من حمد بن هادى فى كل منطقة الرمال كما أنه لا يوجد مقاتل أصلب أو صياد أمهر أو مرافق وَفِىّ مثله ، وانى لأشهد على ذلك والا لمـا تزوج أخى من ابنته ، كما لا يوجد شخص أعلم بالمراعى وعيون المـاء من حمد ، فهو يعرف الطرق عبر الرمال وقد وافق أن يكون كفيلنا فى الرحلة .

---

(١) . . اذا اعتبرنا قبيلة بيت يمانى غير مدرجة فى مجموعة قبائل الرواشد (وقد أصبحت القبيلتان مستقلتين) فتعتبر هذه القبيلة من فخذين « المتعاربة والسعدنة » والتى يرأس الشيخ سيف الأخيرة منهما .

كان حمد معتدل القامة أسمر له عينان براقتان ووجه أشبه بوجه الصقر ، وله لحية كثيفة ، وكان لصوته رنين غريب يدل على شخصية أقوى من شخصية الشيخ صالح الا أنه لا يمكن من النظرة الأولى أن يطمئن اليه المرء أو يوليه ثقته ، فسكان الصحراء مثل الأطفال من ناحية أنه لا يمكن الحصول على ثقتهم قبل التودد منهم أولا ، كما لابد أن أكون حذرا ، ان حمد الذى لم يسبق له أن شاهد شخصا لونه كلونى أو استمع الى لهجة غريبة ، لا يبدو أننى لن أثير شبهاته ، ولهذا قررت أن أرفع الكلفة بينى وبينه طمعا فى اكتساب ثقته ، ومن هنا كانت مقابلتى الأولى له لا تتعدى تناول القهوة وتبادل الأحاديث العادية ، تركزت معظمها حول شـــئون الصيد ، وعلى نفس المنوال كان اجتماعى الثانى به والذى أنهيته بتقديم « هدية » لنجله .

فى اليوم التالى سألنى الشيخ صالح : ما هو تقييمك لحمد ؟ فأجبت بأنه الرجل المنشود ، فقال : ألم أقل لك ؟ ولكنه يطلب أتعابا كبيرة أيهـــا الصـــاحب ؟ .

ان البدوى يضرب به المثل فى الجشع . وكنت قد اتفقت مع الشيخ صالح قبل مغادرتنا المنطقة الساحلية على تقدير أتعاب المرافقين ، وهاهو يسعى الى تطبيق بنود الاتفاق تطبيقا حرفيا ، وذلك بمحاولة اقناع حمد بقبول الشروط التى نرى أنها شروط عادية وعادلة .

ان المرافقين بعد أن انخفض عددهم أصبحوا أكثر وداً نحوى ، كما أن السلبية التى بدت من سلوكهم فى بداية الرحلة لم تكن أكثر من تطبيق للعنـــاد البدوى .

والواقع أنهم تقبلوا المشقات بصحبة الشيخ صالح بناء على رغبتى . وكانت الخطة التى اتفقنا عليها هى أن يصحبونى فى المسيرة الى عين الشنه على الجهة الغربية فى منطقة الدكاكة ومن هناك أعقد اتفاقا مع مجموعة أخرى بعدد أقل من الرجال والجمال لمواصلة الرحلة باشراف الشيخ صالح

الذى تقرر أن يسبقنى لاختيار تلك المجموعة وانتظارى فى المكان المتفق عليه بعد عشرة أيام من ذلك التاريخ اذا قدر الله ولم نصادف نحن أو يصادف هو أحداً من الأعداء .

ولقد كانت المنطقة الجنوبية الوسطى من رمال الدكاكة هى مفتاح الرحلة خصوصا وأن تلك المنطقة قد شهدت نزول المطر فيها خلال العام الماضى ، وبالتالى فلابد أن تكون قد امتلأت بالمراعى الكثيفة التى تجعلها ملتقى للقطعان والرجال ، كما ان ذلك سوف يشجع العديد من السكان البدو على التوجه الى تلك المنطقة رغبة فى الحصول على اللبن ، كما سيتيح لى العثور على مجموعة جديدة من المرافقين ، ثم العثور على مجموعة ثانية فى منطقة متقدمة لترافقنى الى الرمال الداخلية ومنها الى المجهول .

ان منطقة الدكاكة كانت جافة ، وان الأمطار التى هطلت فى العام الماضى لو كانت هطلت على منطقة أخـرى غيرها لتعذر القيـــام بعملية تغيير مجموعات الرحلة ، الأمر الذى لن يتأتى لى بدونه أن أقطع الربع الخالى على مراحل متقاربة زمنيا وبمعدات وأجهزة كالتى كنت أحملها .

ان يوم صرف المرتبات والمكافآت لرفاق الرحـــلة يكون عادة يوما مثيرا . ذلك أن انهاء عمل البدوى بطريقة ودية وبأسلوب يرضيه يُعد من أشق الأمور . كان المرتب المقرر لكل فرد خمسين ريالا بما فى ذلك أجر البعير ، وأربعين ريالا كأجر لكل حمولة . وكان البدو قد قبضوا نصف مرتباتهم مقدما عند بدء الرحلة فى ظفار . أما النصف الباقى فهو الذى سيسلم لهم فى ذلك اليوم .

وبتلك المناسبة أخذت العملة الفضية من الريالات التى كانت مكدسة فوق مكتبى تلمع . وهى عملة نمسوية الأصل تحمل صورة الملكة ماريا تريزا النمسوية باعتبارها العملة المتداولة فى تلك المنطقة والتى لا تراها الا نادرا .

وبسبب الرنين الذى كانت تحدثه تلك العملة ، فقد تقرر ترتيب

الريالات فى أكداس مصفوفة من عشرين أو خمسة وعشرين ريالا لكل صف . وذلك تسهيلا للصرف ، بحيث يتسلم كل فرد الريالات المستحقة له • وقد اقتصرت عملية العدّ علىّ ، ثم بدأ الجميع يعدون حصصهم من النقود . ويعود كل منهم ليقول أن نقودهم تنقص ريالا أو ريالين عن المبلغ المستحق له ، وعندئذ يقوم شخص آخر من المرافقين بإعادة عد النقود الى أن يقتنع كل فرد بأنه قد تسلم مرتبه كاملا ، ويبدو أن هذه الطريقة التى اتبعتها فى عدّ المبالغ هى التى سببت ذلك الارتباك •• بعد مضى ساعة تقريبا على تلك العملية كنت قد فرغت من توزيع النقود • وقد استلم جميع الأشخاص المدونة أسمائهم فى كشف الرواتب ما يستحقونه من رواتب ومكافآت •

وقد شعرت بالارتياح بعد أن انتهيت من ذلك ، وحمدت الله على أن تلك العملية مرّت بسلام ، وفجأة سمعت ضجة وشجارا خطيرا مما جعلنى أتصور بأن العناصر التى كانت على علاقة أحسن بى هى التى كانت تسعى الى تعكير الموقف بافتعال مشاجرة بعد أن أدركت بأن عملها قد انتهى ، ويبدو أن بعضها قد استدان شيئا من النقود من زملاء لهم • وبالتالى فان عملية تسديد تلك الديون كانت سببا فى كل تلك الضجة ، وقد تطور الأمر الى تبادل الشتائم ثم الاحتكام الى السلاح ، ولم يحسم الموقف الا بعد أن تدخل الشيخ صالح الذى جمع النقود كلها ووضعها فى كوفيته على الأرض ، وأعاد توزيعها على المجموعة ، وهكذا عرفت كيف أن جهد يوم بأكمله قد ضاع سدى •

وأخيرا هدأ الموقف وان لم يتحقق الانسجام ، لأن البدو عادوا يطلبون تزويدهم ببعض المؤن بمناسبة رحيلهم للعودة ، واحتجوا بأن النوق لا لبن فيها ، وان ذلك قد يعطلهم عن السفر ، وقد يموتون جوعا فى الطريق ان لم يتزودوا بشىء من الطعام ، ولكنهم طلبوا أطعمة قدرتها بثلاثة أضعاف ما يعوزهم بالفعل ، كما كان قرب حلول شهر رمضان من الأسباب التى دفعتهم الى طلب بعض المؤونة ، لأنهم يعوضون جوعهم طوال النهار بالتهام كميات أكبر من الطعام بعد الافطار ، وقد تجمع عدد آخر من البدو ،

ليسوا من رجال قافلتى ، وهم يتوقعون منى أشياء كثيرة ، ولما كنت أستعد الى مرحلة أخرى من الرحلة ، قد تستغرق ستة أيام ، فقد كان المخزون من الأغذية لا يكاد يكفينا لتلك المدة .

وهكذا أصبح الطعام بالنسبة لى أغلى من الذهب وتبديده بالصورة التى أرادوها كان يعنى فشلا ذريعا لمهمتى ، وقد كلفنى الاحتفاظ به جهدا كبيرا وكان هو الضمان الوحيد لى أمام أى مشكلة تصادفنى ، فكان لابد من حسن التصرف لأن نفاد الطعام سوف يعنى نهاية رحلتى . من المألوف ألا يسمح للناقة الحلوب ان تمشى بسرعة لأن ذلك قد يؤدى الى نضوب اللبن فى ضرعها ، وكان وجود نوق غير حلوبة فى تلك الصحراء الشاسعة يعنى فى تحليلى النهائى أن نضطر الى ذبحها وأكل لحمها ، واللجوء الى ذلك الحل يعنى سلب أكبر مورد للحياة الذى يمد الانسان بالقوة والحيوية والشباب .

كان لابد من نقل المخيم فورا لأنى تأكدت من أننى كلما أطلت بقائى ، كلما حاول أفراد قافلتى من البدو أو غيرهم من الجياع الذين تلفظهم الصحراء من وقت لآخر أن يتخموا على حساب مخزونى من الطعام ، ولهذا رأيت بأنه سيكون من الأفضل لو دفعت لكل منهم ريالين أو ثلاثة ليغادروا المكان ، وقد لجأت الى نفس الإجراء بالنسبة الى صاحب الناقة التى كنت اركبها تلك الناقة الصبورة التى حملتنى من جبال القرا ، وتقرر الآن أن تعود الى مواطنها فى السهول الجنوبية ، وكانت السيدة صاحبة الناقة من النساء اللواتى اشتهرن بالجمال والجاذبية فى المنطقة فقد وقع كثير من شباب البدو المرافقين لى فى غرامها .

والحقيقة أنه كانت هناك قصة حب تحكى عن تلك الفتاة ولسوف نعرف شيئا عنها عندما يتم الفصل فى مستقبلها فقد كانت لاتزال عذراء فى التاسعة والعشرين من عمرها وذلك شىء غير مألوف فى شبه الجزيرة العربية التى تأخذ بنظام تعدد الزوجات ، والسبب أن أباها ابن عشكيت كان مشهورا بين

عشيرته بالأنانية والجشع • وقد سأله واحد من المرافقين لمـــاذا لا تزوجها للصاحب وأخذ يمتدحنى قائلا : أنه شاب وقوى البنية ثم ألا ترى ما يمتلكه من أموال يمكنك أن تشترى بها كل جمال الربع الخالى •

ولكنهم فى غيابه يتهمونه بالبخل وكانوا يعدونه من أغنياء المنطقة لأنه كان يملك خمسة عشر بعيرا ، ولمـــا لم يكن له أقارب من الذكور فان وحيدته هى وحدها التى ترثه ، مما يطمع الناس فى الاقتران بها •

وفى أحد الأيام سألته بطريقة هادئة ومتزنة عن المهر الذى يطلبه لابنته : فقـــال : **ثلاثة جمال**[1] **ثم أردف يقول : لمـــاذا لا يطلب ذلك للمهـــر** • وابنة (على) قد جلبت لوالدها نفس المهر رغم أنها أقل جمالا وحسنا من ابنته ، والكل يجمع على أن ابنته تستحق ذلك المهر ولكن حتى ذلك الوقت لم يعرض فيها أحد أكثر من جملين ، ولذلك فانى أرفض تزويجها وهى راضية بوجودها معى ، كان ذلك منذ شهر تقريبا ، ثم حدث أن شاهدت ابن عشكيت ومعيوف يجلسان أمام نار المخيم أكثر من مرة يتهامسان ، وأصبح حديث رجال القافلة بعد رحيل ناقتى بأن معيوف هو الذى سيفوز بالفتاة •

وعندما يريد أحد البدو أن يتحدث فى شئون خاصة مع زميل له ، فإنهما ينتحيان جانبا بعيد عن المجتمعين ، ورغم ذلك فان حديثهما لا يسلم

---

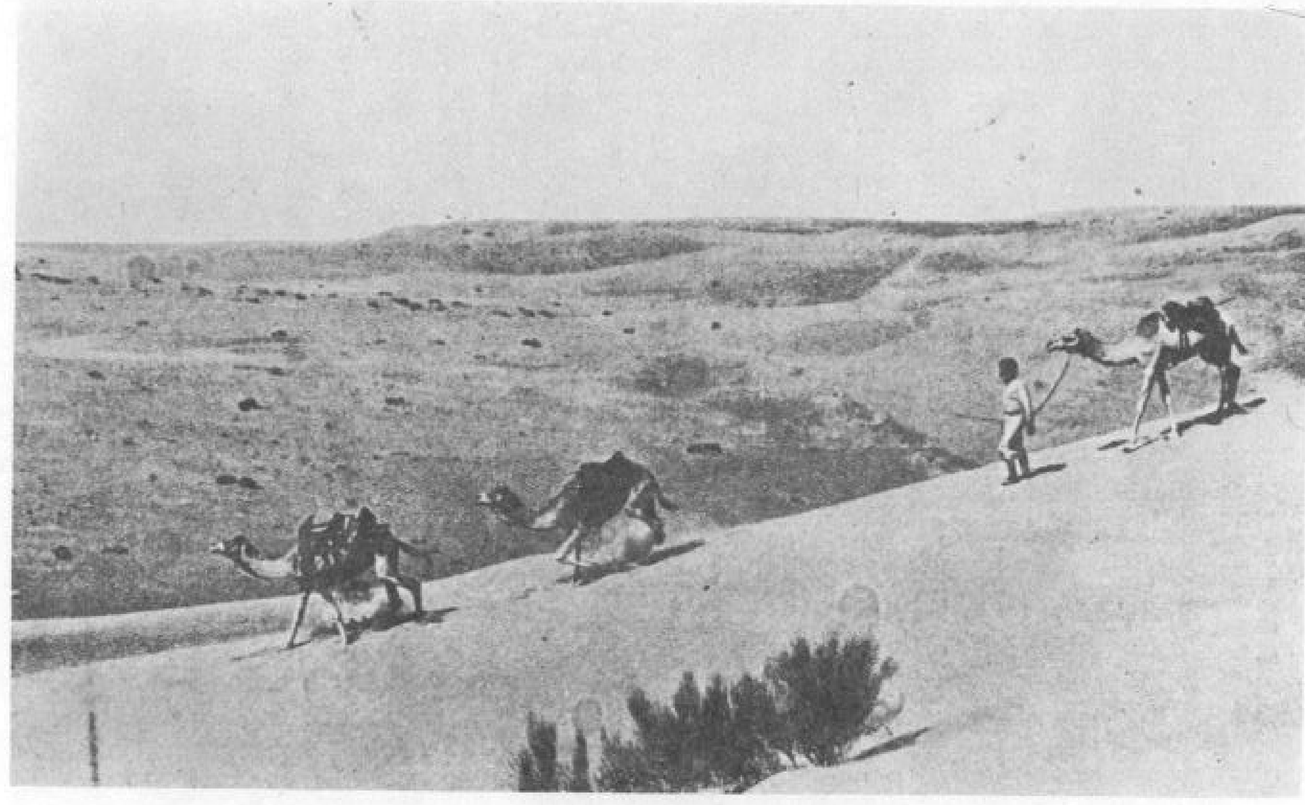
(١) .. قيمة هذا المهر تذهب كلها الى والد الفتاة ، ويتراوح مهر العروس البكر بين عشرين ريال و ٣٠٠ ريال عند بيت كثير سكان الجبل . وذلك حسب مستوى اسرة الفتاة وجمالها وثروتها غير ان نصيب والدها من المهر لا يزيد على النصف ويوزع الباقى على أقرب الأنساب . وقد سمعت أن احد العرسان دفع مهرا قيمته مائتا ريال وهو مبلغ يضع صاحبته فى اعلى السلم الاجتماعى . ويتم توزيع المهر كالآتى : الأب يحصل على نصف المهر اى مائة ريال والأخ ثلاثين ريالا ، والأم عشرين ريالا ، والأخت لاشىء ، والعم عشرين ريالا ، والخال عشرة ريالات ، والعمة خمسة ريالات ، والخالة أربعة ريالات .. واذا تزوجت الأرملة أو المطلقة فان قيمة المهر كلها تكون من نصيبها .. أما فى عمان فالعريس هو الذى يدفع نصف المهر مقدما الى والد العروس والنصف الآخر يدفعه على أقساط بعد اتمام الزواج والواقع أن قيمة المهر كلها تذهب الى العروس لشراء الحلى والمجوهرات والأثاث اللازم لعش الزوجية .

من المتطفلين والفضوليين من رفاقهم وكان من الأشياء الطريفة أن ترى بدويا يدخل الى المخيم ، وبدلا من أنْ يأخذ مكانه فى القاعة تراه يتجه الى الشخصين اللذين يتهامسان ، ويقتحم عليهما خلوتهما ، ومثل هذا التصرف تطفل لا مبرر له ، وان كان الشخص الذى يتطفل يدفعه الى ذلك الاعتقاد بأن الحديث قد يكون على جانب من الأهمية .

وعلى أية حال فان روح الجماعة هى الروح التى تسود مجتمعات البدو ، ولكونهم يعيشون فى مناطق مكشوفة ، فانهم متحدون دائما فى مواجهة الأخطار ، التى تتهددهم .. كما أن روح التضامن فيما بينهم وتحررهم من العُقَد يكاد يكون شعورا تلقائيا فيهم ، وعلى الأوربى ان يكيف نفسه مع تلك المقتضيات اذا أراد أن يعيش بينهم ، وذات مرة كان فى يدى وعاء به بعض اللبن واذا بأحد الكثيريين يقترب منى ويمسك بالوعاء ويشرب منه .. وعلى أية حال لم يكن بالوعاء الا الثمالة غير أن تصرفا كهذا لا ينبغى أن يصدر عن الأوروبيين ، وحتى العلاقة بينى وبين الشيخ صالح لم تكن تسلم من تطفل أولئك البدو ، فلو حدث ورآنا أحدهم استأذن ليقترب منا وكل همه أن يعرف ما كنا نتحدث فيه .

غادرنا المخيم بمجموعة جديدة أصغر من المرافقين يقل عددها عن العشرين فردا وكان طريق سيرنا فى الاتجاه الغربى ، ولم نمر فى طريقنا على أى مخيمـات .

وقد خشيت أن تكون غالبية قبائل الرواشد ترعى الجمال فى المنطقة الشمالية فى ذلك الوقت ، ولهذا كان من الضرورى أن نبتعد عن هذه المنطقة حتى لا يزعجونى بطلباتهم من المواد الغذائية ، كما كان هناك سبب آخر وهو الخوف من أن يثير وجود شخص غير مسلم فى أرضهم ردود فعل غير مستحبة .



(مســيرة فى الدكاكة)

كالعادة انقضى اليوم الأول فى مسيرة قصيرة ، وأخذت مجمـوعة الجمال الجديدة التى لم نختبر قدرتها بعد تصدر رغاء تعبر به عن استيائها من الحمولات الثقيلة التى تحملها ، كما أن أصحابها استنكروا عدم المساواة بالنسبة لتوزيع الحمولات ، كما كان الهودج الكبير الذى استعملته موضع شـكوى أصحاب تلك الجمال لثقله ، الأمر الذى استوجب أن أغير البعير من يوم الى آخـر •

فى ذلك الجزء من الدكاكة كانت الرمال أكثر نعومة من رمال الوديان والجبال بمنطقة عرق الدحية حيث كانت الممرات ضخمة جدا • وكان التركيب الأساسى للمنطقة عبارة عن تربة رملية صلبة حمراء فيها كثير من التعرجات ، تبدو كبحر متلاطم وان كانت أكبر منه حجما كما كنا نمر من وقت لآخر على تلال من الرمال بعضها فوق بعض باهتة اللون والتى أخذت تتقلص كلما توغلنا فى المنطقة وكانت صلبة فى بعض المناطق ، وكان شكلها يبدو كحدوة الحصان فى بعض الأحيان ، وعلى العموم فقد كانت غريبة الشكل ويسمونها « الدهناء » •• ويبدو ان تلك الكتل الرملية قد تكونت بفعـل الزوابع الهوائية التى كانت تهب على المنطقة من تلك الاتجاهات العكسية لها ، وكانت تظهر لنا من المناطق المنخفضة من التلال بقع كلسية بيضاء من الأرض وبعض عيون المـاء •

ولم نشك فى تلك المنطقة من نقص فى المياه الحلوة ، وأقول حلوة بالقياس الى غيرها من المياه التى صادفناها فى منطقة الرمال • وأخذنا نتعمد السير ببطء فى المناطق التى توجد فيها مراعى حيث كنت أنتهز الفرص لجمع العينات والتقاط بعض الصور وذلك على عكس المسيرات الطويلة المرهقة التى لم تكن تسمح بذلك ، وكنا نقضى الوقت فى التجول فى أرجاء المنطقة بينما قمت ومعى كل من ابن كلوت وابن حمد لاستطلاع الأمور فى تلك المنطقة بالنسبة لرحلتى •

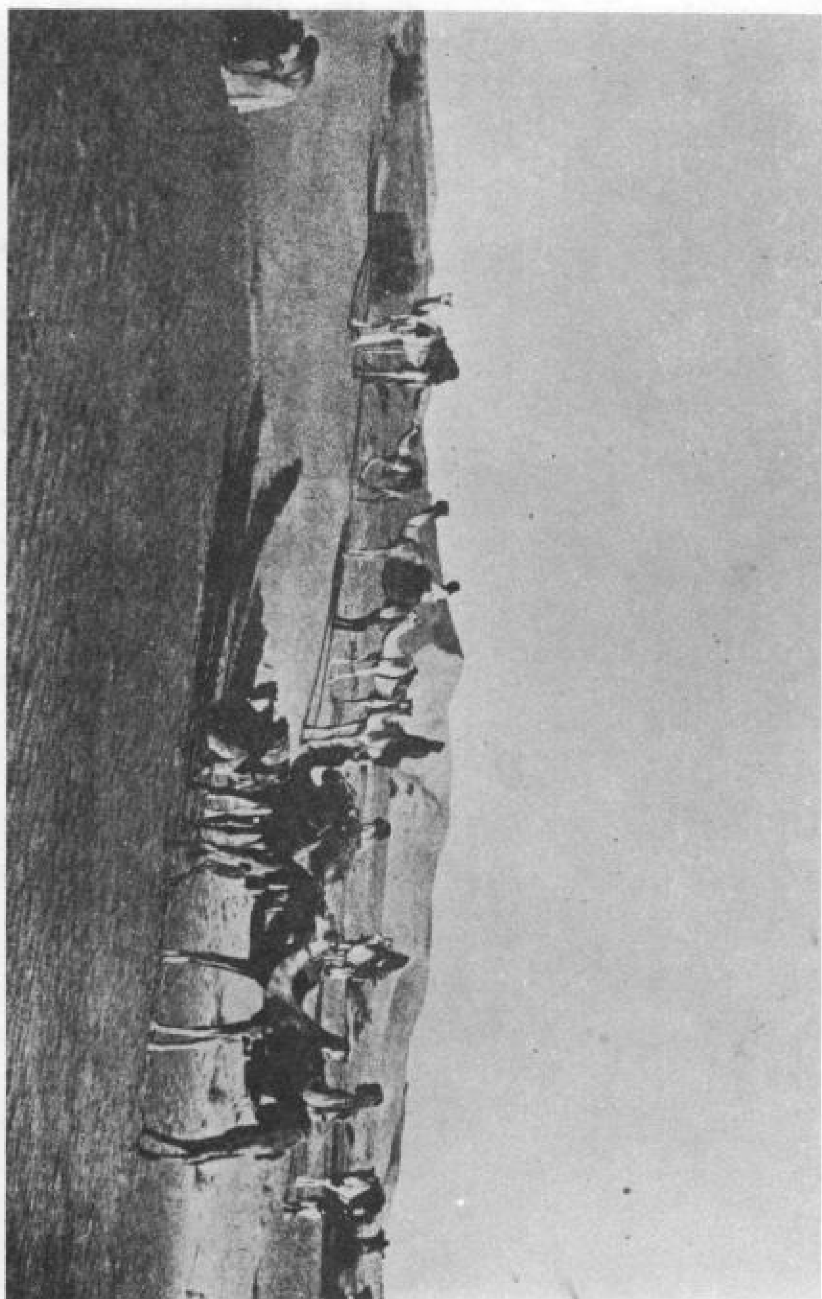
كان وجود ابن هادى من العوامل المشجعة فقد أخذ يكتسب احترامى

وثقتى وكذلك زملاؤه فقد كانوا يحترمونه أيضا باعتبار أنه كان جديرا بمركز والده الذى كان من قبيلة مرة وكان معروفا فى تلك المنطقة وقيل لى بأن والده قد ذبح ما لا يقل عن ثمانية من قبيلة المناصير فى حياته ، ومات شيخا مسنا فى منطقة قريبة من بئر بن هادى •• التى قام بحفرها فى المنطقة والتى سميت كذلك باسمه تيمنا به ، وكانت من الآثار العديدة التى قام بحفرها ، وكان مع حمد ابن أخيه مرزوق منادى القبيلة وابن عم آخر يدعى محمد • وكان ذا مزاج متقلب ، وكان يلبس فى اذنيه سلكين متدليين (يشـبهان سـماعة الطبيب) ان حشو الأنف بالقطن عادة منتشرة فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية والخليج ، والغرض منها هو حماية الأنف من الروائح الكريهة التى يعتقدون أنها تسبب لهم الأمراض •

وكان واضحا أن حمد مصاب بالرمد الحبيبى ، والذى كان يرجع أسبابه الى الزار •• وكنت قد حضرت احدى حفلات الزار تلك فى احـدى الأمسيات ، وكانوا يقيمون تلك الحفلات اذا ما قورنت بالطريقة المعقدة التى كانت تقام بها فى عمان • وان كانت فى الحقيقة تقام بنفس الطريقة ولا تختلف عنها الا فى أنها يتخللها تهيج أكثر يسيطر على الشخص المصاب بالزار والفرق الوحيد بين طريقة اقامة حفلات الزار فى عمان واقامتها فى تلك المنطقة ، هى أنها تقتصر على الرجال فقط ولا يشترك فيها النساء ، والمفروض على جميع المشتركين أن يشاركوا المصاب بالزار التهيج الذى يتخلل الحفل ، كما أن حفلات الزار يشرف عليها الرجال دون النساء ، ويستعملون النار فى اقامتها بدلا من استعمال الدم •

وقد جلس حمد أمام النار ضمن حلقة من زملاءه ، وكان منظم الحفل محمد بن شغيلة يجلس بعده مباشرة ، وقد وضعوا أمامهم مبخرة ، كما أحضر بعضهم أوانى للطبخ ، وبهذه الاستعدادات أصبح المسرح مهيأ للعملية •

وبعد أن رفع حمد شاله ، لفه بشكل مائل ثم صنع منه لثاما وشـالا



(رمال الدكاكة الحقيقية)

وأمسك بطرفيه وأخذ يهز جسمه ويترنح • بينما أخذ زملاؤه ينشدون الأغانى ويصفقون له كما كانوا يقرعون بأيديهم على أكواب مقلوبة ، وقد أخذ المصاب يزداد تهيجا فى حركاته ، وأخذ ينحنى أمام النار التى كاد أن يسقط فيها أكثر من مرة ، لولا أن زميلا له كان يحجزه بعصاه من الأمام ، كما كان من حين لآخر يمسك بالمبخرة ويضعها أمام وجهه تحت الشمام ويستنشق بخورها بعنف بينما أخذ تهيجه يزداد شدة وهكذا استمر فى حركاته تلك الى أن تملكته ما يشبه (الهيستريا) وأصابه الإعياء ، وقد أمضى ساعة بطولها على هذه الحال •

غادرنا المخيم الذى يقع على الشمال من عين ماء بلعشوش ثم بعد مسيرة ساعتين غربا وصلنا الى تل كبير يشبه حدوة الحصان يسمى الجليل ، وقد تحولت ألوان الرمال الحمراء الى ألوان خضراء شديدة الخضرة بسبب الأعشاب التى كانت تغطيها •

كان ذلك اليوم هو اليوم الأول من عيد الميلاد ، ولكن البدو لا يحتفلون بتلك المناسبة بل ولا يعرفون عنها شيئا • والواقع أن اثنين من المرافقين من قبيلة الرواشد كانا يعرفان أيام الأسبوع ، ولقد حاز المكان اعجاب ورضى كل من كان فى القافلة بسبب وجود المراعى • لذلك قررنا قضاء يوم فى ذلك المكان نخرج فيه للصيد •

وعند نزولى من فوق البعير جاءنى حمد صاحب حفل الزار ولم ألاحظ على عينيه أى تحسن وان كان قد حاول أن يقنعنى بأنه كان يشعر بتحسن فى عينيه وكدليل على ذلك أشار إلى حشوة القطن التى سحبها من أنفه وعلقها فى عنقة كإجراء احتياطى • ولعل حمد كان من جيل جديد لا يؤمن بالعلاج الروحى لأن قبيلة مرة كما يقال لا تمارس السحر ، فيما عدا سكان المنطقة الجنوبية المعروفين التى انتقلت اليها عقيدة السحر من قبيلة الرواشد التى كانت تزاول تلك المهنة هى والقبائل التى تسكن السهل الجنوبى •

أمضيت بقية اليوم والبندقية فى يدى أتجـول بالقرب من المخيم • ولدهشتى فإننى لم ألاحظ أثرا لأى حيوان سوى الأرنب • وذلك على عكس منطقة السـهل الجنوبى التى سـبق أن مررنا بها ، وكنا نشـاهد آثار أقدام الثعالب وبقر الوحش ، بالرغم من أنهـا كانت من المناطـق الجافة ، لقد أصبحت خبيرا فى اقتفاء آثار الحيوانات ، حتى أننى كنت أعرف أنواع الحيوانات الرملية من غيرها •

ومن الأمور التى اكتشفناها أن منطقة الدكاكة قد اجتاحتها أسراب من الأرانب الوحشـية ، لأن معظم الأكمات التى مررنا بهـا كان بهـا سراديب حديثة العهد ، وكان من عادة البدو أن يدخلوا أيديهم فى تلك السراديب لاستخراج حيواناتها ، كما كنا نشـاهد من وقت لآخر أرنبا نائما تحت ظل إحـدى الأشجار وكنا نقترب منه ببطء حتى لا يشعر بنا . وحينما حان موعد العشاء جيء بالأرنب المسلوق فى وعاء •

خرجنا مبكرين فى اليوم التالى وبعد قليل مررنا على مجموعة من التـلال الضخمة تشبه حدوة الحصـان وكان فى تلك المنطقة بعض عيون كعين المشرومة والضبربى • وكنا أنا وحمد فى المقـدمة ونزلنا من فوق الجمـال ، بينما هو أخذ يتقدم ببطء نحو أحد التلال التى لفتت انتباهه وهمس فى أذنى بأن أظل فى مكانى بينما يستمر هو فى زحفه نحـو التل محتميا وراء كثبان الرمل ، ولكنه عاد بعد برهه ليقول بأن الشيء الـذى اشتبه فيه ليس فى الواقع الا أحد التلال الصغيرة وليس عدوا •

ويبدو أن حمد كان يجيد الرماية ، وكان مشهورا بشن الغـارات فى البـوادى وسبق أن أغار بمفرده على مناطق قبيلة الصيعر وقتـل عددا كبيرا من أفرادها وهو لم يـكن يتوقع أن يعيش حتى ذلك الوقت بسبب اعمال القتل التى ارتكبها وإذا قدر له أن اعترض طريقه بعض قبائل الغزو الكبيرة فإن وضعه هذا مضافاً لذلك ما عليه من ثأر لقبيلة المناصير كان يسبب له قلقـا مستديما وخوفا من المجهول • وعندما كنا نسير كان

يستوقف موكبنا من وقت لآخر ليستطلع المنطقة • وعندما كنا نخيم للمبيت فى احدى المناطق كان هو يتسلل من بيننا خفية ليستطلع المنطقة خوفاً من من أن يكون هناك عدو متربص ويعود إلينا فى آخر الليل بعد أن يكون قد اطمأن إلى خلو المنطقة من أى عدو ، وأننا يمكن أن نشعل النار — ونحن مطمئنون •

إلى الشمال من مخيمنا كانت تقع عين الورقاء وهى نفس العين التى مر بها المبعوثان اللذان أوفدتهما من ظفار للبحث عن قبيلتهما [1] • للترتيب للرحلة • كما أنه المكان نفسه الذى أصبح الآن مراعى للقطعان الكبيرة •

تعتبر تربية الإبل فى تلك البيئة الصحراوية قَدَرَ كل إنسان يولد فيها • فكل انسان يعتمد عليها فى معيشته ، فمن لبنها شرابه وطعامه ومن وبرها ملبسه ومأواه • فالحياة فى تلك البيئة القاسية بحث دائم عن بقعة خضراء أو مرعى • والمطر نعمة الله الكبرى • أما البوق فهو وقود تلك البيئة ومصباحها • وما يجرى فى العالم الخارجى من أحداث وتطورات فلا أحد فى تلك البيئة يعرف شيئا عنه ••• كما أن قيام الدول أو سقوطها لا يعنى شيئا بالنسبة لسكانها •

وكذلك فإن القوى الروحية — كنقيض للمفاهيم العلمية — التى تسعى لإسعاد البشرية وكذلك قوى الشر التى تسعى إلى خراب العالم ،

---

(١) •• يعتبر الطريق الذى سلكه الوفد ذا اهمية بالنسبة لتحديد خطوط الرجعة لقبيلة الرواشد خلال تقهقرها أمام هجوم الصيعر • فمن الشصر اتجه الرسل نحو الشمال الشرقى على امتداد منطقة أم الحياة ، ومنها شقوا طريقهم عبر رمال أم الضرطة نحو منطقة غانم حيث وردوا — الماء فى منطقتى « حسفوت » و « البطين » ، ثم منها الى الشمال الغربى عبر مستنقعات وتلال الملح فى منطقة الماجورة ثم الى رمال « حبق » حيث وردوا الماء للمرة الثانية فى « الضعين » ثم منها عبر الجنوب الغربى الى « عين الندى » المحاذية ثم عبر رمال الدكاكة الى « نبع الوريقة » •

وكذلك الأجناس واللغات والطبقات . كل تلك الأشياء يجهلها سكان تلك القفار ولا يهمهم من أمرها شيئا . إن البدوى لايزال يتمسك بالحياة البدائية التى عاشها آباؤه منذ الاف السنين وسيظل يعيشها أبناؤه من بعده . فهو يمقت حياة المدن الهادئة . والقانون الوحيد الذى يحكم تصرفاته هو إظهار منتهى القسوة نحو أعدائه . ومنتهى الرقة والود تجاه أصدقائه .

إن المراعى [١] هى العناصر الأساسية للحياة فى الربع الخالى . فالمراعى فى فصول الشتاء تحتاج إلى رى متواصل كل خمسة عشر أو عشرين يوما على الأقل ولكن اذا ازدهرت المراعى نتيجة نزول الأمطار فإن السكان لا يضطرون إلى الاقامة بالقرب من موارد المياه لفترة يحتمل أن ـ تمتد شهرين لا يذوق البدو خلالها طعم الماء . ويكتفون بلبن الإبل [٢] . أما فى الصيف عندما تتحول مناطق الرمال إلى كتل من اللهب ويستحيل على البدو البقاء فيها فان القطعان تحجز فى منطقة لا تبعد عن موارد المياه أكثر من مسيرة ـ يومين لأنها فى تلك الحالة لا تشرب كل يوم بل يوما بعد آخر [٣] .

---

(١) .. المرعى أو الطعام ويسمى بلهجة قبيلة الرواشد عموما « المعاش » . ويعتبر البدوى أشجار السمر من افضل انواع العلف . وينمو هذا النوع من السمر بكثره على المرتفعات التى يصل ارتفاعها الى ١٢٠٠ قدم ... النوع الثانى من العلف هو « الأبالة » او الزهرة .. وهو فرع من العشب الذى ينمو فى التربة الرملية بعد نزول الأمطار او الندى ـ كما يوجد علف آخر يسمى « الصفوت » ينمو فى المرتفعات الجبلية مثل « المرخ » الذى ينمو فى كل من المناطق الرملية والمرتفعات ـ بعد ذلك يأتى الغاف والسلم .. (والمعروف محليا باسم الحرض) ثم توجد الى جانب ذلك انواع أخرى من العلف .. ولكن الأنواع الأولى هى الأساسية فى الصحارى الجنوبية فى الربع الخالى .

(٢) .. معروف ان بعض قبائل مرة تزور تلك المنطقة من وقت الى آخر لتمضية الصيف فى الدكاكة نظرا لعذوبة الماء فى تلك المنطقة .

(٣) .. الجمال التى تشرب كثيرا تسمى (شويرب) .. واما الجمال التى =

وفى المناطق الأكثر ارتفاعا عن سطح البحر كالسهول الجنوبية حيث المراعى الدائمة — على عكس المناطق الجبلية — فان الأهالى يدخلون الجمال فى الكهوف فى الصيف لحمايتها من حرارة الشمس ، ولا تخرج منها الرعى إلا بعد انخفاض درجة الحرارة ، أما سكان مناطق الرمان فانهم فى الصيف ينتقلون من مرعى الى آخر ومن عين الى أخرى بحثا عن الماء والمرعى وفى فصول الشتاء عندما لا تصبح للمياه أهمية ، وتتوفر المراعى بكثرة فى منطقة من المناطق فان تحركات البدو تتم خلال النهار فقط مع توقف قد يستمر يومين أو ثلاثة فى كل مرة ، بينما الحيوانات تستمر فى السير ببطء عبر المتاهات الواسعة وبدون توقف ، وتقوم مجموعة الاستطلاع بتحديد المناطق التى يمكن أن تتحرك فيها القطعان وتتألف كل مجموعة من شخصين ويسمى الواحد (طواف) ، وعلى المكلفين بالاستطلاع أن يسيروا بسرعة ويتحركوا ضمن مسافات بعيدة . وفى الصيف تستغرق عملية الاستكشاف أسابيع عديدة يعيش فيها المكلفون بها على اللبن فقط الذى يتزودون به قبل القيام بالرحلة [١] .

أما فى فصل الصيف فان البدو يقاسون الأمرين من حرارته الشديدة ، لأن النوم فى العراء يصبح مستحيلا فى أوقات النهار وعندما يأتى الليل لا يبقى لديهم وقت للنوم . لأنه الوقت الوحيد الذى تستطيع القوافل أن تتحرك فيه . ألا ما أقسى المهمة الملقاه على عاتق أولئك الرجال الذين يتوقف عليهم مصير الأمور ؟ إنهم لا يفكرون فى قرب اللبن وما اذا كانت تكفيهم أم لا لأن ذلك ليس مهماً فى نظرهم ، ولهذا نراهم يعودون الى مرابضهم متأخرين يوما أو يومين وصائمين أيضا .. وهذا يحدث للجميع ، فلابد أن يكون الشيخ صالح وغيره من قبائل البدو قد مروا

= تبقى فترات طويلة بعيدة عن أى مورد للمياه فتسمى (جازى) للمفرد .. و (جوازى) للجمع .. و (ناش) او نيش (للمفرد) ونواشى للجمع بلهجة قبيلة الرواشد ..

(١) بعد اليوم الخامس فان اللبن بطبيعة الحال يتخثر ، اما اذا كانت المسيره طويلة فان البدو يضيفون اليه الماء .

بمثل هذه التجربة ، فلا غرابة والحال هذه أن يكون للبن الناقة تلك الأهمية البالغـــة لأنه عصب حياتهم •

ألم يــكن النبى صلى الله عليــه وسلم هو أول من أشـــاد بلبن الناقة ؟ استمعوا الى الحـــوار الذى دار بينه وبين أحد أصحابه بعد أن عاد الأخير من احدى الولائم •

الرســـول : مـــاذا قدموا لك ؟

صاحب الرسول : لحم الإبل •

الرسول : ذبحهـــا لك مضيفك ؟

صاحب الرسول : وأكلنا أرزا •

الرســـول : لقــد أكــرموك •

صاحب الرسول : وأكلنا تمرا •

الرســـول : لقــد أرضــوك •

صاحب الرسول : وقدموا لى لبن الناقة : ؟

الرسول : كفى •• لقد أولموك[١] •

فى اليــوم الرابــع اســـتأنفنا الرحلة فى الجـــانب الغربى نحــو تل الغطفية ، وكان تلا كبيرا كنا نشاهده من مخيمنا ، قبل خروجنا ووصلنا بعد مسيرة نصف ساعة •

وفى التجــاويف الجصية لذلك التل المواجـــه للجنــوب الغربى ،

---

(١) لم اقرأ هذا الحديث فيما قرأت من احاديث نبوية .   (المراجع)

شاهدنا آثار مجموعة من المخيمات بالقرب من موارد الماء وهو ما لم يكن مألوفا فى تلك المناطق الرملية ، ولعلها كانت آثار بعض القبائل التى كانت قد وردت الماء خلال الصيف الماضى •

وقد نزل حمد من فوق جمله ، دون أن ينيخه كما يفعل البدو وسلم مقوده الى ابن أخيه وذهب هو الى التل ، ثم دخل فى احدى فتحاته لكى يبحث ما اذا كانت بعض القبائل الغازية قد نزلت فى ذلك المكان ، ثم عاد من هناك وهو يؤكد بأنه لم يعثر على شىء وان كان قد رأى آثار بن حام (الذى كان أحد أفراد الفريق الذى انتهت مهمته عندى وكان متجها الى منطقة الحبوبة لاستئجار بعض البدو) •• والذى تبين أنه قد مر بتلك المنطقة قبل ثلاثة أيام سابقة •

وقد أخذنا نسرع الخطى ، فوصلنا الى عين الشنه التى كنا متجهين اليها وكان من المتوقع أن نصلها قبل ثلاث ساعات من ذلك الوقت ••• وكانت فى استقبالنا طليعة الحرس التى كانت قد تقدمتنا الى المنطقة ، وكانوا يصيحون : جو •• جو ؛ أى جاءو •• جاءو وكانت الطليعة تتألف من محمد بن مبارك الكربى الذى رافقنى الى عين الماء لفحص الرمال والضفاف ، ثم ابتسم وطمأننى على أنه ليس ثمة خطر علينا فى هذه المنطقة • وربما كان يرمى من وراء ذلك الى مداعبتى طمعا فى أن أعطيه كمية من الذخيرة ، أو ربما كان ذلك على سبيل المزاح منه ، وعلى أية حال فيبدو أننا قد نجحنا ، وان كنا بقينا نستشعر بأننا لا نزال معرضين للغزو ، وقد أخذ حمد على الفور منظارى وتوجه الى قمة بأعلى تل فى المنطقة ، ولم يعد الينا الا فى المساء •

الفصل السادس عشر

عين الشنة ـ استراحة قبل الاندفاع الى الشمال

كان الوقت قبيل شهر رمضان ، وكان القمر بدراً مكتملا . وهو دائما يثير مشاعر مختلطة فى النفس لأن عملية الرصد فى مثل تلك الأحوال عملية غير مريحة ، كما أن ضوء القمر فى تلك المنطقة ـ يعتبر حليفا للذين يتخذون الغزوات والغارات حرفة لهم ، والمزية الوحيدة لليلة المقمرة هى أنها كانت تساعدنى على تسجيل قراءاتى بسهولة حينما أكون مسترخيا بالقرب من نار المخيم .

وكان عشاؤنا فى تلك الليلة هو لحم الإبل ، كانت عندنا ناقة عليلة حالتها ميئوس منها ، وكان الحل الوحيد أمامنا هو ذبحها وأكل لحمها ، وكان نوع الوسم فى جسم تلك الناقة يدل على أنها كانت من إبل قبيلة (الجنبة) .. الذين ربما استولوا عليها من غنائم فى إحدى الغارات التى شنوها ، وكانت من فصيلة أصيلة من فصائل الابل .

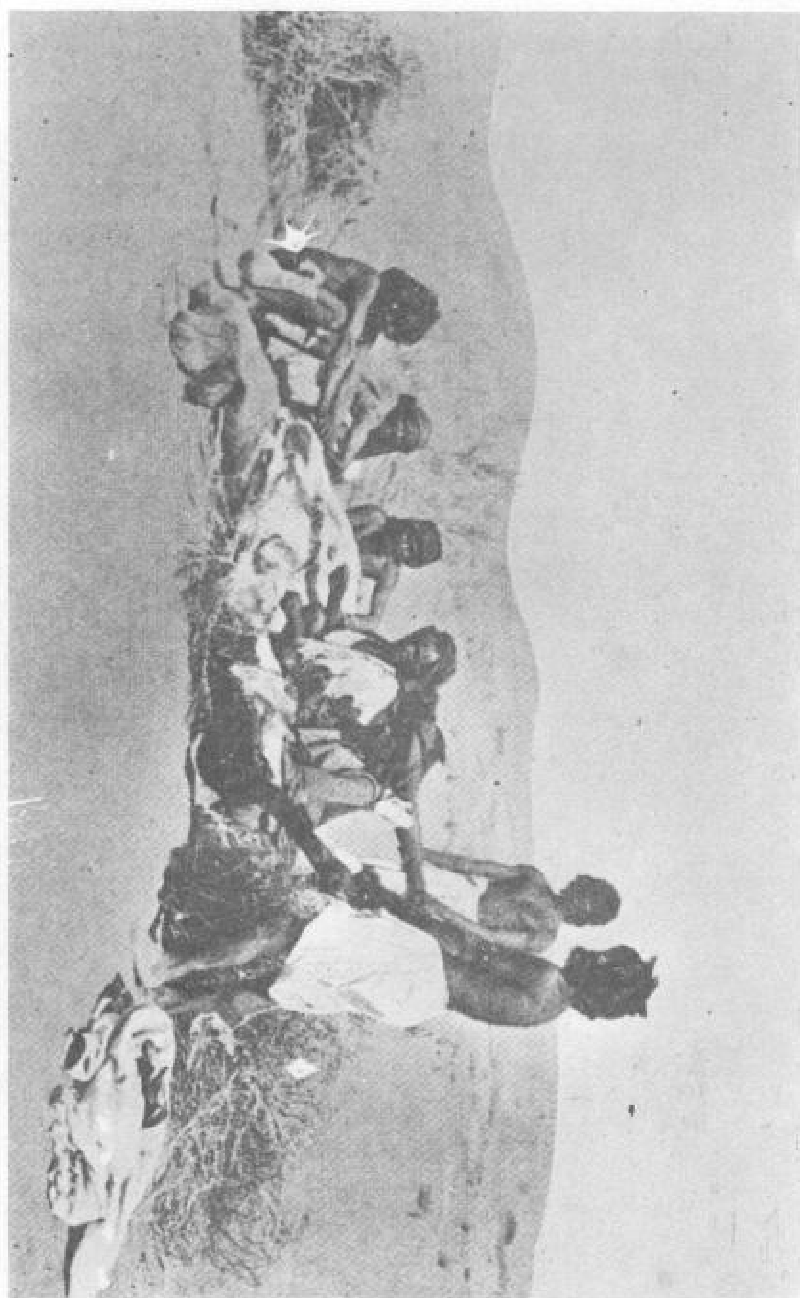
ولتلك المناسبة ـ سألت خويتم الذى ينتمى الى قبيلة الرواشد ، ومن سكان ظفار ، والذى كان من بين الأشخاص الذين كلفتهم ببعض المهام ، سألته عن رأيه فى طعم لحم الابل ، بالقياس الى لحم البقر . فأجاب :

أنه أحسن بالطبع .

فسألته : وما رأيك فى لحم الضأن ؟

أجاب كلحم البقر تنقصه نكهة لحم الابل .

وما هى الأجزاء المفضلة من لحم الابل ؟



(منظر لذبح ناقة)

بالنسبة لصغار السن فهى الأضلاع السفلى ، أما بالنسبة لهذه الناقة فالأرجل ، وما رأيك فى مخ عظام الفخذ ؟ •• فأجاب أنه أشهى كل أنواع اللحم ، انتظر وسوف ترى بنفسك ، ثم عدت أسأله : وكيف ستعدونه ؟ محمرا أم مشويا (فى المرتفعات يتم شى اللحم على كومة من الحصى ، على طريقة العصر الحجرى) •• فأجاب : سوف نشويه على النار ولكن للأسف لا يوجد ملح فلو كان عندنا ملح فسوف تحكم بنفسك على الحساء •• ولكنى قلت لنفسى انما هو الحب الأعمى للحم الابل • غير أنه لابد أن أقول رأيى فى لحم الابل • إنه لحم خشن ومتليف جدا وأن سلقه فى ماء ملح بدون إضافة أى نوع من أنواع الدهون اليه ، فانه سوف يكون كريه الطعم وعسر الهضم •

وأخيرا جاء البدو ببنت شنتوف •• وهى الناقة التى تقرر ذبحها ، فأبركوها ثم حفرت حفرتان تحت رجليها الأماميتين ، ثم شدوا جسمها بالحبال ، وبعد أن أمسك أحدهم بذيلها وقام آخر بثنى فكها لتحريك رأسها الى الخلف حتى تفقد كل مقاومة ، قام محمد الخبير بالذبح ، أكثر من خبرته بالطقوس السحرية واستل خنجره ، وبعد أن انحنى فوق الناقة بحيث لامس الأرض بوجهه ، طعنها بالنصل فى تجويف العنق ؛ فانفجر سيل من الدماء ، وكان وهو يحز رقبتها يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) بينما كان مستمرا فى حز رقبة الناقة بسكينه حتى غاصت فى قصبتها الهوائية ومنها الى العظم بينما غرقت يده وساعده فى بركة من الدم • وبعد أن أخذت الناقة تترنح سقطت على الأرض •

وما إن تمت عملية الذبح ، حتى كان البدو فى قمة السرور والابتهاج وهم يمنون أنفسهم بوجبة دسمة • ثم بدأوا فى سلخ جلد الناقة وتقطيع أجزائها ، وقسموا لحمها خمسة أكوام بعدد مخيماتنا الخمسة ، وقد وضعت أكوام اللحم على الأرض ثم بعد ذلك تم الإعلان بالطريقة

البدوية عن توزيع كميات اللحم بين المخيمات . فتقدم خمسة منهم كـل واحد يمثل مخيمه وفرش أحدهم كوفيته على الأرض ووضعت كل مجموعة منهم خرطوشة الكوفية — كعلامة تميزها ، ثم طويت الـكوفية وجـرى مزها ، ثم طلب الى أحـدهم بأن يتقـدم ويختار خرطوشـة من تلك الخراطيش : فمن خرجت خرطوشته أولا من حقه اختيـار الكوفية التى تروق له : وهـكذا تكررت هـذه العملية أربع مرات . ومـع اختيـار الخرطوشـة الأخيرة تلاشـت آخر قطعة من لحم بنت شنتوف كانت على الأرض .

ثم تفرق البدو بحمـاس منقطـع النظير للبحث عن الحطب لأن من عادتهم عند ذبح أى حيـوان أن يسرعوا فى طهيه : لأن الطبع العـربى ومناخ الجزيرة العربية لا يسمحان بترك اللحم فترة دون شى أو طبخ خوفا من أن يفسـد . وقد لاحظت أنه عندما اقتيدت الناقة الى مـكان الذبح فانهـا كانت تئن ، ربما لإرضـاء شعور أصحابها وهم جـلوس أمام نار المخيم صحيح أنهم لن يأكلوا لحم الناقة كله فى يوم واحـد . فلابد للاحتفاظ بجزء منه للطوارىء : وقد تم تقطيع الفائض عن الحاجة من اللحم الى قطع تم تجفيفهـا على نمط اللحم القديد ، وقد تـم ذلك بتعريض اللحم لحرارة الشمس فوق ظهور الجمـال أثناء السير ، وكان البدو يقضمون اللحم بين حين وآخر ويرددون على مسـامعى أن لحمـه لذيذ .

بعد صلاة المغرب اجتمع القوم حول بطن أم شنتوف اللامع ، وكانت الوليمة موضوعة فوق سمة صغيرة ، وحفر تحتها فى الرمل ثقب مستدير ، قطره نحـو ياردة يحيط به جلد عنق بنت شنتوف . وقد ثقبت مثانة الناقة عدة ثقوب لاستقطار سائل أصفر منها . ثم شرب أحدهم شيئا من ذلك السـائل ، وأعلن أنه لذيذ الطعم ، ثم أخـذ الجميع واحدا بعد الآخـر



(الرشدان اللذان عملا معي من مرة : حمد بن هادي وطالب)

يشربون من ذلك السائل ويرددون أنه أفضل بكثير من ماء المناطق الرملية المـــالح [١] •

كالعادة لم أنهض من مرقدى مبكراً ؛ ولكنى عرفت من خادمى محمد ، بأن البدو بمجرد أن استيقظوا على صـــوت المؤذن هرعوا الى ذلك السائل يعبون منه عبا • وسط موجـــة من الحماس والابتهاج ، ثم اصطفوا لأداء الصـــلاة •

فى الشنة حضر أحـــد المرافقين ومعه حجر يشبه رأس السهم وقال لى أنه عثر عليه بالقرب من العين ، غير أن ذلك لم يكن صحيحا ، والحقيقة أن الحجر من منطقة سنام ، وهو يشبه رأس رمح لإحدى قبائل العرب . ولكن البدوى لم يكن يعرف مصـــدر الحجر ، ثم علمت أن مثل ذلك الحجر يوجـــد فى الرمال ويستعملونه كقداحة لأشعال النار ، وعندما عرضت الحجر على محمد بن هـــادى وطلبت منه أن يبحث لى عن أنواع أخرى لى منه ؛ لم يعر الموضوع اهتماما ، وقال بأنه لا يهتم بالآثار كمـــا أكدلى بأنه يمكن جمع مثل ذلك الحجر من منطقة لاتبعد أكثر من مسيرة يوم واحـــد من الجهـــة الغربية ، وأن هناك أنواعا أكثر أهمية من ذلك النوع ، وقال بأن تلك الأحجار هى من بقايا العصـــور الجاهلية ، واسم المكان الذى قال انه توجد به تلك الأحجار والذى يقع فى منطقة رمال الجامعات (شغل المصور) وهو اسم يبدو أن صحته (وادى الصـــور) •

لم أشأ أن أترك المرافقين وأتوجه الى تلك المنطقة ؛ ولذلك أوفدت اليها حمد ليجمع بعضـــا من العينات نظير مكافأة معينة وعدته بهـــا وقد

---

(١) .. على نقيض القبائل سكان المنطقة الجنوبية ، فان قبيلة مرة ، كما قال لى حمـــد ، لاتستسيغ ذلك الشراب الا اذا اضطرت الى شربه عند اشتداد العطش ، أما قبيلة الرواشد فتسميه (الثد) ويبدو أن الثاء هنا حلت محـــل الفاء ، وهو شىء لاحظته فى كلمات أخرى •

عاد حمــد بعد ٣٦ ساعة ومعه حجر مضلع طوله نحــو قدمين وحجر آخر دائرى متناسق الشــكل طوله نحــو قدم ونصف ، بدا لى كأنه تجويف حوض إحــدى الزواحف القديمة ، وذلك بالإضافة إلى عينات طريفة أخرى تشبه حجر الجن ، ولا أشك فى أن الطبيعة كان لها دور فى تشكيل تلك القطع الحجرية بتلك الأشكال ٠٠أما الحجران الكبيران فكانا يشبهان عظاماً متحجرة، غير أنه تبين لى بعد الفحص أنهما كانا مجرد نوعين من الأحجار الرملية التى تصلبت بفعل مرور الزمــن ٠

وما إن عاد حمد من تلك المنطقة حتى ألقى بالعينات على الأرض بينما أخذ زملاؤه البدو ينظــرون إليه فى استياء لأن إحضاره تلك الأحجار معناه مزيد من الحمولات على الجمال وقــد قلت له إننى لا أعرف أصل تلك الأحجار ، ثم سألته إن كان يعرف هــو شيئا عنها ٠ فأجاب بأن العــالم هو الله ، ولكنها من مخلفات بنى هلال ، وما إن قال تلك الجملة حتى أخذ زملاؤه يهزون رؤوسهم تأييداً لقوله ٠

إن بنى هلال فى شبه الجزيرة العربية ، أو بالأحرى بين سكان شمال أفريقيا اسم مشهور لإحــدى قبائل العرب القديمة التى انقرضت فى الوقت الحاضر ، والتى تعزى إليها كل الأعمال البطولية فى الماضى ، كمــا أن اسم تلك القبيلة يتردد على شفاه العرب ، كل العرب ٠

كما أن المواويل الشعبية التى يرددها البدو فى الصحراء الجنوبية تعزى إلى تلك القبيلة كما أنه لايوجــد بدوى واحد إلا ويحفظ ملاحم تلك القبيلة، ويرددها بعفوية ، وقــد سمعت كثيراً من القصص عن تلك القبيلة وكلهــا لا تختلف عن بعضها البعض ، وكان لتلك القبيلة بطلها المعروف (أبوزيد الهلالى) ، قد دُعِىَ كذلك ليس لأنه كان له ولد بهــذا الاسم ، وإنمــا اعترافا له بصفات الشجاعة والبطولة التى كان يتحلى بها ٠٠ أما عنترة فشخصية مجهولة عند سكان الربع الخالى بينمــا قصص أبوزيد الهلالى

وقصص دياب بن غانم أحد أقاربه ، وهو بطل آخر من أبطال تلك القبيلة — فقد كان الحديث عنها دائما وكثيرا .

ويعتقد سكان تلك المنطقة بأن مواطن بنى هلال هو (وادى مرضه)، وهى المنطقة التى تستوطنها قبيلة (الدحم) ، ولاتزال هناك آثار لبئر الجومة الكبيرة كشاهد على تراثها المجيد كما أن كل فرد فى القافلة بما فيهم الشيخ صالح كان يحفظ مواويل بنى هلال ، وهى تتحدث بإعجاب وحماس وتحكى كيف أن تلك القبيلة كانت تملك ما بين مائة ألف ومائتي ألف من الخيول ، كما تتحدث كذلك عن أتباع أبو زيد الذين كان يصل عددهم الى ألفى نسمة ، ولكن الجفاف أصاب موطنهم حيث انقطع المطر لمدة ثلاثين عاما ، وأخذت الجمال تأكل شعر بعضها البعض ، ثم نفقت بينما كان أصحابها يحفرون بحثا فى الأرض عن عروق النباتات ليقتاتوا بها حتى أن صبغة الورس على أحد مرتفعات مرخه بقيت كما هى ، وبعد سنة من ذلك الحادث ، وعندما اشتدت الضائقة بالناس توجه أبناء شيخ بنى هلال إلى والدهم وقالوا له : إن الأهالى يموتون جوعا ولابد أن نأخذ من الأغنياء لنعطى الفقراء ، ولكن والدهم أبى أن يوافقهم على ذلك ، حتى — أنه فضل الجوع لنفسه ، وهكذا خيم الحزن على ربوع تلك القبيلة .

على أن معظم تلك القصص والروايات حدثت بالجيل الثانى من تلك القبيلة ، عندما أصبح بنو هلال مجرد قبيلة من البدو الفقراء يشنون الحروب على سكان رشا ومليكهم الزناتى .

وكان أبوزيد ساحرا ، تعلم السحر من أمه التى كانت من الجن ، وبسبب ذلك كان لايؤثر فيه الحديد سواء كان سهما أو رمحا أو سيفا ، وقد ظل هكذا الى أن نطق بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله — فتخلى عنه الجن وأصبح مثل كل الناس ، يمكن لكل فرد إذا أراد أن يقتله .

وربما كان بعض تلك الروايات جديرا بالنشر ، وسوف أعود إلى تسجيلها فى الفصول التالية حسبما سمعتها من رواتها حينما كنت هناك .

كان موقعنا فى الشنة ــ التى تقع إلى الشمال الشرقى من حضرموت . على خط عرض ١٩° شمالا ، وخط طول ٥٠ر٤٥° شرقا ، وعلى ارتفاع ٩٩٠ قدما ، وكانت وجهتنا الدوحة فى شبه جزيرة قطر على الخليج . التى كانت على ارتفاع ٣٣٠ قدما ، وكانت أسراب الغربان تطير على تلك المنطقة ، وادعى حمد بأنه قد زار تلك المنطقة ، ثم أخذ يشير بعصاه فى اتجاه الشرق الشمالى وكان ذلك يتوافق تماماً مع التحليل الفلكى لموقع المنطقة . ولكنى مع ذلك لم أحاول أن أظهر لــه بأن تحديده كان صحيحا .

وبفضل (الربعة) أى الأمان ، من قبيلة مرة تبلورت خطة العمل . ولقد تم الاتفاق على أن نخفض عدد أفراد القافلة ، إلى ١٢ فردا فقط ، من أكفأ الذين كانوا فى المجموعة خاصة أصحاب الجمال القوية على حمل المؤن ، بالإضافة إلى خمسة من أقوى جمال النقل ، غير أنه كان من المستحيل فى نفس الوقت أن نلجأ إلى تخفيض العدد إلى أكثر مما يلزم وذلك تجنبا للطوارىء .. وعلى ذلك الأساس فإن امكانياتى لم تكن تسمح باتخاذ استعدادات إضافية ، ولكن البقاء وسط تلك الرمال كان يعنى الموت المحقق . كما كانت حالة الأفراد والإبل الصحية أمراً جوهريا ، كذلك فقد كان ضروريا أن تكون المسيرات طويلة ومتواصلة ، لأن فقد أى ناقة أو جمل أو إصابته بمرض ، أو تعرض قافلتنا لأى عملية غدر ، أو معارضة من إحدى القبائل ، كان يعنى كارثة ماحقة ، وكان أول شىء وضعناه فى اعتبارنا هو أن نقطع تلك المتاهات والأخطار فى أقصر وقت ممكن ، وكانت هذه الاعتبارات هى الشغل الشاغل لحمد فى كل يوم .

وعلى أية حال لم نكن متأكدين من نجاحنا فى مهمة عبور الصحراء ، فلو كانت طريقنا خالية من المراعى فإننا سوف نكون بين خيارين : إما

مواصلة السير والمجازفة بأرواحنا ، أو العودة إلى الوراء للنجاة ، غير أن وجود عناصر ذات قوة بدنية وجمال فى حالة صحية جيدة فى المناطق المتقدمة من خط السير سيكون الحل الأمثل • تلك كانت النقطة التى وصلنا اليها إذ أن الشنة تعتبر من النقاط الرئيسية الاستراتيجية فى عبــور الصحراء ، ونقطة التبادل الأخير لمراحل الرحلة •

إن ما طرأ من تحسين على مخزوننا من المؤن بعد ذبح الناقة ، أخذ يتناقص بعد وصول خمسة من قبيلتى الكرب والمناهيل ، ضيوفاً علينا ، وكانوا قادمين عبر منطقة الرمال (أبوظبى) على مراحل بطيئة ، وكعادة البدو فإنهم لم يفصحوا عن شىء عندما سألتهم عن حالة الطريق الذى سلكوه فى رحلتهم ، فقد أشاروا بأيديهم إلى ناحية من النواحى ، ولهــذا رأيت ألا أكرر عليهم السؤال •

وعلى أية حال فقد كنت أتوقع بأنهم لن يطيلوا الإقامة معنا ، غير أن صحاف التمر وأقداح القهوة التى أخذت تتوالى أغرتهم بالبقاء • وأخيرا تأكدنا أنه طالمــا استمر الرواشد فى سخائهم ذلك ، فإن الضيوف لن يغادروا المخيم •

وقد اقتنع حمد أخيرا بأن الوضع يستدعى أن نقتصد فى المؤونة وعلى الأخص وأن شهر رمضان كان على الأبواب ، ولكن إطعام الطعام يرقى عندهم إلى مرتبة القداســة فضـــلا عن أن حرمان الضيف سيكون مصدر عار على رجال القافلة ، أما نظرة زملائى الى ذلك الموقف الحرج فتتضح لنا من مضمون إحــدى الأساطير التى يعزونها إلى أبوزيد الهلالى •

كان أبوزيد الهلالى فى عصره مشهورا بالكرم ، ولقد ذبح جميع ماكان يملك من إبل لضيوفه من الفقراء والغرباء وأخيرا اجتمعت كل قبائل بنى هلال ليتدارســوا الأمر وقرروا أن يتبرع كل واحــد منهم بجمــل لأبى

زيد حتى تعــود إليه ثروته من الأبل •• ونفذوا ذلك الاقتراح ، غير أن كثرة ضيوف أبى زيد وكرمه الزائد قد أخلى يده من الأبل مرة أخــرى •• وعندئذ تأكد بنو هلال ألا ّفائدة من إعطاء أبوزيد ناقة أخرى ، ولكنهم قرروا أن يقدموا له ناقة واحدة فقط يستعملها هو وزوجته فى تنقلاتهما غير أنهم اشترطوا عليه بأن يتعهد لهم بعــدم ذبح تلك الناقة مهما كان الأمــر ، الا أنه كان من المؤكــد أنه سيفعل ، وقــد وافق أبوزيد على شرطهم •

ثم انقضت شهور وشهور على بنى هلال وهم يرابطون بقطعانهم فى المخيمات ، وفجأة وصلت قافلة من العرب قادمة من مكة وأخــذ أفرادها يسألون كل من يقابلون من الناس عن مخيم أبوزيد ، وأخيرا دلوهم عليه فســاروا اليه حتى وصلوه وعندما سمعهم أبوزيد وهم يسألون عنه ، نادى زوجته وقال لها : أعصبى عينى حتى لا أرى وجــوه ضيوفى وأنا لا أستطيع أن أقوم لهم بواجبات الضيافة فأحضرت قطعة من سلال التمر وعصبت بها عينيه •• وبعد برهه سألها : هل استقبل أحــد من الأهالى أولئك الضيوف ، فأطلت من المخيم وردت عليه بالنفى ــ فسكت وعاد يسألها : أنظرى هــل استقبل أحــد الضيوف ــ فردت عليه لقد انتقلوا الآن إلى مخيم آخر ، وهكذا كان يسأل زوجته بين الحين والآخر وكانت ترد عليه بنفس الجواب حتى غضب ولم يعد يحتمل ذلك الوضع ، فمزق العصابة ، وتناول السكين ونحر الناقة التى كانت لديه عند باب مخيمه ، ثم دعا الضيوف للاشتراك فى الوليمــة •

على كل حال فقد كان شعورى نحو أولئك الضيوف الثقلاء الذين نزلوا علينا يختلف عن شعور أبوزيد لأن ضيوفنا كانوا فى طريقنا إلى موطنهم فى المرتفعات الشمالية الشرقية من حضرموت وقد انتهزت الفرصة لكى أسألهم عن حقيقة البئر البركانية والتى قيل أنها المنطقــة البركانية الوحيدة على البر الرئيسى من شبه الجزيرة العربية ــ وقد تحــدث عنها الدكتــور

«هوجارت» ، وقال عنها «جيهان نوما» ، بأنها تلك البئر التى لعنها على • غير أن المرافقين لى فى تلك الرحلة شأنهم فى ذلك شأن المرافقين السابقين أكدوا بعدم وجــود براكين فى المنطقة على الإطلاق ، وبصفة عامة فإن المنطقة التى تقع فيها البئر تدور حولها كثير من الأساطير والقصص الخرافية • وأكثر تلك الخرافات شيوعا هى أن البئر مرتع للعفاريت ، حتى أن أحدا لم يستطيع أن يقترب منها إلى الآن •

وقد حاول أحـــد الحضرميين أن يعقد صفقة مع أحـــد أفراد قافلتى ، جمل مقابل بندقية وذخيرة وبعض الريالات ، غير أنه من خلال الضجـــة التى رافقت الصفقة تبين لى أنها كانت تنقصها تلك الوجاهة التى أحاطت بصفقة مماثلة لأبوزيد فى صباه ، كما سمعتها من المرافقين ظهر ذلك اليوم •

كان أبوزيد يتيم الأبوين ، وقد نشأ فى كنف عمه الشيخ حسين بن سرحان • وذات يوم وهـــو صبى كان يرعى قطيعا من جملين وسبع ناقات ومر بجماعة من العرب كان معهم جمل وعلى ظهر الجمـــل سيف ضخم « شحمان » • فسأل أبوزيد جماعة العرب ما إذا كانوا يبيعونه ذلك السيف فأجابوه بنعم ظنا منهم أنه لن يقدر على حمله لأنه كان سيفا كبيرا ثقيـــل الوزن بدرجـــة ظاهره وليس فى قدرة أى انسان أن يستعمل ذلك السيف • فأناخـــوا جملهم •

وتقدم أبوزيد فتناول السيف وهو يئن من ثقله ، ولكنه قال كنت أفضل لو كان أثقل من ذلك ، ولكن لعله يفى بالغرض ، ثم وضع السيف جانبا وتوجه إلى جماله وأحضر منها ناقة ثم جعل أحـــد البعيرين يعتليها [1] • وكان

---

(١) .. ان الجمال مثل الأسود واللاما تضاجع اناثها وهى جالســة ويعتبر ذلك وضعا نادرا ولكن لابد من وجـــود صاحب البعير أثناء العملية الجنسية لكى يقوم بحفر الأرض تحت أقدام الناقة لتوفير الوضع المريح لها . كما انه هو الذى يقوم بأيلاج قضيب البعير فى فرج الناقة وذلك على عكس جميع الحيوانات الثديية تقريبا . كما يتعين على صاحب الناقة أن يقوم بأبعاد البعير =

هذا واحدا من أهدافه كمـا أنه اختبار للسيف ، فإذا قطع البعير ووصل نصله الى الناقة التي كانت تحته ، فإنه السيف الذي يبحث عنه وسـوف يشتريه .

وهكذا تناول السيف وهوى به على سنام البعير وهو بارك على الناقة بكل قوته فشطر الجملين أربعـة أجـزاء ، ثم التفت الى العرب وسلمهم البعير الثاني والنوق الست مقابل السيف ، وتقلد السيف وعاد الى عمـه فرحـا [١] .

كان اليوم هو يوم ٨ ينـاير ، وكنت وبعض أفراد القافلـة نتبادل الأحاديث ورواية القصص فراعنا فجأة أن شاهدنا جماعة صـغيرة من العرب ، في مكان ما وراء أحـد التلال على بعـد قليل منا وكـان معهم جمالهم فأخذ رجال قافلتي يحشـون بنادقهم بالذخيرة ، وكان ذلك مجرد إجراء وقائي ، لأننا في الواقع كنا في انتظار وصـول شيخ قبيلة بني أماني ومعه جماعة من الرجال وكانوا يسيرون ببطء وأكد لي المنظار أن القادمين هم الشيخ محمد بن حام وجماعته ، وقـد نزلوا من فوق ظهور جمالهم ، على مسافة غير بعيدة عنا ،ثم تقدموا إلينا الواحـد تلو الآخر ، وبدأ تبادل التحية والتقبيل على الأنف .

ثم جلس الجميع على الأرض على شكل دائرة كالمعتاد ، ثم بدأت الاستفسارات عن أخبار الصحراء وعن المراعي والقوافل وعن الغارات ، وما إلى ذلك من أخبار البدو ، بينما كانت أقداح القهوة وصحاف التمـر

= عن الناقة بعد العملية فاذا لم تنتج السفاد خلال العشرة أيام الأولى يبحث صاحب الناقة عن بعير آخر لها . اما علامة الحمل بالنسبة للناقة فتظهر من هز ذيلها عند ركوب صاحبها عليها .

(١) ... هذه من قبيل الروايات الخرافية التي تشيع بين البدو لأن مافيها من مبالغة وغرابة يستهوى البسطاء ، ويلقى قبولا لدى أمثالهم الذين يعيشون أقرب ما يكونون الى الفطرة .

تدور على الضيوف ، وكان بين القادمين شخص يدعى مسلم . كان قد اشترك معى فى رحلة العام الماضى . ولقد كان قدومه الان مفاجأة سارة لى، غير أن الشيخ للأسف لم يضمه إلى قائمة المرافقين . وقد جاء ليطلب منى أن أشركه فى الرحلة ولو بتعاقد شخصى ليحل محل شخص آخر ، وقد ألح على فى ذلك .

والواقع أن مسلم كان نموذجا لشباب البدو وكانت له أسنان كبيرة غير منتظمة ، ووشم على اللثة[1] ، وضفائر طويلة كثيفة تتدلى خلف رأسه. وكان يتحدث كما يتحدث أى بدوى عندما يثيره شىء ما ، أى سيل متدفق من الكلام يكرره مرة بعد أخرى دون أن يتلعثم أو يتوقف ، ثم انحنى أمامى ومد يده اليمنى فى محاولة لحملى على الموافقة على ضمه إلى رجال القافلة ، وكان صوته وهو يتكلم يمكن أن يسمع من مسافة نصف ميل وقد تعود على التحدث بهذه الكيفية عند قيامه بعرض أفكاره ، كل ذلك لكى يقنعنى بتحقيق طلبه وعندما كان يتحدث كان يشهد الله على نفسه أن ما يقول هو الحق ، وأنه أفضل رجل فى القافلة وكان يقول أن مصلحته هى مصلحتى ولاغير ذلك .. وكان حديثه نموذجيا ومؤثرا بحيث أننى سجلت ذلك الحديث .

استكملت القافلة كافة عناصرها ، وتهيأنا للرحلة ، فقد عاد الشيخ صالح هو وأتباعه كما أحضر معه بعض العناصر الجديدة ، منهم (طالب المرى) الذى يتولى رعى ابل شيخ قطر وبوصول العناصر الجديدة وصل عدد الفريق الى ثلاثة عشر شخصاً ، ولقد أصر كل من حمد رفيقنا والشيخ صالح على اضافة طالب الى مجموعتنا ، ولاحظت ان الرقم (١٣) لايعتبر

---

(١) .. سلسلة من الخطوط الصغيرة السوداء ترسم على اللثة العليا ، واللثة السفلى فيما بين الأسنان ، وهذه عادة منتشرة فى سائر ارجاء جنوب الجزيرة العربية بين الرجال والنساء ويتم رسم تلك الخطوط فى سن الطفولة ويقال أنها تمنع تسوس الأسنان الطويلة أو ارتخاءها أو سقوطها .

رقما مشئوما فى شبه الجزيرة العربية ، ولهذا كان مقدرا لقافلتنا أن تكون مكونة من ثلاثة عشرة شخصا ، وكان طالب فى الواقع عنصراً له أهميته لأنه من الأشخاص الذين عبروا الربع الخالى فى العام الماضى ، بينما المسئول عن حماية القافلة لم يعبرها منذ سنوات ، فضلا عن أن أغلبية المرافقين لم يسبق لهم أن مروا بتلك المنطقة ، كما كانت هناك أهمية أخـرى بالنسبة لوجود طالب ، فقد زعم بأنه كان يعرف المناطق التى يرابط بها الاخوان فى منطقة جبان وهو الطريق الذى لابد أن نسير فيه ، ولكن لابد لنا أن نتجنب مقابلتهم أيا كان الأمـر [١] .

والاخـوان هم من العناصر الإسلامية المشـهورة بالتعصب الدينى والنظرة الإسلامية المتشددة ، ولقد تسموا بهذا الاسم تميزاً عن الفرق الإسلامية الأخـرى الذين يعتنقون الأفكار السلفية وعلى الرغم من أن رجال القافلة كانوا من المحافظين (سكان جنوب الجزيرة العربية كلهم من الحنابلة والشوافع) الا أنهم يعتبرون فى نظر الأخـوان مراطقة وأصحاب بدع ، أما موقفهم منى كرجل مسيحى ، فلا شك أنه سـوف يكون عدائيا ، فضلا عن أن الاخوان يخضعون لسلطة الملك ابن سعود الأمر الذى قد يدفعهم الى الاعتداء علينا ، فهم يحرمون التدخين تحريما قاطعا ، وتطبق على المدخن العقوبات ، كما أنهم يعارضون أسلوب حياة البدو ، ويعتبرونه أسلوبا غريبا على الإسـلام ولـما كان الاخوان المسلمون أنفسهم حديثى العهد بهذا المذهب ، فقـد كان طبيعيا أن تتسم تصرفاتهم بهـذا التشدد الدينى المذهبى .

وحتى محمد السقطى مسـاعدى .. الذى لم يكن متعصبا ، قـد

---

(١) .. العناصر البدوية التى كنا نخشى منها فى تلك المنطقة هى بنى حجر وفصيلتان من قبيلة مره .. الفهيدة والذهبة .

شرح لى فكرة الاخوان ولكنه مع ذلك لم يكن يقر الطريقة التى يمارس بها البدو دينهم ، وقال عن أفراد القافلة بأنهم غير مطيعين لأوامر الله .

وعندما سألته عن معنى ذلك . قال : لأنهم يعيشون لشهور طويلـــة بدون مـــاء وهذا مالا يمكن لأى انسان أن يتحمله ، كما أنهم لايغتسلون من جنابه بعد مضاجعتهم لنســـائهم فكيف والحالة تلك تجوز لهم الصلاة ؟.

الفصل السابع عشر

الاندفاع نحو الشمال

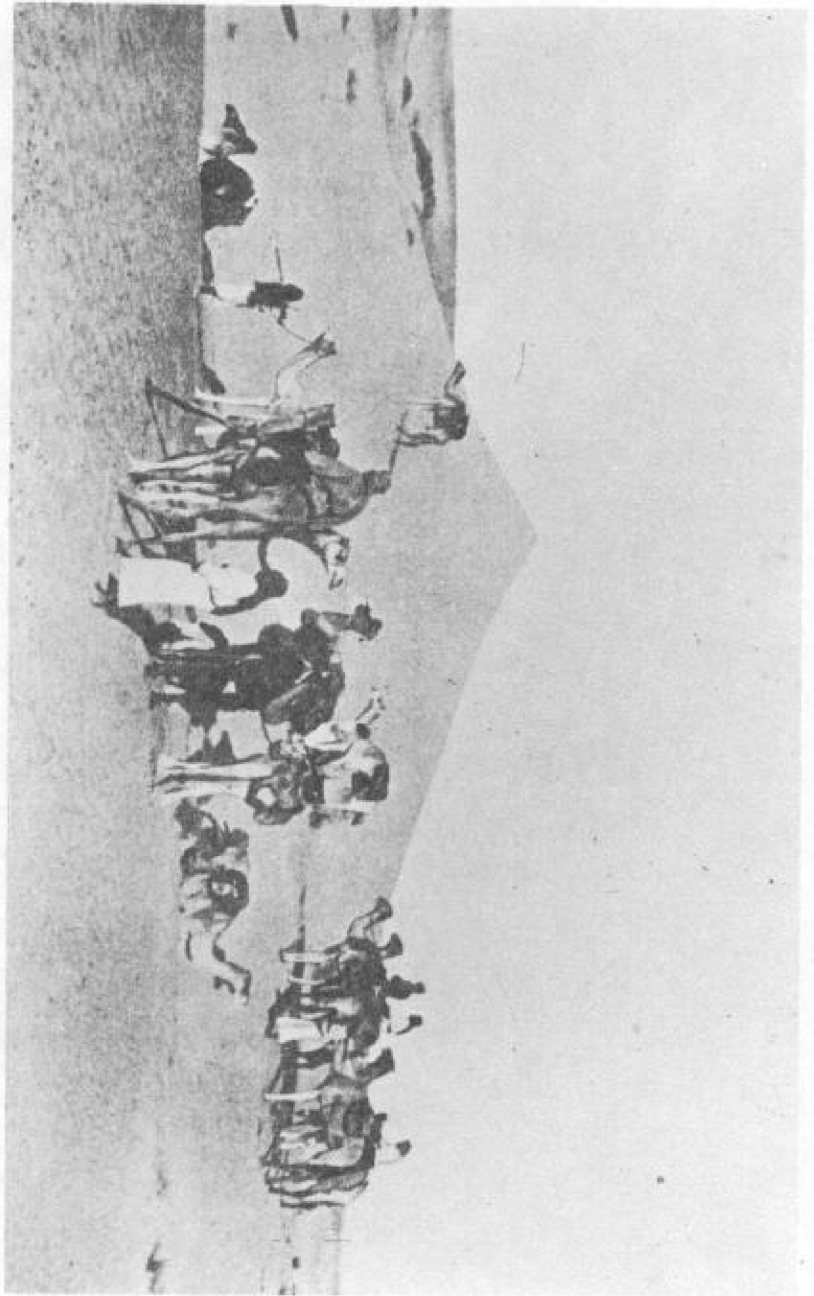
فى الرابعة بعد الظهر فى اليوم العاشر من يناير عام ١٩٣١ دقت ساعة الصفر لنتجه الى الشمال وهكذا غادرت القافلة منطقة « الشنة » ، والواقع أننى كنت أفضل أن نغادرها مبكرين فى الصباح ، غير أننى كنت فى غاية التعب والإرهاق بعد يوم صاخب أمضيته فى اجراءات إنهاء حسابات المرافقين السابقين وفى صرف سلفيات للأفراد الجدد ، وكان ثمة سببان آخران للتأخير ، الأول لعمل الترتيبات اللازمـــة لنقل المخيم قبل توزيع حصص الأطعمـــة على رجال القافلة ، كمـــا أن ضيوفنا الحضارم ، وأقارب بعض المرافقين البدو الذين حضروا لتوديعنا ، ظلوا فى المخيم حتى آخر وقت ممكن طمعا فى الحصـــول على شىء من المنافع ، ولو أننى قمت بعملية توزيع الأطعمة فى وجودهم دون أن أعطيهم شيئا منها أو أسمح للمرافقين بأن يقوموا عنى بذلك لاستحال الأمر على . والسبب الثانى أن ربيعنا (الأمان) كان يحتم علينـــا أن نبدأ الرحيل فى يوم السبت ، لانهم يعتبرون يوم الأحـــد يوما مشئوما [١] .

---

(١) .. كنت وأنا فى شبه الجزيرة اسمع كثيرا عن تلك المعتقدات (اى ايام السعد وايام النحس) ومن تلك المعتقدات أن اليوم الثانى واليوم الخامس من كل اسبوع هما يومان من ايام النحس .... اما يوم الجمعة فهو من ايام السعد . وهناك بعض فروع من قبيلة مرة لا تخرج للسفر او للاغارة يوم الأحد قطعيا . ولاحتى يوم الجمعة قبل الصلاة .. اما اليوم الاول من كل شهر فهو يوم مبارك فى اى يوم من ايام الاسبوع يقع .. اما بدو قبائل القرا وحضرموت فيؤمنون بكثير من المعتقدات الخرافية التى ربما تعود الى عهود عبادة النجـــوم فى شبه الجزيرة العربية .. ومن تلك المعتقدات :

١ ــ خلال الخمسة ايام الأولى عندما يكون القمر فى مدار العقرب تعتبر تلك فترة من فترات النحس لا يقومون فيها بأى عمـــل كالأســـفار وغـــارات الغزو .. الخ .

=



(فى شمال غرب الكاكة)

وبعد مرورنا على أول تل من الكثبان العالية كان لابد من وضع أمرين موضع الاعتبار الأول المحافظة على أرواحنا • والثانى معتقدات أهل المنطقة، وهكذا توقفنا فى أول منطقة لقضاء الليل ، وحلت عـدة الركوب من على ظهور الأبل ، ثم قيدت وسرحت لتأكل فى أقرب مرعى هناك ، بينما تجمع أصحابها بجانب أكياس المواد الغذائية انتظارا للحصـول على حصصهم منها • ولقد حصل كل فرد على حصته من السمن ، حفظها فى كيس من جلد احـدى الحيوانات التى تشبه الضب ، ويحفظ البدو ذلك الكيس فى جراب تحت مركب الناقة ، ثم وزعت بقية المواد الغذائية على المجموعات الثلاث التى تتألف منها القافلة • وكان منظر الدقيق والأرز والتمر وغيرها مـن المواد الغذائية له تأثير السحر على البدو الذين يمضـون معظم عمرهم لايذوقون تلك الأطعمة • وكان ذلك عاملا مشجعا على فتح أفواههم للدردشة والحديث • وبعد أن أتم صالح توزيع المؤن على القافلة تجمعنا كلنا حوله لكى يحدثنا مرة أخرى عن أبوزيد وحكاياته •

وقد شهد اليوم التالى أول مسيرة جادة فى تاريخ الرحلة ، وكعادتنا فى الأيام الأولى لوجود رجال وجمال جدد فى القافلة فقد كانت المسـيرة قصيرة تخللتها ضجـة كبيرة ، الأمـر الذى كان يتطلب إنهـاء مثل تلك الخلافات التى كانت تقع بين البدو ، ولإعادة تثبيت الحمولات على الجمال كل هذه الأشياء كانت تؤدى إلى تأخيرنا ، وعندما حلّ المسـاء تبين لنا أننا لم نقطع أكثر من اثنى عشر ميلا ، وحول نار المخيم واصل البدو نزاعهم حول الجمال ، والحمولات •• الخ ، وأخيرا توصلنا إلى حل يتم بمقتضاه

= ٢ — تؤخذ منزلة القمر كمرشـد للمسـافرين والحادى عشر والثانى عشر والعشرين تسمى « دوار » وتعتبر ايام سعد بالنسبة للسفر وغيره •

كما أن شبه الدائرة الواقع فى شرق الجنوب الشرقى مقسم الى عشرة اقسام بحيث تتوافق مع العشرة أيام الواقعة بين فترة الدوار ، ويعد يومـا مشئوما لا ينصحون بالسفر فيه او الخروج لقضاء اى أمر فى الاتجاه الذى يتطابق مع نفس اليوم اى الاتجاه الثالث من الشرق فى اليوم الثالث والاتجاه الثالث عشر والثانى والعشرين •

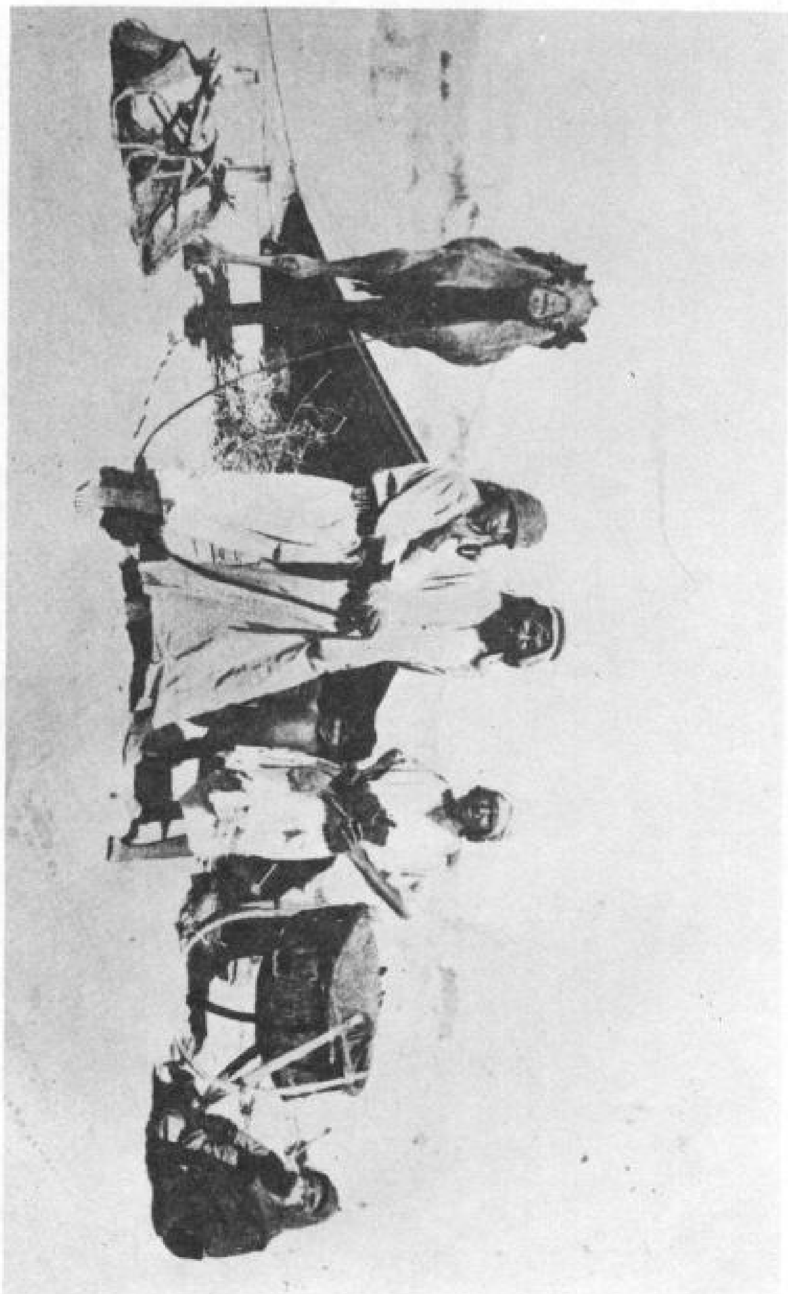
تغيير الحمولات يوميا وبانتظام وذلك تحقيقا لمبدأ العدالة فى المعاملة ولقد أدى ذلك الحل إلى إعادة الهدوء الى الركب • وعندما أخذ أحد المرافقين — وكان من الأشخاص المساعدين — يجمع بعض النباتات لبعيره ، أمسك بأحد الأغصان ورفعه بيده ثم قال لى : انظر أيها الصاحب إلى الغصن ، وكانت بعض قطرات المـــاء تنزل من الغصن ، وقال : ان هذا هو السبب الذى يجعل الجمال تمضى عدة أيام دون أن تتناول شيئا من المـــاء •

خرجنا مبكرين فى اليوم التالى ، وكان اتجاهنا إلى الشمال الشرقى ، وبعد أن مررنا بتل اسمه تل أبو خشبه ، وصلنا عند منتصف النهار إلى بعض الكثبان المتفرقة تسمى « جسمان » إشــــارة إلى اسم المنطقة التى توجد بها تلك الكثبان ، كما أنها الحدود الشمالية الغربية للدكاكة •

وتقع الدكاكة وسط تلك المجموعة من الكثبان الهائلة للحدود الجنوبية، وتتكون من عدد من السهول الرملية الصلبة الواسعة ، ويتفرع منها كثبان صفراء تتفرع الى عدة اتجاهات ويصل ارتفاع تلك المنطقة إلى ١١٠٠ قدم فى الجنوب و ٧٥٠ قدما فى تلك المنطقة ، بينما يمتـــد رأسها الطويل إلى شرق الشمال الشرقى على امتداد مسيرة سبعة أيام وبعد أن قطعنا بعض المسافات فى سيرنا نحـــو الاتجاه الغربى أخذت المنطقة تزداد وعورة بحيث كانت تتراوح بين ثلاث — قامات فى الشرق إلى ثلاثين قامة فى الشنة •• وأما البئران التوأم « الثويرة والزويرة » فقد كانا — أكثر عمقا من آبار الشنة ، وكانتا تبعدان بنحـــو مسيرة يوم واحد ، من الجهة الغربية ، أمـــا فيما وراء البئرين من الناحية الغربية ، فلا توجد ميـــاه أبدا فى منطقة الجميعيات ، والحوية ، والشويكة والتى تمتد حدودها إلى نجران [1] •

---

(١) .... تنحصر طريق الغارات من منطقة الرمال الى حضرموت بين الغرب والشمال الجنوبى والطريق الذى تسلكه هى الدكاكة ، الغربية وخرخير ، ومن هاتين المنطقتين تتجه القبائل الى الغرب على امتداد الحدود الجنوبية للرمال عبر ممر شهير يسمى « شقاق المعاطف » .



(معسكر صغير لهم)

شهدنا فى ذلك اليوم آثار إحــدى القوافل ، فأخذنا نتبعها ، وكانت القافلة مكونة من قطيع صغير ، وقد تعرّف عليهم صاحب ربعتنا (الأمان) وقال بأنهم من أقاربه وردوا عين المــاء التى فى المنطقة ، وما هى إلا سويعات حتى وصلنا إلى مخيمهم فدعيت إلى الدخول إلى خيمتين صغيرتين للكشف على أحد المرضى ، وكان شيخاً كبير السن ، وفى حالة سيئة من الضعف والهزال وكان يشكو من آلام فى معدته ، وهى من الأمراض المتفشية فى المنطقة ، ولكن أفرادا من قبيلة الرواشد كانوا يعزون مرض الرجل إلى الزار ، الذى هو من أســوأ أنواع الشياطين ، أما المريض نفسه فقد كان يعتقــد بأن مرضه من عند الله .

وكان العلاج الوحيد الذى استطعت أن أقدمه الى الرجل هو شىء من التمر وان كنت أعتقد بأن التمر هــو آخر شىء يحتاج إليه المريض ، وكانت العادة عند البدو أن تعالج تلك الحالة بتناول شىء من بول الناقة أو لعابها (الذى يقال أنه يطفىء حدة الظمأ) ويتم استخراج ذلك بإدخال مهماز فى بلعومهــا .

ولبول الناقة عندهم فوائد أخرى . فهو يستعمل كغسيل للشعر اعتقادا منهم بأنه يقضى على القمل ، وجميع النســاء البدويات يستعملنه بهــذه الطريقة ، وبالإضافة الى المريض كانت فى الخيمة امرأتان محجبتان وصبى ، وعلى الرغم من أنهما كانتا محجبتين الا أن ذلك لم يكن يحول بينهما وبين التحدث إلى الرجال ، وكانت إحــدى السيدتين زوجــة للشيخ والأخــرى زوجــة لابنه . أما الصبى فهو الأبن الأصغر للشيخ وكان فى نحــو الرابعة من عمره ورأيته يجرى حــول الخيمة وهو عارى الجسم ، كما أنه لم يكن مختونا ، ثم دخل الى الخيمة يحمل فى يديه أرنبا جريحا وكان معه كلب سلوقى ، لونه بنى غامق .

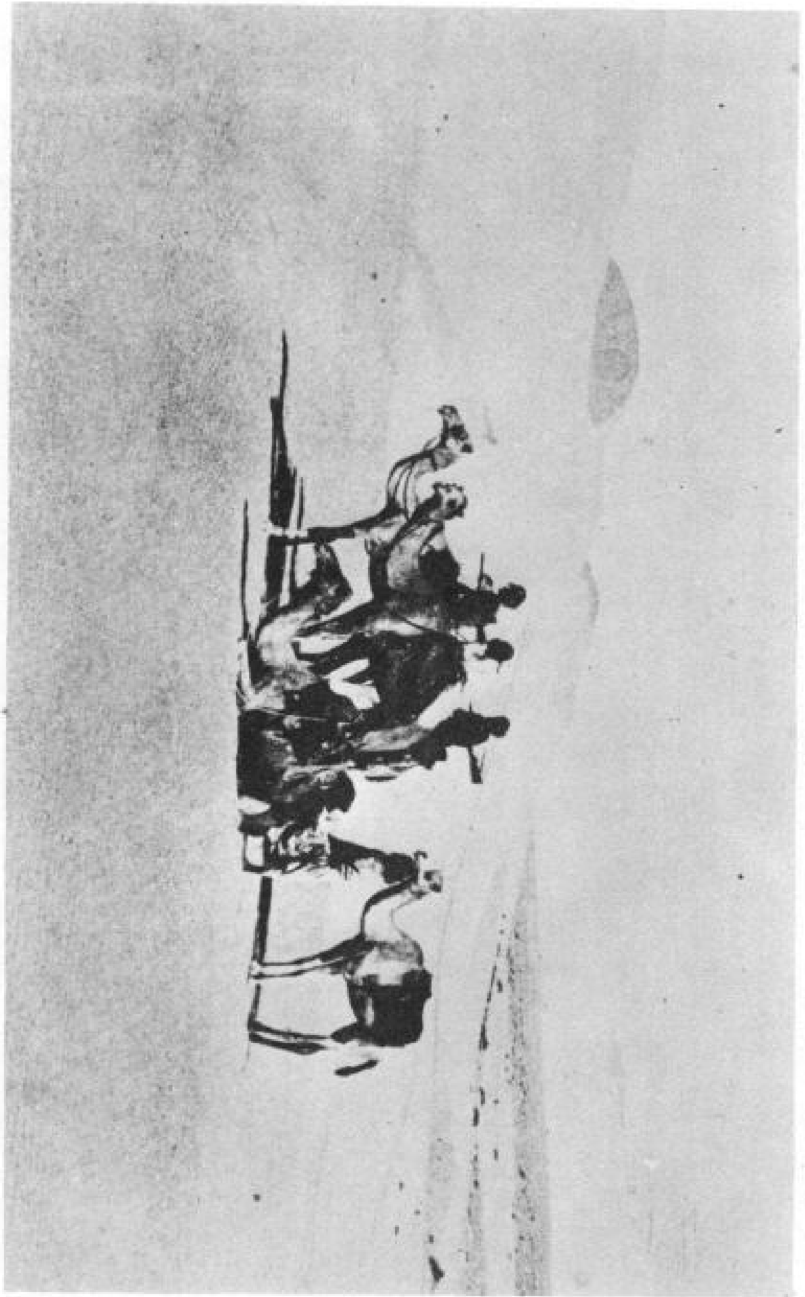
ويحتفظ جميع أفراد قبيلة مرة بهــذا النوع من الكلاب يصطادون به

الأرانب ، والظباء • كما يأكلون لحمها ، وهؤلاء على عكس قبيلة الرواشـــد التى لاتعرف اقتناء الكلاب •• وعندما سرنا فى اتجاه المنطقة الشمالية ، كنا نمر من وقت لآخر على آثار أقدام بعض الكلاب ، ثم آثار صاحبها البدوى ، وفى بعض الأحيان كنا نرى زوجين منها كبيرى الحجم مما يدل على أن الكلاب المذكورة كانت كلابا ضخمة وقوية •

أما الخيمة المزرية التى دخلت فيها فكان سقفها منخفضا جدا . لايسمح إلا بصعوبة لجلوس رجل واحد • وكانت تلك الخيمة مصنوعة من عشرين قطعة من نسيج صوفى بنى وأبيض ويبدو أن الصوف البنى كان من وبر الجمل والصـــوف الأبيض من صـــوف الماعز الحساوى ، وكان كل خيط فى تلك الخيمة من صنـــع النســـاء ، وبالمناسبة فقـــد رأيت الإبرة التى يستعملنها فى صنع الخيمة كما رأيت بعض الأوتاد المصنوعة من قرون بقر الوحش •• وكذلك بعض القضبان الحديدية الكبيرة من النوع الذى يستعمل فى حفر الآبار ، كما رأيت كذلك حجرا مستديرا من النوع الذى يستعمل فى المرتفعات الشمالية كمطرقة فضلا عن هودجين وعدد مـــن الدلاء الجلدية المعلقة ووعاء من الجلد •

كل تلك الأدوات تشكل الممتلكات المتواضعة للبدو ، يضاف إلى ذلك الممتلكات الثمينة الأخرى التى هى الأسلحة والجمال •

ومن الدكاكة عبرنا الى منطقة سويحب وكانت من أوسع المناطق الرملية فى تلك البقاع ، والمنطقة تستمد اسمها من طبيعتها • فكلمة سحابة تعنى الكثبان المتشابهة وجمعها سواحب وهى عبارة عن سلسلة من التلال الرملية المتدرجة الشكل تفصل بين كل منها مساحة طولها نصف ميل تقريبا ولها محور رئيسى على الناحية الشمالية • وبين صفوف تلك التلال توجد فجوات رملية حمراء دائرية الشكل ، ولم يكن يزيد ارتفاع التل الواحد منها عن خمسين الى ثمانين قدما وذلك على الرغم من ضخامة منحدراتها •



(منظر لرمال صواحب النسيجة)



وقد قيل لى أن تلك المجموعة من الكثبان تمتد من الجنوب الغربى الى ماوراء منطقة جسمان مطوقة الزاوية الغربية للدكاكة ، حيث تلتقى بالكثبان العالية لمنطقة الجميعيات .

لقد أخذت المراعى تتناقص كلما توجهنا نحـــو شمال الشمال الشرقى بعد أن عبرنا مجموعة كثبان منطقة الصواحب عبورا بطيئا ، ولقد اقترن اليوم الثالث عشر فى مسيرتنا بالمرور بمجموعة من الكثبان الرملية الضخمة ، كانت تعتبر أهم منطقة مررنا بها وفى المســاء وصلنا عند بئر البنهاء[1] وفى تلك المنطقة سجل جهاز القياس انخفاضا يصل الى نحو مائتى قـدم خلال مسيرة لاتزيد على تسعة عشر ميلا .

وخلال المسافات التى كانت تتراوح بين الصعود والهبوط ، الى الشرق . كان المــاء شديد الملوحة ولايستطيع أحـــد حتى من البدو فى تلك المنطقة أن يشربه بل فى بعض الحالات تمتنع حتى جمالهم عن شربه" ،

كان لبن الناقة هو الغذاء الرئيسى غير أنه كان بكميات قليلة ، وذلك لأن الناقتين اللتين حصلت عليهما بعد محاولات كثيرة ، كانتا على وشـــك الوضع ، وفى تلك الحالة تقل كمية اللبن فى الناقة ولابد من ارغامها على شرب المـــاء ــ لكى تدر اللبن .والحق أننى كنت أشعر بالتحسن رغم أن وزنى قد نقص بنحـــو كيلو جرام .

أما عن عين المـــاء التى فى البنهاء فقد دلنا عليها حمــد بن هـــادى

---

(١) كان الماء فى تلك المنطقة على عمق قامتين فقط ، ولم يستطع الحساء الذى أعددته أن يوقف ملوحة ذلك الماء ، ولا لونه المغبر حتى أننى عدلت منذ ذلك الوقت عن تناول الماء ، الا فى الحالات الاستثنائية ، أو عند التوقف ، لأن طعمه كان فى غاية السوء سواء فى الفم أو المعدة ...

(٢) .. سميت البنهاء بهذا الاسم لوقوعها فى وسط الطريق بين عين هادى وعين البواح .

مسئول القافلة ، لأنه هـو الذى قام بحفرها ، وقد سبق أن نوهت بحمـد كدليل كفء ، لأن مهمة الدليل فى تلك المناطق الصحراوية لاتتطلب ذاكرة قوية فحسب بل معرفة كذلك بمناطق المياه والمراعى وقدرة على فهم أنواع الرمال والابتعاد عما يكمن تحت طبقاتها من آفات وكوارث ، وهذا لايعنى أن كل من فى الصحراء يستطيع أن يقوم بهـذه المهمة وهى عمل الدليل . فكثير من هؤلاء يموتون من العطش خصوصـا إن ضلت القافلة طريقها فى فصـل الصيف ، ولذلك فإن من الضرورى على أصحاب الجمال إذا ضلت أن يقتفوا آثارها ، وأن يعتمد الواحد منهم على الآثار السابقة أو على آثار الجمال الأخرى ، فإن ذلك يعد ضمانا للوصول إلى موارد المياه ، ولكنه إذا هبت الريح فإنها تمحـو تلك الآثار خصوصا وأن الرياح هى الخطر الذى يداهم سكان الصحراء دائما وأبداً .

فقبل سبع سنوات تقريبا تعرضت إحدى قبائل المهرة من سـكان المرتفعات لغارة قام بها اثنان من قبيلة المناهيل وعادا بعشرة جمال من تلك الغارة ولمـا اكتشف المهرة تلك الحادثة أخذوا يتتبعون آثار المغيرين حتى وصلوا الى منطقة الدحية وهى منطقة لم تكن معروفة لهم من قبل وهكـذا وصـل المهرة إلى بعض عيون المـاء ظنا منهم أن اللصين لابد أن يتوقفا عندها أو يمران بها . غير أن المناهيل كانوا أذكى منهم . فقد تجنبا المرور بالدحيه وواصلا سيرهما نحو الشمال عبر الرمال القاتلة ، وعندما توقفا بالقرب من البئر ، جاء أحدهما وملأ القرب بالمـاء ، وعاد إلى صاحبه فى المنطقة التى خيما فيها . ومن ذلك المكان استأنفا سيرهما وأما المهرة الذى كان الأمـل يراودهم فى العثور على المغيرين فظلوا يتتبعون آثارهما وكانوا يتصورون أنهما لابد أن يمروا فى طريقهما على أحـد عيون المـاء ليشربا منها ، غير أن الأمـور سارت على عكس ذلك فقد هبت عاصفة رملية ومحت جميع الآثار سـواء تلك التى كانت أمامهم أو خلفهم . وهكذا ضاعوا فى الرمال ، وبعـد مضى سته أشهر عثر رجل من قبيلة الرواشـد — وكان من المرافقين لى — على سبعة هياكل بشرية الى جانب سبعة من هياكل الجمال .

لقد أعجبت كل الاعجاب بدقة حمـد فى تحديد الاتجاهات التى كنا نسير فيها ، وقـد أخذت أراجع البوصلة لكى أقارنها بتحليلات حمـد ، فلم أكن أجـد فيها فرقا أكثر من خمس درجات وعلى آية حال فقد كان وجـود الشمس من خلفنا يعرقل تحديد اتجاهنا تحديدا دقيقا • وقـد اكتشفت أن حمـد كان يعتمد فى تحـديد المسافات والمواقع على الممرات الرملية • وقد كنا فى تلك السـاعة على خط طولى ٤٥ر٥٠° • أما فيما بعد وفى المناطق الرملية التى لم تكن توجـد فيها مثل تلك المعالم فقد كان الاتجاه كما حدده لى حمـد غاية فى الدقة مما جعلنى أبحث عن أسباب أخـرى لتلك المهارة ، وربما كانت التعرجات الواضحة ، على الرمال التى كانت تنشأ عن هبوب الرياح أحـد الأسباب وإن كنت أعتقد فى الواقع أن تلك المهارة ترجع فى المقام الأول الى الموهبة الفطرية التى يمتاز بها الأفراد مثل حمد •

فحمـد لم يذهب الى تلك المناطق منذ سنوات عديدة وبحكم طبيعـة الحياة البدوية لم يكن حمد قد مكث فى تلك المناطق فترة طويلة ، وعلى عكس زملاؤه باستثناء واحد منهم فقد كان يعرف أسماء البروج والكواكب[1] • وعلى أساس تلك الفروض لاتبقى الصحراء بأسرارها ومتاهاتها لغزا أمامنا •

وفينوس هو النجم الوحيد الذى ليس له اسم عندهم ، وكذلك المريخ والمشترى •

---

(١) اسماء الكواكب على الصفحة التالية .

الاسم بالإنجليزية	الاسم بعربية الربع الخالى
التبــر	النسر الطائر
ويجــا	النسر الواقع فسرام الوجــع
بولريس	نجم القطب ـ الجـدى
جريت ببر	السـبع
كبيلــه	نجم آخر يسمى نبات نعش
بلاريس	العيوق العنبرى
الديدان	الثريــا
أوريجــا	الثور ـ كلب الغنم
أوريــون	ذو الاعنه ـ الغنم
	الجوزاء ـ سعـد
	ثلاثة نجــوم صغيرة تسمى الجمبيه
أشرناه	سهيل ـ سهيل الكاذب[1]

عند وصـولنا الى خط عرض ٢٠° • أبـدى المرافقون اهتماما كبيرا بالمنطقة نظرا لوجود بعض الشجيرات الخضراء ملحية التربة ، وكان ذلك النوع من الأشجار التى تعمِّر طويلا دون ما حاجـة الى ماء أو الى رى ، على عكس الاشجار والنباتات الصحراوية الأخرى ، وهذا يمكن السـكان من الاعتماد عليها فى معيشتهم حتى فى فصـول الجفاف ، وفى تلك المنطقة

(١) .. ان أسماء النجوم بالمقارنة الى اسمائها عندنا هى كالآتى :
التبر = النسر الطائر ، ريجل = العقرب ، وهذا يذكرنا بالحقيقة التى تقول بان كثيرا من الأسماء التى نطلقها على النجوم مشتقة من البابلية نسبة الى الحضارة البابلية وذلك عن طريق العرب . وفيما يلى أسماء بعض النجوم التى حصلت عليها من بعض قاطنى الربع الخالى الذى لم يحدث ان خرج من هذه المنطقة .

الاسم بالانجليزية	الاسم بعربية الربع الخالى
سكوربيو	العقرب
شــولا	ذيل النجم
فينــوس	الزهرة

تقيم قبائل المناطق الجبلية ، ولاترحل عنها إلا إذا اضطرت إلى الانسحاب الى المرتفعات الحدودية ، كتحرك قبيلة الرواشــد إلى منطقة أم الحياة عبر الجنوب الشرقى وواحة مقشن ، وكهجرة قبيلة مرة الى الآبار الشمالية فى جبرين أو إلى جفيرة الجبن •

كان السير فى اتجاه الشمال عن الطريق الشرقى قد جعل الرحلة أكثر متعة ، فقد أخذت النسمات العليلة الخفيفة تهب علينا ، وهناك تغير لون أخاديد منطقة سويحب الى اللون الأحمر ، كما كانت الكثبان ناعمة تغرى بالتوقف بين وقت وآخر — وذلك لكى نمهد الطريق بأيدينا لتعبر فوقها الجمال • وكانت المناطق جافة وعطشى ، عدا وجود بعض الأغصان الندية تتحرك مع هبوب الريح بموازاة صفوف التلال إشــارة الى أن الرياح شمالية شرقية •

بعد الظهر مرت قافلتنا بثلاثة عيون ضحلة ، هى باحة الســلامة ، وباحة هجران وباحة جمال ••• وقد نبه أفراد القافلة إلى وجــود عين على الناحية اليمنى •• ولكنها كانت شديدة الملوحــة بحيث لم يستطع أحد منا أن يشرب منها •• كما أعرضت الجمال عنها أيضــا •• ولهذا أطلق على تلك العين (أم الخيران) •• وهو الاسم الذى يطلق على عيون المــاء المالحة ، أما البدو الذين لم يتزودوا بالماء فى الدكاكة ، فقد تزودوا به من بئر جمال • كما شربت القافلة من ذلك المــاء لأنه كان ماء حلوا إذا ما قورن بالمــاء الذى مررنا به سابقاً إذ كان شديد الملوحة ومضر بالمعدة ، كذلك فقد كانت المراعى فى تلك المنطقة غير صالحة هى الأخــرى •

فى اليوم الثانى عبرنا من منطقة الباحة إلى أم المليســة — فأخذت الكثبان تزداد وعورة ، كما أخذت التلال تختلط فى أشكالها • وتتفرع إلى حلقات عديدة ، وقيل إنها تستمر على ذلك الوضع فى اتجاه الشمال على امتداد مسيرة يوم واحد مكونة شــكلا على هيئــة حــرف (S) باللغة الأنجليزية وذلك فى منطقتى الكروســوا وأليســا •• حيث تلتقى بكثبان السعفوف شمال خط العرض ٢١ شرقا •

كان الحر شديدا فى تلك المنطقة بالرغم من أننا كنا فى شهر يناير . وللمرة الأولى خلال الرحلة أشعر بإرهاق شديد بسبب حرارة الشمس التى ظلت تلسعنى فى ظهرى قرابة تسع ساعات متواصلة وأنا على ظهر الناقة بالإضافة إلى العطش الشديد الذى كنت أشعر به بعد الشرب من ذلك الماء الملوث • وقد مرّ أكثر من أسبوع دون أن أدون أية ملاحظات عن الرحلة فلم يكن ثمـــة متسع أو فرصـــة للقيام بذلك ولو أن المخزون من الأطعمة كان وفيرا ، فربما كنا توقفنا ولكن الأمـــر كان يتطلب مواصلة الســير ، كما كان البدو بدورهم يحبذون ذلك حتى نصـــل بأقصى سرعة ممكنة الى جنوب المرازيق وهى المنطقة التى كنا متجهين اليها على الرغم من الارهاق الشـــديد الذى حل بالإبل فى تلك المناطق القاحلة •

وقد أخذ خطر الغزو يتناقص كلما تقدمنا فى مسيرتنا فتركنا المناطق الموبوءة وراء ظهـــورنا حتى أن قبائل الصيعر سبق لها أن توغلت إلى تلك المناطق الشمالية ولكننا الآن وقـــد أصبحت غالبية الرواشـــد خلفنا فى الجنوب فقد نلتقى هناك بإحـــدى قبائل الغزو ولو أنها على آية حال لاتجازف بالتقدم كثيرا وتعريض نفسها إلى خطر قطع خط الرجعة عليها •

إن قبيلتى الرواشـــد ومرة الجنوبيتين ترى فى قبيلة الصيعر مصـــدر تهديد ورعب دائم لها فهى تنشىء أبناءها على مبدأ الثأر والانتقام واللجوء إلى الحرب لاسترداد ماتكون قد فقدته من أمتعـــة وممتلكات • والسبب الرئيسى الذى يدفع بالقبائل إلى عمليات القتل والنهب وإثارة الضغائن والأحقاد القبلية هو سبب اقتصـــادى فى جوهره ، فالقتـــل هو شريعتها ، والاستيلاء على الإبل هو هدفها وفترات السلام أو الهدنة بين تلك القبائل أقل من فترات الحروب ، فإذا ما نشبت حرب قبلية فعلى الجميع أن يشتركوا فيها ، لأن التخلف دليل على الجبن ذلك أن القتال والموت فى سبيل القبيلة يعتبر بطولة ومجداً ، أما الذين يتخلفون عن الحرب ويؤثرون البيت على ساحـــة الحرب أو يقدمون الأعذار للتنصل من تأدية ذلك الواجب فإنهم فى

نظر القبيلة جبناء ولا يحظون بالاحترام وقليلا ما يجدون فتاة يتزوجون منهـا .

لقد أخبرنى كلفوت ابن الشيخ صالح عن حادثة وقعت له مع بعض أفراد قبيلة الصيعر وهى حادثة أجد من المناسب أن أسجلها هنا لا لأنها تعطى صورة صادقة عن علاقة القبائل المتناحرة بعضها ببعض فقط ، وإنما لمـا تلقيه كذلك من أضواء على سيكلوجية الحياة فى الصحراء .

نشبت حرب بين قبيلتى الرواشـد والصيعر واستمرت لفترة تزيد على العام ، وأخيرا قررت قبيلة الصيعر أن تتقدم بمبادرة سلمية ، وكان المتحدث أحـد أعضاء الوفد الذى اشترك فى توقيع هدنة استمرت عاما واحـدا ، وعندما خرج الوفد مروا بمناطق قبيلة الصيعر على المرتفعات أملا فى لقاء أحـد من رجالها يضمن لهم الأمان حتى وصولهم إلى مواطن قبيلة الصيعر ، ولكن الاستماع الى رواية هـذه الحادثة من كلفوت ، كان أكثر إثارة — فقد كان يتكلم — ونحن نجلس أمام نار المخيم بحماس شديد ، ومن عادة البدوى إذا تحدث أن يحرك يديه وعينيه ، والقصـة كما رواها تتلخص فيما يلى :

فى عصر أحـد الأيام وقت صلاة العصر كنا نجلس على ضفة أحـد الأودية ، وأخذنا نراقب المنطقة فشاهدنا خمسة من البدو بالقرب من مخيمهم وقد سرحوا الجمال لكى ترعى ، ومن ركاب جمالهم استطعنا أن نعرفهم ، وقد تملكنا الطمع رغم أننا كنا فى مهمة محدودة ، الا أننا حتى ذلك الوقت لم نكن قد نفذنا الهدنة ، وبما أننا كنا فى حالة حرب مع قبيلتهم (الصيعر) فقد أيقنا أن الله سبحانه وتعالى قد أوقعهم بين أيدينا ، وكان الوقت قبيل الظلام وانتظرنا حتى يأووا الى مخيمهم للنوم ، وعندئذ نزحف عليهم وهم نيام ونبيدهم عن آخرهم ونستولى على ما معهم من غنائم الا أننا انقسمنا فى الرأى ، وكان رأيى أننا كنا فى وضع أفضل منهم لأننا اكتشفناهم قبل أن يعلموا بوجودنا ، وعلى أية حال فإن اثنين من رؤساء وفدنا ، وكان أحدهم

عمى سيف شيخ السعادنة لم يوافقا بحجة أن أولئك قد يكونون من بعض الشخصيات القبلية البارزة فى المنطقة ، وأن وجودها فى تلك المناطق المتقدمة دليل على أنهم فى حالة حرب مع بعض القبائل . وبالتالى فلم يكن من المحتمل أن لديهم استعدادا للدخول فى مباحثات للسلم ، ولابد لنا أن ننهى مهمتنا هنا وأن نسرع بالعودة ، غير أن الكبرياء كان يمنعنا ، وكان يشاركنى هذا الرأى اثنان من الشباب ولهذا رفضت فكرة العودة قبل الاستيلاء على جمال أعدائنا ، غير أن العناصر المتعقلة فينا طالبت بالتروى والحكمة ، وطالبونا أن نتهيأ للعودة إلا أننا لم نوافقهم ، فتركونا ورحلوا ، فقمت أنا وأنخت ناقتينا فى احدى المناطق الآمنة وأخذنا نزحف إلى حافة التل وذلك لمراقبة تحركاتهم .

وكما كنا قد توقعنا فإنهم قد سرحوا الجمال وتوجهوا إلى المخيم . ولما كان عددنا قد انخفض الى اثنين فقط وكان هم عددهم خمسة أفراد وبالتالى أيقنا أنه من المستحيل أن نتغلب عليهم ، ورأينا أن ننتظر حتى منتصف الليل ثم نزحف إليهم ونأخذ جمالهم ونولى الأدبار ، حتى إذا أشرق الصباح نكون قد قطعنا مسافة طويلة لا تسمح لهم بمطاردتنا .

وهكذا أدينا صلاة المغرب وعدنا للمراقبة وبقينا هناك ننتظر حتى انطفأت نار مخيمهم ، وعندئذ زحفنا بمنتهى الحذر إلى مرابض الجمال . والواقع أنه كان فى استطاعتنا أن نقتلهم جميعا ، لو كنا أكثر عددا منهم ولكننا فضلنا الحصول على الجمال والعودة الى مناطقنا ... وحدث أن استيقظ أحد الصيعريين قبل الفجر واكتشف ضياع الجمال فأيقظ زملاءه فجاءوا فى أثرنا على ضوء القمر ولكننا كنا قد قطعنا مسافة طويلة حتى ظهر اليوم التالى ، ولما كنا مرهقين ، وتصورنا أن الوقت لايزال أمامنا ، توقفنا أنا وزميلى لأخذ قسط من الراحة فغلبنا النوم وفجأة استيقظنا ، فشاهدت أمامى رجلا على بعد نحو مائة خطوة ، وكان من البدو ، وكان يصوب بندقيته على فالتفت حولى بسرعة ، ولما لم أجد معه أشخاصا

آخرين اعتقدت أنه جاء بمفرده ولهذا قفزت الى منطقة خلف الصخور لأتخذ منها ساترا وسحبت بندقيتى من كيسها[1] • ولكنه أخطأنى فى طلقته •

وفى تلك الأثناء حشــوت بندقيتى بالذخيرة • وقد اعتقدت أن تصرفه ذلك كان من قبيل الدفاع عن النفس أو أنه ربما يكون من الأصدقاء . لعله أحــد المهرة وظننى واحداً من الصيعريين ، لهذا صرخت فيه قائلا : نحن رواشــد •• فلا تخف منا • فرد قائلا : فى وجهى أنا فلان ابن فلان •• من قبيلة الصيعر ونحن « بعد أن ذكر كل منا فرع قبيلته » • بيننا وبين قبيلة الرواشــد هدنة ، وإن عندكم جمالنا ونحن أقــوى منكم وورائى مالا يقل عن ثلاثين رجلا ••• فصحت فى وجهه : أمنى على حياتى وبعيرى وبندقيتى ••• فرد قائلا « فى وجهى ••• •• ••• » ثم نهضت ولكن رغم ذلك فان رجال قبيلته الذين جاءوا فى أثره ، ولم يكونوا قد علموا بمـــا حدث بينى وبينه استل أحد أفرادها خنجره وطعننى به فى ساعدى وهنا بصق كلفوت على ساعده وأخذ يرينى موضع الجرح الذى أصيب به ••• بينما طعن الآخر رفيقى بخنجره ولكنه لم يصب الا بجرح بسيط على الجبهة بين العينين ، رغم الدم الكثير الذى ســال منه •

وعند ذلك والحمد لله تقدم الرجل الذى أمننا على حياتنا وتدخل . وبذلك أنقــذ أرواحنا •••• فقلت له : إذاً دارت عليكم •• أليس كذلك ؟

وقد أخذوا الناقتين بالإضافة الى جمالهم ، كما أخذوا بنادقنا وخناجرنا على الرغم من أنهم قد وعدوا بإعادة الجمــال والخناجــر إلينا ، وبالفعل أعادوها ، لأنه بعد أن عقدت الهدنة بيننا ، أعيدت إلى بندقية وجمل آخــر بدلا من بندقيتى وجملى الأصليين ، ولكنى لم أسترجع الخنجر • وهــذا

---

(١) .. كل فرد من افراد البدو من سكان الربع الخالى يغلف بندقيته بكيس خشن من الجلد لكى يمنع دخول الرمال الى قلب البندقية ، وهو يصنع هذا الكيس بنفسه . وهو عادة يكون من جلد بقر الوحش او غيرها من الحيوانات كما يضع على فتحتها عنقودا من الضفائر الجلدية لتزينها ؛ اما الموسرون من عرب عمان فانهم يزينون كعوب بنادقهم بشرائط ذهبية وفضية ، وذلك كنوع من اظهار اهمية البندقية والاعتزاز بها .

شيء مخالف للعرف ، لأنه لاتوجد اتفاقية تنص على إعادة الأســلاب بين القبائل التي تتوارث العداء فيما بينها • وأن السلام يتم وفق الطرق المتبعة ، وهي أن ما مضى قد مضى « •• ثم واصــل كلفوت حديثه فقال » ولكن قبيلة الصيعر نفسها قد تعرضت لنفس المصير •• فعندما كانت عائدة إلى الشرق • والتقت بإحدى المهرة ومعه زوجته وجمله • تم ذبح الرجــل ، وأخذوا جمله ، ولكنهم ما كادوا يصــلوا الى أرض قبيلــة المناهيل حتى اصطدموا بفريق مغير ، أكثر عددا منهم ، من بيت كثير والمهرة • فقتل زعيمهم فيتلك الغارة وعادوا هم فارين ، بعد أن صارت ممتلكاتهم غنائم في يد ابن طناف وجماعته [1] •

(١) .. ابن طناف هو الاسم الوراثي لزعيم قبيلة المناهيل . ويعتبر الزعيم الحالي من أشهر الزعماء الذين يخططون للغارات ، وللزعيم دائما حق الأولوية في اختيار اثنين أو ثلاثة من افضل الجمال التي يتم الاستيلاء عليها ، أو يتم تقسيم الغنائم بالتساوي فيما بينهم .

الفصل الثامن عشر

رحلتنا عبر منطقة الرمال الوسطى

كانت منطقة سويحب غير بعيدة عنا ، فقــد تركنا خلفنا تلك الكثبان الحمراء التى كانت تنعكس فوقها أشعة الشمس لتحيلها إلى قطع بيضاء كالثلج ، كمـا خلفنا وراءنا تلك المراعى الخضراء التى مررنا بها فى بداية المسيرة ، وعلى خط عرض ٤٤ر٢٠ درجة •

مررنا بحزام رملى ضيق ، أعقبته مساحات رمليه شاسعة باهته اللون أشبه بالمجدئ ، كما كنا قد مررنا على بعض المناطق الخضراء التى يكســوها العشب الصحراوى • وتتناثر فوقها رمال بيضـاء ناعمــة تدفعها الرياح الجنوبية التى تهب عليها ، أما فيما عــدا ذلك ، فقد كانت المنطقة أمامنــا صحراء قاحلة لا نبت فيها على الاطلاق • وتمتد مسحات كبيرة فوق مناطق المزاريق والنويصيف • والمنجر ، بحيث أصبحت تلك المنطقة مقبرة لكل من يقذف به ســوء طالعه اليها •

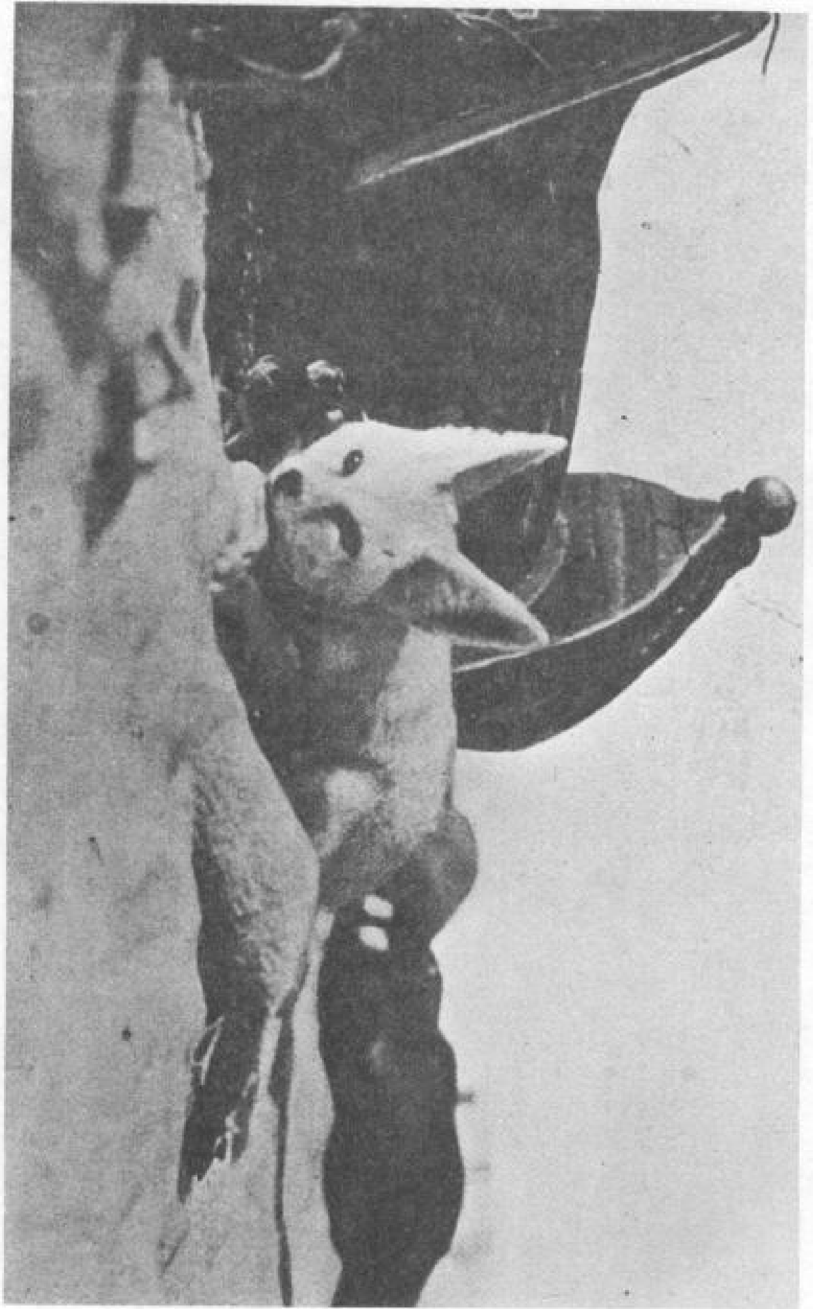
ورغم ذلك استطاع أحــد أفراد قبيلة مرة أن يرعى قطيعــا فى تلك المنطقة قبل أربع سنوات ، وقد أخبرنى بذلك البدو بشىء من المبالغــة ، ويعتقدون أن تلك المنطقة كانت فى يوم من الأيام من المناطق الخصبة • وكان ذلك يتضح من منظرها ، كما أن ذلك يفسر لنا الحرص المستميت للبدو على الاحتفاظ بتلك المراعى وموارد المياه القليلة التى توجــد فى تلك المنطقة ، فضلا عن أن ذلك يؤيد الشكوك فى طبيعة بدو الصحراء ومن تلك المنطلق يمكن تفســير ظاهرة الهجــرات العربية القديمــة بأنها ترجــع الى تلك التقلبات المناخية ، بحثاً عن المــاء والطعام ••• وهى لا تختلف عن هجرات الغــزو للأجناس السامية كالبابليين والكنعانيين لسوريا والهكسوس لمصر • وأخيرا الغزو العبرى لفلسطين •

ولقـــد شاهدنا فى تلك المنطقة أدلة على وجود حياة حيوانية قديمـــة ، وربما كانت من قبيل الصـــدف أن اثنين من العينات التى أمكن الحصـــول عليها فى تلك المنطقة تؤيد ذلك الاحتمال • وكانت إحـــدى تلك العينتين ثعلب رملى اللـــون أكبر قليلا من القط وان كان بحجمه الطبيعى • وقد تبين من فحص الأسنان بأن الثعلب من الفئات الجـــديدة ، ولعله كان من الفصيلة العربية للثعلب المصرى ، وأما العينة الأخرى فقد كانت بيضـــة نسر عثر عليها فى أحـــد الأعشاش الضخمة التى تشبه عش الرخ الانجليزى ، ولكنه أكبر منه ، كان العش مغطى بسقف من أوراق العشب • لكن الطير نفســـه لم نره ، أما البيض الذ ىحصلنا عليه فكان يشبه الى حـــد كبير بيض النسر الحبشى •

والعرب لا يحللون أكل هـــذا البيض ، وإنما يأكلون بيض الحبـــارى بشهية متناهية ، وقد كنا نصادف تلك الحبارى التى كانت بحجم الـــديك الرومى فى منطقة الرمال الوسطى الجنوبية ، ويمكن للبـــدو أن يصطادوها إذا مشوا وراءها بخطى بطيئة ، ثم اطبقوا عليها من جميع الجهات ، ولكنها تنفر من شخص بمفرده لأنها لاتثق فيه ، ولهذا فإن المحاولات العديدة التى بذلناها للحصـــول على شىء منها لم تسفر الا عن مشاهدة طيور طائرة فى الجـــو •

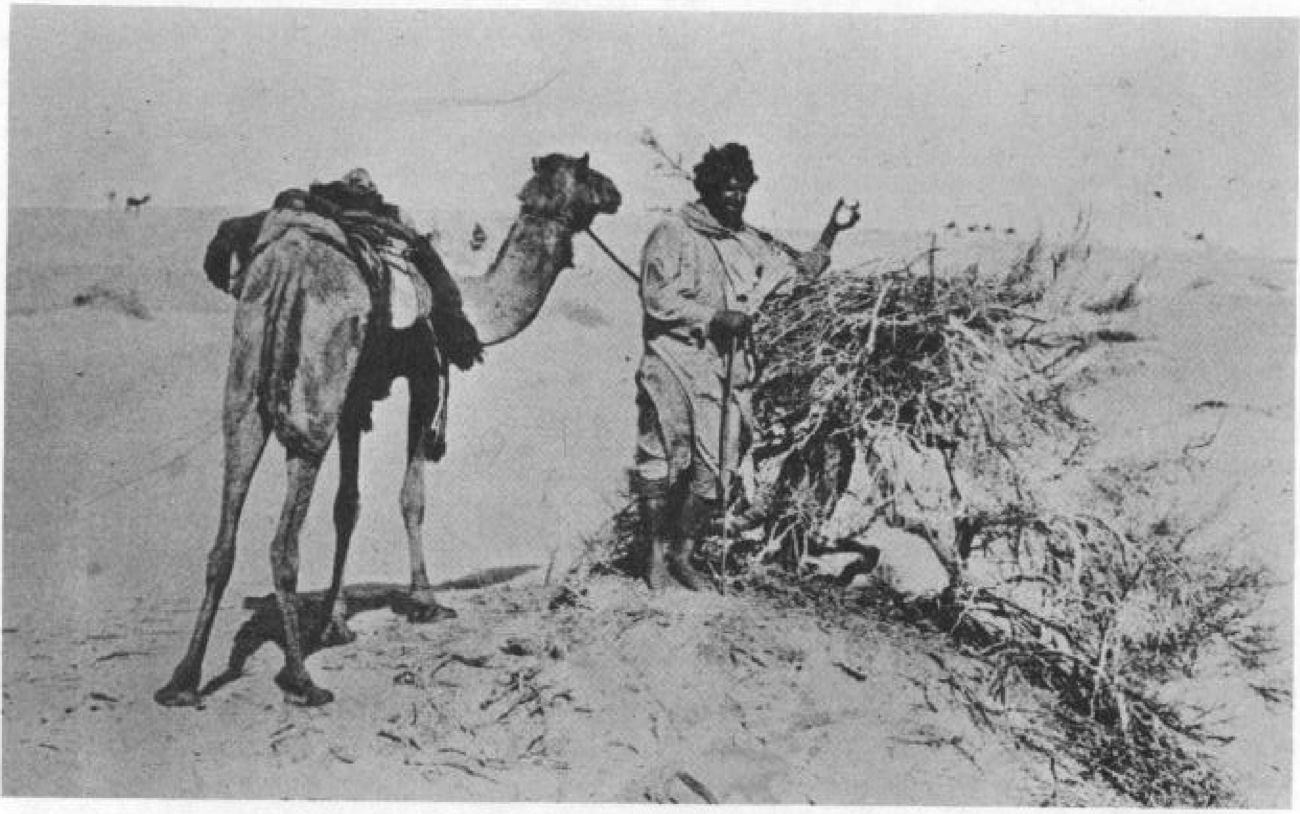
إن حياة الطير فى مناطق الرمال ضئيلة جـــدا وأكثر الطيور تواجداً هى الغربان بجميع أنواعها ، وعلى العموم فالطيور التى كنا نصادفها كانت فرادى أو فى معظم الأحيان أزواجا ، وقد شاهدت مرة أربعة حبارى ، وفى المرة الثانية ستة غربان ، ولكن ذلك نادرا ماكان يحـــدث •

كانت مجموعـــة العينات التى حصلت عليها لاهدائها لمتحف التـــاريخ الطبيعى يتكـــون معظمها من الحشرات الصغـــيرة والخنافس والعنـــاكب والفراشات ويعســـوب واحـــد كما اشتملت على (فرس النبى) جـــديد



(ثعلب لم يعرف شكله من قبل)





(عش نسر)

وجرادة من نوع جديد[1] •

أما الثعلب والأرنب اللذان كانا لونهما كلون الرمل فهما من الحيوانات الثديية المنتشرة على نطاق واسع وعلى الأخص فى الرمال الجنوبية ، كذلك كان هناك الفأر الرملى الى جانب القط والذئب البرى • ولسوء الحظ لم أتمكن من صيدهما ، أما الذئب فيقال انه صغير الحجم ولونه كلون الرمل وهو يعيش بصفة رئيسية فى منطقة سويحب حيث يقوم هناك بحفر ثقوب فى الرمال بمخالبه للحصول على الماء •

أما الزواحف فقد جمعت اثنتى عشرة عينة منها وكلها لها خراطيم بارزة تستخدمها للحفر فى الرمال ، وأكثر أنواعها هى السقنقور • ولها جسم مربع الشكل ولونها كلون الرمال وعلى جوانبها علامات سوداء • أما جلدها فلامع ناعم يشبه جلد الحية ولكن ذلك لم يمنع أحد البدو من إدخال الحيوان فى فمه ، وقد جمعت « عظاءات » أكبرها الورل وهو من الزواحف القوية الخبيثة التى يصعب اصطيادها باليد الا بواسطة القبض عليها من وراء رأسها •

والورل على العكس من « العظاءات » الأخرى التى تعيش فى المرتفعات لا يأكلها البدو : وعندما فتح بطن إحدى السحالى من هذا النوع وجد بداخلها سقنقور صغير الحجم ، أما عقارب المنطقة فكانت من الأنواع الصغيرة ذات اللون الأخضر الشاحب ، على عكس الأنواع التى تعيش فى المرتفعات والمناطق الجبلية وكانت ألوانها سوداء وبيضاء •

ولم أعثر الا على ثلاثة أنواع من الثعابين كلها رملية اللون وهى البواد، والأفعى القرنية ، والثعبان ، وكان للمكافآت التى أدفعها للبدو أكبر الأثر

---

(١) ..كان عدد العينات التى جمعتها من منطقة الرمال ١٢٥ عينة ، ويمكن الاطلاع على ملاحظات الاداريين فى المتحف البريطانى (قسم التاريخ الطبيعى) فى الملحق الثانى •

فى تشجيعهم على بذل أقصى مافى وسعهم لجمع تلك العينات للمتحف .

كما أن تخفيض عدد المرافقين لى فى رحلتى الى المنطقة الشمالية قد هيأ لى الفرصة لدراستهم عن كثب ، وذلك على عكس المجموعات الكبيرة التى كانت تصحبنى فى بداية الرحلة .

ان البدو إذا لم يكونوا من المتعصبين الدينيين — وتلك حالة تجعلهم متحفظين وحذرين — يمكن أن يكونوا مرافقين ظرفاء يحبهم الانسان وبخاصة اذا عرف كيف يستثير حماسهم عن طريق الاشادة بمزايا الجمل ، وترديد الأحاديث عنه وعن الركاب والبنادق ، وحتى ولو لم يتجاوب البدوى مع غيره فإنه سرعان ما يألف صاحبه إذا عرف كيف يستثير نخوته ، ويستغل ذكائه .. وعندئذ يمكن أن يتحول الى صديق لطيف المعشر ، كما أنه متى أراد شيئا من صاحبه ، فإنه سوف يبذل كل جهده للحصول عليه ، وهو دائم الشكوى من المشكلات ، وعلى رأسها أوجاع البطن ، وهو المرض المستوطن فى تلك المنطقة ، أما الحميات فلا وجود لها فى منطقة الرمال .

وقد سمعت المرافقين يتحدثون عن الملاريا كمرض معد ، وعندما أبديت رأيى فى ذلك الموضوع كان تعليقهم « لا اله الا الله » . وهى العبارة التى يرددونها كلما ذكر شىء غريب . وقد ذكر الشيخ صالح بأن الملاريا منتشرة فى ظفار ، وبالتالى فإن زيارته لظفار كانت مشوبة بالحذر والخوف ، على الرغم من وجود البعوض بكثرة بالقرب من الآبار وعيون المياه فى مناطق الرمال . الا أنه أمضى ليلة قلقة فى ظفار ، ولم يشعر خلالها بارتياح الا بعد مغادرته المدينة .

أما القمل والبراغيث فكانت توجد بكثرة ، وكان من عادة بعض المرافقين أن ينتحوا جانبا فى أية منطقة من المناطق التى نخيم فيها ليفتشوا رؤوسهم بحثا عن القمل . وقد سألنى واحد منهم ما اذا كنت قد اكتشفت

أى قمل فى متاعى ، ثم علق قائلا بأن حشايا القش التى يفرشون بها ركاب الإبل لاتجــذب القمل والبراغيث ، أما الحشايا المزدوجـــة الفرش التى نستعملها قبائل مرة فهى المرتع الأفضل لأسراب القمل •

وقد حاولت تغيير مجــرى الحديث عن القمل الى موضـــوع أكــثر تشــويقا ، واذا بى أستمع الى حديث شيق من أحـــد أفراد قبيلة بنى هلال ، الذى سألنى عما اذا كنت أرغب فى الاستماع الى ماحدث بعد ذلك للفتى سىء الحظ عزيز بن خاله • فرحبت بالفكرة • فأخذ الرجل يقص حكاية تضحية مفتعلة لعزيز لإنقاذ حبيبة والده فقال : كان أبوزيد يحب فتاة اسمها (علية) من قبيلة تسكن بجوارهم •• وذات يوم توجه لزيارتها بصحبة عزيز الذى لم يكن قد رأى الفتاة من قبل ، وأثناء الطريق أخذ أبوزيد يمدح محبوبته ويقول لعزيز : انك ســوف تراها وعندئذ ستعرف كم هى ذات حسن وجمال فإن جلست مع نســوة فإنها تبدو أطول قامة منهن ، وإن وقفت بينهن فإنها تبدو أقصر منهن •

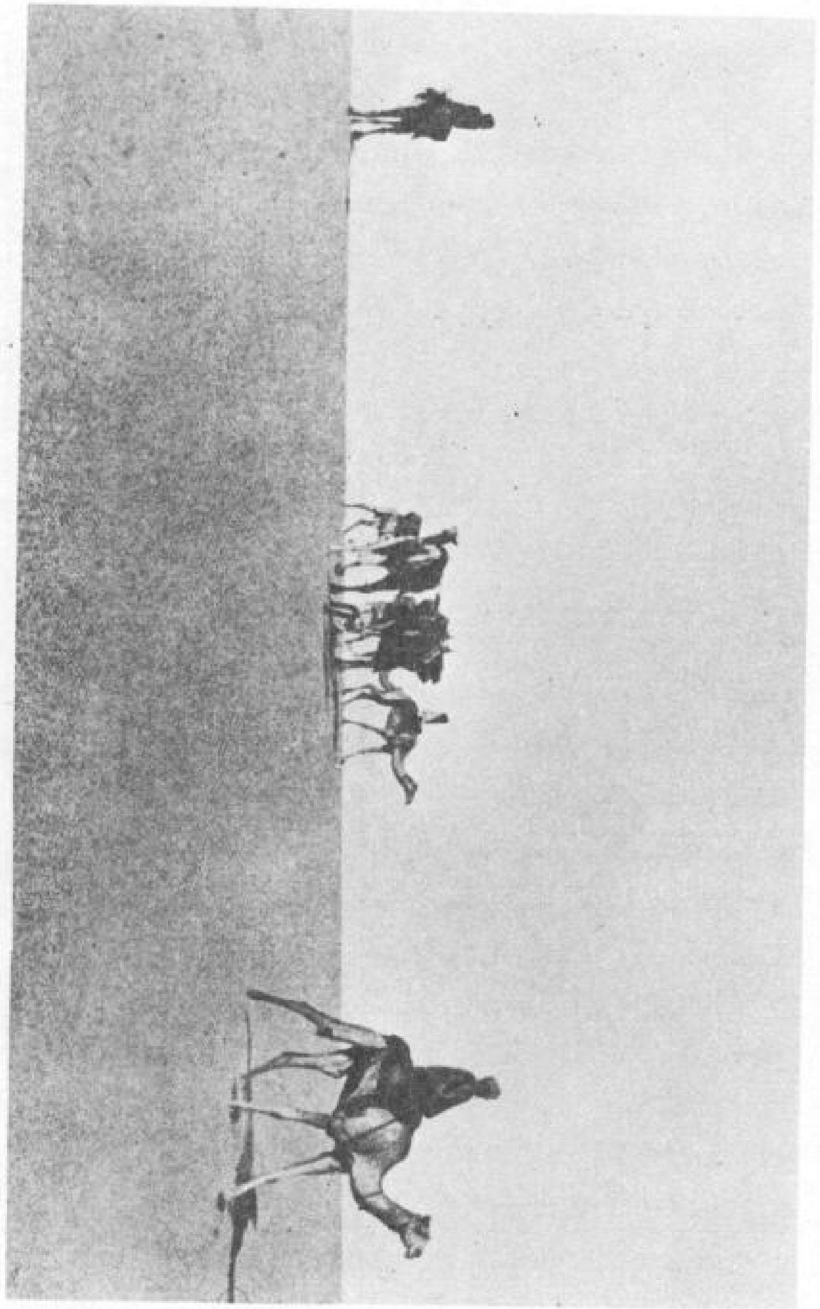
وفى الطريق مرا بإحــدى عيون المــاء حيث كانت بعض الفتيات تملأ جرارهن • وكانت علية بينهن ، فرآهن عزيز أولا وهن جالسات على حافة العين ، وعندما نهضن ليذهبن عرف عزيز من هى فتاة أبوزيد ، وكانت الفتاة مخطوبة لأحـــد أقاربها ، وفى الليلة المحددة لزفافها الى زوجها الذى لم تكن تحبه أو ترغب فى الزواج منه لأنها فى الحقيقة كانت تحب أبوزيد ، تسلل عزيز الى بيت الزوج وارتدى زى العروس وتزين بحليها ونام فى مكانها ، بينما ذهبت هى الى البرية حيث كان أبوزيد فى انتظارها وقضت الليلة بين أحضانه • وعندما دخل زوج علية إلى خدرها وأراد الاقتراب منها وكان يعرفها حق المعرفة كان عزيز يصده عنه ولم يتكلم • ولهذا توجه الزوج فى اليوم التالى إلى الإمام ليشرح له مشكلته ثم قال له إننى غير متأكد ما اذا كانت علية أم غيرها وإنى شخص قوى ولا أعتقد أن أحدا يستطيع أن يغلبنى سوى عزيزا بن خاله ، فأوصاه العالم بأن يعــود إلى علية فى الليلة التالية

واذا لم تستجب له ، فليقطع من شعر راسها ويغرس إبرة فى فخذها الأيسر ، فاذا كانت هى علية • فســوف تبقى ، اما اذا كانت إنسانا آخر فإنه سوف يموت وســوف تعرفه من الشعرة •

وهكذا اعاد الزوج الحرة فى الليله التالية واقترب من علية فصدته عنها كما فعلت فى المرة السابقة وخلال المشاجرة التى دارت بينهما شد شعرة من رأس عزيز ثم غرس إبرة فى إحدى عروق فخده ثم خرج •

استيقظ عزيز قبل الفجر وراح يجرى الى أبيه فى البرية ليخبره بمـا حدث له : فارتاعت علية للأمر ، غير أن أبوزيد اقتلع شعره من رأسها ثم طعنها بإبرة فى فخدها لكى يراها الزوج عندما تعـود اليه فتبتعد الشبهة عنها ، وبعد ذلك ركب كل من أبوزيد وعزيز مطيته ورحلا بينما كانت الإبرة — لاتزال فى فخـذ عزيز ، لأنه لو حـاول إخراجها فســوف ينزف دمـه حتى يموت • ثم وصـلا الى سهل فسيح فسأل عزيز والده : لأى شىء يصلح هـذا المكان ؟ فقال أبوزيـد : يصلح لرعى الابل • ثم واصـلا سيرهما حتى دخلا الى مكان آخر فيه عرائش ، فسأل عزيز والده : ولأى شىء يصلح هـذا المكان يا أبى فرد أبوزيد : أن هذا المكان يصلح ياولدى لتربية الخيـل •

ثم واصلا سيرهما الى أن وصـلا الى مكان مقفر • فسأل عزيز أبوزيد: لأى شىء يصلح هذا المكان ؟ ••• فرد أبوزيد : أنه مكان يصلح للمقابر • فقال عزيز إذن فدعنا نخيم هنا ، واحفر لى قبرا ، فقام الاثنين بحفر القبر، وقام أبوزيد بنزع الإبرة من فخد عزيز فنزف دمه حتى مات • فقام والده بدفنه فى تلك المقبرة ، ثم استأنف أبوزيد سفره حتى وصـل إلى مخيمه ، فخرجت له أخته أم عزيز فرأته من بعيد بمفرده ، فجاءته تبكى وتسأل أين عزيز ••• ؟ فأجابها أبوزيد : لقد كنا نغير وقد استولينا على إبل كثيرة وجئت أولا لكى أبشرك بذلك وســوف يأتى عزيز فى أثرى مع الغنائم ••



(نموذج لرمال سنام)

ولكن الأيام مرت ولم يأت عزيز ، فقلقت أمه عليه ، ولما انقضت أيام وأيام ، ولم يعد الابن الغائب ، أخذت تمر على الخيام وهى تذرف الدمع على مصير ابنها .

وكذلك كان أبوزيد حزينا عليه وأخذ يتمتم بهذه الأشعار :

لقد جئت إليك أيتها المرأة العجوز

ببشرى غير سارة

لأنك تعرفين ديارنا

كما يعرف الذئب أين يتجمع القطيع فى الليل

أيها الحزن لوقلت أن عزيزا قد مات فإن أمه ستموت

واذا قلت أنه يعيش فإننى سأكون كاذبا

وهكذا عرفت أم عزيز بأن ابنها قد مات .. وما ان انتهى الفتى المرى من سرد تلك القصة حتى نادى المؤذن للصلاة .. فهرع الجميع لتأديتها .

خرجنا فى ١٩ يناير مبكرين جدا ، وكان اتجاهنا نفس الاتجاه أى الشمال الغربى وبالنظر إلى عدم وجود مراع على الطريق التى كنا نسلكها . ونظرا لاشتداد شدة عطش الابل نتيجة للعشب الملح الطعم الذى أكلوا منه فقد اضطررنا الى الإسراع فى السير . وبعد أن تركنا ام القراين على يميننا ، تحدث البدو عن وجود مورد ماء على الحدود الشمالية لمنطقة « منجى » ولكننا واصلنا السير حتى بلغنا منطقة « سنام » الجبلية

الرملية ، وكانت رمال تلك المنطقة بيضاء متموجــة الشكل ، إن اسم سنام وهو اسم تلك المنطقة هو مشتق من اسم سنام الجمل ، وهى مشهــورة بحلاوة مياهها نسبيا وآبارها العميقة ، فلقد كان عمق كل بئر إحــدى عشر قامة كما كانت توجــد آبار أخرى عميقة عمق كل منها خمسة عشرة أو سبعة عشرة قامة فى الغرب •

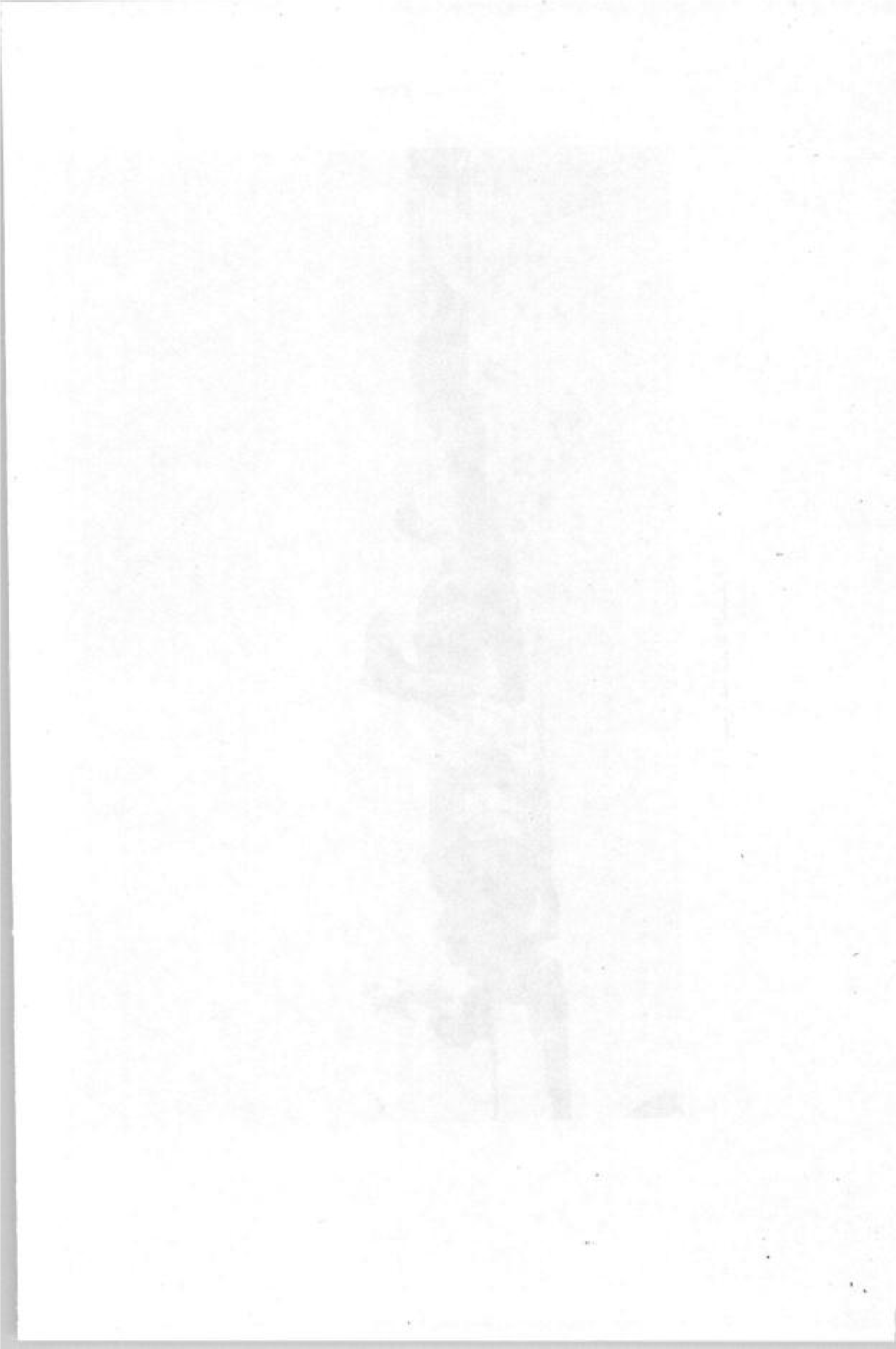
أما الآبار الضحلة فى المنطقة الجنوبية فكان يعاد تغطيتها بعد استعمالها أحيانا ، وذلك لمنع العبث بها • وكانت الآبار فىتلك المنطقــة مسقوفــة وعملية تسقيفها تحتاج الى كثير من المهارة والجهد والشجاعة ، والواقــع أن الآبار العميقة كثيرا ما يذهب ضحيتها الذين يتزودون منها لأن جوانبها رخوة جــدا ، وغالبا ما ينزلق الشخص الذى يرتادها فيسقط فيها ويدفن تحت رمالها ، وكان السياج الذى يحيط بها عبارة عن بعض الأشجار •

وعندما كنا نمر بمنطقة الصفيف • التفت إلىَ واحد من قبيلة مرة وأخبرنى بأن أربعــة من أخوته دفنوا فى تلك المنطقة ، اثنان سقطا فى البئر عندما كانا يقومان بتنظيفها ، ودفنا تحت رمالها ، وعندما حاول الاثنان الآخران انقاذهما سقطا أيضا ، واحتواهما البئر •• ان الصفيف مقبرة ولم نعد نذهب الى ذلك المكان •

كان شهر رمضان قد أقبل ، وعلى الرغم من أن الهلال لم تتضح رؤيته حتى صباح ٢٠ يناير ، فقد تعلقت الآمال على رؤيته فى المســاء • فتوقفنا فى الوقت المناسب ، وكانت العيون تنظر فى الأفق لاكتشاف الهلال ، إن حلول شهر رمضان يثير فى نفوس المسلمين حماسا دينيا عظيما ، وفى عمان يبدأ شهر رمضان وينتهى فى احتفالات متواصلة ، حيث تطلق المدافع وتقام الولائم ، وكانت تنتظرنا فى رمضــان مفاجأة غير ســارة ، فقد أحمــر لون السمــاء فى إحــدى الأمسيات ثم أظلمت الدنيا ، وبذلك تعذرت رؤية الهلال وبالتالى فقد تأجل الصيام الى اليوم التالى •



(استراحة لأداء الصلاة)



كانت محطتنا الثانية هى الفرجة •• على مسيرة تسع ساعات ونصف ، وقد اضطررنا الى الاسراع اليها لنفاد المـــاء ، وقبيل نزولنا من على الأبل، وكان الوقت قبيل الغروب أطلقت البنادق فوق رؤوسنا ، ثم ظهر هـــلال شاحب فى الأفق ، وبعد أن أخـــذ المرافقون يصيحون « الحمـــد للـــه » أبركوا جمالهم وتوجهوا للصـــلاة التى استغرقت منهم وقتا طويلا • بينما غرســـوا بنادقهم فى الرمال •

ثم واصلنا السير وأخذ اتجاهنا ينحرف الى الغرب ، وبقينا الى أن حل الظلام فشاهدنا من على بعد ضوء نار اهتدينا بها الى المكان الذى كنـــا سنخيم فيه ، ونظرا لأن المرافقين على سفر فانه يجوز لهم أن يصوموا أو أن يؤجلوا صومهم الى ما بعد عودتهم الى مساكنهم [١] ولكن أحـــد من البدو لم يفطر ، وقد التزم الجميع بالصـــوم كما فعل الجميع فى مقشن قبل عام مضى أثناء الرحلة السابقة ، أما فيما يتعلق بالصـــلاة فقد كانـــوا يصلون صـــلاة المسافر أى ثلاث مرات فى اليوم بدلا من خمس [٢] ، أمـــا الأمر الذى لم يكن يتناسب مع ذلك الشعور الدينى الكبير فهو نظام الأكل الذى تغير فى رمضـــان ، فبعد أن كان موعد العشاء بعد صـــلاة العشاء ، أصبح الأفطار بعد صلاة المغرب ويتم طعام الصباح قبل الفجر ، وذلك بالنسبة الى شهر رمضـــان فقط •

---

(١) ... ان قبيلة الصيعر — على حد راى قبيلة الرواشد — كمرجع فى هذا الشأن .. لايمكن ان يعول عليها نظرا لطبيعة العلاقة بينهما لأنهم لايصلون او يصومون ، وهم يسخرون من الرواشد اذا صلوا .. هذا على الرغم من انهم يحلفون اليمين (بالله) ويزعمون انهم يؤمنون بالله ويرددون دائما كلمة (الله يعلم) كما يزعمون أن اسلافهم انقذوا الرسول عليه الصلاة والسلام من ايدى الكفار الذين كانوا سيذبحونه . وعلى هـــذا الأساس .. فانهم يزعمون بأن الرســـول اعفاهم واعفى أولادهم من الصلاة ، (من الطبيعى ان هذه الأقـــوال لا نصيب لها من الصحة) .

(٢) .. يجوز للمسافر ان يجمع بين صلاتى الظهر والعصر ، كما يجوز له أن يجمع بين المغرب والعشاء (اى يصلى كل صلاتين فى وقت واحد) .. مع قصر الصلاة الرباعية الركعات الى ركعتين فقط .

وقد يؤدى البحث عن مناطق الرعى الى تأجيل الصيام فى رمضان ، غير أن نظام الصحراء كان يختلف عن ذلك ، فقد يستفيد البدو من التزامهم بالصوم عند قيامهم بأى غارة أما بعدها فيجوز لهم الإفطار ، كما تمارس قبائل الصحراء قوانين غريبة فيما يتعلق بالعلاقات الزوجية كما يحدث فى رمضان الذى تحل فيه العلاقات الجنسية اذا ما توفر ماء الاغتسال . أما فى غير شهر رمضان فان البدو لايلقون أهمية كبرى على الوضوء والطهارة كما تفرضها الشريعة الإسلامية فإن كانوا فى منطقة لا يتوفر فيها الماء فإنهم يتيممون بالتراب ولكنهم لايفعلون ذلك بعد الاتصال الجنسى .

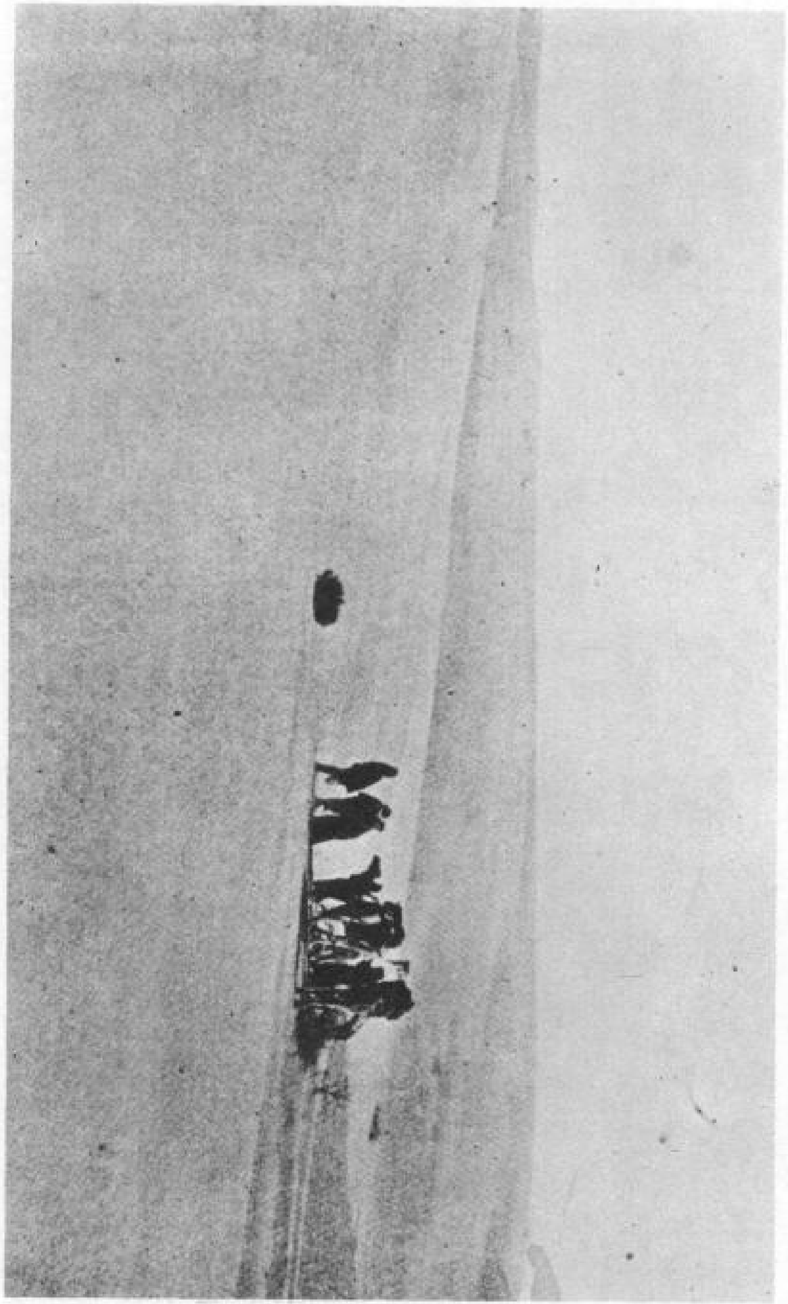
ورغم أنه لايوجد فى تعاليم الشريعة الإسلامية ما يحرم الزواج فى رمضان كما لا يوجد قانون يمنع ذلك ، فإن مثل تلك الزيجات نادرة فى منطقة الرمال أو لاوجود لها إطلاقا .. ويعتمد سكان الصحراء على الأشهر القمرية وإن كانت تلك الأشهر لها أسمائها الخاصة عندهم وليس على أساس التقويم الإسلامى المعروف (١) . وعلى سبيل المثال فإن كلمة «محرم» ليست معروفة عندهم ، والسنة تبدأ عندهم اعتبارا من شهر رمضان أو شهر ذى الحجة .

هنا فى منطقة سنام ، عند خط عرض ٣٠ر٢١° يقل فيها سُمك الرمال ، وللمرة الأولى يظهر فيها سطح الأرض الصلب على هيئة رقع مستديرة متناثرة على المنطقة .

لقد عثر بعض البدو على بعض شظايا وقطع من زجاج قديم قاتم

---

(١) .. ان اشهر السنة عند سكان الرمال هى كالآتى : ـــ رمضان ، عيد الفطر الأول ، عيد الفطر الثانى ، عرفه (شهر الحج) ، عاشوراء (شهر الزكاة) ، صفر ، ثم الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، مثاليل (أحيانا ثم الرابع ؛ ويسمى قوام) رجب ، قويصره . وقويصة ومثاليل تعتبر من الأشهر المشئومة للقيام بالغارات أو اى عمل ، ورمضان يدخل ضمن ذلك الا فى بدايته .



(في منطقة عبيلة القاحلة الباردة)

اللون فى مكان ما بين تلك المناطق وعندما أخذت أنظر فيما حولى لم أجـد أثرا لأى أنقاض فيما عدا أخاديد الرمال ـ وقد ساورنى الشك فى أن تكون المنطقة شهدت قيام بعض المستوطنات [1] قديما ، ورجحت أن تكـون تلك القطع لبعض الأوانى الفخارية التى كانوا يحفظون فيها الدبس (العسل الأسـود) ، ربمـا يكون بعض الأعراب قد أحضروها خلال شهر من شهور رمضان قبل أن تعرف الجزيرة العربيـة الصفائح المعدنية • ومن ناحية أخرى فإنه من المحتمل وجود آثار فى المنطقة •

ويتحدث بعض أفراد قبيلة مرة عن وجود بقايا أساسات لقلعة قديمة هناك مطمورة تحت الرمال ، كمـا يقال عن وجـود بقايا أثرية لعين مـاء فى أم الحديد منها قطعتان كبيرتان من النوع الذى يعرف باسم حجر الحديد والذى سميت العين باسمه • غير أنه من المحتمل أن تكون تلك الآثـار بقايا صواعق جوية ، ولقـد عثر أحد البدو فى البوحـة بمنطقة سويحب على أحـد تلك القطع وقد سماها حجر الحديد ربما لثقلها وقد تعزر الكشف عن طبيعتها فى البداية ، لعدم وجود تناسق فى شكلها وكانت زواياها حـادة الأطراف لأن شظايا الصواعق تكـون عادة مستديرة وفيها ثقـوب كثيرة • أمـا العينة التى عثر عليها كانت شظية لصاعقة كبيرة انشطرت إلى أجزاء خلال مرورها عبر الغلاف الجـوى [2] •

عند وصولنا الى الفرجة [3] قاد البدو جمالنا الى مناطق الرعى وقد أتيحت لى الفرصـة لجمع المعلومات والبيانات والإحصـاءات اللازمـة للخريطة تشمل الأسماء والاتجاهات والأبعاد ومناطق الرى التى لابد من

---

(١) .. سلوى ، أسقاك ، مباك .. معالم اثرية قديمة فى شبه جزيرة قطر وتنسب الى الفوارس ـ اى الفرش وهى الآن فى أيدى الاخوان ولهذا فقد تعذر مشاهدتها وفحصها .

(٢) .. جاء هذا الوصف فى بيان للمستر كامبل سميث .

(٣) .. سميت الفرجة باسم فرج .. وهو الرجل الذى قام بحفرها وهو من قبائل مرة والمعروف انه نفس الشخص الذى حفر بئر الشنه .

تسجيلها أثناء الرحلة وتحديدها بطريقة المثلثات الرياضية • ولكن البــدو بطبيعتهم يضيقون ذرعا بالأسئلة ، وكانت أفضــل طريقة للحصــول على المعلومات الهامــة منهم هى دفعهم للكلام فى الموضوعات التى تروق لهم • وكانت مناسبة أخرى للحديث عن أبوزيد وأخويه يوسف وبريجه ، واعتراض الجن لطريقهم : وتقول القصة :

فى أحد الأيام خرج أبوزيد ويوسف وبريجة فى رحلة وفى الليل توقفوا عند أحــد المستوطنات حيث كان يعيش رجل وأمــه وعنزتهما ، فقال لهم الرجل : سأكون سعيدا لو أنكم وافقتم على أن أشترك معكم فى هذه الرحلة . ولكنهم رفضــوا طلبه وقالوا له أنت لاتستطيع أن تؤدى الأعمال التى قد تطلب منا أثناء الطريق ، ولولا ذلك لأخذناك معنا • •ولكن الرجل أراد أن يثبت لهم مقدرته وكفاءته فتوجه الى أحد أشجار السمر وعند اقترابه منها انتزع ساقها من التربة بيديه كما لو كانت شجرة هشة ضعيفة الأغصــان ثم قذف بها جانبا وقال لهم : ألست قويا كما ترون ؟ فوافقوه على طلبه وغادر الأربعة الى وجهتهم •

وفى الطريق التقوا بفتاة تســوق أمامها شاة وتحمل على رأسها اناء فيه أرز وأدام من الزبد وكانت الفتاة كريمــة شيخ البلدة القريبــة منهم فسألوها عن وجهتها فأجابت بأنها ذاهبة لتقديم هذا القربان إلى جن فى أحد الأودية البعيدة وعرفوا من الفتاة أن الجن قد فرض عليهم تقديم مثل هذه القرابين وإلا فإن الجن سيدمر مدينتهم بأكملها ، وكان أبوزيد ورفاقه جياعا وكانت رائحــة الأرز تزيد من شهيتهم للطعام ولذلك طلبوا من الفتاة أن تعطيهم ما كانت تحمله لكى يأكلوا وقالوا لها أعطينا الشاة لكى نذبحها والأرز لكى نأكله ونحن نضمن لكى أن الجن لن يجرؤ على الاعتداء عليكم وعلى بلدكم •

فقالت الفتاة : لا أستطيع هذا لأن الجن ســوف يمنعون المــاء عنا

وعندئذ سنهلك جميعا ولكنهم لم يأبهوا لكلامها وأخذوا منها الشاة وذبحوها ثم أكلوها ، وبعد أن انتهوا من ذلك بدأوا — يفكرون فى أمر الجان • فاتفقوا فيما بينهم على مراقبة الجن فى تلك الليلة وأخذوا يتناوبون فيما بينهم لمراقبته • ، وفى الليلة الأولى كان الدور على الرجل القوى الذى اقتلع شجرة السمر من مكانها وعندما ذهب الرجل للقيام بالمراقبة واقترب من الموقع الذى يقيم فيه الجن •• خرج له الجن فى صورة ثعبان ضخم وقال له : أواه •• أنت الذى أكلت طعامى ، فارتعد الرجل من الخوف وعاد ادراجه الى أصحابه ، أبوزيد وأخويه يوسف وبريجه وقال لهم أن الجن سوف يبتلعكم ثم تركهم وولى الأدبار •

بعدها توجه يوسف وكان يحمل السيف والترس والعصا ، وما إن سمع الجن خطوات القادم يقترب حتى فغرفاه الكبير ، ولكن يوسف بادر الى أدخال السيف والعصا بشكل متعارض فى فمه الكبير ، حتى أن السيف أصاب لسانه ووصل الى فكه الأعلى ، بينما وقفت العصى بين الفكين فلم يعد الجن قادرا على قفل فمه أو القيام بأى حركة ، وبذلك استطاع يوسف أن يستكمل فترة المراقبة المحددة ، ثم جاء دور زميله بعد أن انسحب هو وعاد إلى صحبه •

وجاء الدور على بريجه الذى كان أبيض البشرة وعندما خلع ملابسه كلها وظهرت بشرته البيضاء الشفافة لم يستطع الجن أن يراه بسبب بشرته البيضاء فأخذ الجن يتحسس طريقه الى ضحيته دون جدوى فارتطم رأسه بحائط وفقئت من جراء ذلك احدى عينيه ، وهكذا انتهت نوبة المراقبة الثالثة •

وأخيرا جاء دور أبوزيد وعندما اقترب من الجن قال له : اقفل عينك الثانية أيها الجن ومد رقبتك وافتح فمك حتى أدخله وأصبح وجبتك هذه الليلة • ففعل الجن ما طلبه منه أبوزيد وعندئذ استل أبوزيد سيفه وضربه ضربة قاتلة على عنقه فخر صريعا ، ثم بلل يده من دم الجن وجرى بسرعة

إلى قصر شيخ البلد ثم قفز قفزة عالية وضرب يده الملطخـة بالدم على الحائط عند مدخل القصر فعلق بعض دم الجن بالحائط ، ثم رجع الى أخويه والشيخ الذين كانوا فى انتظاره .

وعندما أشرق الصباح رأى أهل البلدة بقعة الدماء فى الشارع وآثار يد الرجل على جدار الحصن فقام الشيخ ودعا أهل البلدة ، وطلب منهم أن يبحثوا عن الرجل الذى قتل الجن وأقسم بأنه سـوف ينصبه شيخا على البلدة .. يسلم اليه الحصن ، وتقدم كثيرون وادعوا أنهم الذين قتلوا الجن ، ولكن الشيخ طلب من كل واحد منهم أن يقفز على الحائط ويلمس براحته مكان الـدم الموجود فوق باب الحصن فلم يستطع أحد منهم أن يفعـل ذلك .

وفى تلك الأثناء حضر بريجه ويوسف الى البلدة ليكتشفا الحقيقة وتركا أبوزيد مع الفتاة والأبل فى البادية ، وعندما علم الشيخ بوصـول هذين الغريبين طلب احضارهما اليه وقال لهما بأن البلدة كانت تحت رحمـة الجن والآن تخلصت منه فلم يعد تقديم القرابين ضروريا وسألهم من منكم الذى أنقذنا من ذلك الجن . أخبرانى وسوف أعينه فى قصرى . فرد الرجلان بأنهما لايعرفانه ، ولكن الشيخ لم يصدقهما وطلب منهما أن يقفزا الى أعلى باب القصر ليرى اذا كان أحدهما هو الذى قتل الجن ، ففعلا ما أمرهما به ولكن أصابعهما لم تصـلا الى بقعة الدم الذى كان على الحائط ، وعندئذ تأكد الشيخ أنهما لم يقتلا الجن ، ثم التفت اليهما الحاكم وسألهما : وأين بقية رفاقكما ؟ ، فأجاباه وقد خشيا عواقب الأمـور : أن هناك عبـدا — وبالمصادفة كان أبوزيد أسود البشرة — وأن العبد المذكور خارج البلدة مع الجمال فرد عليهما الشيخ : سـوف أحجزكما حتى يحضر العبد ، ثم أصدر الشيخ أمره بأن تتوجه فتاة سـوداء الى أبوزيد لاحضاره ومعها جمل ، وقال للفتاة السوداء : عندما تصلين الى مكان أبوزيد اطلبى منه بأن يركب خلفك ، فإن كان عبدا فسيمتثل لأمرك ، وان كان حرا فإنه بالجزم سـوف

يرفض أن يحضر إلى هنا وهـــو راكب فى الخلف وانما ســـوف يصر على الركوب أمامك وأنت خلفه •

وهكذا ذهبت الجارية الى أبوزيد فى البادية ، وقالت له إننى مرسلة من قبل الحاكم إليك وهو يطلب منك المثول بين يديه ، وعليك أن تركب خلفى، ولكنه دفعها جانبا وركب أمامها حتى وصـــلا الى الحـــاكم ونزل من على الجمـــل •

قال الحاكم الى أبوزيد : اقفز أيها العبد ، وضع يدك فوق بقعة الدم التى فوق ـــ الباب ، فرد عليه أبوزيد : إننى عبد فكيف أستطيع ذلك ؟ إننى أعتذر عن ذلك •

فقال الحاكم لأبوزيد : عليك أن تفعل ما آمرك به ، وهكذا قفز أبوزيد حتى وصلت يده الى أعلى من بقعة الدم التى فوق الباب ، فعرف الحاكم والناس أن ابوزيد هو الرجل الذى قتل الجن •

وهنا التفت الحاكم إلى الأهالى وقال لهم : إنه أفضـــل شخص يتولى انحكم • إنه الرجل الذى خلصنا من الجن وسيكون حاكما عليكم ، ثم التفت الى أبوزيد وقال له : إن هذا الحصن ملك لك •• غير أن أبوزيد أجاب : إننى لا أريد المـــال ولا السلطة ، وإنما أفضل الحرية لأذهب حيث أشاء ، وهكذا زودوا أبوزيد ورفاقه بالخيول والكنوز ، ومن كل أرزاق الله ، فرحل هو وأخوته وهم فى منتهى السعادة والانشراح •

وقبل أن ينتهى محدثى من سرد القصـــة ، شاهدنا بعض الجمـــال وهى عائدة من الرمال وخرجت أنا وحمد لاستقبالها ، وعندما مررنا على بعض آثار أقدام جمال ، تبين لنا أن منطقة الفرجـــة من المناطق المشهورة بالآبار فى المنطقة وقد اكتشف صاحبى آثارا لأربعة من الجمال التى كانت

تسـير فى صف واحـد ، فالتفت إلىّ وسألنى مازحا عن أحسن جمل منها فى نظرى ، ولكنى كنت مخطئا فى رأيى فاعتذرت إليه ، فقال حمد : انظـر الى ذلك الجمل المقيد الأرجل انه من أفضـل الجمال ولكن ليس ذلك الأعرج وكان يعنى الناقة التى كنت أركبها ، أما عن الثالث فقد قال : إن آثارة تدل على أنه كان عائدا من المرتفعات ، ألا ترى آثار المشى الوعر على أقدامه ؟

إن الجمال التى تعيش فترة طويلة فى المناطق الرملية تكون آثار اقدامها رقيقة ثم أشـار الى الجمل الرابع وقال إنه وليدها • إن ناقتك تعتـبر كبيرة فى السن بالمقارنة للجمال الصغيرة ، انظر إلى الآثار العميقة لأرجلها الخلفية الصغيرة وهكذا •• وهكذا •• على أن ذلك لم يكن أهم شىء بالنسبة لخبرة حمـد بالجمال وهى الخبرة التى يشاركه فيها معظم البدو بدرجات متفاوته ، وهى اقتفاء الأثر والتعرف على نوعيات الأبل والجمال من خلال البصمات التى تتركها فى سيرها ، ومن تحديده هوية هذه الجمال ، وبموجبها يستطيع سكان الصحراء أن يتأكدوا ما إذا كانت المنطقة مأمونة أو غـير مأمونة •

إن اقتفاء الأثر فى شبه الجزيرة العربية يعتبر علماً قائماً بذاته وفقا لعلم البصمات المعمول به فى الغرب فإن علم اقتفاء الأثر يعتبر طريقة مضمونة للكشف عن صاحبه • أما فى المناطق الأكثر تعقيدا فى عمان مثلا ، فالمحاكمات تعتد لمثل تلك المناسبات على الرغم من أن « القفار » أى مقتفى الأثر ، يتمتع بمواهب لا نظير لها فى العالم للكشف عن الآثار سواء بالنسبة للانسان أو الحيوان •

وقد وقعت جريمة قتل أثناء عملى فى مسقط تتلخص بأن أحد التجار الصينيين جـاء الى مسقط لشراء بعض اللؤلؤ وغيره من مستخرجات البحر ، وفى إحـدى الليالى هاجمه أحـد المواطنين واغتاله بينما كان نائما فى بيته ، ويبدو أن القاتل قد أصيب بحالة ذعر أثناء ارتكابه الجريمة ، لأنه قفز من

سطح البيت الى الأرض أثناء فراره ، وقد ترك آثارا لقدمــه فى الطريق المؤدية الى مسكن القتيل ، وعند اكتشاف الجريمة فى صباح اليوم التالى ، تم تغطية أثر القاتل ، وأقيمت حراســة عليه لمنع الجمهور من الاقتراب منه، وقد طلبت الحكومة من داخلية البلاد استدعاء أحــد خبراء الأثر وقــد مرت أيام كانت أعصاب الناس متوترة خلالها وذلك لبشاعة الجريمــة ، وقد تم ذبح القتيل بنصل حاد من الجهتين ، وحتى ذلك الوقت لم يكن القاتل قــد اكتشف •

وعند وصـــول الخبير زار موقع الأثر أكثر من مرة وكان يقضى بضعة دقائق وهو مكب على الموقع لدراسته والتأكد من خطوط الأثر • وفى اليوم التالى طلب مجلس الوزراء حضــور جميع المواطنين والمرور أمام الخبير ، وقد تم ذلك بالفعل حتى أن جميع المناطق اشتركت فى ذلك الاستعراض الى أن أطلق الخبير الإشــارة •

لقد كان القاتل شابا فى العشرين من عمره ، وأحد خدم القصر ، فهو إذاً لم يكن شخصا عاديا حتى يمكن توجيه التهمة إليه بسهولة ، ورغم ذلك فقــد صــدر الأمر باعتقاله وإيداعه السجن ولكن عند استجوابه أنكــر انكارا قاطعا علمه بتلك الجريمة وادعى أنه برىء ، ولمــا أرسلت ملابســه الى المحلل العام فى بومباى لم يعثر على بقع دم ، غير أنه كانت توجد أدلة واقعية أخرى ، دعمت رأى الخبير ، فقد كان المتهم مشهورا بســوء الخلق ، وكان يسكن المنزل المواجه لبيت القتيل ، ومن ذلك يتبين أنه كان فى استطاعته مراقبة حركات ضحيته مراقبة تامة كما كان فى استطاعته أن يقفز من نافذته إلى سطح بيت القتيل ، ولكن لم يكن فى استطاعته أن يعــود فيقفز الى منزله نظرا لارتفاع منزله عن بين القتيل •

كما بحث الصيدلى الهندى فى آثار القدم ، فتبين لــه أن فى وسطها موضع أثر لحجر مكســور ، وقرر أن الرجل الذى قفز من السطح عــلى

الحجر لابد وأن يكون فيه أثر جرح فى قدمه اليمنى وقد جىء بالقاتل إلى ، وطلبت منه أن يرينى أسفل قدمه فأسرع برفع الرجل اليسرى ، ولكن بفحص القدم اليمنى أثبت وجـود قطع فيها ، كمـا أن المقياس الذى استعملته ، أكـد هو الآخر موضع القدم بعـد مقارنته بأثر الجرح فى قدم المتهم ، وقد حكم على المتهم بعقوبة الاعدام ونفذ فيه الحكم رميا بالرصاص وهكذا لم تذهب جهـود خبير الأثر سـدى .

ولكن هكذا أصبحت بعد مضى ستة أشهر على تلك الجريمة فى الربع الخالى لأتعلم من سكانه اقتفاء الأثر فى تلك الصحراء المهيبة ، ولكن بالنسبة لرجل البادية فقد كان الموضـوع فى غاية البساطة ، وأما بالنسبة لأوروبى مثلى ، فإن له انطباعات أخرى ترتبط بسحر بعض السطور الجميلة — أو الاختراعات الباهرة — كاهتزاز الأغصان عند هبوب الريح — أما البدوى فإن انطباعاته هى صـورة مصغرة للأشياء المحيطة به ، فإشارته بعصـاه إلى الشمس وهى تغرب ، أو إلى أسراب الطيور وهى تطـير فى صفوف متناسقة بالمقارنة إلى ذوات الأربع وهى تدب على الأرض ، والفئران بأشكالها المختلفة ، وهى تدلف الى جحورها داخل أكمات العشب ، وتهيل على تلك الجحور أكوام التربة الحمراء ، وكذا التواءات مشية السحالى التى تشبه أعمال الزخرفة العربية الدقيقة ، وهى فى طريقها إلى بعض النباتات لتدرأ عن نفسها الجـوع ثم تأخذ فى الرقص فرحة بذلك ، وأخيرا المرح الـذى يحس به الإنسـان وهو يرى الأغصان تتمايل فوق بعضها البعض بفعـل هبوب الريح .

كان الجـو قارس البرودة فى اليوم التالى ، وكان خط سيرنا فى البداية نحـو الشرق فى وجـه رياح شمالية عاتية ، ولحسن الحظ كان معطفى الثقيل معى ورأينا نسراً كبيراً يحـوم فوق رؤوسنا ثم أخذنا نسير بسرعة مع اتجاه الريح فوصلنا إلى مخيم أحد قبائل مرة ، كان عندهم خمسون جملا

أسود • ويرجع سبب وجود خيام سوداء إلى وجود جمال سوداء ، على عكس الحيوانات الثديية المتوحشة التي تكتسب لونها من لون البيئة المحيطة بها ، لقد قمنا بحركة التفاف فى مسيرتنا لكى نبتعـــد عن تلك القبيلة ، وهى وان كانت من القبائل الصديقة إلا أنه رؤى أن يبقى موضوع وجودى سراً حتى لايتمخض عن نتائج سيئة •

كان الشيخ صالح وهو يسير بجانبى يرتعش من البرد ، ولكنـــه لم يتذمر من تلك الحالة لأن التذمر يعتبر معصية للخالق الذى يعلم كل شىء ، وقد شرحت للشيخ صالح مـــدى شدة البرد عندنا فى بريطانيا • فالتفت إلى مبارك ليقول له : هل تسمع ما يقول الصاحب ؟ إن المياه فى بلاد الوزير تتجمد فى الشتاء لدرجة أنه يمكن للناس والخيول والحمير أن تمشى فوقها من شـــدة تجمدها •• ثم قال تأكيدا لاستغرابه من ذلك « لا اله الا الله » ، ولكننى أحسست فى كلام الشيخ صالح نوعا من التخوف من أن أكون طليعة لإحدى الفرق التى جاءت إلى بلادهم الجميلة كى تفســـدها ، إن ساعات الجوع الطويلة التى أمضيناها فى المسيرة أصبحت غير محتملة فقد انخفضت درجـــة الحرارة الى ٤٠° فهرنهيت ، ولمـــا لم يكن لدينا خيام أو أية وسائل أخرى نتقى بها البرد فقد اضطررت الى النوم بكامل ملابسى مـــع أغطية صوفية فوقى • فى اليوم الثانى والعشرين من يناير ونحن داخـــل كثبان الرمال الحمراء هبت علينا عاصفة رملية •

كنا جالسين أمام نار المخيم بعد العشـــاء قبل ليلتين من هبوب العاصفة وقد شهدت المنطقة نزول الندى بكثافة لم أعهدها منذ غادرنا جبال القرا ، وقد أخذت تهب علينا فى تلك الليلة رياح شمالية باردة ولكن لم يكن ثمـــة احتمال لهبوب عاصفة رملية شديدة • وفجأة جاءت العاصفة وأخذت تهب من كل الاتجاهات ــ فبادرنا إلى تغطية وجوهنا لنحميها من الرمال ثم هرع رجال القافلة إلى الجمال لاحضارها من مراعيها لأن العواصف الرملية هى العدو الأكبر للجمال ثم أخذت العاصفة تزداد شدة وعنفا • أما البدو فأخذوا

يلتصقون بعضهم ببعض ويغطون أجسامهم بكل ما كان لديهم من ملابس التماساً للدفء ، فذهبت إلى سريرى وأنا فى منتهى النشاط ، غير أن هدير العاصفة وبرودة قدمى حالت بينى وبين النوم ، وعندما كشفت الغطاء عن وجهى شعرت بالرمال توخزنى فى وجهى كما لو كانت نصالا أو سكاكين حادة.

انخفضت درجـــة الحرارة الى ٣٧ درجة فهرنهيت بالترمومیتر الجاف و ٣٥ درجـــة بالترمومیتر الســـائل وقد غفوت إغفاءة قصيرة قبل الفجـــر ثم استيقظت لآخـــذ ركابى وأمتعتى التى كانت مطمورة فى الرمـــال وأخيرا انكسرت حدة العاصفة فأيقظت رجالى الذين وجدتهم ملتصقين بعضهم ببعض يرتعدون — من البرد • ولكنهم نهضوا وقادوا الجمال التى كانت هى الأخرى ترتعد من البرد فأخذت تجرجر أقدامها وهى تسير لتأكل من العلف •

كانت تلك الليلة كارثة بالنسبة لى ، لقد نفذ الرمل إلى بعض أجهزتى وأُصيبت الكاميرا السينمائية بخلل كما تعطلت أجهزة القياس مما اضطرنى إلى اجراء عملية الرصد بطريقتين مختلفتين ، ولم نكن نعرف فى ذلك الوقت أيهما كانت صحيحة الى أن انتهت الرحلة •

وقد سمعت أحد البدو وهو يصرخ قائلا ، عندى لكم أخبار سارة •• عندى لكم أخبار سارة وكان يعنى بتلك البشرى الرياح الشمالية الحادة التى هبت ، وانخفاض درجـــة الحرارة فيها إلى خمس درجات فهرنهيت ، أى إلى درجـــة التجمـــد ، وعندئذ أخذ الشيخ صالح يردد الأغنية التاليـــة اطمئن اطمئن •• إن الريح لن تستمر طويلا •••• وكان يردد تلك الأغنية البدوية لكى يحث بعيره أو ناقته على السير بسرعة •

أخذت كثبان الرمال الحمراء تتقلص أمامنا لندخل بعدها الى المنطقة الفضاء التى تسمى سنام ، واقتربنا من بئر الجحيشة ، لقـــد كان اليـــوم

شديد البرودة فى السهل وقد اكتسى الأفق بضباب أبيض ، مر علينا وتركنا ، وكان زملائى يرتعدون من البرد وهم بملابسهم القليلة •

وهنا صاح بعض الزملاء قائلين : أبرك الجمل أيها الصاحب •• أبرك عقبه •• وكنا بالقرب من عين الدريسة ، حيث وجدنا بعض الحطب وبعض العشب ، وهنا أدركنا أننا توقفنا لقضاء يوم ، وكانت عيوننا قد امتلأت بالرمل وكذلك الكتب والكراسات ، الخلاصـــة أن الرمل قد تسلل إلى كل شىء ، ولذلك فقد تعذر علىَّ أن أكتب أية ملاحظات ، فجلست فى استرخاء داخل دوامات الرمل والبرد آملا أن يتحسن الجـــو •

أخذ البدو يجمعون الحطب من الأكمات الصغيرة ويكومونه فى حزم ، ولقد كان المكان من المناطق التى تكثر فيها الأعشاب والأكمات والتى لم أر
وعندما تقدم النهار اشتدت حرارة الشمس وخفت حدة الرياح الى حد ما
وعندما تقدم النهار اشتدت حرارة الشمس وخفت حدة الرياح الى حد ما
ثم أخذت الجمال تتحرك ببطء الى المراعى القليلة القريبة ، ولكن ما إن عادت الرياح تهب حتى أعيدت الجمال الى مرابطها خوفا عليها من الضياع ، لأن الرياح محت الآثار تماما •

إن حنين الجمال الى موطنها إذا صحّ التعبير ، فإنه من الأشـــياء المثيرة ، فالجمل تسيطر عليه باستمرار غريزة العودة إلى موطنه الأصلى وإلى القطيع الذى كان يعايشه ، ولكن يحـــدث أن تفقد الجمال هذا الإحساس اذا استمرت فى السير فترة طويلة ، غير أن ذلك الحنين يعاودها وإذا توقفت فى مكان ما ولم تعقل ، فإنها حتماً ستعود إلى المكان الذى كانت تعيش فيه ، أما صاحبها فهـــو لايعنى شيئا بالنسبة لها ، وهى لاتألفه ولاتحاول أبدا أن ترتبط به ولا تعرف عنه سوى صوته الذى يناديها به ومع ذلك فهى تعتمد عليه اعتمادا كاملا فى مشربها ، لأنها لاتستطيع بنفسها أن تدبر هذا الأمر • حتى فى مناطق المياه الضحلة ، فالجمال معروفة بالغباء ، إذا استثنينا معرفتها

بالاتجاهات التى تعودت السير فيها ، هـذا على الرغم من أنها بالنسبة لصاحبها تعـد نعمة من نعم الله •

قال الشيخ صالح : •• أيها الصاحب : لو أنك سرحت عقبه [١] • فإنها سـوف تتوجـه هى وبقية زملائها الى الدكاكة موطنها الأصلى اهتـداء بالنجوم •

فسألته : ولكن كيف تهتدى الى عيون المـاء ؟

فأجاب إنها سوف تهيم على وجوهها بدون ماء الى أن تصل ، إذا كان الفصل شتاء ، اما اذا كان الفصل صيفا فإنها لابد وأن تهلك فى تلك الرحلة ، وقد حاولت التأكد مما قاله الشيخ صالح خلال اليومين الأخيرين ، عندمـا انضمت إلى قافلتنا ناقة أخرى وكانت تسير فى مقدمة القافلة لأنها أخذت تجرى وتقفز إلى أن تقدمت القافلة ، وكنا نسـير فى اتجاه قطر وهى المنطقة التى جاءت منها ، وربما كان الشـوق هـو الذى دفعها إلى مناطق البلح والأسماك ، وهى الأطعمة التى فقدتها فى منطقة الرمال ، وكان من حسن حظها أن الفصل كان شتاء [٢] ، وقد التفت الىّ أحـد أفراد قبيلة مـرة

---

(١) .. لكل ناقة او جمل فى المنطقة اسم يميزها عن غيرها من انواع الجمال ، اما لغير اصحابها فانها تعرف بأحد التعريفات التسعة الآتية وذلك تبعا لسنها : فالناقة التى من سن شهر الى سبعة اشهر تسمى (حوار) اى رضيعة ، ومن سن سبعة اشهر الى سنتين تسمى « الانفريد » اى التى تأكل بنفسها ، والناقة التى من سن عامين تسمى (بنت لبون) والذكر منها (ابن لبون) وفى سن الثالثة تسمى (المضرية) وهى السن التى يمكن للبعير ان يصاحبها ، وبنت اربع سنوات تسمى الجدة والجدة هى الناقة التى فى سن الجمل ، والسنة الخامسة تسمى (الثنية) وفى سن السادسة تسمى (الراية) وفى سن السابعة تسمى (السديس) ، وفى سن الثامنة شغل الناقة او النوق .

(٢) .. أن الناقة الحبلى تسمى (المدنى) بلهجة قبيلة الرواشد ، والجاهة بلهجة قبيلة مرة ، وفترة الحمل هى اثنا عشر شهرا ، وقد تطول الى ثلاثة عشر شهرا ، ولكن بالنسبة للفترة الاخيرة فيندر ان يبقى الوليد على قيد الحياة ، فان بقيت فانها تسمى (سهام) ، أما الناقـة قبل ان تلد تسمى (بكرة) وتسمى قبيلة مرة ذكر الابل والناقة (قعود) و (حاشى) .

وقال : لاتدع ناقتك تأكل من ذلك العشب ، وكنا ساعتها نمر بأحد السهول الخضراء لأن تلك المنطقة يسكنها الجن ...

ثم تكلم الشيخ صالح فأكد قوله وقال : بأن تلك المنطقة تعتبر من المناطق المشئومة وكان يعنى منطقة « الحرة والبنيان » ، أما المناطق الأخرى فلا ضرر منها ، وقيل لى بأنه قد نفق فى تلك المنطقة خمسة من الابل فى ليلة واحدة ، كما مرضت ناقتان وجف اللبن فى ضرعيهما .

كذلك سمعت عن اعتقاد آخر عن الجن ، وهو أنه يستطيع أن يتلف المزروعات ، وقد حدث هذا فى منطقة مقشن حيث تلفت مجموعة كبيرة من الأحراش ، حتى أن المرافقين الذين كانوا دائما يحرصون على جمع الأعشاب الخضراء الطرية لأطعام جمالهم باليد ، امتنعوا فى تلك المنطقة عن ذلك ، كما أنهم أصبحوا لايمارسون الصيد أو القنص فى تلك المنطقة [1] . أما قبائل الكثير فعندهم اعتقاد غريب بأن إطعام أى جمل باليد فى منطقة مقشن يعتبر من الأعمال المشئومة .

كانت بئر البنيان المشهورة على بعد مسيرة يوم واحد من ذلك المكان ، وبعد ساعة ونصف لمغادرتنا للمراعى بمنطقة الحد ، توغلنا فى منطقة خيوط البريد أى عند التلال ارحمراء ، وهى الحدود الشمالية لمنطقة سناد ، كانت الريح قد هدأت وانقشع الغبار عن سهل ناعم تتناثر فوقه كثبان وردية اللون تسمى « حمارور » ، وهى على عكس السهول البيضاء التى عبرناها أخيرا ، ومررنا فى طريقنا على أراضى خضراء تمتد على طول القنوات الحجرية الواقعة على التلال ، بينما كانت جمالنا تنتزع من حين وآخر بعض الأغصان أثناء سيرها . ولكننا لم نكن نشجعها على ذلك بسبب ملوحة التربة،

---

(١) .. من المعتقدات الغريبة المنتشرة بين قبيلة المناصير هى انهم لاياكلون الأرنب او غيره من الحيوانات اذا كانت قد اطلق عليها الرصاص واصابها فى راسها . اى اذا كان الرصاص قد دخل الى المخ .

فقد تضرها ان لم تكن قد اعتادت عليها ، وقد ذكر أحد قبائل المناصير وكان يشير بيده إلى الجهة الشرقية ، بأن المناصير لاتوجد لديهم مراع أخرى ، وهم يربون جمالهم على تلك الأعشاب التى تؤدى إلى نمو مثل ذلك السنام فيها ، ثم أخذ يحرك كوعه ويده لكى يصور لنا بطريقته الخاصة حجم السنام الذى كان يصفه لنا وبالتالى حجم الجمل .

بعد ذلك دخلنا منطقة قيد الذعن . وكانت سهلا يتناثر عليه عدد من التلال الحمراء العالية والمنخفضة بالإضافة إلى بعض النباتات التى تنمو تحت الرمال ، ومنها انتقلنا إلى منطقة أخرى من التلال الحمراء ، وخلال سيرنا توقفنا للتزود بالماء من عين البنيان ، وأخذت الجمال تمشى ببطء كما تفعل عادة عندما ينهكها التعب ، وكان الصيام قد ترك آثاره على وجوه الصائمين كما كانت المراعى الملحة تترك هى الأخرى آثارها على الجمال بالإضافة إلى الإرهاق الذى عم الجميع من طول المسيرة وشدة الرياح الشمالية الباردة .

وكان أول من وصل إلى عين الماء حمد وأنا فقال لى حمد : اشرب أيها الصاحب .. إن ماء منطقة البنيان عذب ، وحتى لو لم يكن الشهر الذى كنا فيه هو شهر رمضان فإن حمد لم يكن ليشرب ، فمن تقاليد البدو أنه إذا استمر فى السير لمدة يوم دون شرب — فليس من حق أحد أن يشرب قبل أن يكتمل وصول كل أفراد القافلة لكى يشرب الجميع معا ، وهذا التقليد يغذيهم بالمشاعر الأخوية والإنسانية .

كانت عين البنيان من نوع يختلف عن عيون الماء فى منطقه الرمال الجنوبية التى كانت عبارة عن حفر صغيرة ، وعندما بدأ رجال القافلة يدخلون المنطقة بدت على وجوههم تعبيرات جديدة فقد كانت السعادة ظاهرة على وجوههم ، وأخذوا يطلقون الصيحات ابتهاجا بوصولهم إلى تلك العين ، بينما أخذت جمالهم تمد أعناقها إلى فتحات المياه لتأخذ كفايتها منه .

كان انعدام المراعى فى تلك المنطقة الجرداء حائلا دون التوقف ، حيث بدأت القافلة بعد أن انتهت الجمال من شربها تستعد من جديد لاستئناف السـير ، وكنت أسير وراء القافلة ولكن سرعان ما توقفنا عن السير لنسمح لرحال القافلة بتأدية صـلاة المغرب ، ولكننـا وجدنا بعض الصعوبات فى تتبع طليعة القافلة ، كما أن الظلام ضاعف من تلك الصعوبات ، وعن طريق النجم القطبى الذى كان على الجهة الشمالية منا استطعنا مواصلة الرحـلة خلال الظـلام • وبعد ساعة سمعت صيحة من خلفى ، وعنـدما التفت رأيت وميضا لنار فى الجهة الشرقية منا ، فدرنا وتوقفنا عن السير ، وكانت الساعة السابعة مساء ، وكنت متعبا إلى أقصى حد ، بعد مسيرة عشر ساعات ونصف متواصلة ، وكان عزائى فى ذلك هو إدراكى أن المجاهل الوسطى للربع الخالى قد غدت خلفنا بينما كان البحر على بعد مائة ميل إلى الشمال ، وأخيرا فقد بدا النجاح يلوح فى الأفق •

الفصل التاسع عشر

الوصول إلى البنيان ـ وقفة لاسترجاع مراحل الرحلة

كان وصولنا إلى البنيان يعنى وصولنا إلى الأطراف الشمالية للربع الخالى[1] • ولقد رأيت من الأفضل فى تلك المناسبة أن أقطع الحديث عن الرحلة لأتحدث عن تلك المنطقة وتسميتها وتركيبها وعن النواحى الاجتماعية لحياة سكانها كما عايشتها من خلال رحلاتى إليها •

من الناحية الجيولوجية ، يقسم الربع الخالى شبه الجزيرة العربية إلى قسمين ، القسم الغربى الذى يؤلف المساحة الكبرى منه ويشمل جزءا من القارة الإفريقية ويفصله عنها منخفض وادى البحر الأحمر ، وقد نشأت عن ذلك مرتفعات صخرية بلغ ارتفاعها الآلاف من الأقـــدام ، إلا أن تلك المرتفعات لم تتعرض داخل حدودها لاضطرابات جيولوجية كبيرة • وحتى الصخور البركانية على الجانب الغربى من تلك المرتفعات قد تكونت دون أن تصاحبها اضطرابات جيولوجية حادة ، مما لم ينشأ عنه أية قمم بركانية ، والخلاصة أن تلك المنطقة ظلت هادئة نسبيا من الاضطرابات عبر مراحـــل طويلة من تاريخها الجيولوجى ، أما المنطقة الشرقية التى هى عمان فإنهـــا تؤلف من ناحية أخرى جــزءا من مجموعة الكتل الجبلية الهائلة التى ظهرت بقوة الضغطالجيولوجى من الشمال ضد الجزء الأكبر استقرارا وهـــو شبه الجزيرة الأم ، فى الوقت الذى كانت التقلبات الأرضية تعمل على تشكيل السلاسل الجبلية الكبرى فى الهند وفارس[2] •

---

(١) • • تعتبر البنيان من خط الطول ٥١ شرقا • الحدود الشمالية للرمال • أما من الشرق فتواصل الرمال امتدادها شمالا عن طريق الباطن وولواوكوفا ولونا حتى شواطىء الخليج ، أما الى الغرب فهى تمتد عن طريق الجوب والجفورة والأحساء (راجع الخريطة) ولكن تلك المناطق لاتعتبر فى راى أصحابها مـــن مناطق الرمال •

(٢) • • راجع مقالات (طبقات الأرض ونشوؤها فى عمان واجزاء من جنوب شرق الجزيرة) • مجلة الجمعية الجيولوجية ١٩٢٨ بقلم الدكتور ج • م ليز •

أما ظفار التى كانت نقطة الانطلاق للرحلة فإنها تدخل ضمن التركيب الجيولوجي للجزء الأكبر من سهل شبه الجزيرة العربية . فعلى امتـــداد الشاطىء تظهر كتل الجرانيت وغيرها من الصخور البللورية ، التى تشكل القاعدة العريضـــة لشبه الجزيرة العربية ، وفوق تلك الصخـــور توجـــد الصخـــور الرملية الحمراء التى تؤلف المرتفعات السفلى لجبـــال القرا . والتى تشبه الصخـــور الرملية فى بلاد النوبة وسيناء بمصر وفى شرق الأردن، وفوق تلك الصخور بدورها نشأت قمم جبـــال القرا كمخلفات للعصـــور الطباشيرية والأيسونية ، غير أن الواجهة الجنوبية للربع هى فى الحقيقة بمثابة جرف كبير يؤلف أطراف السهل الرملى الأعلى ويأخذ فى الانحـــدار تدريجيا حتى أطراف الرمال عند المنطقة التى عثر فيها على المتحجرات الأيســـونية .

أما حزام الرمال الأكبر الواقع شمالا إلى مسافة تمتد نحو ٣٠٠ ميل وأكثر فليس فيه ما يدل على أنه مرجع لأى عصر معين ، ذلك على الرغم من أن عينات الرمـــال التى أحضرتها توجـــد بها نسب من الجير الأبيض والوردى ، الأمـــر الذى يشير الى أن الرمال لم تنتقل الى تلك المنطقة من مكان بعيد والا" لاختفى الجير من كسور المرو الأصلب .

أما على الطرف الشمالى من الرمال حتى شمال منطقة البنيان فقد عثرت على متحجرات بحرية تنتمى إلى نفس المرحلـــة التاريخية مثل تلك التى اكتشفتها فى المنطقة الجنوبية ، غير أنه كان من المتعذر التأكيد من خـــلال رحلة واحدة ما إذا كان البحر الأيســـونى امتد فى وقت من الأوقات إلى المنطقة الواقعة بين قطر وظفار ، إلى أن جاءت الرمال التى زحفت اليهـــا من الشرق فردمتها ؟ أو ما إذا كان الجزء المتد إلى مسافة مائة ميل عـــلى جانبى الربع الخالى هى المنطقة التى اكتشفت فيها المتحجرات التى تشـــكل الحدود الشمالية والجنوبية للبحر الأيســـونى .. ومن المحتمل أن تكـــون الأرضية الأساسية للرمال قد نشأت من تركيبات جيرية معينة تعود فى تاريخها

إلى العصر الايسونى أو الطباشيرى • •فى نفس الفترة التى برزت الصخور انجيرية لبلاد النوبة ، والتى تكونت بالتالى منها •

كنت قد أشرت إلى أن الربع الخالى كان منخفضا موقعه بين نجد الأعلى غربا ، وسلسلة الجبال العمانية شرقا ، ومن المحتمل أن يكون ذلك المنخفض قد تكون فى نفس المرحلة التاريخية التى تكونت فيها المرتفعات العمانيـــة • وذلك من خلال العصرين الطباشيرى والعصر الذى يليه ، ومما يثير الاهتمام وإنما له سلبياته •• هو التكوين الطبوغرافى للمنطقة على امتداد طرق الرحلة التى سلكتها وهو عدم وجود تعرجات كبيرة يمكن أن تؤدى إلى نشوء معالم ذات أهمية فيها ففى سلسلة جبال القرا بالذات يبلغ أعلى ارتفاع ألفى قدم ، ومنه تبدأ الجبال فى الانخفاض تديجيا حتى ارتفاع ١١٠٠ قدم عند حافة الرمال بحيث لايزيد ارتفاع المنخفض هناك على ٩٠٠ قدم فى كل مائة ميل ، وكذلك الحال بالنسبة للطرف الجنوبى ، بحيث لايتجاوز الارتفاع ١١٠٠ قدم فى شمال البنيان ، ثم يتدرج فى الانخفاض إلى ٩٠٠ قدم فى كل ثلاثمائة ميل تقريبا وإلى شمال منطقة البنيان ، فإن الانخفاض يحتفظ بمعدله عند الناحية المواجهة للبحر ، وقـــد لاحظت فيما يتعلق بمنطقة الرمال (١) بأن الطرف الجنوبى منها هو أعلى منطقة فيها •

ومن هناك تنحرف شمالا ، وحسب قول سكان المنطقة أن انحرافهـــ يبدأ من خط طول ٤٩° ثم مرة أخرى من خط طول ٥٣° •

---

(١) .. فيما يلى ملخص لتشكيلات الرمال الأساسية كماوجدتها فى رحلتى من الجنوب الى الشمال :

(أ) أرض رملية حمراء مرتفعة ٢٠٠ ميل .

(ب) مناطق رملية مرتفعة أقل وعورة مع وجود تلال على شـــــكل حدوة الحصـــــان ٣٠ ميلا .

(ج) تلال بيضاء متوازية تتخللها وديان حمراء ١٠٠ ميل .

(د) أراض رملية بيضاء منبسطة أو متعرجة قليلا ٧٠ ميلا .

(هـ) أراض رملية بيضاء منبسطة أو متعرجة قليلا تتخللها جبال حمراء ٥٠ ميـــلا .

(و) مرتفعات قاحلة وتلال حمراء ١٠٠ ميل .

وتمتد تلك الأجنحة الى ثلاثة اتجاهات داخل الرمال ، وان الاعتقاد بأن منطقة الرمال منطقة خالية من المياه اعتقاد لا أساس له من الصحة فالماء وان كان شديد الملوحة إلا أنه موجود على أية حال فى الشرق من المنطقة على درجة ٥١ [١] شرقا على امتداد المناطق الوسطى — فى منخفضات سويحب ، وفى غيرها من المناطق ، وهناك وفرة من المياه تحت طبقات الأرض ولكنها ملحة بدرجة تجعلها غير صالحة للشرب ، والعيون والآبار لا تحمل أسماء مشهورة وأما مناطق المياه الأخرى الصالحة للشرب فإن لها أسماء مشهورة بها ، وفى أغلب الأحيان فإنها تسمى بأسماء الذين حفروها ، وعلى كل حال فإن الجمال تقوم بعملية تنقية مثل تلك المياه ، فهى تشرب من تلك المياه والسكان يشربون من لبنها .

وتوجد المياه العذبة فى الأطراف الشرقية من منطقتى الدكاكة الغربية وسنام ، وكان عمق بعض آبار الماء يصل إلى ثلاث عشرة قامة وأكثر ، غير أن مياه تلك الآبار غير مضمونة لأنها قد تجف كما حدث فى منطقة الطريقة . أما الآبار الملحة فتقع فى أقصى الأطراف الشرقية من خط سير الرحلة ولكن ماءها ضحل . كآبار منطقة اليوجة التى لا تنضب مياهها ، وهذا كما يبدو يؤكد ما يقوله العرب بأن المرتفعات الرملية والغربية والجنوبية الغربية مناطق جافة قاحلة ليس فيها ماء على الإطلاق .

---

(١) .. التحليلات الكيميائية للعناصر الى تحتوى عليها المياه التى شربت منها مبينه فى الملحق الثانى.

=

أما الأسماء الإقليمية للرمال فإن أغلبها مشتق من طابعها الطبوغرافى أو من الآبار أو النباتات الهامة [١] فى بعض الأحوال أو من العلاقة بينهـا وبين الجمال •

= ومواقع المناطق النباتية من الجنوب الى الشمال هى كالآتى :

المنطقة	الحياة النباتية	خط عـرض		ارتفاع	
		من	الى	من	الى
١ ، ٢	زهـر بركـان ابالـه (١)	١٨ر٣٠	٢ ر٢٠	١١٠٠	٥٥٠
٣ ، ٤ ، ٥	الحـد	٢٠ر٠٠	٢٣ر٠٠	٦٠٠	٢٥٠
٥ ، ٦	عـدة	٢٢ر٤٠	٢٤ر٠٠	٢٧٥	١٢٥
٧	الشنان	١٢ر٢٣	٢٤ر٣٠	٢٠٠	س ل

اما الشعب فهو القسيس والحرم الذى ينمو فى المناطق الرملية الحمراء بالمناطق ١ ، ٢ ، ٥ ، ٦

(١) .. باله هو اكثر الأعشاب التى توجد فى منطقة الرمال وأكثرها فائدة للسكان ذلك ان منه يصنع سرج الجمل وادوات الخيام ، كما أنه يصلح وقودا للنار وذلك على عكس الحد والشنان .

وقد سبق ان أشرت الى موضوع الدكاكة وسويحب وسنام ، وكذلك بالنسبة للمناطق التالية :

البـواح : جمع باحه ، وهى عين ضحلة للمياه .
منجـر : مشتقة من المنجور ، وهى عين ماء فى منطقة صخرية .
حد(الجعده) : منطقة ينمو فيها نبات الحد بكثرة .
خلة عجمان : وهى منطقة لا ينمو فيها نبات الحد .
ام مطله : منطقة ام الغوقة ، وهى لا ينمو فيها لانبات الحد ولا نبات الزهـر .
الجـوب : منخفض يشبه الوادى — منطقة بنيان — جبرين .
جيبـان : جمع جوب .
جنورة : مفرد جفر ، وهو الثقب العميق .
الشويكلة : ربلط كيس الضرع .
طوال : من طول وهى البئر العميقة جدا ، وهذه الكلمة دارجة فى سنام الغربية .
عقال : عقال الجمل ، وتعنى ايضا عين الماء الصغيرة فى جيبان الشرقية .

إن أسلوب الحياة فى منطقة الربع الخالى وهو أسلوب يعتمد على المراعى المؤقتة وموارد المياه الضئيلة أو الملحة — أسلوب بدائى قبلى • فهى حياه شاذة من الناحية الاقتصادية وغير مستقرة من الناحية السياسية ، وإن كانت من الناحية الاجتماعية حياة ثابتة لاتغير فيها •

ورخاء كل قبيلة يقاس بما تملكه من جمال وعددها ، أما مصادر الدخل أو الثروة فهى المراعى وتقاس رجولة أفراد كل قبيلة بما تستطيع أن تستولى عليه من جمال القبائل الأخرى التى تناصبها العداء •

ومن هنا فإن الجمال نوعان : الجمال الحلوب ، وهى بمثابة الأصول للثروة واحتياطيها والجمال الأقل وهى تستخدم للركوب وتمثل رأس المال المستثمر ، ويساوى الجمل من الفئة الأولى نحو ١٠٠ ريال ، ومن الفئة الثانية من ٢٠٠ الى ٤٠٠ ريال للنوع الأجود •• والجمال الحلوب لا تعرف الركوب اطلاقا وكل مهمتها هى الإنجاب وأدرار اللبن ومن هنا فإن الأنثى هى المفضلة ، وهى تحظى بكثير من العناية والرعاية من السكان ، بينما الذكر من الجمال يعد من الكماليات وبالتالى فإنه نادراً ما يعيش بعد السنة الأولى حيث يفضل ذبحه ، وقد يتم ذبحه بعد ولادته مباشرة ، بل وقبل أن تراه الأم ليكون وجبة لأصحابه •

ويكفى جملان أو ثلاثة لخدمة قطيع مكون من خمسين ناقة كما تستخدم الذكور فى نقل الأمتعة والحمولات الثقيلة أثناء التنقل وعندما ترعى الأبل تتفرق إلى مجموعات فى مناطق مجهولة • بينما يتولى أصحاب الابل الاشراف عليها كل بمفرده بالنسبة لمجموعته • وعند الانتهاء يعودون بالأبل إلى مناطقها خوفا من الغارات أو الاعتداءات التى قد تفاجئها من الهضاب إذا توغلت فى المناطق غير المأمونة على الحدود الجنوبية كما حدث فى الشتاء الماضى •

وتعتبر قبائل مرة والمناصير والمناهيل أكثر القبائل امتلاكا للجمال ، ثم تأتى بعد ذلك قبيلة الصيعر إلى حد ما ، أما قبائل الرواشـــد فقد تدهورت ملكيتها فى الأعوام الأخيرة نتيجة لمـــا تعرضت له الجمال من اعتداءات من قبائل الصيعر — وعلى هذا الأساس فإن من يملك خمس جمال يعتبر ميسور الحال عند قبيلة الرواشد ، أما إذا زادت الملكية عن عشرين جملا فيعد من الأغنياء واذا ارتفعت الملكية الى ١٠٠ رأس فيعد أصحابها من كبار الأثرياء . أما بالنسبة لقبائل مرة فإن متوسط الملكية يزيد عن ذلك كثيرا وقد تحدث إلىّ أحد البدو عن معدلات الثروة بالنسبة للجمال وكان يتحدث وهو يبتسم ، على غرار ما يحدث عندنا فى الغرب ، عندما نتحدث عن القصص فى العهد القديم . فقد تناول الرجل حفنة من الرمال وتركها تتساقط من خلال أصابعه وهـــو يقول : والله أن فلانا ابن فلان عنده ٣٠٠ رأس ورغم تلك الثروة فإنه ليس من الشيوخ ، أو عنده أموال أو ممتلكات أكثر منى .

فسألته وماذا تفعلون باللبن ؟ فأجاب : من عنده لبن كثير فسوف يكون عنده ضيوف كثيرون كما أن عليه لجيرانه حق ، فضلا عن الذين يطرقون بابه، أما ما يفيض من اللبن فإنهم يسقونه لصغار الإبل .

ومن وبر الجمل يحصل البدو على كل حاجاتهم المنزلية كالنسيج الذى تصنع منه الخيـــام والحبـــال وأحزمـــة الركائب وغيرها من الحاجيات وتصنع نســـاء البدو ملابسهن ، لأن حياكة الملابس مقصـــورة على النساء دون الرجال ، على عكس حلب الناقة الذى هو مهمة الرجال بعكس قص وبر النوق كما جرت العادة بالنسبة لقبيلتى الرواشـــد والعوامر اللتين يعارض رجالها قيام النساء بحلب الإبل وذلك على عكس قبائل مرة والمناصير والصيعر وقبائل سهول حضرموت التى لاتعانى من تلك العقدة ، وهناك نوعان من ركاب الإبل : الركاب المزدوج ويسمى (الشـــداد) ومكانه فوق سنام البعير واستعمال هـــذا النوع من الركاب مألوف فى شبه الجزيرة العربية وعلى

الأخص بين قبائل مرة والصيعر وكرب • أما بقية القبائل وفى عمان بل وفى مناطق جنوب شرق الجزيرة العربية فإنهم يستعملون نوعا آخـر يسمى الزانه • وهو نوع خفيف الوزن (بلا أعمدة) تغطية قطعة من جلد الماعز يوضع خلف سنام الناقة •

ومن هنا يتضح لنا بأن الركاب يتنوع جغرافيا ، فإلى الغرب من خط سـير الرحلة تستعمل القبائل النـوع الأول بينما قبائل المنطقة الشرقية تستعمل الزانه ، وبالمثل فإن هناك لهجتين عربيتين فى منطقة الرمال ، والفرق بينهما يعود إلى منطقة كل قبيلة فهناك اللهجة الشمالية أو لهجـة قبائل مـرة ، كمـا أن هناك لهجـة قبائل الرواشـد أو سـكان الجنـوب والأخيرة يتكلم بها عوامر [1] المنطقة الشمالية الشرقية ، والفوارق الرئيسية بين لهجـة الشمال ولهجة الجنوب هى فوارق تكمن فى الكلمات [2] • كمـا أن هناك فرقا كبيرا فى النطق بها ، وقـد تطوع حمـد بن هـادى فأفاد

---

(١) .. أن قبيلتى الكثيرى والعامرى وهما من سلالة قبيلة الرواشـد والعوامر هم كما يقولون من أبناء واخوة حمدان ، والكلمة التى كان يرددها الشيخ صالح دائما هى سنن العوامر والكثيرية وكذلك قبائل حضرموت لهـا لهجاتها الخاصة .

(٢) ..

		الرواشـد	مـرة
الرغيف	:	جروش	غدامة
القط الوحشى	:	جوانحه	ادفـة
الهضبة	:	جـاده	حدبيه
عدة الحفر	:	اتيـله	الهـيم

وقد اشرنا سابقا الى احلال الجيم محل الياء عند قبائل الرواشد ولاتستعمل الشين مكان الكاف فى اى جزء من هذه المنطقة ، وأن كانت تلك اللفظة دارجة بين قبائل الاخوان وهى « المطير » ، والطيبة وعجمان والدواسر .. الخ ، اما الجيم فتحل محل القاف عندهم ولكن البدو لا ينطقونها بتلك الصورة .

بمعلومات هامة وهى أن لهجة قبيلته لهجة مميزة عن لهجة القبائل الأخـرى لأنها لهجة تنتمى فى أصلها إلى الجاهلية ، ولكنه عندما كان مع بعض مـن أفراد قبيلته عاد فصحح ذلك الرأى حيث اتفق الجميع على ان أصلهم من عجمان وهى كلمة مشتقة من يام غير أن أصل القبيلة من ناحية الأم هو من الجن « أجارك الله » •

وعلى الرغم من تعدد الزوجات ــ الا أنه يندر أن يكون للبدوى أكثر من زوجة واحدة ذلك على الرغم من أن أغنياء البدو قد يتزوجون بأكثر من واحدة ، أما بعد طلاق لأحدى زوجاتهم أو بالجمع بينهن ولايمكن لرجل أو امرأة أن يقيما خارج نطاق الزوجية ، بل أن ذلك يعد من الأمور المرفوضة فى مجتمع قبلى تخضع فيه مصلحة الفرد لمصلحة القبيلة أو من يرثها والتى يعتبر قانونها الأخلاقى الصـارم محصلة خبرة طويلة وعميقة الجـذور متحررة من تلك الافتراضات الفلسفية لدعاة العزوبة ، فمن الناحية النظرية يصبح الزواج قانونيا إذا ما تم أمام القاضى [١] • أو من ينوب عنه •

وقد جرت العادة على أن يصاحب عقد القران احتفالات كبيرة الغرض منها تقنين الزواج وتوثيق عراه ، فيقوم الخطيب ووكيل الزوجة وهو فى الأغلب والدها أو شقيقها بالحضور أمام القاضى [٢] • لأنه ليس من العادة أن يذهب القاضى إلى منزل العريس فى المناطق الصحراوية ، وهناك طريقة أخرى تتم بها مثل تلك الأمور ، إذ يمكن لبعض رجال القبيلة ممن سبق لهم أن

---

(١) .. عند السنية يعهـد بتفسـير الشريعة الاسلامية الى العلمـاء ، اما بين الشيعة فى ايران والعراق فان الامام او نائبه هو الذى يتولى ذلك الامر ، ونظام الكهنوت غريب على الاسلام ، وبالنسبة للغلاة فهى شىء ممقوت ومكروه وعلى الأخص بين الجماعة الوهابية .

(٢) .. قبيلة المناصير تذهب الى ابو ظبى .
قبيلة العوامر تذهب الى عبرى وضنك والبريمى .
قبيلة الرواشد تذهب الى ظفار والربذة .
قبائل مرة تذهب الى الهفوف أو جبرين .

تتلمذوا على يد أحـــد القضاة أن ينوبوا عن القاضى فى اتمام عقد القران ، وبذلك يعتبر الزواج قانونيا ، وهذا النظام معمول به فى المناطق النائية من الربع الخالى ، كما يمكن أن يتوارثوا هذه الصلاحية عن الآباء •

وبعد إتمام العقد يتعين على الزوج أن يدفع المهر المتفق عليه لوالد الزوجـــة مع تقديم بعض المجوهرات والحلى وذلك بالإضافـــة إلى خاتم الزواج الذى يقوم العريس بتقديمه للعروس ليلة زفافها إليه (وبالنسبة لقبائل الرواشـــد فيتعين على العريس أن يقيم وليمة قبل أن يدخل عـــلى زوجته) ••

وتعتبر القبلة على الأنف هى مقدمة للدخـــول على الزوجـــة وينظر الرجـــل إلى المرأة على أنها جـــزء من متاع البيت ، وربما كان ذلك طبيعيا بالنسبة للبيئة الصحراوية ، حيث تعتبر القوة البدنية المطلقة والصرامـــة والطابع العدوانى هى المزايا التى تفرضها البيئة وتكافىء صاحبها عليها ، ويحق للرجل أن يضرب المرأة متى شـــاء ، وقـــد أكد لى ذلك بعض أفراد قبيلة مرة ، أما قبائل الرواشـــد فلا تقر هذه العادة • وتدور السياســـة فى الربع الخالى حول محـــور واحـــد « العلاقات القبلية » فبموجب الاعتبارات الجغرافية تنقسم القبائل إلى قبائل منطقة الرمال ، وجيرانهم قبائل الهضبة الشرقية ، ثم قبائل الهضبة الجنوبية • أما السكان الأصليون للرمال كمـــا أوضحت ذلك فى هذا البحث فهى قبائل مرة والتى تقطن الشمال والشمـــال الغربى • وقبائل المناصير والعوامر والتى تقطن الشمال الشرقى ، وقبائل الرواشـــد وبيت يمانى التى تقطن المنطقة الجنوبية •

ومنذ نحو عشرين عاما كانت تلك القبائل فى صراع بعضها مع البعض ، فقد كانت قبائل مرة والمناصير — قبيلتين متعاديتين ، كما كان الصراع القبلى بين قبائل العوامر والمناصير على درجـــة أشـــد ، وقد كان العوامر فى وقت من الأوقات من أعظم قبائل الربع الخـــالى ، ويعتبرون السكان الأصليين

لمناطق الدكاكة وسويحب والغانم ، وهى المناطق التى تسكنها حاليا قبائل الرواشـــد ، غير أن الصراعات غير المتكافئة بينهم وبين المناصير أدت الى انهاكهم كما كان بين قبائل مرة والرواشـــد الكثير من الحزازات القديمـــة ، ورغم ذلك أصبح الســـلام يســـود منطقة الرمال بأسرها •

انه الســـلام الذى فرضه عاهل الجزيرة العربية عن طريق نائبه القوى ابن جلوى فى الهفوف على تلك القبائل المتصارعة من قديم الزمـــان ، ليس عن طريق السيطرة المباشرة ، لأن ذلك مستحيل ، وانما عن طريق المكانة الشخصية لعاهل الجزيرة العربية الملك عبد العزيز آل سعود ، فالايمـــان بقوة هذا الرجل وطالعه السعيد قد اكتسح تلك المنطقة وذلك لحسن إدارته وقوة نفوذه ، حيث أوجدت تلك المزايا شعورا لديهم بمهابته وليس الحب له ، وحتى ذلك الوقت لم يكن مرافقى حمـــد بن هادى قد قدم فروض الولاء لعاهل الجزيرة ، ولكنه لم يكن يتردد عن إظهار شعور الاحترام لهذا العاهل العظيم ، فقد كان يعتقد بأن الحـــاكم فى الرياض ، يملك كل الصلاحيات لتجريده من ممتلكاته أو تحريض أعدائه عليه •

وعلى أساس تلك المقومات كان السلام يســـود منطقة الرمال • وهكذا كانت القبائل بدرجـــة أو بأخرى مرتبطة بابن ســـعـــود ، وتدفع له زكاة رمزية ، ونظير تلك الزكاة كانت تعيش فى أمان ، فمن الناحية النظرية لم تكن تلك الزكاة تزيد عن ريال واحد عن كل رأس من الجمال سنويا ، أما مـــن الناحية العملية فلم تكن قبائل الرواشد تملك شيئا من المـــال ، وبحـــكم وجودها فى المناطق البعيدة فإنها لم تكن مضطرة إلى دفع الزكاة ، وإن كانت ترسل فى كل عام جملا واحد لابن سعود ، تعبيرا عن ولائها لعاهل الجزيرة ، وعلى آية حال فعندما كانت الامطار تهطل على الأجزاء الشمالية من الرمال وبالتالى تنزح القبائل اليها ، فإن جباة الزكاة السعوديين ، كانوا يطالبونهم بدفع الزكاة ، فتضطر القبائل لبيع بعض الجمال لتسديد ماكان يستحق عليها من زكاة •

ورغم وهن الروابط مع الرياض فإن القبائل لم تكن تبدى تذمرا من ذلك الوضـــع وكأنها تدين بالمثل العربى القائل « سلطان مستبد خير من نزاع دائم » ، وهو مثل ربما نشـــأ فى إحـــدى البيئات الحضرية ، وهى تفضل ألف مرة حريتها ، على سلام يأتى على حسابها ، ذلك شعور متأصل فيها ، وكانت تعتقد بأن الســـلام القائم ســـوف يستمر ، ما استمر حكم الرياض ، ومن المؤكد أن الدم سيعود ليسيل من جديد ، كمـــا ستعـــود الصراعات القبلية الى سابق عهدها بمجرد أن يزول نفوذ الرياض عن منطقة الهفوف ، إن تلك النزعة بين سكان الربع الخالى ليست غريبة ، فإن المدارس السياسية أمامها الكثير مـــن الأمثلة فى التـــاريخ الحـــديث للإمبراطورية البريطانية •

ومن منطلق ماكان يســـود تلك المنطقة من هدوء الأوضاع القبلية لقيام حكم معتدل توفرت لدى الشجاعة الكافية لكى أقوم بتلك المخاطرة لعمق الربع الخالى •

إن الأوضاع السياسية فى منطقة الهضاب الجنوبية قـــد تأثرت هى الأخرى بقيام حكم ابن سعود ، وإن كان ذلك التأثير يتغير من فترة إلى أخـــرى •

ففى تلك المنطقة تتجمع القبائل من انتماءاتها الوراثية إلى الأصلين القبليين فى إطار الهنائى والغافري الذى تحدثنا عنه سابقا ، ومن تلك القبائل العوامر والحراسيس وغفار ، وتنحدر من قبيلة الدروع [1] • وآل بوشامس وتنحـــدر من الغافرية ، غير أن الخلافات والمنازعات بين تلك القبائل لاتنعكس على مناطق الرمال •

---

(١) .. من المعروف أن قبيلتى الدروع والمناهيل ينحدر افرادها من اصل واحد ، ولكنهما الآن ونتيجة لأسباب غير معروفة ينتمون اسميا الى اصلين مختلفين .

وفيما يختص بالوضع السياسى فى المناطق الجنوبية فهو متحرر تحررا كاملا من نفوذ ابن سعود ، والقبائل الرئيسية فى تلك المناطق هى : الصيعر ، والمناهيل ، وبيت كثير والمهرة ، ثم القبائل الأقل أهمية كالكرب ، ويام ، وسهد ، وليسيين ، فهى قبائل لها السيادة على مناطقها وتعتبر الصيعر أكبر القبائل سطوة ونفوذا ، وقد ينشأ تحالف بين الصيعر وكرب ، أما القبائل الأخرى فقد تتحالف مؤقتا أثناء عمليات الغزو ، إلا أنه لاتوجد فى المنطقة حروب طويلة ومنظمة ، لأن ذلك متعذر بسبب قلة الذخيرة ، حيث لايملك الفرد من تلك القبائل عادة أكثر من عشرين خرطوشة من الذخيرة ، وهو يحرص على ألا يبددها ، ما لم يكن ذاهبا الى إحدى المناطق الساحلية ليبيع بعض نوقه هناك • وحتى الحروب التى تنشأ بين تلك القبائل فهى حروب متقطعة همها الوحيد الاستيلاء على الغنائم • وقبيلة الصيعر هى اليوم تمثل الخطر الأكبر على استتباب الأمن فى الرمال الجنوبية ، وذلك نظراً إلى القوة العددية حيث يقارب تعداد أفرادها قرابة الألفين من الرجال المسلحين ، كما أن وجود مواطن لها بعيدا عن متناول القبائل الأخرى يضاعف من قوتها ، ولقد رفضت قبيلة الصيعر حتى ذلك الوقت استقبال مبعوث الملك عبد العزيز بن سعود •

الفصل العشرون

من البنيان إلى البحر - المرحلة الأخيرة

أمضينا سحابة يوم ٢٨ يناير نستريح من الرحلة بمنطقة البنيان ، بعد مسيرة متواصلة امتدت ١٨ يوما عبر بحر الرمال الوسطى ، فقد كنا فى أمس الحاجــة إلى الراحة لتجديد نشاط أفراد الرحلة وكذا الجمال فتجمعنا كلنا حول نار المخيم فى تلك الليلة ، وقد عرفنا أن فترة الراحــة تلك هى الوقفة الأخيرة للقافلة ، فقد كنا نقترب من نهاية الرحلة ، فألفيت نفسى فى حاجــة إلى أن أتحرر من قيود الرحلة التى التزمت بها سابقا .

كان الكشاف الكهربائى الذى أحمله معى موضع استغراب وإعجــاب المرافقين وكانوا يسألوننى باستمرار ما إذا كان ذلك الكشاف يصلح لاكتشاف الجمال المسروقة ليلا أم لا ــ كان ذلك موضوعا هاماً بالنسبة للبدو ، وعندما قام أحدهم بوضع راحته على ضوء المصباح اكتشف أن المصباح لم يكن ساخنا ، فزف الخبر العجيب إلى زملائه على الفور ، فحذوا حذوه فى لمس المصباح ، وعندما كانوا يضعون أيديهم عليه ، كان نور المصباح المركز يكشف لهم عن عظام أصابعهم : فأخذوا يصرخون فى دهشة واستغراب من ذلك المنظر ويرددون عبارة « لا إله إلا الله » وربما كانوا يقولون فى أنفسهم ، إن البلد التى جاء منها الصاحب بلد عجيب ولم أر أى فائدة من إقناعهم بأننى لست الشخص الذى صنع ذلك الكشاف ، ألم نصنع نحن أشياء أكثر روعة وإثارة من المصباح « أعنى البنادق والذخيرة » ؟

وهنا سألنى أحد البدو ، وهو يربت على بندقيته . أين تصنع البنادق ؟ فرد آخر بأنها تصنع فى بلاد الكفرة .

ولكننى صححت كلامه وقلت لهم : نحن مؤمنون ولسنا كفارا .

ولكنه سألنى سؤالا آخر : هل إذا جئنا لبلدكم نجد الأمان • وهل ستتكفلون بحمايتنا من أى اعتداء ؟

فأجبته : إنكم فى بلدنا لا تحتاجون إلى مثل تلك الكفالة أو الحماية •

ثم سألنى حمد : لنفرض أن أحدا من الأفراد اعتدى على • وقتلنى وكنت أنت الكفيل فكيف ستتصرفون ؟

فأجبته : لايمكن لأى شخص أن يعتدى عليك • لأن الناس فى بلادى لايحملون أسلحة • وربما اعتقدوا ــ عندما سمعوا إجابتى أن بلدا كبلدى لايصلح فى نظر البدو ، لغير العبيد والفساد ولكنى تركتهم وشأنهم يضربون أخماسا فى أسداس •

ثم عاد حمد يسأل : وهل يوجد عندكم لبن الإبل ؟ فأجبته بأنه لايوجد عندنا جمال ••••••

فعاد مرة أخرى يسأل : إذا أى شىء عندكم ؟؟ أجبته بأننا عندنا خراف وبقر ، ولكننا نصنع السفن والبنادق وأشياء أخرى من الحديد الذى يستخرج من الأرض •

فتدخل الشيخ صالح وقال : لقد سمعت أحد المناصير من أبو ظبى يقول بأنه فى أحد الأيام دخل أحد المسيحيين على مجلس الشيخ وأخبره بأنهم فى بلده يصنعون من قضيب مثل العصا خمس بنادق •

فردد البدو الحاضرون : لا إله إلا الله •

ثم تناول المصباح من يدى بدوى آخر وقال : « يا الله • إنه ثقيل الوزن وقال ثالث وهو يتناوله من يد زميله « إنه ثقيل فعلا » ••• وهنا

قال الشيخ صالح : إن المسيحيين ليسوا قوما بسطاء ، إن داخل المصباح قوة ، وكلمة القوة لها احترامها عندهم أكثر من الرصاصـــة لأن القوة فى اعتقادهم تقتل الناس .

فصححت الحديث وقلت : إنها تقتل الأشرار فقط أى المجرمين ، فعلق البدو على ذلك بقولهم أجل .. هذا صحيح كل الصحة « العين بالعين والسن بالسن » إنها شريعة الله . ولكن أليس عندكم فدية ؟

فأجبت : كلا ، فردوا قائلين : معنى ذلك أن أخا القتيل أو ابن عمـــه لايستفيد ولا بريال واحد كفدية ؟

قلت : أجـــل ولا بريال واحـــد .

لقد أحسست من خلال الحوار هذا أننى قد تغلبت عليهم .

ثم عاد البدو فكرروا الأسئلة : وقال أحدهم : أليس عندكم حماية ؟

قلت لا إن زعيمنا رجل قوى ولايجرؤ أى شخص أن يمنح حمايته لقاتل ، ولكن الشيخ صالح علق على ذلك قائلا : إن الحماية عندنـــا شىء مقدس مالم ترتبط الجريمة بفضيحة العار . مثل تخلى الكفيل عن حمـــاية المكفول . ما أحسنه من شخص ذلك الذى يمنع حمايته عن شخص قتل أحد أعدائه ... فصاح البدو بصـــوت واحد : نعم والله نعم ، وسألنى أحـــد المرافقين : فى أى اتجاه تقع بلدكم أيها الصاحب ؟ ، فأشرت إلى اتجـــاه الشمال الغربى ، وسألنى أحدهم : وكم تبعد من هنا ؟

فقلت : نحو مسيرة عام من شهر رمضان إلى شـــهر رمضان ، أى عـــام واحـــد .

فصاح البدو بصوت واحد : لا إله إلا الله •

وسألنى صالح : وعلى أى اتجاه من مكة تقع بلدكم ؟ وهو أحد الذين سبق لهم أن سافروا لأداء فريضة الحج ، فأشرت مرة أخرى للاتجـاه السابق وربما تقع قليلا إلى الشمال •

ثم قال : وكم تبعد من هناك ؟ ، قلت : بحوالى المسافة التى تبعدها من هنـا •

فصـاح البدو : لا إله إلا الله •

ثم قال إذن هى خلف البحر أيها الصاحب •

فقلت له : أجل هى خلف البحر •

ثم قال : وأى شىء ورائها ؟

فأجبت : البحـر أيضا •

ثم قال صالح : وأين يقع بحر برليمول أيها الصاحب ؟

فأجبت : أنت تعنى بحر الرمول ؟

ثم التفت صالح يقول لزملائه أن الدنيا تنتهى عند ذلك البحر ووراءه لايوجد أى شىء انه البحر السابع والأخير والله أعلم •

لقد شعرت بأننى قد أخذت نصيبى من الكلام ردا على أسئلتهم ولهذا تحولت إلى مستمع لقصـة أخرى أخذوا يحكونها لى عن دياب بن غانم •

كان دياب بن غانم من أكابر بنى هلال ، وإن كان يشبه الخدم فى لون بشرته وملامحه ، وكان لونه سببا فى إنقاذه من الأسر فى اليوم الذى قتل

فيه يوسف وأخـــذ زميلا دياب وبريجه أسيرين وكان دياب لايساوى شيئا فى نظرهم لســـواد لونه ، وعهدوا إلى دياب بالاشتراك مع البنائين فى ترميم قلعة الزناتى خليفة ، ولكنه كان يتصنع الغباء بحيث أنه عندما كان يضع الحجر على البناء مكان الحجر ينزلق وتهــوى الحجارة إلى الخارج فى الصحراء واعتقد سادته بأن دياب لا يصلح لذلك العمل ، وكلفوه بالإشراف عــلى المواشى ، وسلّموها إليه ، ولكنه أهمل فى سقايتها حتى كادت أن تمــوت عطشا • ولمـــا أبلغ ذلك لسادته ورأوا انه لا يصلح حتى لرعاية الماشية ، أرسلوه مع بعض الحمير ، لاحضار الحطب والعشب ، وهنا اقتطع دياب عودين طويلين من إحدى الأشجار ، وسن طرفيهما ثم غرسهما فى مؤخرتى الحمارين ليضع عليهما الحطب ، وهكذا عاد إلى سادته بحمولة كبيرة مـــن الحطب ، وقد استحسنوا جهده فى البداية ولكنهم بعد ذلك فوجئوا بأن الحمارين قد نفقا وأخذوا يفكرون فى أمر دياب من جديد فاقتنعوا بأنه ضعيف العقل ، وأنه لايصلح لأى شىء إلا رعاية الجمال ، ولذلك قرروا إرساله ليرعى جمال بنى هلال التى استولوا عليها عند أسرهم له ولرفاقه ، وبذلك القرار تحققت أمنية دياب •

وبمرور الأيام تحسنت حال الجمال وهكذا حاز دياب رضا سادته وفى كل مرة كان يبتعد بالجمال أكثر وأكثر ، كما كان يطيل البقاء مع الجمال فى البادية ، دون أن يثير شكوك سادته ، حتى جاء اليوم الذى ابتعـــد إلى المنطقة التى تمكن منها من الفرار والعودة إلى بنى هلال مع الجمال ، وفى طريقه إلى بنى هلال كان يركب جمله بطريقة معكوسة حتى لا يثير شبهة المارة من رجال القوافل ، كما وضع ترابا على فخذه ورأسه ، وبتلك الطريقة استطاع الوصول إلى مسقط رأسه عند بنى هلال [١] ، وبعد أن استمع الشيخ حسين إلى قصـــة دياب • وضع خطة لتخليص أبوزيد وبريجة من

---

(١) .. انن[illegible] أروى هذه القصة كما سمعتها ولكن لم أفهم القصد منها ولم يتسع الوقت للا[illegible]سار من محدثى ، حتى لا اقطع عليه حبل الحديث .

الأسر ، وفى الوقت المحدد انطلقت القبيلة حتى وصلت إلى بحيرة تفـوح منها روائح زكية ، وتتفرع منها ثلاثة أودية ، وكان أكابر بنى هلال قـد اجتمعوا للتشاور فيما بينهم ، وقرروا أن يتركوا النسـاء والماشية مـع ستين فارسا ، ولكنهم فى صباح اليوم التالى غيروا الخطة وقرروا ألا يتركوا الفرسان وإنما فضلوا أن يتركوا دياب بن غانم بدلا من الفرسان ، وقـال الشيخ دياب : إن الجمال والنساء فى حمايتك ، وعليك حمايتها ولو كلفك ذلك حياتك ، ثم ودعوه وانطلق القوم إلى بلاد الزناتى خليفه وودعهم دياب بقوله : إذا ضاع أى فرد من هؤلاء فإن حياتى تحل لكم .

حدث فى تلك الليلة أن زار الوادى أحـد الجان لكى يرى الناس الذين كانوا يخيمون هناك ، وكان الجان يحمل فى يده الهائلة رمحا وأخذ يفتش فى جمال بنى هلال عن أكبر الجمال وأحسنها ، وعندما اختار بغيته طعن الجمل بالرمح ثم حمله على كتفه وعاد إلى مخبأة ، وكرر تلك العملية فى اليـوم التالى وهكـذا فقد جمل آخر من الجمال ، ولكن عندما جاء الجان فى الليلة الثالثة دب الفزع فى المخيم لأن زوجـة دياب شاهدت الجان ولكنها خافت أن تبوح بذلك خشية أن ينتقم الجـان منها ، وعندما أحس دياب بصمت زوجته أصيب بالحيرة ، وسألها عن السبب فلم تجبه ، ولكنه سحب سيفه وضربها ضربة خفيفة وقال لها . أخبرينى عما تعرفينه وإلا فسـوف اذبحك، فأخبرته بما فعل الجان وكيف أنه ظهر من إحـدى الأودية وأخـذ يطعن الجمال بالرمح ثم يحملها معه ، .

فى صباح اليوم التالى أرسل دياب خادمه لاستطلاع أخبار الجـان ومكان اقامته فوصـل الخادم إلى بئر تكونت من سقوط أحـد الشهب ورأى الجان بداخلها وبقايا لحم الجمال على فمه ، فعاد وأخبر دياب بمـا رأى ، فركب دياب مهره وجاء إلى البئر ، وعندما اقترب منها خرج الجان يتباهى بعضلاته ويستعرض بجسمـه الضخم المخيف ، وصاح الجـان : أوها ياذياب بن غانم هل جئت لتأكل أو لتذبح ؟ فرد دياب ، لقد جئت من

أجل ان آكلك وأذبحك وفجأة استل دياب سيفه وانهال به على الجان فقطعه تقطيعا بحيث سقط بعضه فى البئر وسقط الباقى منه خارج البئر ، ولكن النصف الأعلى من الجن صاح فى دياب ، أضربنى مرة أخرى ولكن دياب رد عليه :

ما أثنّى

وقد كان دياب يعرف ما كان يقصده الجن ، وهو أن ضربة الجان ضربة واحدة تقضى عليه ، أما اذا ضربه ضربتين فإنهما تخرجان منه جنيين حيين ، فعاد دياب الى مخيمه فوجد القوم قد عادوا ولكن لم يكن يعرف للأسف أن ثلاثة من أبنائه قد سقطوا قتلى من بينهم عمر بن الخفيات من أشهر أبطال بنى هلال ، فدب الفزع فى القوم ، فمن منهم الذى يجرؤ على إبلاغ دياب بذلك الخبر المفزع خشية أن يوجه إليه دياب ضربة تقضى عليه لو سمع بذلك الخبر المحزن ، فسيف دياب لايخطىء أبدا ، فإذا ضرب به شخصا فلابد أن ينفذ فى لحمه ، لأن سيف دياب إذا لم يصب لحم انسان فإن دياب يموت على الفور • ولهذا لم يكن فى القوم من كانت لديه الجرأة لإبلاغ دياب بالخبر وأخيرا قرروا أن يعهدوا بذلك إلى الخادم دليان ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن دليان مجرد عبد فان قتل فهو عبد لا أكثر ولا أقل ، وإن أبقاه حياً فهو ليس أكثر من عبد •

فطلب دليان أسرع مهر لديهم فأعطوه له فتوجه الى دار دياب ونزل بعيدا عن البيت فصاح دياب فى دليان : يا دليان أخبرنى أنا الأسود ، كيف كانت المعركة ، وكيف قاتل أولادى — وكيف كان مصيرهم ؟ فرد عليه دليان منشدا :

لقد أستشهد خيرة أبنائنا وجمالنا •

وكان ابنك وابن خفيات منهم •

حقا كانوا أشجع رجال قبيلتهم وعصرهم •

وعندما كان يهم بالعودة استل دياب رمحه وسدده اليه ، غير أن دليان كان أسرع منه فقد أحنى رأسه فانطلق الرمح بعيدا عنه وأصاب رأس أفعى ، كانت فى ذلك المكان فى تلك اللحظة •

العظمة للــه « •• صاح دياب ــ لقد أخطأ رمحى هذه المرة ، ولابد من ملاحقة دليان أينما ذهب ، ولكن دليان صاح فيه « سلمنى » •• وأمنى على نفسى وســوف أخبرك بما يسرك •

دياب : فى وجهى •

دليان : إن سيفك قد أصاب لحما •

دياب : الحمد للــه ولتحيى أنت •

كانت وجهتنا منطقة رمــال الربع الخالى فخرجنا مبكرين ، وفى تلك المنطقة كانت تحركاتنا سرية ، وكنا نقوم باستطلاع المنطقة ونفتشها يوميا خوفاً من الأخوان المتشددين الذين لم يكونوا ينادون بمحاربة الكفر فحسب بل والمنحرفين عن الإسلام ، وقد أصر رجال القافلة على عدم التجول فى المنطقة ، كما نصحونى بعدم تدوين ملاحظاتى خصوصا فى المنطقة الواقعة بين الموقع الذى كنا فيه وساحل البحر فلو حــدث أن دخلنا إلى المناطق المشتبه فيها فمن الأفضل ألا نتوغل أو نجازف بدخول المناطق المجهولــة لنا خلال النهار ، وأن يكون تحركنا ليلا تحت ستار الظلام •

ومن حسن الحظ ، أننى لم اضطر إلى السير فى الطريق الثانى لأننا كنا فى شهر رمضان ، وفى هذا الوقت تنسحب مجموعات البدو إلى المناطق الداخلية مثل الجوب والجفورة لتمضية شهر الصـــوم هناك ، وعندئذ صاح حمـد فينا : لقد وقانا الله شرهم [١] •

كان خط سيرنا يمر من سهل حجرى ، وكانت أحجاره تتألف من اللونين الكافورى والعقيقى ، ومن هــذا المكان انحرفت مســيرتنا عبر مستنقعات ملحية تتناثر فوقها بقع رخــوة هنا وهناك • ولسوء الحظ فإن الأمطار التى هطلت أخيرا على المكان لم تفلح فى تغيير طبيعـــة المنطقة إلى حقول تجذب إليها قطعان الإبل ، كما يحــدث دائما فى مثل تلك المناسبات • ومن تلك المنطقة انتقلنا إلى منطقة رملية أخرى كان بها منخفض يشبه الوادى فيه بعض النباتات وكنا نتجه الى نفس المكان لنخيم فيه ، ولكن ظهر أن المنطقة كانت مأوى للوحوش وغــيرها من الحيوانات المفترســة التى تعيش على السفوح ، كما عرفنا ذلك من آثار أقدام لبعضها •

كان الطريق الذى كنا ســوف نسير فيه خلال الأيام القليلة التاليــة لا يختلف فى طبيعته عن المنطقة التى مررنا بها ، فقد كانت هناك سلاسل من المرتفعات ومستنقعات الملح وكثبان الرمال ، كما كان هناك منخفض توجــد به بعض المزروعات كمنطقة دبى التى كانت على بعد مسيرة نصف يوم ، وكانت سفوحها مغطاة بطبقة من الأحجار الكلسية والأحجار السوداء أو البيضاء أو الخضراء أو الحمراء ، كانت واضحة فى ضــوء الشمس • أمــا مستنقعات الملح الشمالية فكانت تكسوها طبقة من المحار باعداد لاتحصى وكانت لاتزال فى المرحلة الأولى من التحجر — أما كثبان الرمال التى كانت فى المنطقة فكانت تجمع بين اللونين الأخضر الفاتح والقرمــزى الأبيض ،

---

(١) .. ان لفظة شر تعنى عندهم آية مشــكلة أو مصــيبة ، كالمرض والغزو .. الخ •

وكان العشب يكسو بعضها والبعض الآخر عليه أكوام من الكلس • وقد قمنا بحفر آبارلنا فى تلك المنطقة بالذات •

قبل وصولنا إلى لزنه • مررنا بسهل ضخم وكان الوحيد فى المنطقـة ويمتد شرقا وغربا على امتداد النظر ، وكان مرتفعا من الناحية الجنوبية الى نحو مائتى قدم ، ثم يبدأ فى الانخفاض على الناحية الشمالية ليتحول إلى تلال رملية جرداء ، وقد شاهدنا على تلك التلال كثيرا من الجعارين السوداء اللون كانت تزحف على أوراق وأغصان العشب ، وهى أول نباتات تنمـو بعد هطول المطر ، وقد ظهر بأن عشب تلك المنطقة تدر أفضل أنواع اللبن من النوق عندما تأكل منه ، وكان المكان يغرى بالتوقف من حين إلى آخـر للاستراحـة ورعى الجمال •

فى ذلك الوقت تسلم طالب وهو من قبائل مرة الشمالية عمل حمد كدليل للقافلة المتجهة الى الشمال حيث توجد منطقة حلوين « ورغم أنه لم يكن دليلا كفئا ، فلم يكن هناك من هو أفضل منه دراية بالمنطقة ، فقد ثبت أن معلوماته عن الاتجاهات وعيون المـاء كانت خاطئة وعندما أخذت أناقشة فى ذلك ، أقسم بالذى خلقه وخلق الشمس بأنه صادق ، والواقع أننى لم أكن أشك فى أنه لم يكن يكذب علينا ، غير أن مناطق الرعى والحطب التى ذكر بأننا سنصل إليها لم تظهر ، وكانت تلك الموضوعات هى شغلنا الشاغل فى كل مساء قبل المبيت ، وأخيرا تذمر بقية القافلة من هذه الحالة وصـاح أحدهم : « ياعرب •• ليس أمامنا إلا الجوع والبرد •• » •

بعـد ذلك انحرفنا فى مسيرنا فى اتجـاه الشرق بحيث تحـول التل الضخم المسمى بـ « علامة النخلة » والذى كان يقع على يميننا إلى الجهة الشمالية ، وما إن غربت الشمس حتى خلفنا ذلك التل وراءنا ، والواقع أننا ابتعدنا إلى حد كبير عن وجهتنا الأصلية ، فى محاولات للبحث عن الطعام والدفء فى الليل ، ولو أن الفصل كان صيفا ، بما يستتبع ذلك من جفاف

وحرارة لكنا قد هلكنا ، وإن واحداً من كل عشرة من البدو هو الذى يصلح أن يكون مرشدا أما صلاحيتهم كمصدر للمعلومات فإن النسبة هى ١ : ٥٠ ، وكانت الشكوك المتبادلة بين أفراد قبائل الرواشـــد ومرة من الأمور الملحوظة فى قافلتنا .

ويبدو أن كلا الطرفين لم يكونا واثقين من أن حالة السلام بينهما قد تمتد لفترة طويلة ، ولذا كان كل طرف منهما لايبوح بشئون منطقته ، وعندما يحدث أحيانا أن يرتجل فرد من قبيلة مرة ليفحص بئرا ، أو يتأكد من وجود مرعى ، فإن الفرد من القبيلة الأخرى لايصاحبه أو يسأله عند عودته عمـــا رأى . ولابد لأى شخص يريد القيام برحلة كالرحلة التى قمنا بها أن يسعى لجمع المعلومات اللازمة قبل البدء فى الرحلة ، ثم يقارنها بالمعلومات التى يحصل عليها من البدو .

كان كل يوم لايختلف عن سابقه ، فقبل شروق الشمس بساعة كنت أستيقظ على صوت مرزوق وهو ينادى الجماعة لصلاة الصبح ، وما ان ينتهى من الآذان حتى يصيح الجميع « آمين » وكان الشيخ صالح دائمـــا يوبخ ابنه « كلفوت » الذى كانت حالته الصحية سيئة وكسولا فى نفس الوقت ويقول له : انهض ياكلفوت .. ألا تسمع الآذان ؟ انهض للصلاة .

بعد أن أدى البدو الصلاة ، تفرقوا وساقوا جمالهم إلى أقرب المراعى، ثم عادوا ليتناولوا إفطارهم المكوّن من بعض التمر وقليل من المـــاء الملح . ولم يتذوقوا شيئا من الطعام خلال الإحدى عشر ساعة التى تلت ذلك ، وخلال رمضان ، لم يكونوا يشربون الماء فى النهار ، ورغم ذلك كانوا فى أحسن صحة ونشاط ، أما وجبة طعامى التى كانت تجمع بين الإفطار والغذاء والتى أتناولها فى الساعات الأولى بعد شروق الشمس فقد كانت تتألف من بعض اللبن وطبق من الشعير وهى الوجبة التى لم تتغير خلال ٥٨ يوما على التوالى .

كان المرعى فى تلك المنطقة جيدا ، وقد أعطيت لنفسى الحرية فى أن أتناول وجبتى على مهل وأن أدون ملاحظاتى عن الرحلة وعما جمعته من عينات للمتحف الطبيعى قبل أن أستأنف السفر ، أما اذا كان المخيم خاليا من العشب والمرعى ، فعندئذ يتعين على أن أنهى وجبتى بسرعة وأركب ناقتى . فعلى كل حال فاننا سوف نضطر إلى التوقف عند ظهور أول مرعى فى طريقنا ، وكانت جمال النقل تتقدم القافلة دائما .

وهكذا كان البدوى وهو يلتقط عصاه بين اصبعى قدمه ، وهو يسوق ناقة الحمولات لكى يبركها وهو يقول : خى .. خى ، ويربت بعصاه على مؤخرتها فى حنان ، وقد ينضم اليه زميل آخر ليساعده فى تحميل وحزم الأمتعة فاذا بدا من الناقة ما يعبر عن احتجاجها على الحمولة يأخذ الاثنان فى انشاد احدى أغانى القافلة ربما لتهدئتها . وكان بقية البدو يتحركون فى كل اتجاه وهم يتمتمون ببضعة أدعية وتضرعات لعالم الغيب . أما قبيلة الرواشد فانها تدعو بالدعاء التـــالى :

بسم الله الرحمن الرحيم بمغفـــــرتك

على الله اعتمادنا سهل لنا طريقنا

والسلام على الجماعة ونجنـــــــا

يــــارب ...

بينما يردد فرد آخر من الجماعة : لا شريك لك .. لا اله الا الله ولا راد لقضـــائك .

بدأنا الرحيل فى الصباح . وكالعادة قطعنا الثلاثة أميال الأولى سيرا على الأقدام ، وكنت أول من ركب ناقته فيما عدا بن حم شيخ قبيلة بيت

أمانى واحد أبطالها على الرغم من أنه كان أعرج لإصابته بطلقة نارية فى قدمـــــه •

إن الحجم الكبير للناقة وحركتها البطيئة توحى كأنها كما لو كانت تسير فى جنازة ، ولكن خفة دم البدوى الذى يقودها ، كانت تدل على أنها كانت تسير بمعدل ثلاثة أميال فى الساعة ، وعندما تبرك فان رأسها يتحرك من جهة الى أخرى ، وتفتح فمها عندما يقترب منها راكبها ، لأنها مدربة على النهوض على الفور بمجرد اعتلاء صاحبها لظهرها ولذلك فان على راكب الناقة اذا أراد الركوب أن يقفز بسرعة خلال جزء من الثانية ، وبعد أن يركبها ويقودها ، فاذا بركت مرة أخرى فان عليه أن يضربها مرة أخرى ضربة خفيفة لكى تنهض من جديد ، ولكن طالما كانت عصا صاحب الناقة مثبتة فى الأرض ، أو أن بندقيته ملقاة على الأرض بجانبها ، فان الناقة تبقى باركة فى مكانها ، وما يكاد صاحبها يتناول بندقيته وعصاه حتى تتحرك •

وعندما يكون الراكب فوق الناقة فهى تطأطأ رأسها ولا تحتاج لأكثر من بضع ضربات خفيفة بالعصا وبعض التمتمات لتطيع أوامره ، والناقة أثناء سيرها قد تمد رقبتها لتتناول أى شىء تمر عليه فى الطريق ، حتى أنها قد تأكل العظام من الأرض وتأخذ فى مضغها ، ما لم يردعها راكبها عن ذلك فى أغلب الأحيـــان •

وهكذا يظل البدوى يهتز فوق الناقة لساعات طويلة ولا يتحرك من مكانه الا أحيانا فإذا كان الركاب عمانيا فيكون الركوب بفرد الساقين ثم ثنى الرجلين تحت الفخذ فى وضع انحنائى أو من أحد جانبيها ، بينما تتدلى رجلاه أحدهما فوق الأخرى ، أما اذا كان الركاب مزدوجا فان الراكب يستطيع أن يغير من وضع ركوبه أثناء وجوده فوق الناقة ، وهذا النوع من الركاب هو المنتشر بين قبائل مرة ، وهو الذى يناسب الأوروبيين أيضا • لأن الراكب بتلك الطريقة يمكنه أن يمد رجليه فوق كتفى الجمل ، ومعظم

البدو يسيرون عراة الرؤوس ، والضفائر الضخمة تتدلى خلف رؤوسهم وهى تقيهم حرارة الشمس ، وأحيانا عندما يمتطون الجمال ، يستلون خناجرهم ويحكون بها ضفائرهم من غير حياء أو خجل •

ان البدوى عموما يحمل بندقيته فى احدى يديه عند الركوب ، أما قبائل الرواشد فانهم يحملون بنادقهم فى أكياسها ، أما قبائل مرة ، فان البندقية تتدلى من الكتف الى الجنب كما تطرز كعوب البنادق بخيوط مزركشة تتدلى منهـــا •

ان البدوى عادة مرافق ظريف ، وهو على الدوام يتمتم ببعض الأغانى ، ولكنه أحيانا يرفع صوته دون اشعار سابق لزملائه الذين يبادرون الى مشاركته الغناء ، وأحيانا يشترك اثنان فى الغناء فى وقت واحد ، وتختلف الأغانى البدوية من قبيلة الى أخرى ، وقد دفعنى الفضول الى تدوين كل أغنية سمعتها وذلك بقدر ما تسمح به النوتة الموسيقية الأوروبية وكثيرا ما كان المرافقون يختبرون قوة بعضهم البعض فيحاول أحدهم ارغام زميله على مصارعته أثناء سير القافلة ويكون مصير الخاسر أن يسقط من على ظهر الجمل من ارتفاع لا يقل عن عشرة أقدام على الأرض •

وكان حمد هو أقوى رجل فى القافلة • وقد قمت بمحاولتين لمصارعته ثم بمحاولة أخرى ولكننى لم أتغلب عليه ، على الرغم من أننى كنت أطول منه • وطريقة نزول البدوى من على الناقة تتم عادة باطلاق عقالها دون ابراكها ، ويحدث نفس الشىء عند امتطائها فتتكور بشكل مثير ثم يمسك بها الراكب من أعلى الركبة حيث يضع أصابع قدميه ثم ينقل نفسه فوق ركبتها وبعد ذلك يثبت على ظهرها ويتخذ وضعه الطبيعى فوقها •

عن طريق تلك الحركات الاكروباتية تمكنت من جمع العينات التى

حصلت عليها عن حيوانات المنطقة ، وكنت بين كل لحظة وأخرى ينادى علىّ أحدهم « نمونة »[١] أيها الصاحب وقد يجرى نحوى أحد هؤلاء البدو ومعه أحد الكائنات الصغيرة التى يريد وضعها فى الزجاجة المخبرية ، وفى أكثر الأحيان كان لابد من رواية قصة عن تلك الحشرة .

وذات يوم جىء الىّ بدودة قبيحة الشكل تعيش داخل أنف الجمل ولا تخرج منه الا اذا عطس وقد علّق أحـــد البدو عليها بقوله : انه لولا تلك الدودة لمـــا سخر الجمل لخدمة الانسان ، ولبقى متوحشا كالذئب أو الظبى يطارده الناس ليصطادوه ويأكلوه .

وذات يوم أحضر أحد البدو عنكبوتا رمليا مثل الذى يقال أنه نسج بيته على باب غار حراء ليحمى النبى صلى الله عليه وســـلم من أعدائه الكفار .

وكان المرافقون مواظبين على الصلاة وعلى الأخص الشيخ صالح الذى كان يسألنى كلما حان الوقت لصلاة العصر : هل حان وقت الصلاة ؟ ، فأرد عليه بعد أن أنظر الى ساعتى وانبهه الى أننا قريبون من بعض المراعى ، لأن مواعيد الصلاة[٢] ، فى الواقع كانت تتحدد على ضوء وجود مناطق الرعى ، وفى المســـاء يتفرق الجمع على مسافات تمتد ميلا أو أكثر حيث يؤدون الصلاة فرادى وجماعات فى أى مكان يعثرون عليه ويكون صالحا لأداء الصلاة ، ولكنهم لم يكونوا يتقيدون بصلاة الجماعة التى يؤدونها داخل المخيمات وعند قيام البدوى بأداء الصلاة فان ناقته تسرح بعيدا عنه ، ولكن بعد عشر دقائق ينادى عليها باسمها ويخاطبها : آه .. آه ..

---

(١) .. « نمونة » كلمة معناها (عينة) ولكن البدوى ينطقهـــا (ليمونة) واحيانا ينطقها (مونة) الأمر الذى يعبر عن تكيف العبارة للهجة الصحراوية .

(٢) .. أن البدو لا يعرفون اى نوع من أنواع التوقيت وطريقتهم فى تحديد الوقت هى الفترات التى تفصـــل بين الصـــلوات عموما وان التوقيت عندهم بالمسافات الزمنية .

فتلتفت هى اليه ، وتنتظره أن يقترب منها ليقودها ، وعندما تنحرف بعض الجمال عن صف القافلة يخاطبها أصحابها بكلمات مثل : أوه — أوه أو را — را ..

أثناء الرحلة كان الصمت يخيم فى بعض الأحيان على أفراد القافلة ثم تسمع فجأة أحد البدو يقطع ذلك الصمت بالعبارة التقليدية « لا اله الا الله » .. ولكن ما ان يَتِمّ ترديد تلك العبارة حتى يرد عليه بقية المرافقين بالمثل ، فاذا قلت لهم يوما بأن الطقس بارد فان الرد الذى لا يتغير عندهم هو أن ذلك من تقدير الله .. وأن تفسير العوامل الطبيعية بغير ذلك الأسلوب يعتبر باطلا ومناف للعقيدة ، فكل شىء عندهم بأمر الله وتقديره . ولم أجد ايمانا أعمق من ذلك الايمان بحتمية الأحداث . فالقتل والغارات والمرض هى كلها من فعل القدرة الإلهية ولكل انسان ساعته المقدرة ، على انه بالرغم من تلك الروح القدرية التى تسيطر عليهم فلهم لحظات مرح ينطلقون فيها ، فكثيرا ما يتذكر أحدهم أنشودة أو مقطعا من قصيدة عن أبو زيد أو دياب بن غانم أو غيرهما من الأبطال الأسطوريين فيقوم بترديدها .

وذات مرة جاءنى الشيخ صالح وكان ينشد احدى الأغنيات عن بنى هلال قالوها فى بعض خصومهم ، وتقول تلك الأغنية :

أن هؤلاء ليسوا أكثر من عصافير

وبو زيد سدرة

أرغمناهم على الفرار ليعودوا الى حظيرته

ان عضة الذئب لها دواء

أما طعنة أبو زيـــد فليس لهـــــا دواء

لقد سال الدم كما يسيل الماء من الدلو

تخرج الدلو من البئر ممتلئة ثم تسكب بسرعة

•• وقد رد عليه أحد زملائه فى القافلة : وتسكب بسرعة •• أى أنه يردد المقطع الأخير من الأنشودة ، ثم التفت الى وقال ان أبو زيد من أهل الجنة • ولكن بدويا آخر صاح يقول :

أو بوزيد •• أو بوزيد

لو خرج سيفك من غمدة فان الجبناء لن يبقوا أحياء

كم من الآبار التى مررت بها ولم تتوقف عندها

وفى الليل بعد غروب شمس النهار

كم من الآبار التى مرت بها الجمال وهى عطشى

فى ضوء النهار عندما تغمض العيــون للنوم

ولكنى اعترفت لهم بأننى أفضل النثر العربى على الشعر ، وعندئذ تقدم أحد البدو وأبدى رغبته ليقص على حكاية عن الحرب التى دارت رحاها بين دياب بن غانم وعلان •

كان علان خادما للزناتى ، وكان بنو هلال يخافونه أكثر من أى عدو

آخر ، لأن كل من بارزه كان يسقط قتيلا ، لذلك طلبوا من أبو زيد بأن يقتل لهم جواد علان • غير أن أبو زيد كان قد قطع عهدا على نفسه بألا يمس علان ، لأنه عندما كان أسيرا عند الزناتي جاء اليه علان وطلب منه أن يتعاهدا بألا يعتدى أي منهما على الآخر • وقد تعهد أبو زيد لعلان بذلك •

وقد جرت العادة عندهم بأن يعين كل طرف واحدا من أبطاله لمبارزة خصمه أمام قصر الزناتي ، وكان علان بطل جماعة الزناتي ، فكان كل من حدثته نفسه بمبارزة علان فان ذلك المنافس يسْقط قتيلا • وهكذا سقط ثلاثة من أبناء دياب بن غانم قتلى بالاضافة الى الرابع عمر بن الخفيات ، محبوب الملايين ، وكان علان يركب جوادا لم يكن له نظير على الاطلاق وعندما كان ذلك الجواد يقترب من خيول بنى هلال فانها تصاب بالهلع ولا يقوى فرسانها على مواجهة ذلك الجواد وكانت طريقة علان فى قهر خصومه هى السلسلة الحديدية التي كان يتقلدها وكان فى طرف السلسلة كلاّب (خطاف) ، وكان يلقى بتلك السلسلة على خصمه فيسحبه من سرجه ثم يقطع رأسه •

واجتمع بنو هلال للتشاور فيما بينهم واستقر رأيهم على أن يكلفوا دياب بن غانم بمبارزة علان ، لأن أبو زيد لم يكن على استعداد للدخـــول فى معركة ضــــده ، وأن دياب هو الشخص الوحيد الذى يستطيع ذلك ، فأرسلوا له رسولا فحضر • فأخذ دياب ثلاثة قمصان وغلاها فى ماء ثم ارتداها بدلا من الدروع • ثم أولج لفافات من القطن فى أذنى جواده حتى لا يسمع مشية جواد علان أثناء المبارزة ، وقد تم ذلك كله أمام قصر الزناتى ويفصله عنه خندق مائى • وكان من عادة علان بعد أن يقطع رأس مبارزه أن يقفز من فوق الخندق الى القصر •

ولمـــا اقترب الخصمان أحدهما من الآخر من الجهتين حتى صهل جواد

علان صهيله المعروف • فما كان من دياب الا أن استدار بمهره وتراجع الى قومه بنى هلال لكى يدفع بخصمه الى ملاحقته بعيدا عن الحصن . وقد لاحقه علان بسرعة فائقة • وعندما اقترب منه بمسافة تمسح له بتوجيه ضربته القاضية ألقى بسلسلته . وعلقت السلسلة بثوب دياب . ولكنها بدلا من أن تسحبه معها ، مزقت فقط قطعة صغيرة من قميصه ، ثم كرر علان المحاولة ولكنها لم تنجح . فكرر الثالثة . ولكن النتيجة كانت واحدة . وعندها ارتبك علان وراح يتقهقر فلاحقه دياب . وعندما وصل جواد علان بالقرب من حافة الخندق صهل صهلته المعروفة ولكن جواد دياب الذى لم يكن يسمع صهيل جواد علان قفز وراؤه على الفور وهكذا وصل الاثنان أمام القلعة وعندئذ التفت علان الذى كان متسربلا بالدروع ولم تكن تظهر منه سوى عينيه الى ناحية خصمه ليحدد مكانه • وفى تلك المحاولة أطلق دياب رمحه على علان فنفذ بين عينيه ثم الى رأسه ثم استقر فى حائط الحصن • وعندما كان علان يلفظ أنفاسه الأخيرة نظر الى دياب وسأله : هل أنت ذئب أو ذئاب ؟ لأن أحد المنجمين كان قد أخبره بأن نهايته سوف تكون على يد شخص اسمه قريب من ذلك الاسم •

فأجابه دياب : أنا دياب •••

فقال علان وهو يلفظ النفس الأخير : أوفى الحساب •

كان الجو ليلتى ١ ، ٢ فبراير جافا باردا . وقد استيقظت قبيل الفجر على صوت المؤذن وكان البدر مكتملا فى السماء وكان المشترى بالقرب منه يبدو قزما ، وكان قبل أسبوعين يتضاءل الهلال أمامه •

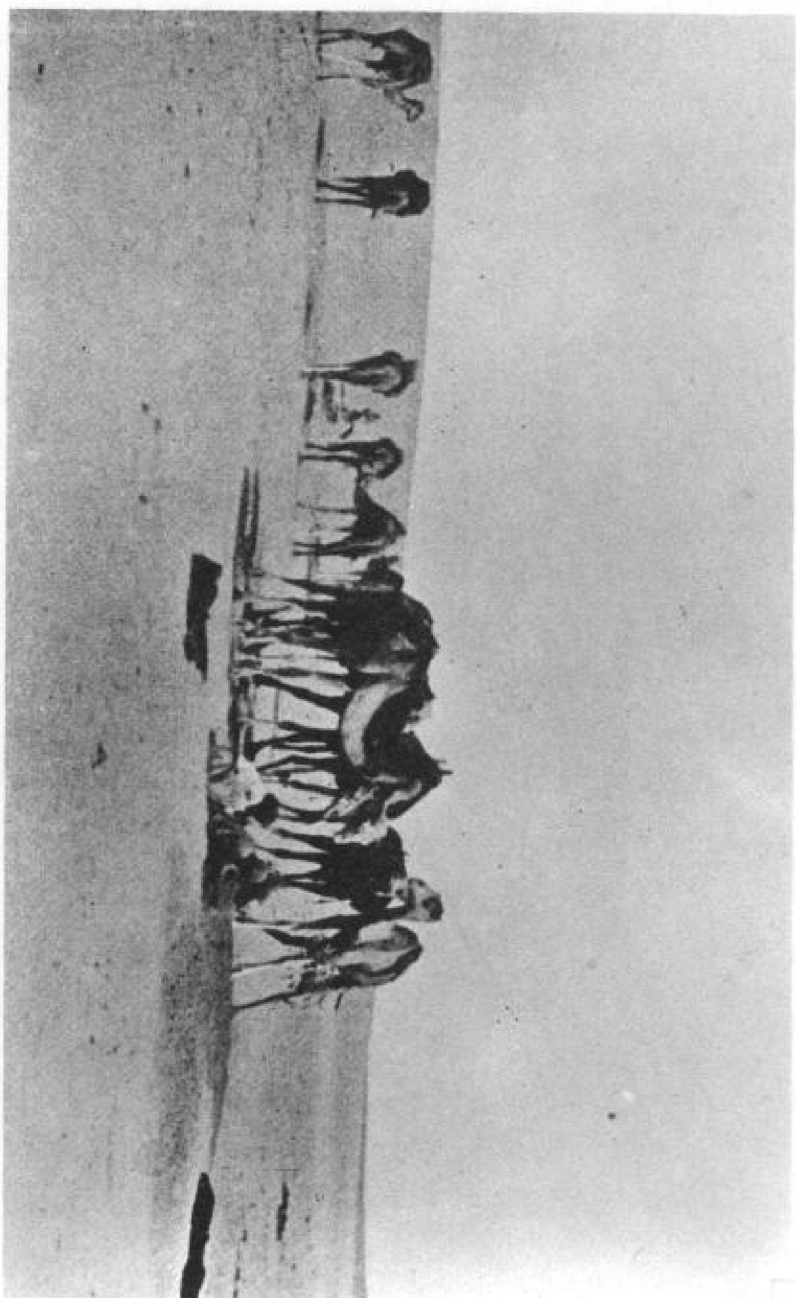
ومن عملية رصد الكواكب السيارة عبر السماء . تعلمت تحديد الوقت • فالبرج فى تلك الليلة كان برج الأسد والمنجل اللذين كانا مثل المشترى قريبين من القمر ، وبعده السنبلة والفرس ثم العقرب الذى يعد من الكواكب الهامة من الشرق لقربه من موقع الزهرة التى عرفت من خلال

مراقبتى لها خلال الليالى السابقة أنها هى الأخرى تقترب منه . وعند منتصف الليل نهضت لأشاهد النجم القطبى . ولكنى اكتشفت أن تركيب المرصد وهو عملية لابد منها بعد كل وقفة أو استراحة ، غدت عملية متعذرة .. أما رصد النجوم (وهو العمل الذى كنت أقوم به طوال الرحلة) فقد تعذر على القيام بها فى تلك الليلة لوجود أحد البدو قريبا من مكانى ، وكان يصلى صـــلاة نافلة .

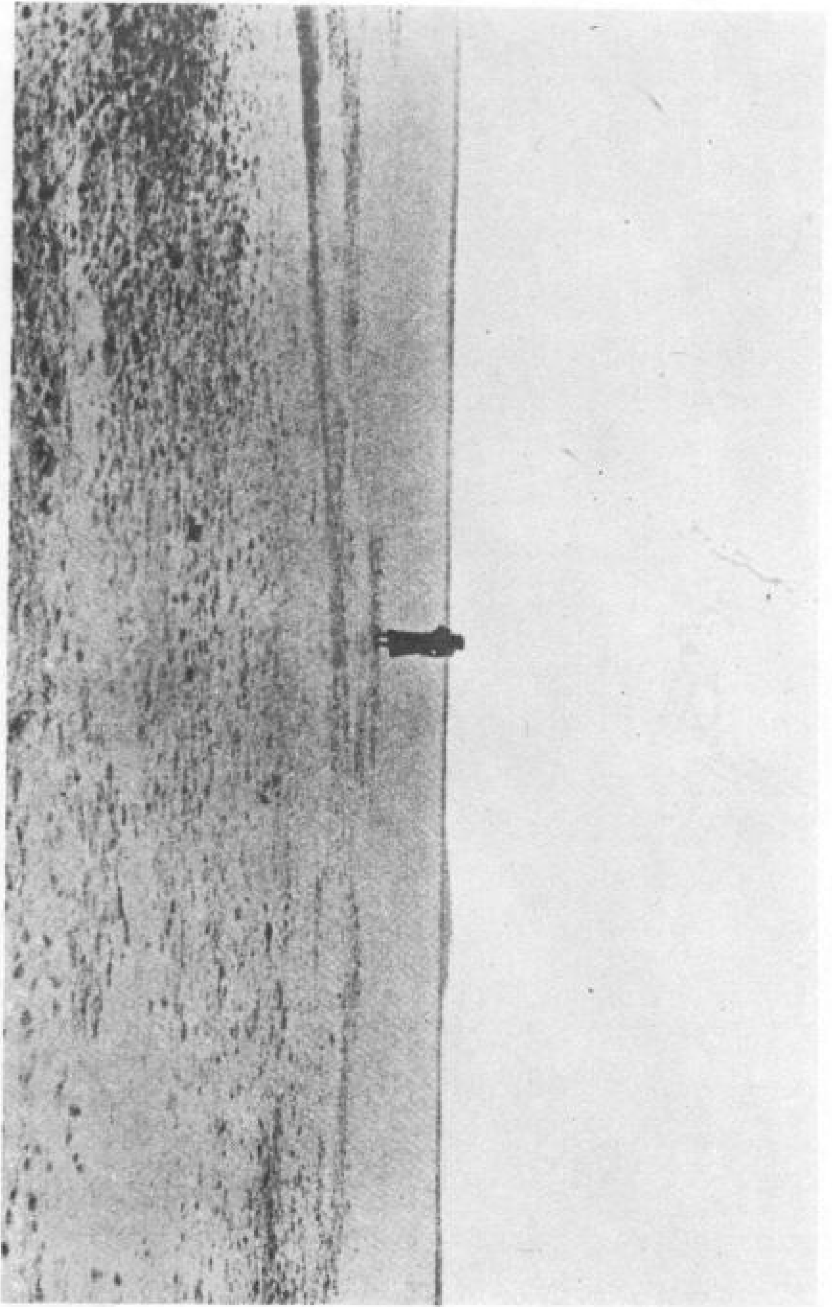
فى الصباح بدا الأفق الشرقى وكأنه يسبح فى بحيرة من الدم . ومن خلال السحب الأرجوانية التى كانت تبدو وكأنها سلاسل صخرية . كانت النجوم خلالها تبهت ثم تختفى عن الأنظار .

بكرنا فى الخروج بعد أن عدنا من نفس طريق الليلة السابقة أى فى اتجاه كثبان السخلة الهائلة فسرنا عبر أخاديد من الرمال ، كانت فى بعض الأحيان تحجب المنطقة وراءنا وقد تسلقت قمة بعض الكثبان وكان معى اثنان من المرافقين هما حمد وطالب ، وعندما بلغنا القمة ألقينا منها نظرة على شاطىء الخليج . كان اليوم مشمسا ومنعشا وكان المنظر فى تلك المنطقة آية فى الجمال والابداع .. صحراء من كثبان منخفضة تمتد غربا حتى مساكن القبائل فى الجفورة وشرقا عبر بعض التلال القاحلة الى البحر . أما الصحراء الواسعة الهائلة للربع الخالى فكانت وراءنا تمتد الى مسيرة أسابيع . أما الى الأمام فقد بقى أمامنا مسيرة أربعة أيام حتى نصل الى المناطق المأهولة . وقد نزلنا . ولقد سجل جهاز قياس الارتفاعات أننا كنا تحت سطح البحر وكان الحال فى اليوم السابق غير مختلف عنه طوال اليوم التالى ، وبعد أن قطعنا بعض التلال الرملية وصلنا الى سبخة المنادير ، وهى احدى مستنقعات الملح ، وتبلغ مساحتها عدة أميال مربعة وتتناثر فوقها أعداد هائلة من المحار الذى لاتزال فى مراحلها الأولى من التحجر .

تركنا المنطقة الساحلية بعد مسيرة يوم واحد على يميننا ، ثم اتجهنا



عين ماء « حالوين »



بحيرة جديدة « سبخة عمرة »

شمالا عبر منطقة صخرية قفراء ، وقد سمعنا عواء ذئب بالقرب من جرف منطقة فهود ، حيث تمكنت من جمع مجموعة أخرى من المحار وهى فى مراحل متقدمة من التحجر • وعند وصولنا الى عين « خفوس » نشب خلاف بين أفراد القافلة على مياه تلك العين وما اذا كانت صالحة لشرب الابل أو غير صالحة ، وكانت الغلبة للرأى المؤيد للشرب منها • وقد انتهزت فرصة الخمسين دقيقة التى توقفناها لاجراء عملية الرصد من فوق قمم الجبال والتى قيل انها تطل على الساحل وهى محاولة جريئة تصورت أنه يمكننى القيام بها ، خصوصا وأن يوم صرف المرتبات قد أصبح وشيكا كما تصورت أننى بعد تلك الأسابيع الطويلة التى أمضيتها مع المرافقين قد أصبحت موضع ثقتهم ، وفى اليوم التالى انحرفت قليلا من شمال المنطقة الى شرقها ، الأمر الذى أدى بنا الى التغلغل داخل تلك المتاهات الحجرية ، ثم بعد مسيرة ستة أيام شاهدت أمامى بحيرة كبيرة فضية اللون ، وعرفت من البدوى الذى كان يرافقنى أننا على وشك أن نمر من الجهة اليمنى على أرض سبخة تسمى « سبخة عمره » ، فتصورت أنها قد تكون احدى مستنقعات الملح ، شأنها شأن المناطق السبخة التى مررنا بها فى الأيام الأخيرة •

غير أن تلك السبخة وكان يبلغ طولها نحو سبعة أميال وعرضها نحو ميل ، قد أثارت دهشتى ، فعندما اقتربنا من طرفها الجنوبى عثرت على محارتين من محار البحر ومن هناك اتجهنا الى سهل صخرى منخفض على الجانب الغربى من السبخة ، وقد بدا الساحل الجنوبى للمنخفض أشبه بسلسلة من المنخفضات الرملية ، وقد وقفت لألتقط صورة لذلك المكان كما تعودت ، وكانت الشمس قبالتى والسماء غائمة •

وقد كانت حدود ذلك المنخفض والذى يبلغ عرضه نحو عشرين قدما تبدو كأنها مسطح من الثلج ، ولما كانت المنطقة بعيدة عنا ، فقد استحال علىّ أن أتبين أين تبدأ المنطقة الملحية وأين تنتهى ، وعلى امتداد نحو ستة أقدام من الضفة رأيت أسرابا من الجراد الأبيض كانت ميتة وجافة ، وربما

كان ذلك الجراد من النوع الأحمــر الذى يأكله العــرب ويعتبرونه من المأكولات الشهية .

ان الجراد يزحف فى أسراب هائلة فى فصل الربيع . حيث تلقى بنفسها عند أول بحيرة ماء تجدها حيث تموت هناك .

وكانت المنطقة توحى بأن مياه البحيرة قد بدأت تجف ، ولكن الدليلين اللذين كانا يصحبانى لم يؤيدا ذلك الرأى . وقد كانا الشخصين الوحيدين اللذين سبق لهما زيارة تلك المنطقة .

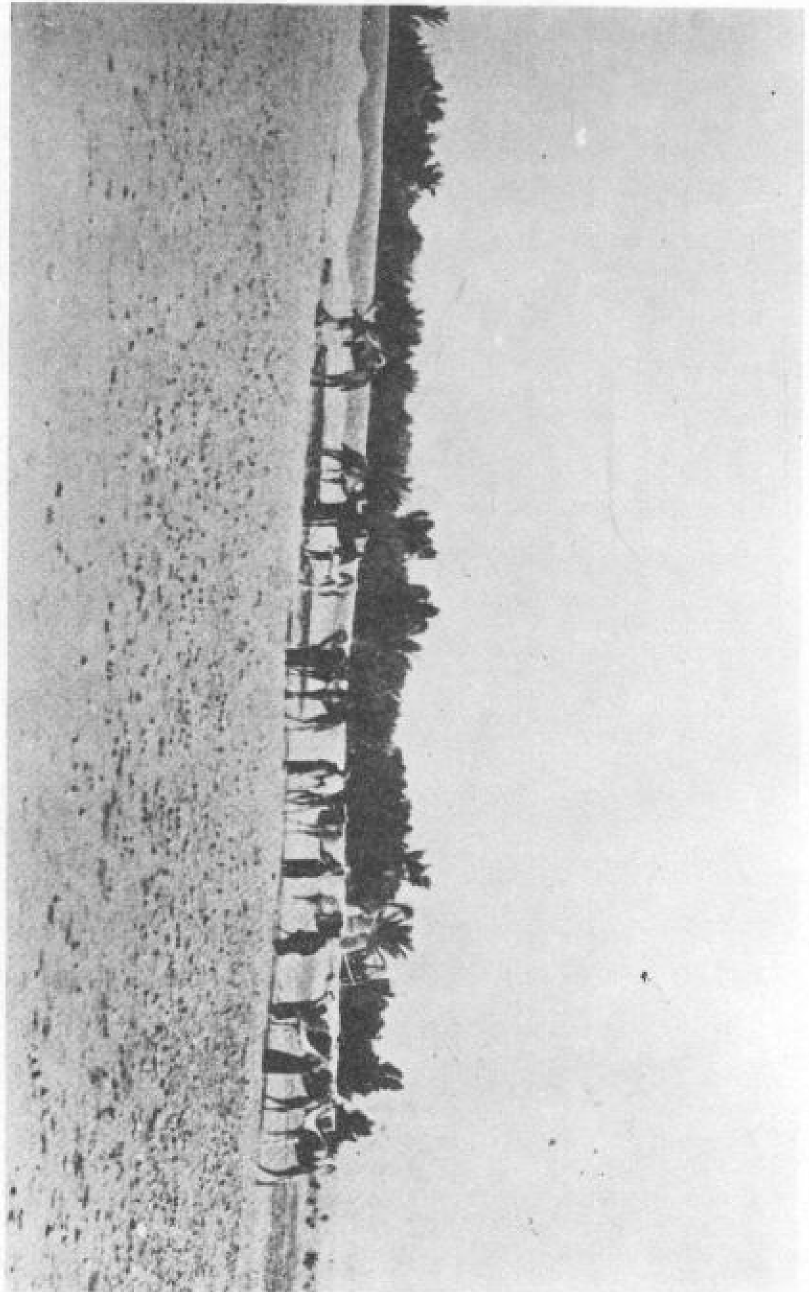
وكانت درجة انحدار السهل طفيفة جدا بحيث أن أقل كمية من المطر ، أو التبخرات التى تحدث فى الصيف ، قد يؤديان الى تغيرات فى مستوى ذلك السهل .

تركنا البحيرة متجهين نحو الشمال الشرقى الى جبل عديد ، الذى كانت توجد خلفه احدى الهضاب . ومنه عبرنا سهلا صخريا الى أحــد مستنقعات الملح الكبيرة ، وقد قيل لى أن ذلك المستنقع يمتد غربا الى ساحل قطر عبر مناطق أسكاك وسلوى . وهى مناطق أثرية . ولوجــود بحيرة الملح ، والأدلة التى كشفت عنها مجموعة المحار التى حصلت عليها بالاضافة الى تسجيلات المرصد ، يمكن القول بأن شبه جزيرة قطر كانت الى وقت بعيد منخفضا داخل البحر [1] . مما أدى الى أن تصبح قطر جزيرة كالبحرين [2] . وان كانت أكبر منها حجما بكثير .

---

(١) .. من الجائز ان يكون موقع ميناء جرهه الميناء الفارسى القديم الذى اشار اليه البطليموس هو داخل المنطقة على مسافة بضعة ايام وليس فى البحرين أو تحت البحر كما ذكر .

(٢) .. ان اسم البحرين يطلق اصلا على كل المنطقة من الدوحة الى القطيف ، اما الجزر التى تسمى اليوم بالبحرين . فقد كانت تعرف قديما باسم « اوال » .



آخر مستقى لنا في « النعليجة »

توقفت القافلة عند السهل لكي يؤدى أفرادها صلاة العصر ، وعند ترجلي اكتشفت بأن عقبة (وهو اسم ناقتى) قد أعجبت بالمنطقة وأبت أن تذهب بمفردها ، بل أخذت تحن تعبيرا عن رغبتها فى أن تصاحبها بنت ريمـــان . رفيقتها فى القافلة ، ولكن ذلك الجهل بأصول معاملة الجمال قد عرضنى لانتقاد شديد من المرافقين ، خصوصا فى تلك اللحظة التى كانوا يؤدون فيها الصلاة ويتضرعون الى الله ، فقد أخطأت فى الاشارة التى كان ينبغى على أن أعطيها للناقة لأنها كانت متعودة على أن تنهض بخبطات خفيفة على فخذها ، ولكنى خبطتها فوق رقبتها وبالتالى فلم تنهض وبقيت فى مكانها ، والجمال من الحيوانات العنيدة التى قد تنفعل اذا أثارها أى تصرف ، غير أنه يستحيل على أحد من البدو أن يترك عصاه بالقرب من ناقته ، لأن مثل ذلك التصرف قد يفسد طباعها ، واذا غضب البدوى من ناقته فان أقصى ما يفعله هو توبيخها ببعض العبـــارات مثل : هاى ليأتك مرض الخراش .. أو .. ليأتك الموت حقا أو باطلا .. أو .. ليحملوك أحمالا ثقيلة .. ولكنه فى الحقيقة لا يعنى شيئا من ذلك التوبيخ .

فالبدوى متعلق بناقته تعلقا شديدا ، حتى وان لم تبادله ذلك الشعور . وعندما تتعثر الناقة أثناء ســيرها يخاطبها صاحبها بالعبارات التالية : الله يسلمك .. الله يكفيكى الشر .. وعندما يقطع صاحب الناقة عدة أميال فى الصحراء بحثا عن ناقة ضالة فانه يردد العبارات التـــالية : الله يبارك فيك .. يا حيا بيش .. يا فلانة[1] . ولقد أدى اكتشافنا لآثار قافلة لقبيلة المناصير مرت من تلك المنطقة الى الاسراع فى السير ، لأن حمد المرى لم يكن يرغب فى لقاء تلك القبيلة ، وبسبب وجود بعض الجمال التى كانت ترعى بالقرب منا ، قررنا أن يسبقنا طالب الذى كان من أحد القبائل غير المعادية للمناصير وذلك لاستطلاع أخبار المنطقة التى كنا متوجهين اليها وأوصيناه أن يخفى أخبارنا عنهم اذا اقتضى الأمر ، بينما سلكت بقية

---

(١) طريقة قبيلة مرة فى الترحيب بالقادم هى « مرحبا وما شاء الله » .. أما المناصير فعبارتهم هى « مرحبا بكم » .

القافلة طريقا آخر حتى تتفادى المناصير •

وأثناء ذلك قال لى سهيل :

اننى أريد منك شيئا واحد أيها الصاحب •

وسألت : ما هـو ؟ •

فرد : أريد تبغا •

ولكننى قلت له : اننا الآن فى شهر رمضان •

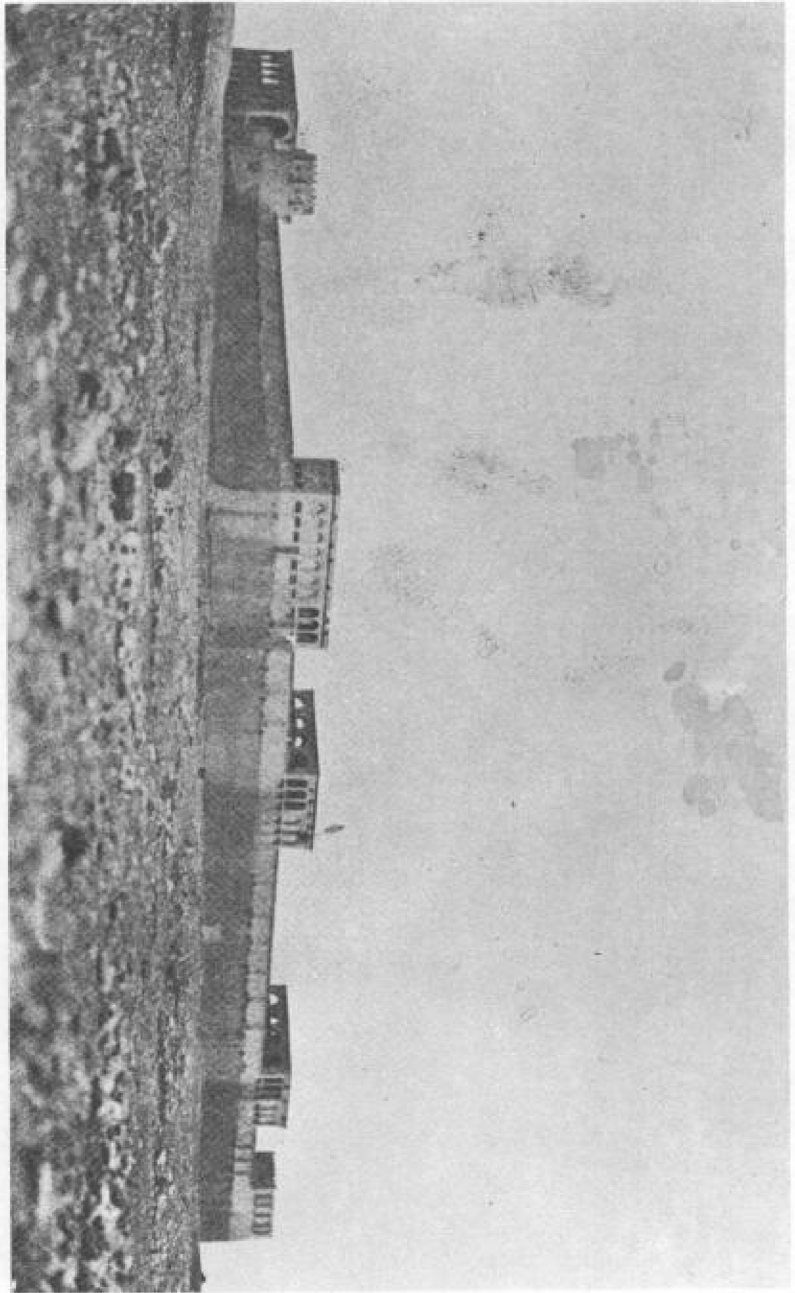
فأجاب : ان التبغ هو الشيء الوحيد الذى لا يمكننى ان استغنى عنه فقد أصوم عن كل شيء الا التبغ • والله إنه حرام ، ولكن ماذا يستطيع الانسان أن يفعل ؟ اننى لا أستعمله الا فى هذا الشـــهر •

ولكن المحافظين سوف يحكمون على سهيل بأنه قد أفطر فى شهر رمضان ومن ثم فلا أهمية اطلاقا لامتناعه عن تناول الأشياء الأخرى ، وكان سهيل الشخص الوحيد الذى يدخن بين المرافقين ، وهو لم يستغل فرصة جواز الافطار فى رمضان أثناء السفر ، وانما كان يصوم ويصوم باخلاص ، ولو حدث أن وبخه بعض المتطرفين ، فسوف يتقبل منهم ذلك التوبيخ • وقد سمعته مرة يقول « الله يرحمنى » وكنا نسير ضمن القافلة •

أما طالب الذى سبق القافلة للوقوف على حقيقة الجمال المجهولة ، فقد عاد الآن ، وقبل أن يصل الى المخيم بنحو مائة ياردة صاح قائلا : هل صليتم •• هل صليتم ؟ •

فأجابوه جميعا : أجل •• صلينا والحمد لله •

وعندما اقترب صرخ قائلا : يا حياكم •• يا حيا بكم •• عندى خبر سار بمشيئة الله •



(قلعة شيخ قطر بالدوحة)

هنا تجمع أفراد القافلة للاستطلاع الى أخبار الصحراء ، وبعد بضع دقائق عاد الشيخ صالح ليمتطي ناقته وكان بجانبي فأيد قوله : خبر سار والحمـــد لله •

أما عن ذلك الخبر السار فهو أن الملك عبد العزيز بن سعود فى الرياض ، وجميع الولاة فى مدنهم ، ولايزالون يحكمون •

وقال ثالث : الحمد لله •

وفى الفجورة الآن حياه ، وهو يقصد أن فيها مراع بسبب هطول الأمطار فى الفترة القريبة الماضية فرد البدو جميعا : الحمد لله ، لأن توفر المراعى فى المنطقة سوف يتيح لهم أن يحصلوا على الاستجمام والراحة ورعى جمالهم لعدة أسابيع استعدادا لمسيرة العودة الطويلة •

والواقع أن الأمطار كانت تهطل فى نفس المكان الذى نخيم فيه ، وقد شاهدت بالقرب منا بومة تقف على أحد الصخور تتلصص بعينيها ، فاقترب أحد البدو منها وأطلق عليها النـــار غير أن الطلقة أخطأتها ، ولكنها عادت لتقف فى مواجهة فوهة بندقية أحد البدو ، ولكنها لم تذهب الا بعد أن أخطأتها الطلقة الثانية •

وقد اكتشف رجال القافلة فيما بعد أثر أقدام بعض الحمير ، وكنا قد مررنا بماء عين رزجة العميقة ، وهو المكان الذى تتزود منه الطبقات الموسرة بالمـــاء فى الدوحة • وبالسير الوئيد على نفس الطريق ، شاهدنا على بعد قطيعا كبيرا من الجمال وهى ترعى العشب الأمر الذى أكد لنا بأن أفضل المراعى توجد فى تلك المنطقة • وللمرة الثانية سبقنا طالب للاستطلاع بينما أخذ بقية أفراد القافلة يتبادلون الحديث ويمنون أنفسهم بقرب حصولهم على وجبة من اللبن ولكن ذلك الأمل تبدد ، وان كان طالب قد عاد الينـــا ببعض التمر الذى حصل عليه من أحد الرعاة الذى كان يرعى أحد القطعان ،

ولكننى تصورت أن إحضار طالب للتمر كان يعنى حرمان الراعى الفقير من الجزء الأكبر من قوته ، لأن التمر الذى أحضره كان كافيا لكل أفراد القافلة فى تلك الليلة ، ولكن تقاليد الصحراء وقوانينها تحتم أن يعطى الانســـان بسخاء مما عنده لضيوفه أو لعابرى الطريق . حتى ولو بقى هو جائعا لا يجد شيئا لاشباع جوعه .

لقد كانت ليلة مظلمة قاسية ، اذ لم نجد حطبا فى المنطقة للوقود . فيما عدا بعض روث الجمال الذى أشعلنا فيه النار ، وقد استمر رذاذ المطر طوال الليل ، فاستيقظت من نومى لأكتشف أن جميع أغطيتى الصوفية مبللة ، ولهذا اضطررت أن أتناول طعام الافطار تحت مكتب المخيم ، ولكنه كان الافطار الأخير لى فى الصحراء ، وبالتالى فمهما ساءت الأمور فى تلك المرحلة فان الانســـان يستطيع أن يتحملها بتفاؤل وسعادة .

كنا على وشك الوصول ، وقد أخذ أفراد القافلة يتقدمون بخطى حثيثة وهم يرددون أغنية عن بعض عيون المـــاء فى الوقت الذى كانت الجمال الظمآنة وكأنها تنصت فى شغف لأخبار رحلتنا .. لقد خلفنا وراءنا آخر التلال الرملية ، وبعد أن قطعنا الأخدود الذى كان أمامنا شاهدنا وسط السهل الحجرى منطقة النعيجة ، حيث قررنا أن نشرب للمرة الأخيرة ، فى صحراء الربع الخالى ؛ ومن هناك شاهدنا قلاع الدوحة وهى تطل على مياه الخليج ، وأخيرا وبعد نصف ساعة تحقق الحلم ودخلنا الى بهو الحصن بعد أن تم لنا اجتياز الربع الخـــالى .

انتهـــى

— ❋ —

فهرســـت

كتاب « البلاد الســعيدة »

الموضـــــــــــوع | الصفحة

فهرس الصــور والرســوم

الصـــــــــورة	الصفحة

رقم الايداع ٤٧٠٨ لسنة ١٩٨١



٦ شارع البراموني ـ عابدين ـ القاهرة ت : ٩١٤٨٨١